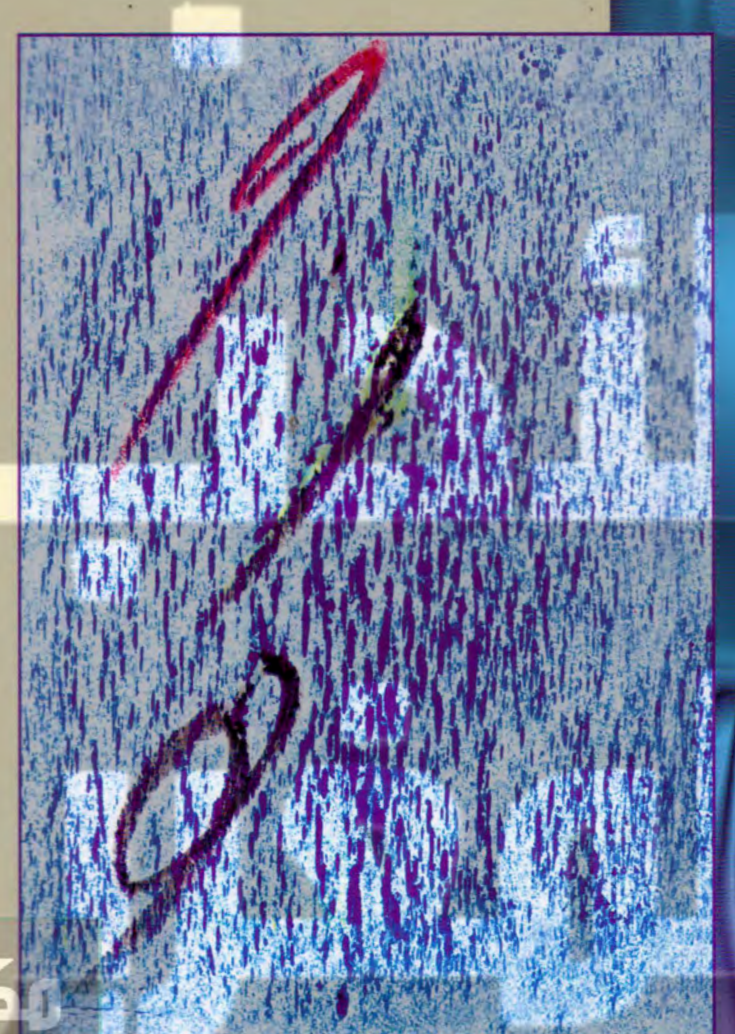
المكتبة الأدبية

د. محمد الداهي

سيميائية الكلام الروائي





شركة النشر و التوزيع المدارس
الدار البيضاء

د. محمد الداهي

سيميائية الكلام الروائي



شركة النشر والتوزيع المدارس
10، زنقة جون بوان ـ الدار البيضاء

طبع هذا الكتاب بدعم من وزارة الثقافة

الكتاب : سيميائية الكلام الروائي

تأليف : د. محمد الداهي

الناشـــر : شركة النشر والتوزيع المدارس

التصفيف الإلكتروني والتوزيع : شركة النشر والتوزيع المدارس

10، زنقة جون بوان ـ الدار البيضاء

الهاتف : 43 / 42 / 022.26.67.41

022.22.15.34 / 022.22.25.22

الفاكس : 022.20.10.03

البريد الإلكتروني : almadariss@almadariss.com

الموقع على الوِب : www.almadariss.com

الطبعة الأولى : 1427/ 2006

رقم الإيداع القانوني : 2519 / 2005

ردمــك : X - 82 - 422 - 9954

لوحة الغلاف : من إنجاز الفنان خليل غريب

من كتاب : Regard sur la Peinture Contemporaine au Maroc (Alain Flamand)

Société d'Edition et de Diffusion Al Madariss

تقديـــم

1- المنطلقات الأساسية :

من نافل القول في هذا الاستهلال التركيز على ضرورة إعادة الاعتبار إلى مفهوم الكلام في المشروع السيميائي ؛ وذلك نظرا لأهميته في تحريك الأحداث، وانطلاق البرامج الحكائية، وتواصل العوامل والفواعل فيما بينها. ولهذا يتمحور الكتاب عليه لتعميق النظر إليه، ثم إعطائه المكانة السيميائية التي يستحقها. وتستمد هذه المكانة نسغها من المنطلقات التالية :

1- إعادة بناء الكلام سيميائيا :

ظلت السيميائية متحفظة من النزعة اللغوية، وهذا ما جعلها تعتبر الخطاب أثرا من الآثار الممكنة للنظام الطاقي الداخلي أو الخزان اللغوي المفترض. لكن نتيجة انفتاح السيميائية على المكتسبات التي راكمها تحليل الخطاب والتداولية والتلفظية، أصبح السيميائيون يولون أهمية للظواهر الخطابية التي تهم بلاغة الخطاب ومساراته الصورية. وفي هذا الإطار، يدخل مشروعنا للتدليل على استقلالية البعد الكلامي داخل النظرية السيميائية، ومعالجته سيميائيا. وهذا ما يقتضي تصنيف وحداته، و بيان تمظهراته المعجمية والدلالية، وإبراز جهاته وبرامجه الحكائية وبنياته العاملية، واستنتاج أنساقه الصغرى والكبرى، ثم الخطاطات التحدثية التي تضبط مساراته معجميا وخطابيا.

فإلى أي حد يتميز الكلام باستقلاليته داخل النظرية السيميائية ؟

وكيف يتفاعل مع المكونات الأ خرى التي يتشكل منها المسار التوليدي العام ؟

وما هي طبيعة جهازه المفاهيمي التي ترسي دعاماته نظريا، وتميزه عن سيميائيتي العمل والهوى ؟

2- الأرضية التلفظية :

استطاعت اللسانيات ـ بعد مخاض عسير ـ أن تتضافر مع السيميائيات لتكونا ـ بأوربا ـ سباقتين لطرح أهم الإشكالات، وعلى رأسها ما يهم «الخطاب» و «التلفظ».

ورغم تباين تصورات الدراسات السيميائية حول المنزلة التي يمكن أن يشغلها التلفظ داخل النظرية السيميائية، فهي تتفق على اعتباره فعلا متحققا يتشخص إبان لحظة التخطيب والاختيارات الدلالية النهائية والحاسمة، وموضوعا سيميائيا قابلا للترويج والمعاينة من طرف عاملي التلفظ (المتلفظ والمتلفظ له). حفزت الممارسة التلفظية السيميائيين على إعادة النظر في المسار التوليدي العام أو تعديله أو الاستغناء عنه بدعوى أنه « نموذج مجرد من أية قيمة إجرائية » [1].

نعي أن هذا النموذج ما هو إلا إطار مفترض أو وسيلة بيداغوجية تبين كيف تتفاعل المستويات المتراتبة فيما بينها لإنتاج أثر المعنى. وهذا ما يقتضي الاستئناس به وليس الانضباط له حرفيا « بوصفه الشبيه الصوري لـ «ذاكرة» المتلفظ السيميائية أثناء عملية التلفظ»[2] ؛ وذلك لتجنب الترميق والتوليف، وضمان التحرك داخل المجال السيميائي بأمان وحذق. وفي هذا الصدد، يمكن أن نعتمد على المقترحات القمينة بتدارك البعد التلفظي داخل المسار التوليدي، وخاصة على الترسيمات التي تشخصه بالعيان في المرحلة النهائية من التخطيب. [3]

ومن بين ما ترتب عن الإفادة من التراكمات التلفظية هو انتقال السيميائية من التصور الما قبل خطابي إلى التصور الخطابي. وهذا ما جعل التلفظ لا يتقيد فقط بالتوليد والسيرورة وإنما أيضا بالتجلي والاكتمال، ويصبح، بالتالي، حقيقة قابلة للمعاينة خطابيا (آثار التلفظ، عاملا التلفظ، التطويع التلفظي، الميثاق التلفظي..).

لقد تعاملنا مع التلفظ بوصفه **فعلا سيميائيا** يكشف عن هوية المضطلع به، وباعتباره **أثرا تلفظيا** يكشف عن ذاتية المتلفظ، وإن كان غير مصرح به داخل النص.

3- الجدة :

يعي السيميائيون أن الحفاظ على إشعاع مدرسة باريس رهين بتجديد آلياتها، وإعطاء مفاهيمها الكلاسكية منازل جديدة. وهذا ما حتم عليهم التعامل معها بوصفها نظرية «للمجموعات الدالة»، وعدم الامتثال لمستويات المسار التوليدي حرفيا، والانفتاح على مدارس أخرى للإفادة من منجزاتها وإسهاماتها. « إذا حصرنا اهتماماتنا في مدرسة واحدة، وهي «مدرسة باريس» ؛ فهذا لا يمنعنا من مد الجسور مع اتجاهات أخرى للبحث معروفة بمكانتها العلمية. وذلك على نحو نظرية الأفعال اللغوية، والتداولية، والحجاج، والمنطق الطبيعي، والدلالة المعجمية. وهذا بمثابة اعتراف ضمني بأن منظورنا السيميائي يتوافق مع مقاربات خطابية أخرى، وأن علاقتهما المتبادلة لا تقوم على المنافسة والهيمنة، وإنما على التكامل» [4].

تؤشر هذه القولة لجوزيف كورتيس على حصول تطور في وعي السيميائيين قياسا إلى مشاركتهم في المناظرة التي احتضنتها جامعة بربنيان سنة 1983 (السيميائية والتداولية) [5]. وبمقتضاه أصبح السيميائيون مقتنعين بأن النظرية السيميائية ليست معطى علميا جامعا مانعا، وأنها آيلة إلى الفتور ومرتدة إلى الاندحار إذا لم تتدارك نقائصها، وتقوِّم اختلالاتها، وتستفيد من المستحدثات المعرفية، وتطور آليات التحليل المعتمد عليها. وبالمقابل، استفادت اتجاهات أخرى من منجزاتها وتراكماتها العلمية (**سوسيولوجية النص** لبيير زيما، و**السيميائية التطورية** لفلاديمير كرزنسكي، و**نظرية القراءة** لبرتراند جرفي..).

وفي تساوق مع هذا الاتجاه العام يندرج كتابنا الذي يسعى إلى إضفاء طابع الدينامية على السيميائية، وبيان مدى قدرتها على التجدد، ومواكبة المستحدثات المعرفية والمنهجية. ولهذا دخلنا في مغامرة لإرساء دعامات مشروع **سيميائية الكلام**، واحتفار مداميكه، وإبراز خصوصيته وجهازه المفاهيمي، وبيان طبيعة العلاقة التي تربطه **بسيميائيتي العمل و الهوى**. وقد استأنسنا واهتدينا ببعض الدراسات السيميائية التي تنكب على مجموعة دالة (على نحو التشاكل، والهوى، والصورية، والتناص..)، وتتوسع في تحليلها مستفيدة من مقاربات أخرى.

نعرف مسبقا أن أي مشروع ـ من هذا القبيل ـ يحتاج إلى مجهودات جماعية، وتحقق التراكمات الكافية، والاستفادة من ردود فعل الباحثين وانتقاداتهم ونصائحهم. وفي هذا السياق بعثت تقريرا عن المشروع لجاك فونتاني، وطلبت منه إبداء ملاحظاته، فتوصلت منه بجواب بتاريخ 17 - 4 - 2001، وأقتطف منه ما يلي : « تبدو لي مقاربتك للسيميائية ملائمة جدا. إن مكانة التحدث غير واضحة داخل النظرية السيميائية للتلفظ. ومع ذلك فهي لم تهمل المظاهر التداولية ». ثم أرشدني إلى بعض المصادر للاعتماد عليها في إرساء دعامات مشروع سيميائية الكلام. ومازال هذا المشروع في مسيس الحاجة إلى ملاحظات الباحثين النيرة لتبيان مواطن قصوره، والحفز على تعميق نتائجه حتى تكتمل حلقات مدرسة باريس (العمل، والهوى، والكلام).

2- حيثيتا المتن :

اعتمدنا على متن مكون من أربع روايات صدرت خلال النصف الأول من عقد التسعينات. وتعاملنا مع رواية **ذات** بوصفها متنا رئيسا، ثم امتحنا إجرائية المفاهيم المشغلة على الروايات الأخرى (**الضوء الهارب** لمحمد برادة، **برج السعود** لمبارك ربيع،

* نعتنا هذه الروايات بالحافَّة لكونها تَحفُّ المتنَ الرئيسَ (**ذات** لصنع الله إبراهيم).

شطح المدينة لجمال الغيطاني) ؛ وذلك لبيان ما تتسم به بنياتها التحدثية من خصوصيات وسِمات مشتركة، وما تفرزه من نتائج قابلة للتعميم على خطابات أخرى. وقد تحكمت الحيثيتان التاليتان في اختيار المتن :

1- إن تكونه من روايات صدرت في الفترة التاريخية نفسها (مطلع التسعينات)، وتوزعه عبر مشرق العالم العربي ومغربه، بإمكانهما أن يسعفا على استنتاج ثوابت الكلام المُسَمْيإ ومتغيراته من حيث تمظهراته المعجمية والدلالية، وجهاته، وبرامجه الحكائية، وخطاطته التحدثية، وبنياته العاملية.

2- إن الأمر تطلب منا الاستعانة بالمعاجم لضبط التمظهرات المعجمية والدلالية للوحدات الكلامية الكبرى المهيمنة في المتن الروائي، والاستئناس بأنواع خطابية أخرى (القرآن الكريم، الحديث النبوي، الشعر، المقامة، الصحيفة) لاستنتاج الأنساق الصغرى والكبرى والخطاطة التحدثية. وفي عملية التخطيب نتأكد ما إذا انضبط الكاتب للخطاطة الأصلية أو أنه أضاف إليها عناصر جديدة.

وإذا كان همنا منكبا أساسا على الكلام العربي بما يحفل به من خصوصيات وإيحاءات ثقافية وأكسيولوجية، فإن المنهجية المتبعة قابلة للتشغيل والتعميم على كلام آخر. وهكذا يتضح أن مشروعنا ذو طبيعة منهجية لوصف الكلام وإعادة سميأته، ثم إثارة قضايا معرفية تهم موضعة الكلام ضمن سيميائيتي **العمل** و **الهوى**.

3- راهنية المشروع السيميائي :

إذا كان ألجيرداس جوليان كريماص (Algirdas Julien Greimas) يعتبر السيميائية مشروع بحث، فهو لم يكن مطمئنا على استمرارها. وإثر انعقاد مناظرة سيميائية الفضاء سنة 1973، أبدى تخوفه من انحسار التقليعة السيميائية بعد ثلاث سنوات على الأكثر. لكن وقع عكس ما توقعه، إذ اتسعت دائرة الإشعاع السيميائي في مختلف بقاع العالم[6]، واستطاعت أن تتكيف مع المستحدثات المعرفية والمنهجية. وإذا قومنا التاريخ السيميائي منذ النشأة إلى الآن، نلاحظ أنه يتدرج عبر سيرورتين (عمودية وأفقية) :

1- سيرورة عمودية : تنشطر إلى مرحلتين : سيميائية العمل، ثم سيمائية الأهواء. ويندرج بحثنا في إطار إضافة حلقة موصولة إلى التاريخ السيميائي، وهي المتعلقة بسيميائية الكلام (التدليل على استقلالية المكون الكلامي (التلفظي) داخل النظرية السيميائية).

2- سيرورة أفقية : وهي تتسم عموما بما يلي :

أ- إضفاء الطابع البيداغوجي على النظرية السيميائية لتقريبها من جمهور أوسع (أعمال جوزيف كورتيس وجماعة أنتروفرن Entrevernes).

ب- التقيد بالنظرية السيميائية (وخاصة بالمسار التوليدي العام)، وتبيان مدى ملاءمتها وقدرتها على مقاربة مختلف الأنساق الدلالية (سواء أكانت دينية أم سياسية أم أدبية أم بصرية).

ج- ظهور اختصاصات جديدة في حضن النظرية السيميائية : السيميائية الذاتية (ج. ك. كوكي J.C.Coquet) والسيميائية التطورية (فلاديمير كرزنسكي V.Krysinski) والسيميائية المعرفية (بيير أولي P.Oullet) و السيميائية الاجتماعية (كلود كلام C.Calame، وإريك لندوفسكي E. Landowski) والسيميائية المستوائية planaire (جاك جنيناصكا J. Geninasca) و سيميائية الفضاء (دونيس برتراند D. Bertand). ومازالت مشروعات تنتظر الشروط الملائمة لتخرج إلى حيز التنفيذ ؛ وذلك على نحو سيميائية الصورية، وسيميائية التطويع، وسيميائية الجزاء ..الخ.

د- انفتاح السيميائية على مقاربات أخرى لتدارك النقائص و معالجة النص بمنظورات جديدة. وفي هذا الصدد نشير إلى مثالين من الغرب، ثم مثال ثالث من العالم العربي. كرس بيير زيما (P. Zima) جهده للمواءمة بين النظرية السيميائية وبين علم اجتماع الأدب (سوسيولوجية النص الأدبي)، و أشرع برتراند جرفي (B. Gervais) السيميائية على نظرية التلقي. وبعد أن جرب محمد مفتاح المقاربة السيميائية (**في سيمياء الشعر القديم 1982**)، اضطلع في مؤلفاته اللاحقة بمد الجسور بينها وبين مقاربات معرفية ومنهجية أخرى لمقاربة النص في شموليته، والتدليل على وجود آليات كونية وبنيات ذهنية مشتركة.

وهكذا يتضح أن السيميائية مفرد بصيغة الجمع، وأنها ما فتئت تتطور تبعا لتجدد الأسئلة، وتباين الفرضيات المنطلق منها. «ولا أحد يدعي أنه يملك القطعة الأخيرة لـ المربكة الشاسعة» (Immense puzzle). إنها الصورة التي أثارها كريماص سنة 1976 : أعتقد أنا، والمتعاونين معي، بأننا نملك قطعا عديدة قادرة على بناء هذه المربكة الشاسعة التي يمكن أن تكون هي النحو الخطابي. ما يتعدى ذلك هو من باب التضليل»[7].

الهوامش :

1- Geninasca (J), « Et maintenant ? » , in Lire Greimas , sous la direction d'Eric Landowski, PULIM, 1997, p52.

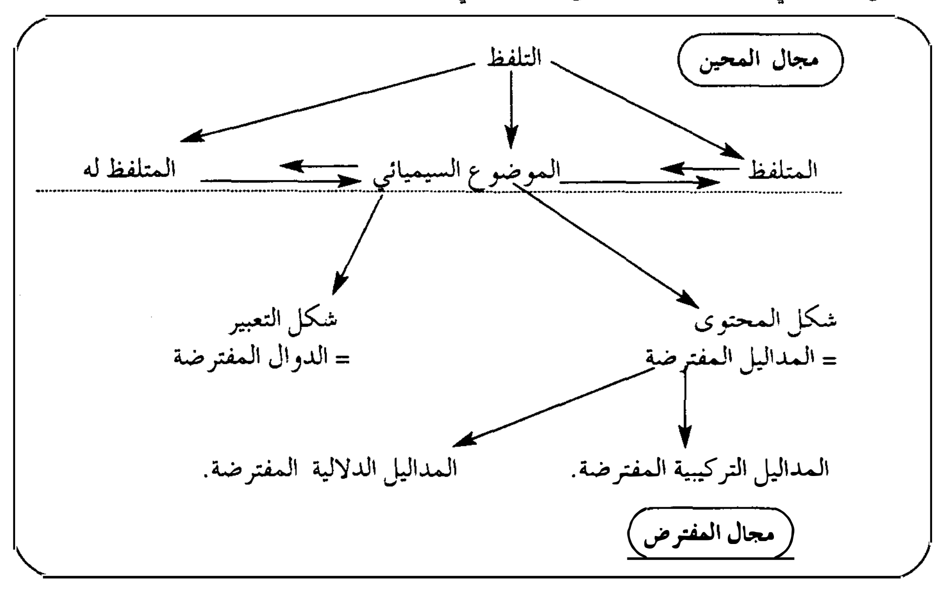
من بين الذين أعادوا النظر كذلك في المسار التوليدي نذكر :

Fontanille (J) , Sémiotique et littérature, PUF, 1999, p 5

Courtés (J) , «L'énonciation comme acte sémiotique » , in Nouveaux actes sémiotiques , PULIM, 1998 , p15.

2- Fontanille (J) , Sémiotique et littérature,op.cit , p 4.

3- يتدخل التلفظ في مرحلة التخطيب على النحو التالي :



(جدول رقم 1 تحيين الفعل التلفظي)

انظر في هذا الصدد إلى : جوزيف كورتيس، « التلفظ بوصفه فعلا سيميائيا»، م.سا، ص 15.

4- Coutrtés (J), Analyse sémiotique du discours De l'énoncé à l'énonciation, Hachette, 1991, p 3.

5- من خلال مداخلات بعض السيميائيين يتبين أنهم كانوا يبحثون عن اتخاذ موقف من التداولية، وإبراز ما يميزهم عنها، والتدليل على ملاءمة النظرية السيميائية.
أنظر في هذا الصدد إلى :
أ.ج كريماص، وإ.لندوفسكي، التداولية والسيميائية، أعمال سيميائية، العدد 50، 1983، ترجمة محمد الداهي، علامات في النقد، العدد 33، 1999، ص/ص 299-318.

6- Voir, J.C.Coquet, «L'école de Paris» in Sémiotique L'école de Paris, Classiques Hachette,1982, p 5.

7- Geninasca (J), «Et maintenant ?», in Lire Greimas , op.cit, p 56.

الفصل الأول :

حدود السيميائيات الثلاث

تمهيد :

ارتأينا ـ قبل عرض مشروع سيمائية الكلام ـ أن نقدم نظرة مجملة عن سيميائية العمل (حالة الأشياء) وسيمائية الهوى (الحالة النفسية). ورغم ما تتميز به كل سيميائية على حدة من خصوصيات، فهي تتضافر فيما بينها لتفسير الشروط التي تسعف على فهم الدلالة وإنتاجها، وبيان تجلياتها في مختلف المستويات الخطابية.

1- سيمائية العمل:

1- تمييز الفعل من العمل :

تستخدم السيميائية مفهومين متقاربين لوصف التفاعلات والتحولات التي تقع على وجه الخصوص في المستوى السيميا ـ حكائي، وهما العمل acte والفعل faire. وهذا ما يقتضي الفصل بينهما رغم تداخلهما وتكاملهما وقيامهما تقريبا بالوظيفة نفسها. «يلائم الفعل الإنجاز جزئيا، ويفترض كفاية جهية بوصفها كمونا للفعل. لذا يتحدد العمل كانتقال من الكفاية إلى الإنجاز،ويُفسر هذا الانتقال على المستوى التركيبي باعتباره جهة الفعل»[1]. فمن خلال هذا التعريف يتبين أن العمل أكثر شمولا وتجريدا من الفعل، ويقوم على تشخيص مظاهر الانتقال من الكمون إلى الوجود ومن الافتراض إلى التحقق. ويمكن للتشخيص المقنن للعمل أن يصاغ كبنية جهية من هذا النوع :

و[ذ 1 ⇐ م 1 (ذ 2 ∪ م 2)].

ومن نوع آخر:

و[ذ 1 ⇐ م 1 (ذ 2 ∩ م 2)].

يقتضي العمل وجود ذات تضطلع بمهمة الفعل لضمان التحول من حالة إلى أخرى، والانتقال من الكفاية إلى الإنجاز. ويعد الفعل جهة أساسية للوصول إلى الموضوع المبحوث عنه. وإذا لم تكن الذات مؤهلة بالشكل الكافي فإن آمالها ومطامحها يعتريها الفتوروالنكوص. وتحتاج، في البداية، إلى اكتساب قيم جهية (الإنجاز الأولي) على نحو المعرفة والإمكان. «فوحده اكتساب القيمة الجهية للإمكان، يجعل الذات الفاعلة قادرة على الاضطلاع بالإنجاز الذي يمنحها القيمة الموضوعية. وما يترتب على اكتساب القيمة الجهية للمعرفة هو امتلاك جهة إمكان ـ الفعل (وساطة هامة لتحيين الفعل)»[2].

2- دينامية العمل :

تستمد سيميائية العمل نسغها من دينامية البرامج الحكائية وحالات الاتصال والانفصال. فبمجرد أن تتشكل الذات، تتحرك بحثا عن الموضوع . ولايتأتى لها

متلاكه إلا بعد أن تتوفر على المؤهلات الضرورية التي تدعم وتقوي حظوظها في إنجاز المهمة الملقاة على عاتقها.

أ ـ إنجاز الذات :

إن العنصر الأساسي في الخطاطة الحكائية هو الجزء الذي يقابل التجربة الأساسية في النموذج البروبي، ويتحدد بوصفه برنامجا حكائيا متمحورا حول المهمة التي كلفت الذات بإنجازها. وتتدخل بعض القيود لتمييزه وتخصيصه عن باقي التجليات الممكنة للبرنامج الحكائي. ومن بين هذه القيود، التحام ذات الفعل وذات الحالة في عالم حكائي واحد (وفي حالة انفصالهما، فإنه ينبغي التمييز ـ كما هو الشأن في الهبة ـ بين المرسل والمرسل إليه)، والبحث عن الموضوع القيمي بواسطة قيم وصفية متميزةً بإبعادها للقيم الجهية و منشطرةً إلى قيم تداولية (تتعلق بالعوالم القيمية الممكنة) وقيم معرفية (لاتستهدف الموضوع، بل تكوين معرفة عنه) ومحددةً لبعدي المسار الحكائي (البعد التداولي، والبعد المعرفي) ولطبيعة الفعل الممارس (الفعل التداولي أو الفعل المعرفي)، والإفضاء بالبرنامج الحكائي إلى مرحلة الإنجاز، وحينئذ يكون الفعل المضطلع به هو النتيجة المتضمنة في ملفوظ الحالة (انفصال أو اتصال : ∪ أو ∩).

ب ـ أهلية الذات :

لاتستطيع الذات تحقيق إنجاز ما إلا إذا كانت متوفرة على المؤهلات الضروية، وهذا ما يجعل الأهلية شرطا ضروريا للفعل بوصفه «ما يوجد»، ومايجعل الفعل في الإنجاز ـ بالرغم من القيود السابقة ـ يتحدد باعتباره «فعل كينونة». ينبغي للذات المؤهلة أن تتوفر على برنامج حكائي وتعمل على تحقيقه، وتتحلى بمجموعة من الجهات (الرغبة، والواجب، والإمكان، والمعرفة)، وتكون في اتصال مع موضوع محمل بجماع من القيم الجهية (وليس الوصفية).

ج ـ المفهوم الدينامي للبنى العاملية :

يقتضي المفهوم الدينامي للعامل اعتباره مجموعة منظمة من الأدوار التي اضطلع بها على طول الخطاب، والتمييز بين دوره (الفائض الذي يضاف، في مرحلة معينة من المسار الحكائي، إلى ما يشكل العامل على إثر التطور المركبي للخطاب) ومنزلته (ما يحدد العامل مع مراعاة مجموع مساره السابق، سواء أكان متجليا أم مفترضا).

د ـ أنماط الوجود السيميائي :

عمد كريماص، في توضيح وتبسيط إشكالية الأدوار العاملية، إلى تقديم أمثلة من المسار الحكائي الذي تتكون فيه الأهلية، أي ما يهم في العمق الذات السيميائية باعتبارها ذاتا فاعلة تضطلع بثلاثة أنماط من الوجود السيميائي (ذات مفترضة ⇐ ذات مُحينة ⇐ ذات محققة). وهذا لايعني فقط بأننا أمام ثلاثة أنماط للوجود السيميائي للمسار العام للذات ومحددة له، بل أيضا أمام تطورات جديدة متمحورة حول الإنجاز، فإما تؤدي إلى تمديد الخطاطة الحكائية في حالة التخلي عن الموضوع، وإما تشرع الأبواب أمام مسارات حكائية أخرى في حالة الحرمان منه[3].

3- الخطاطة الحكائية:

سبق لبروب أن شخص البنية الحكائية في ثلاث محن أو تجارب إنجازية : التجربة المؤهلة (اكتساب الذات لجهات معينة)، والتجربة الأساسية (إضطلاع الذات بالمهمة)، والتجربة الممجدة (المجازاة). لكن كريماص أعاد النظر فيها مقترحا نموذجا مقننا أو تنظيما منطقيا مكونا من أربع مراحل : التطويع ⇐ والأهلية ⇐ والإنجاز ⇐ والجزاء. «إن الحكي بوصفه وحدة خطابية، يعتبر خوارزما أي تتابعا من الملفوظات التي تضطلع داخلها الوظائف/ المحمولات بتشخيص لساني لجماع من السلوكات الموجهة نحو غاية»[4].فكل مرحلة من تلك المراحل لها موقعها الخاص داخل الخطاطة الحكائية، وهي مرتبة بطريقة منطقية بحيث أن كل واحدة تستدعي أخرى، ولايمكن الانتقال من مرحلة إلى أخرى إلا بعد نهوض الذات بالاستحقاقات الضرورية التي تؤهلها لإدراك الهدف المنشود.

أ- التطويع : يعد مرحلة أولية سابقة عن الفعل ومحددة له من باب الافتراض والتقدير، وهو عملية أساسية لتحريك الأحداث وتعبئة البرامج الحكائية. وينبني على علاقة تراتبية تقضي بتكليف المرسل (المطِوِّع) المرسل إليه (المطوَّع) بامتلاك الموضوع المبحوث عنه.

ب- الأهلية :

إن بحث الذات عن الموضوع يتطلب توفرها على جهات وإمكانات قادرة على جعل الفعل أمرا ممكنا. «يبدو من البديهي أن الذات لا يمكن أن تضطلع بإنجاز معين إلا إذا توفرت مسبقا على الأهلية الضرورية. فالافتراض المنطقي يشكل - قبل كل أي اعتبار آخر - أساس مكون المسار الحكائي الذي يسبق الإنجاز»[5]. وهكذا تبدو الأهلية شرطا ضروريا لتحقيق إنجاز ما، والانتقال من حالة الافتراض إلى حالة التحيين. وتتميز الأهلية عن الإنجاز بكونها تدرج ضمن «الوجود» وليس ضمن «الفعل». وإن

كان الإنجاز يتحدد من خلال موضوع قيمي، فإن الأهلية ـ بدورها ـ تفترض موضوعا جهيا objet modal «يتشكل من مجموعة من التحديدات السابقة عن الفعل أي الخصائص التي ينبغي للفعل أن يتوفر عليها قبل أن يصبح حقيقيا، وعندما تصبح الذات مؤهلة متصلة بالموضوع ، فإنها ستبدو مالكة لفعل تحييني وذاتاً سيميائية بالقوة»[6]. بالجملة، «إذا كان العمل هو فعل الكينونة، فإن الأهلية هي ما يُوجِدُ أي كل المسبقات والمفترضات التي تجعل العمل ممكنا»[7]. تقتضي الأهلية من الذات التوفر على المؤهلات الضرورية الملائمة لتحقيق إنجاز ما، أو بعبارة أخرى فإن طبيعة الإنجاز المرتقب هي التي تحفز الذات على اكتساب مؤهلات معينة.

ج ـ الإنجاز :

إن علاقة التناقض الموجودة على مستوى النحو السطحي تتلاءم مع تحول قيم المحتوى الناتجة عن وقوع عمليات الإثبات والنفي داخل النحو الأساسي. وهكذا و«من باب الاحتمال، يعد الإنجاز الوحدة الأكثر تميزا في التركيب الحكائي. وبما أنها محددة بهذا الشكل، فهي تعتبر وحدة تركيبية أي خطاطة شكلية قابلة لاستيعاب محتويات في غاية التنوع»[8]. يستقطب الإنجاز محتويات مختلفة متغورة في البنية العميقة (الإثبات، والنفي، والاتصال، والانفصال)، ويجعل طرفا متمكنا من المحتويات الإيجابية وطرفا آخر مجردا ومحروما منها، ويحدد طبيعة العلاقات بين مختلف العوامل، ويحتم تصارع الذاتين المتنافستين (الذات والذات المضادة) واحتكامهما إلى المواجهة التي ستحدد منه المؤهل لنيل الموضوع والجدير به. وبذلك تحدد السلسلة المركبية للإنجاز من الملفوظات المتعاقبة على النحو التالي :

* م ح 1 = و : المواجهة (ذ1 $\leftrightarrow$ ذ2).

* م ح 2 = و : الهيمنة (ذ1 $\leftarrow$ ذ2).

* م ح 3 = و : الامتلاك (ذ1 $\rightarrow$ م).

إن الملفوظ الأول الذي يعبر إنسانيا عن علاقة التناقض بين طرفين، هو ـ في الحقيقة ـ تركيب بين ملفوظين جهيين خاصين بكل طرف على حدة. ويقترن الملفوظ الثاني بانطلاق عملية النفي الموجَّهة التي تقتضي من طرف نفي الطرف الآخر، وتكمن في تحويل المفترض إلى المحين، وتستتبع الرغبةَ في الهيمنة والسيطرة. ويتطابق الملفوظ الثالث مع محفل الإثبات الذي يتجلى إنسانيا بامتلاك الموضوع القيمي[9].

ويتطلب الإنجاز من الذات اكتساب جهة معرفة الفعل للاضطلاع بالخدعة

أوالحيلة، والتوفر على جهة إمكان الفعل لاستثمارالقوة الجسمانية أو السحرية. وإذا كانت الذات متوفرة على المؤهلات الضرورية أكثر من غيرها ، فإنه بإمكانها أن تدرك ما تصبو إليه.

د ـ الجزاء :

يرتبط الجزاء بالتطويع منطقيا وجدليا. ويمكننا القول في هذا الصدد «إنه يوجد في البداية محفل إيديولوجي يخبر عن العمل، وفي النهاية محفل جديد يفسره ويبين مدى مطابقته للكون القيمي الذي يتحكم فيه»(10). تؤطر التطويع بنية تعاقدية متمحورة حول طبيعة العمل المراد إنجازه، ويدخل الجزاء في إطار تقويم ما أنجزته الذات من أعمال بالاحتكام أساسا إلى ما تم الاتفاق عليه. ويتحكم في الجزاء البعد التداولي والبعد المعرفي. فالجزاء التداولي هو حكم معرفي يتوخى من خلاله المرسل التأكد من مدى مطابقة السلوكات، وتحديدا البرامج المضطلع بها، للكون القيمي (العدالة، واللباقة، والجمالية) المضمر أو المعلن عنه في الميثاق الأولي. ويعني بالنسبة للذات مجازاتها على ما قامت به من أعمال. وفي هذا المضمار، يمكن أن يكون الجزاء إيجابيا (التعويض) أو سلبيا (العقاب). أما الجزاء المعرفي فهو حكم معرفي يمارسه المرسل على كينونة الذات، وبصفة عامة على ملفوظات الحالة المحددة بواسطة جهات تحققية véridictoires أو معرفية épistémiques. ويتحدد من منظور الذات إيجابا بالاعتراف بمؤهلاته وطاقاته، وسلبا باتهامه بالخيانة(11).

2- سيميائية الأهواء :

لما نعود إلى الأدبيات السيميائية نجد أن الاهتمام بالأهواء يضرب بجذوره في مرحلة مبكرة، بحيث سبق لكريماص أن عالج هوى **الغضب** بطريقة مُرَكبيّة بعيدا عن التحليل الصنافي الذي يضطلع به الفلاسفة، واستخلص منه مسارا مكونا من ثلاث مراحل: الحرمان والسخط والعدوانية (برنامج حكائي)(12). لكنه لم يخضع للتقعيد وإعادة البناء إلا في العقود الأخيرة، إذ خاض فيه بعض السيميائيين بروح علمية، وخصصوا له كتبا مستفيضة. سأحاولُ، فيما سيأتي، أن أركز على الكتب السيميائية التي أفاضت في الأهواء مستنتجا من كل واحد منها أهم الضوابط التي تحكمت فيه. وسأرجىء مناقشة التخريجات ـ التي عنت لي من خلال معالجة سيميائية العمل وسيميائية الهوى ـ إلى النقطة الموالية المخصصة **لمشروع سيميائية الكلام** بوصفه مكونا

وفرعا مستقلا داخل النظرية السيميائية العامة.

1- اضطلع هرمان باريت H.Parret بسميأة الأهواء، فخصص لها في البداية دراسات متفرقة(13)، لكنه سرعان ما جمع شتات أفكاره ونثارها وبلور تصوره في كتاب موسوم بالأهواء محاولة في تخطيب الذاتية. إن تشييد سيميائية الأهواء رهين بإقامة السيميائية الذاتية التي تقضي بإعادة النظر في الخصائص الذاتية المتجلية في الخطاب وبواسطته، وكذا في بعض المكونات والمستويات التي يقوم عليها المسار التوليدي، ومن ضمنها إعادة تحديد البنية العميقة وإدماجها في فضاء ذاتي أساسي. وبما أن السيميائية تتحفظ من النزعة اللغوية linguisticisme والنزعة النفسية psychologisme، وتعتبر الخطاب أثرا من الآثار الممكنة للخزان المعجمي المضمر، فإن باريت حاول إعطاءها تصورا جديدا بإضفاء الطابع التداولي عليها (الإفادة من النظرية الإنجازية).

عالج باريت الأهواء من ثلاث زوايا أساسية يتعلق أحدها بمورفولوجية الأهواء، وثانيها بتركيبها، وثالثها بتخطيبها.

أ- لاتعتمد مورفولوجية الأهواء على التصنيفات المعجمية، بل على نص الأهواء، وهكذا تم تحديد ثلاث فئات من الأهواء، وضبط التسلسل المنطقي الجهي المضمر في كل فئة على حدة. تهم الفئة الأولى الأهواء المتقاطعة* chiasmiques، وترتكز على جهتي الرغبة والمعرفة. ويأتي هوى **الفضول** في مقدمة الأهواء المصنفة داخل هذه الفئة. وبعد تحليل مكوناته وبنياته، يتضح أن جهته هي رغبة المعرفة، وموضوعه هو البحث عن الحقيقة، وزمنيته تستشرف آفاق المستقبل. وتتعلق الفئة الثانية بالأهواء الانتعاظية orgasmiques، وهي تقوم على جهتي الواجب والقدرة، وتخص العلاقة الموجودة بين ذاتين وتعمل على تقنينها. ويعتبر **الاهتمام** هو الهوى الانتعاظي بامتياز. وتوجد داخل هذه الفئة أهواء متعلقة في زمنيتها بالمستقبل (على نحو الكراهية، والحذر، والصداقة، والحب) وأخرى مجردة من أي بعد مستقبلي (اللامبالاة، والاحتقار، والصداقة، والحب). ويظل هوى المودة ـ على سبيل المثال ـ ثابتا ومشدودا إلى الماضي، بحكم ارتكازه على تحيين أحد المكتسبات. وترتكز الفئة الثالثة الموسومة بالأهواء الحماسية enthousiasmiques على جهة الرغبة 2 (الرغبة الصادرة عن مقصدية التعرف) وجهة الواجب 2 (الواجب الصادر عن ضرورة القدرة)، وهي لاترتكز على ذات مفترضة بل على ذات مشيدة، ولا تمت بصلة إلى الإيجاه modalisation بل إلى الإيجاه الواصف métamodalisation. وهذا مايجعلها متميزة

* علاقة بين طرفين وتقاطع أهوائهما بشكل ×.

عن الفئتين السابقتين، لأنها تشتغل في مرحلة ما قبل توفر الشروط التي تسعف على تكون العالم الانفعالي. كما أنها مجردة من الزمنية (لازمنية a-temporelle) وقادرة على تشبيك ومماثلة هوى بآخر (على نحو التقدير (موضوعي ونظري) = الاحترام (ذاتي وعملي) ؛ والأمل (عملي) = الاضطراب (نظري)).

ب - يرتكز مُرَكَّبُ الأهواء على التوازن العاطفي والتعويض، وعلى استثمار جميع الإمكانات الجهية التي تتوفر عليها الذات المستهوية. ويهم مسار الذات التي تضطلع بعمل ما وتتعامل مع الذات المضادة (الذات المشتركة 2)، وتسعى إلى إشباع رغباتها الذاتية والوصول إلى ما تصبو إليه من خلال العلاقة الثلاثية (ذ 1و، م ، وذ 2).

ج - ينبغي للسيميائي والأخصائي اللغوي أن يهتما بالتلفظ في بعده الخطابي (أي كأثر للتلفظ وليس كذات ماقبل - خطابية pré-discursif)، وبالإنجازية التي تتدخل كاستراتجية لتخطيب المشاعر. وفي هذا الصدد، تتعاضد القوة العاطفية والقوة الصورية لتجسيد الذاتية في الخطاب. وهكذا تتشخص في الخطاب مؤشرات تلفظية (المعينات والجهات وأفعال الكلام) وعلامات دالة على الأهواء التي يشعر بها المتكلم.

مما تقدم يتضح أن كتاب باريت يتناول الأهواء من زاوية تلفظية مرتكزا بالأساس على مكتسبات فلسفة اللغة. وهذا ما جعله لايعتبر الخطاب مجرد سلسلة منطقية من الملفوظات، بل هو - وقبل كل شيء - متوالية من التلفظات المحدثة في سياقات حوارية وجماعية. فما يشد انتباه باريت بالدرجة الأولى هو إقامة الخطاب أو شروط إنتاجه. وبذلك تجاوزالتصور التفكيكي البنيوي الذي يعتبر ذات التلفظ ذاتا نفسية، ومفردة، وعلى وجه الخصوص أحادية.ولم يعتبر الذاتية جماعا من الحالات الذهنية التي تُترجَم مسبقا في أفعال كلامية بل هي كل ما يتشخص بوصفه أثراً ملموساً في الخطاب. إن انشغال باريت بالجانب التلفظي لإعادة بناء الأهواء سيميائيا ، جعله يعتمد على دراسة نسقية لتصنيف الأهواء انطلاقا من إرغاماتها وثوابتها الموضوعاتية، كما أنه شيد تصوره للأهواء على معمارية تقوم عموديا على الافتراض والتحيين والتحقيق، وتفترض أفقيا الانتقال من المستوى العميق إلى المستوى الخطابي مرورا بالتحول الذي يهم توفير الشروط السياقية (تحكم الثوابت النفسية والاجتماعية والمعتقدات في أهواء الأفراد والجماعات). ومن خلال هذا التصور التلفظي للأهواء، نلاحظ أن باريت أعاد تنشيط بعض المفاهيم السيميائية (الخطاب، التخطيب، إقامة الخطاب، الصوغ الصوري، التحقيق ...) مانحا إياها دلالات ومنازل جديدة. كما تجاوز التصور الماقبل خطابي للسيميائية ليهتم بالآثار التلفظية والمؤشرات اللغوية والعلامات العاطفية الدالة

عبى وجود متكلم في الخطاب، وليعيد الاعتبار للنزعة اللغوية والنزعة النفسية. وبالجملة، نخرج بخلاصة مفادها أن باريت أعاد النظر في المسار التوليدي المتعارف عليه (1979 : 160) مدخلا تعديلات جوهرية عليه تسعف على استيعاب تولد الذاتية وتجيبها أي ما يشكل معمارية نظرية الأهواء.

2- قبل وفاة كريماص بسنوات معدودات أصدر صحبة جاك فونتاني J.Fontanille كتابا موسوما **بسيميائية الأهواء**(14). وكان الهدف المتوخى من هذا الكتاب هو تشييد نظرية للأهواء على نحو لاتلتبس فيه بالنظرية السيميائية العامة، ويضمن، بالتالي، استقلالية البعد المتعلق **بإثارة الانفعال**. ويتضمن الكتاب قسما نظريا و آخر تطبيقيا.

أ- في القسم النظري أكَبَّ المؤلفان على بيان الأسس الابستمولوجية المتحكمة في معالجة الأهواء من منظور سيميائي، والتدليل على استقلالية وملاءمة البعد الذي يهم إثارة الانفعال، والبحث له عن موضع ملائم داخل المسار التوليدي العام. فقد أعطت سيميائية العمل أهمية كبيرة للتحول والعامل، ولم تول أدنى اهتمام للحالة. وتعتبر الحالة من منظور الذات الفاعلة إما بداية للعمل أو نهاية له. وتوجد داخل النظرية السيميائية حالتان: حالة الأشياء والحالة النفسية. وتندغم الحالتان معا في إطار**البعد السيميائي للوجود المتجانس**، وهو ما يجعل العالم بوصفه حالة للأشياء يفعل ويؤثر في الحالة النفسية للذات.

ب- في مجال التطبيق أكبا على هويين : **البخل** الذي يتجسد كهوى الموضوع، ويصبح هوى بين ـ ذاتي intrsubjectif في حالة التقويم الأخلاقي، و**الغيرة** التي تتجلى في الهوى البين ـ ذاتي. واعتمدا على التحليل المعجمي لإغناء النماذج التركيبية وفهم مختلف تمظهرات كل هوى على حدة، وانطلقا من معاينة وتحليل الخطابات المنجزة (خطاب المعجم، وخطاب علماء الأخلاق، والخطاب الأدبي) للقبض على الاستخدام الجماعي والفردي للهويين.

يرتكز كتاب سيميائية الأهواء على ما يلي :

أ- سعى المؤلفان، من الناحية الابستمولوجية، إلى إبراز «أن الهوى هو أساس الدلالة» (15)، والتدليل على استقلالية البعد الانفعالي داخل النظرية السيميائية، وتقنينه تركيبيا ودلاليا. لذا قاما بتحديد تمظهراته وبنيته الجهية وأدواره وكفايته ومساراته وأنساقه الصغرى ومتوالياته الصغرى والكبرى، وبينا ما تستتبعه الأهواء من تقويم أخلاقي، ومثَّلا بهويين دالين وهما البخل والغيرة. فمن الناحية الأخلاقية يجمع المجتمع على إدانة البخيل والاستخفاف به، ويصبح الغيور موضوعا للتقويم مُفضِّلاً أن

يكون محبوبا ومقدرا. لكن النظرة الأخلاقية إلى الغيور تختلف من كاتب إلى آخر. فعلى سبيل التمثيل، يخلص ستندال Stendal إلى دناءته، ويقر بومارشي Beaumarchais بأنه يبالغ في الاعتداد بنفسه.

ب- تناولا الأهواء من زاوية فردية وجماعية. فيما يخص الزاوية الأولى التي تحيل إلى مفهوم الكلام عند سوسور، اهتما بالعوالم الاستهوائية لبعض الكتاب، وركزا على ما تمتتبعه الأسطورة الذاتية للعمل من صور وموضوعات انفعالية، وانكبا على بيان بعض التوجهات القيمية (التثمين والتنقيص) التي تتحكم في بعض الأهواء (على نحو السخاء عند كورناي Corneille)، وإبراز المهيمنة التشاكلية والوظيفية التي تتسم بها بعض الموجهات (على نحو ما أنجزه جان كلود كوكي على مسرحية **المدينة** لبول كلوديل). وفيما يهم الزاوية الثانية التي يقابلها مفهوم اللسان عند سوسور، حاول المؤلفان تمييز الكون الاستهوائي لثقافة برمتها، وهو المتجلي جزئيا في المعاجم والخطابات الاجتماعية. وهذا ما جعلهما يعيران أهمية كبرى **للاستعمال**، ويعيدان الاعتبار للممارسة التلفظية Praxis énonciative والصنافات الإيحائية taxinomies connotatives.

ج- اهتما بالحالة النفسية التي تتشخص في شكل آثار المعنى، وتقتضي الأشباه الوجودية simulacres existentiels. وهي عبارة عن هيكلة تركيبية متوقعة ومكونة من الذوات التالية : الذات الكامنة (الشعور)، والذات المفترضة (الشك)، والذات المحينة (الرؤية الذاتية)، والذات المحققة (القلق). وعندما تدخل ذات الحالة (الغيور أو البخيل) في مسارات انفعالية تشغل مواقع عاملية جديدة على نحو ذات عارفة وذات مُطوِّعة وموضوع قيمي.

د- يمكن للفعل السيميائي أن يتجلى في مستوى ما قبل الشروط، أوفي مستوى الخطاب، أو في المستويات الوسيطية. ويستدعي في العمليات كلها توفر **الانسجام والتماسك** : القوى المتماسكة في المستوى الابستمولوجي، والنموذج التركيبي في المستوى السيميا- حكائي، والتشاكل والتزمين والتفضية والصوغ الفاعلي في المستوى الخطابي.

3- طرحت آن إينو Anne Hénault، في بداية كتابها **السلطة بوصفها هوى**، تمييزا بين مجال العمل ومجال الهوى. يقتضي مجال العمل موقفا واعيا محددا بواسطة **المعرفة** التي تعالج المواضيع **منفصلة** عن الذات، وتشيد العمل المبرمج. ويقع هذا النوع من فهم الواقع في التدلال sémiosis المنقطع (الذات **منفصلة** عن العالم). وعكس ذاك، يتولد **المحسوس** l'éprouvé من خلال قبول الحدث أو التقزز منه، فعندما نحس تتقلص المسافة بين الأنا والعالم، وبالتالي يتسم التدلال بالاتصال. ورغم التباين

تحاصل بين سيميائية العمل المدعمة لنزعة الانقطاع وبين سيميائية الهوى المدافعة عن نزعة الاتصال ؛ فهما لا يتعارضان. «لا يمكن أن نفصل بين سيميائية العمل وسيميائية الهوى خشية الارتداد إلى الرومانسية : الهوى لاغير»(16). كما أن سيميائية العمل تمهد لسيميائية الهوى. «مما لاشك فيه أن كريماص يعطي الأولوية للعمل (ليس فقط على مستوى تاريخ أفكاره بل كذلك على المستوى الابستمولوجي) في تمفصل سيميائية العمل وسيميائية الهوى، وذلك لأن تحليل كفاية الذات الابستمولوجية الفاعلة هو الذي يفضي إلى قضية الهوى أو قضية الأهواء»(17). وتراهن إينو على إثارة الإشكالين التاليين : كيف تتجلى علامات المحسوس في الكتابة ؟ وفي أية شروط يمكن للبعد الاستهوائي التلقائي والخفي، والمستتمر إلى حد ما في عمق الخطاب، أن يصبح عيانيا(18). واختارت لذلك الغرض متنا مكونا من يوميات روبير أرنو داديلي R.A.D'Adilly خلال الفترة الممتدة من سنة 1614 إلى سنة 1632، ويبلغ عدد صفحاتها ألف ومائتي صفحة. وتعاملت إينو معها بطريقة تطورية وتزامنية دون تفضيل الواحدة على الأخرى.

يفتح النهج التطوري آفاقا لاستنتاج مشاعر الفواعل التاريخية وهي تتفاعل مع الأحداث، واستخلاص صنافة إحصائية للسلوكات الاستهوائية المتواترة، وضبط العواطف الصادرة عن ممارسة الحكم، ودراسة الأهواء من زاوية اجتماعية وانتربولوجية. أما النهج التزامني، فهو يهم الفرضيات الأولية المتعلقة بإقامة سيميائية الأهواء، وهكذا يتحدد دور الملفوظ في إعداد خطاطات جهية، و تقديم تصور جديد لعلاقة الذات والموضوع (يتسم الموضوع بكفاية القوة والجذب، وتكون الذات مفتتنة بالموضوع ومنشغلة به)، في حين تكون المحافل التلفظية خلوا من الأهواء الخاصة ومرتبطة بالماجريات الكبرى. فحسب معايير بنفنست Benveniste، فإن الأمر يتعلق بالتلفظ من النوع التاريخي الذي لا يمت بصلة إلى المحسوس.

قطعت إينو اليوميات إلى أربع وحدات قرائية، وحللت في كل وحدة على حدة مجموعة من العينات الاستهوائية، والجهات، والأبعاد القيمية، والموضوعات المهيمنة. وبما أن فاعل الملك يمثل مركز الجذب، فقد تم التركيز على تحركاته، والوقوف على ما صاحبها من تقلبات عاطفية. ويمكن أن تُختزل في ثلاث حالات : الانتقال من حالة الحبور والتجلة إلى حالة الخيبة والفشل في إقرار السلم، مرورا بحالة التيه الشرعي وفقدان الهيبة.

احترست إينو من المعجميات ذات الصبغة الجماعية، و سعت إلى تقديم ملاحظات طبيعية للظواهر الانفعالية المضمرة في الخطابات. وفي الأخير استنتجت انعدام المؤشرات التلفظية من المتن، واستضمار المتلفظ مطامحه لأغراض تكتيكية، ووجود علامات تلقائية دالة على الاضطرابات، وتضافر السيميائية الانقطاعية discontinuiste

والسيميائية الاتصالية continuiste لفهم معنى الوجود. «فهذان الاتجاهان من الملاحظات والدراسات يجب أن يفضيا خلال فترات محدودة إلى أبحاث متوازية. فتطور أحدهما يعد أساسيا جدا لتطور الآخر»[19].

تتفق هذه الكتب الثلاثة ـ رغم اختلاف طرائقها ومنطلقاتها ـ على البحث عن تقنين وتقعيد البعد الانفعالي الذي يهم عن كثب الحالة النفسية، والتدليل على ملاءمته واستقلاليته داخل المسار التوليدي للدلالة، وإعادة بناء الأهواء سيميائيا، ومقاربتها من زاوية تلفظية تعيد النظر في التصور السيميائي للخطاب والتخطيب، وتسائل من جديد تنشيط مفهوم الذاتية ليستوعب العينات الاستهوائية أو علامات الإحساس بوصفها آثارا خطابية. وفي هذا الصدد لا تعتبر الذاتية تجسيدا لحالات ذهنية تُترجم مسبقا في أفعال كلامية، بل هي عبارة عن إنجازية تتدخل بوصفها ممارسة تلفظية واستراتجية لتخطيب المشاعروالأفكار. ومن بين الملاحظات التي أبداها بول ريكو تجاه كريماص وفونتاني (وهي قابلة للتعميم على كتاب باريت وكتاب إينو) هو عدم تحديد جهات المعاناة «لم وضعتما جهات الفعل مقابل جهات الكينونة ؟ في حين كنا ننتظر منكما جهات المعاناة»[20].

3- مشروع سيميائية الكلام :

1- تعامل مدرسة باريس مع البعد الكلامي :

وظفت مدرسة باريس ترسانة من المفاهيم للتوفيق بين النحو السيميا ـ حكائي العميق وبين تقنين الإجراءات التلفظية للتخطيب [21]. وقد تسهم بعض هذه المفاهيم في بناء سيميائية الكلام، وإن لم يتقصد رواد المدرسة ذلك. لقد كانوا ـ كما عاينا فيما سبق ـ منهمكين في تشييد سيميائية العمل، ثم سيميائية الأهواء. وباستقرائنا لهذه المفاهيم نلاحظ ما يلي :

أ ـ حوت مصادر المدرسة على كثير من المفاهيم التي تهم عن كثب ما نسميه بسيميائية الكلام، وذلك على نحو البرمجة الخطابية، والتخطيب، والفعل الخطابي، والكفاية الخطابية، والتواصل التعاقدي أو الجدالي، ومظاهر الاتساق، والعقد التلفظي، والتلميح إلى الجهات التحدثية[22].

ب ـ إثر انفتاح المدرسة على نظرية الأفعال اللغوية والحجاج والتداولية، تبنَّتْ مفاهيم جديدة مانحة لها منازل جديدة. ومن بينها، نذكر على سبيل المثال : الفعل اللغوي، والتحدث، والتوكيد.

ج- عمق جوزيف كورتيس الاهتمام بالمجال الصوري في علاقته بالمجال الموضوعاتي. ويعرف الأول بكونه «كل محتوى للغة الطبيعة أو نظام للتمثل له مقابل محسوس على مستوى التعبير عن العالم الطبيعي» ، أما الثاني ـ المتموضع في المستوى العميق للمسار التوليدي للخطاب ـ فيتميز بالاستثمار الدلالي المجرد ذي الطبيعة المفهومية، وليس له أي ارتباط ضروري بالعالم الطبيعي[23]. ولكي يصبح للصوري معنى، ينبغي ألا يدور على ذاته، بل هو مضطر لخدمة الموضوعاتي. فالإنسان لا يلبس لأنه يريد فقط أن يلبس، بل ليحقق أيضا أغراضا ذات طبيعة تجريدية (على نحو ستر العورة، والتباهي، والتميز). وهكذا يتبين أن الصوري قابل للإدراك، وأن الموضوعاتي يتميز بطابعه المجرد.

د- اهتمام السيميائية بالتداول اللغوي ليست له علاقة بالتداولية بالمعنى الأمريكي (شروط التواصل)، بل يتعلق بالبعد المعرفي الذي يتعلق بتمفصلات المعرفة والاستزادة منها (النشاط المعرفي)، ويرهص بتشييد سيميائية معرفية تهتم بإعداد نظرية تواصلية اعتمادا على تحليل الخطابات الحكائية. وفي هذا الصدد، وجب الإشارة إلى أن الأفعال اللغوية تدرك بوصفها إنجازات جهية ذات طبيعة معرفية قادرة على بناء سيميائية التطويع[24].

2- موضوعاتية الكلام :

على حد علمنا لم يخصص أي مؤلف دراسة نسقية لتصنيفات الوحدات الكلامية، أي المعجميات الدائرة في فلك الكلام. قد نجد بعض الإرهاصات التي تهم فئة من الوحدات، وتعالجها فقط من الزاوية المعجمية. ويمكن أن نحيل في هذا الصدد إلى «فصل في كثرة الكلام عن الأئمة». وفيه حصر أبو منصور الثعالبي المكثار من الكلام في ثماني عينات لغوية : رجل مسهَبٌ ، ومهذار، ثم ثرثار، وعواع، ثم بقباق، وفقفاق، ثم بُقاعة، وتلقاعة[25]. ولما نعود إلى المعاجم نجد ما يدل على الكلام في مختلف معانيه وتلويناته وتجلياته وتراكيبه. وكل ذلك يتفرع عن مصدر جوهري يتمثل في ثنائية الصمت/ النطق. يعني الصمت انقطاع الكلام. لكن الإنسان الصامت يتكلم داخليا، وهذا ما تجسده الحوارات الداخلية في الرواية، كما أن «الصمت يتكلم، ويمكن أن تلعب فصاحته دوراً حاسماً في التواصل، كما يمكن أن يكون مخيفا على نحو الصراخ»[26]. أما النطق، فيفيد التكلم بصوت وحروف. وتعني المُناطَقَةُ أن فردا يكلم ويقاول فردا آخر. وفي كلا الحالين يحضر الكلام إما بطريقة مضمرة أو مكشوفة. وفي هذا الصدد، يورد رفيق العجم تمييزا دقيقا بين الكلام النفسي الذي يتصور حقيقة

الأشياء قبل النطق بها وبين الكلام اللساني الذي يهم التلفظ بصيغة من الصيغ. فقبل أن يتلفظ المتكلم بصيغة (اسقيني الماء)، قام بنفسه تصور حقيقة السقي وحقيقة الماء، والنسبية الطابية بينهما[27]. إن المختلف هو الكلام اللساني وغير المختلف هو الكلام النفسي القائم بذات الله تعالى[28]. وتتعامل كل ثقافة مع ثنائية الصمت/ النطق من منظور خاص وبطريقة خاصة. فالثقافة العربية الإسلامية ـ على سبيل المثال ـ تؤثر الصمت على الكلام، لأنه يقي صاحبه من الخوض في الباطل والاسترسال في المعاصي[29]. ونقدم أسفله جدولا يُجَلّي كيف يتموضع الكلام بين انقطاعه وقلته، وبين كثرته وإطالته.

ويمكن أن نعيد صياغة ما قيل في خطاطة تضع الكلام بين مقولتين متباينتين على النحو التالي :

الصمت ←———	الكلام ←———	كثرة الكلام
قد يكون الصمت ناجما عن اضطرابات نفسية أو فزيولوجية على نحو العي والحُبسة والحصر. وقد يكون مقصودا لذاته. وفي هذه الحال يوصف المتكلم بالصموت والسّكت والنزور.	وقد يسمى كل كلام قاله المتكلم نصا. ويعني الظهور والارتفاع، ومنه يقال : نصصت بمعنى أظهرت، ومنه نصت الصبية جيدها إذا أظهرته. وبهذا المعنى، فالكلام يعني فعلا لغويا أو تلفظيا إراديا ينقل الحديث النفسي إلى تجليات لسانية، ويجعل المجرد يتشخص في ألفاظ وعبارات دالة بالوضع والاصطلاح . وهو ظاهرة فردية يعبر بها كل فرد عن مواقفه ومشاعره الداخلية.	إن إفراط المتكلم في الكلام يجعله موسوما بالشاجب، والهذاء، والمكثار، والوعواع، والمسهب، والمطنب، والثرثار، والمهذار، والبقباق، والتلقاعة، واللقاعة، والهذرام، والهمار، والمراج، والسلط .

جدول رقم 2 : توسط الكلام بين حالة القلة والكثرة)

الإدراك الداخلي ←———	الكلام ←———	الإدراك الخارجي
المقصدية		التلفظ
غيرالصوري		الصوري
صعيد المحتوى		صعيد العبارة

«إن المجال الدلالي الذي يلائم مفهوم الإحساس الداخلي* L'intéroceptivité هو

* مايتوفر عليه الانسان من إحساسات إزاء جسده.

لمحل الذي تتموضع فيه إشكالية الكليات اللغوية»[30]. «أما الإحساس الخارجي l'extéroceptivité فيستتبع تجلي المقولات المقومية على صعيد عبارة السيميائية الطبيعية (أو العالم الطبيعي)، وتقديم المشاعر والإحساسات الداخلية في حلة صورية. ويتلاءم هذا التصور مع تمييز رفيق العجم بين الكلام النفسي (حديث النفس) وبين الكلام اللساني (نطق النفس).

نقدم تصنيفا فئويا للوحدات الكلامية مُستأنسين ببعضها المحددة سلفا في مقولات قطعية، ومستخرجين بعضها الآخر المثبت في المعاجم. وبالجملة فهي تهم كل ما يتعلق بالتلفظ أكان إنجازاً أو تقريراً، ويستتبع تنفيذ عمل ما، ويصف حالة أو يثبت واقعة معينة[31].

أ ـ **المُحاجة** : تحوي هذه الفئة كل ما يستدعي الاستعانة بالحجج للدفاع عن النفس، وإفحام الخصوم، وتفنيد آرائهم.

ـ الإقناع : أقنعه، رضاه، جعله يرضى بما يقال، ويقتنع به.

ـ البرهنة : إقامة الحجة، والإتيان بحجة قاطعة.

ـ البكت : بكته، غلبه بالحجة، وقرعه بالعذل تقريعا.

ـ التدليل : الإتيان بالدليل أي ما يستدل به.

ـ التفنيد : التعجيز والإضعاف.

ـ الحج : حج، يحج، حجا. غلبه في حجته. والحجة هي ما دوفع به الخصم.

ـ الذب : دفع عنه ، ومنع ، وحمى .

ـ المداعاة : المحاجة.

ـ المرافعة : ما يلقيه المحامي دفاعا عن موكله.

ـ المفاخرة : كلا الطرفين يحاول غلبة الآخر في الفخر.

ـ المماتنة : المعارضة والمباراة في كل أمر، ماتن فلان فلانا، عارضه في جدل وخصومة وغالبه.

ـ الجدل والمجادلة : إقامة الحجة فيما اختلف فيه اعتقاد المتجادلين.

ـ الدحض والإدحاض : إبطال الحجة.

ب ـ **إتقان الكلام وتحسينه** : تستتبع هذه الفئة كل المعجميات المتعلقة بتزيين الكلام وإحكامه.

ـ الإعجاز : تأدية معاني الكلام بأبلغ الأساليب.

- التجرس : التكلم والتنغم. وأجرس : علا صوته.
- الترتيل : إحسان تأليف الكلام.
- التشقيق : إخراج الكلام أحسن مخرج لمقاصد مغرضة.
- التشنيف: تزيين الكلام.
- التمليح : الإتيان بكلام مليح.
- التميش : الكذب في الكلام وتزويره.
- التنميق : تحسين الكلام وتزيينه.
- الحذلقة : التظرف والتكيس.
- السجع : النطق بكلام مقفى له فواصل.
- المخرقة : الكذب والتمويه والاختلاق.
- الوشي : النمنمة، والنقش، والتحسين ، والكذب في الكلام.
- ترقيش الكلام : تزيينه.
- الترقيق : تحسين الكلام.
- التزويق : تحسين الكلام وتزيينه.

ج ـ **الإكثار والإفراط** : تضم هذه الفئة الوحدات الكلامية التي تفيد إكثار الكلام، وتجاوز الحد من جانب الزيادة والكمال.

- الإسهاب : الإطالة في الكلام.
- الإطناب : ترديد اللفظ الواحد بعينه، وبالعدد أو النوع مرتين فصاعدا في القول لقصد المبالغة.
- البربرة : الإكثار من الكلام بدون منفعة والصياح في غضب.
- التبجح : الافتخار و التعظم والتباهي. والبجاح هو الكثير التبجح.
- التشدق : التوسع في الكلام من غير احتياط أو احتراز.
- التفيهق في الكلام : التوسع فيه.
- التقعر في الكلام : تكلف السجع والفصاحة والتصنع فيه بالتشبيهات والمقدمات، وما جرت به عادة المتصافحين المدعين للخطابة.
- الجحف : افتخار المرء بأكثر ما عنده.
- السلاطة : طول اللسان وحدته.
- الهضل بالكلام : الإكثار منه.
- الهمر : الإكثار من الكلام.

ـ الوعوعة : الهذر.

ـ الويـل : الإكثار من ذكر الويل.

ـ الثرثرة : تكثير الكلام في تردد و تخليط.

ـ الهـذر : كثرة الخطأ والباطل.

ـ الهذرمة : إكثار الكلام والخلط فيه.

د ـ ثقالة اللسان وعيوبه : تستقطب هذه الفئة الوحدات الكلامية المتعلقة بثقل اللسان بالكلام، وبعيوب النطق.

ـ اللفف : عي يبطئ الكلام، وإذ تكلم المتكلم يملأ لسانه فمه.

ـ البعبعة : التتابع في الكلام بعجلة.

ـ الثأثأة : تردد التاء عند المتكلم.

ـ التعتعة : التردد في الكلام من شدة الحصر والعي.

ـ التمتمة : العجلة في الكلام، وعدم إفهامه.

ـ الحبسة : تعذر الكلام.

ـ الحصر : العي في النطق.

ـ الحلكة : شبه العجمة، لا يبين صاحبها الكلام.

ـ الرتـة : العجلة في الكلام، وقلة أناة.

ـ الرتـج : رتج الخطيب، استبهم عليه، واستغلق عليه الكلام.

ـ العقـد : عقد اللسان، احتبس فهو أعقد وعقِدٌ.

ـ العـي : ضد البيان.

ـ الفأفأة : تردد الفاء عند الفأفاء.

ـ اللثغة : النطق بالسين كالتاء، أو بالراء كالغين أو كالياء أو كاللام إلى غير ذلك.

ـ اللكنة : العي وثقل اللسان.

ـ المطمطة : التواني في الكلام.

ـ النعنعـة : الرتة وهي العجمة.

ـ التلعثم : التثاقل والتردد والتوقف في الكلام.

ـ اللجلجة : التردد في الكلام.

هـ ـ المخاصمة والعتاب : ما يدخل في إطار تأنيب الآخر وتقريعه.

ـ التعييب : نسبة العيب إلى فلان.

ـ الإدانة والشجب : حمل فلان على ما يكره، وإذلاله، والحكم عليه.

ـ التعيير : نسبة العار إلى فلان، وتقبيح فعله عليه.

ـ التقريع : التعنيف والتنقيص.

ـ التنديد : التصريح بالعيوب.

ـ التهديد : التخويف، والتوعد بالعقوبة.

ـ التوبيخ : العذل والتهديد والتعيير.

ـ السب : الشتم.

ـ العتاب : اللوم، والتأنيب.

ـ القدح في عرض فلان : الطعن فيه، والتنقيص من شأنه.

ـ المباذءة : مخاصمة الأخر، ومفاحشته بالكلام.

ـ المخاصمة : المنازعة والمجادلة.

و ـ **الكشف والإخبار** : تضم هذه الفئة وحدات كلامية متقاربة في معانيها، تتفق في الخروج من دائرة الصمت والتعريض للصدع بما تحويه الطوية والسريرة من حقائق مغفية، وذلك على نحو : البوح، والصدع، والإفشاء، والإعلان، والجهر، والتصريح، والمصافاة، والإظهار، والإذاعة، والمساراة ، والبث، والسرد.

ز ـ **الخلط وعدم الإبانة** : يدرج في هذه الفئة كل ما يتعلق بالوحدات الكلامية التي تفيد الخلط في الكلام، وعدم تبيينه.

ـ الإبهام : كلام غير مستبين، ولا يعرف له وجه.

ـ البرقشة في الكلام : التخليط.

ـ التوطيش : عدم تبيان الكلام.

ـ الخطل : الإتيان بكلام كثير فاسد ومضطرب.

ـ الضغث : الخلط في الكلام، والإتيان بكلام لا خير فيه.

ـ اللحن : الخطأ في الإعراب ومخالفة وجه الصواب.

ـ تعقيد الكلام : تعميته. كلام معقد : مغمض وعويص.

ـ المجمجة : يقال مجمج في حديثه، لم يبينه، ولم يفد به.

ـ الهذيان : التكلم بغير معقول لمرض أو لنوم.

ـ عياص الكلام : صعوبة فهمه.

ح ـ **التوجيهية** : يعدها سيرل مقولة تهدف إلى حث المتلقي على فعل شيء ما. ونوسع المقولة ذاتها لتشمل وحدات كلامية تتعلق بتوجيه وإرشاد المتلقي ونهيه عن فعل أشياء معينة.

ـ الأمـــر : طلب الفعل على وجه الاستعلاء.

ـ الإثـارة : حض فلان على الثورة.

ـ الطلب : يستدعي مطلوبا غير حاصل وقت الطلب.

ـ النصح : تقديم النصائح لإرشاد المعني بالأمر إلى الطريق المستقيم، الوعظ، الهداية.

ـ النهي : طلب الكف عن الفعل على وجه الاستعلاء .

ط ـ **التكليفية** : خصص أستين هذه المقولة لكل ما يتعلق بإجبار المتكلم على تبني سلوك ما. ونختار من أفعالها ما يلي :

ـ القسم : الحلف بالله.

ـ التعاقد : التعاهد على عقد مشترك.

ـ المواعدة : كل طرف يعاهد الآخر على موافاته في موضع أو وقت معين.

ـ الوعـــد : وعده بكذا، يجريه له، وينيله إياه .

ي ـ **التعبيرية** : يعني سيرل بهذه المقولة ما يدخل في إطار التعبير عن النفس بصدق. ونضيف إليها ما يلائمها من الوحدات الكلامية.

ـ الإهـلال : رفع الصوت بالتلبية.

ـ الاعتذار : احتج لنفسه وأبدى عذره.

ـ التبريك : الدعاء للإنسان أو غيره بالبركة. تبارك فيه وعليه (وضع فيه البركة).

ـ الترحيب : دعاه إلى الرحب والسعة.

ـ التعزية : المواساة والتصبير.

ـ التكبير : التعظيم، وقول الله أكبر.

ـ التهنئة : أثنى عليه ومدحه على تفوقه في إنجاز ما.

ـ الشكر : أثنى عليه لما أولاه من المعروف.

ـ الشكوى : تقدم بشكوى متوجعا من أمر ما وكاشفا عنه.

ـ المجاملة : أحسن معاملته وعشرته، وعامله بالجميل.

ـ النقـد : أبرز ما به من العيوب والمحاسن.

ك ـ **التوكيدية** : ما تستوعبه هذه المقولة يعالج انطلاقا من ثنائية الحقيقة والكذب.

ـ الإثبـات : الإتيان بالبينات والحجج.
ـ التـأكيـد : أكد العهد، شده وأوثقه.
ـ التكذيـب : ضد التصديق، الرد على الخصوم لتفنيد أقوالهم.
ـ الإقـرار : الإذعان للحق والاعتراف به.

بعد تقديم هذه الصنافة الكلامية التي تتكون من فئات مستوعبة لوحدات كلامية متقاربة في معانيها المعجمية، نضطر إلى رسم جدول يبين التوجهات العامة التي تحكمت في عملية التصنيف، ويكشف عن إمكان الاضطلاع بتصنيفات فرعية تمليها طبيعة الجهات والزمنية والاتجاهية، ونوعية العلاقة الموجودة بين الذات والموضوع، ومنزلة هذا الموضوع ومميزاته، والحالة الكلامية التي تميز وحدات بعينها أو كوكبة من الوحدات عن غيرها.

المقصدية					
الوحدات الكلامية	**الجهات**	**الاتجاهية**	**الزمنية**	**الحالة الكلامية**	**منزلة الموضوع ومواصفاته**
ـ **المحاجة** : ـ البرهنة، التدليل، المداعاة، التفنيد، الإدحاض، البكت، المماتنة، المجادلة.	الرغبة المعرفة، القدرة، الحمل على الاعتقاد.	ذ ← م	- ح.	ـ توسل سبل استدلالية لحمل الآخر على تغيير معتقداته، وتصديق ما يعرض عليه.	ـ موضوع هام (مادي أو معنوي) يستدعي من المتكلم الإتيان بالحجج الكافية والدامغة لبيان الأحقية في امتلاكه أو التمتع به.
ـ المفاخرة			- ح + ما		
ـ الإقناع	ـ الجهات نفسها + الواجب، القدرة.		- ح.	ـ جعل المتلقي يرضى بالقول الموجه إليه ويقتنع به. فمطالبة المتكلم الآخر إشراكه اعتقاده لا تكتسي صبغة الإكراه، بل التوافق والتراضي.	ـ موضوع هام ينبغي امتلاكه كإدراك الأهداف المرجوة.
ـ الذب والمرافعة	ـ الجهات نفسها + الواجب، القدرة.	ذ1+ذ2 ← م	- ح	ـ استخدام الكلام لإدانة طرف وتبرئة طرف آخر.	ـ أكان الموضوع حقا أم باطلا فهو يستدعي التدليل على مواصفاته الإيجابية لإعادة الاعتبار إلى من يعد نفسه مظلوما.

ـ إتقان الكلام وتحسينه : ـ السجع، التشقيق، التشنيف، الترقيش، التزويق، التجرس، الحذلقة، الترتيل، التمليح، الترقيق، التنميق.	ـ الرغبة + المعرفة، القدرة.	ذ ← م	ـ ح	ـ تحسين الكلام وتزويقه لأغراض جمالية.	ـ يصبح الكلام موضوعا قيميا يستدعي إحكامه والتفنن فيه لإثارة انتباه المتلقي.
ـ الإعجاز.	ـ الجهات نفسها+ القدرة الفائقة.	ـ ذ←م	ـ ح	ـ تأدية الكلام بأبلغ الأساليب التي يتعذر على البشر الإتيان بمثلها.	ـ عكس الحالة السابقة، لا يعد الكلام هنا موضوعا لتمايز وتفاضل بني البشر فيما بينهم حول من هو الأهل والأجدر بإحكامه وإتقانه، بل يُتوخى منه تعجيزهم وسلبهم القدرة على الإتيان بما يشبهه.
ـ المخرقة، الوشي، التمييش.	الجهات نفسها+ القدرة، الحمل على الاعتقاد.	"	ـ ح	ـ التفنن في الكلام واختلاقه لإيهام المتلقي وتمرير موقف مسبق عليه.	ـ في هذه الحال يعد الكلام وسيلة لإدراك أغراض مستبطنة.
ـ الإكثار : ـ الهذر، الهذرمة، التشدق، الثرثرة، الهمر، التبجح، الهضل، البربرة، الجحف، الوعوعة، التقعير.	ـ الرغبة + المعرفة + القدرة.	ـ ذ←م	ح	ـ تكثير الكلام لجلب الانتباه وإبراز القدرة على طرق مواضيع شتى والتوسع فيها.	ـ إفراط الكلام قد يصبح عائقا لإدراك الموضوع المبحوث عنه، وقد يجعل المتلقي يتقزز ويتطير منه.
ـ الإطناب، الإسهاب.	ـ الجهات نفسها.	"	ح	ـ يستحب في بعض المقامات تطويل الحديث للتوضيح والإفهام.	ـ في هذه الحال يصبح الكلام عاملا مساعدا لإدراك الموضوع.
ـ الويل.	"	"	ح	ـ تستعمل هذه الوحدة الكلامية في بعض المقامات التي تستدعي التشكي والتوجع والتفجع.	ـ يكثر المتكلم من الويل سواء لإثارة الحضور بفقدانه لموضوع قيمي وحمله على التعاطف معه أو الدعاء بالهلاك والشر للآخر.

السلاطة	الجهات نفسها		ح	ـ تستعمل هذه الوحدة للدفاع عن النفس والتنقيص من شأن الآخر.	ـ يستخدم السلط كلمات نابية وحادة لحماية نفسه، والاستخفاف بالآخر. وفي هذه الحال إما يكون الموضوع معنويا (إعادة الاعتبار للذات) أو ماديا (استخدام السلاطة ذريعة من الذرائع لامتلاكه والتمتع به).
ـ ثقالة اللسان وعيوبه : ـ التعتعة، الحصر، العي، الحبسة، الرتج العقد، اللكنة. ـ الفأفأة، اللثغة، الثأثأة.	ـ الرغبة، المعرفة، ـ القدرة الجهات نفسها.	ـ ذ←م ـ ذ←م	ح، ما ح، ما	يعرف المتكلم قواعد الكلام لكن يتعذر ويتغلق عليه الكلام إما لأسباب فزيولوجية أو نفسية. يعرف المتكلم صفات الأصوات ومخارجها لكن يتعذر عليه نطق بعضها على القياس الصحيح، لأنه هكذا تعود عليها منذ الصبا.	قد تشكل ثقالة اللسان عائقا لإدراك الموضوع القيمي. ـ لاتشكل مثل هذه العيوب أي عائق في التبليغ والإيصال، وإدراك الموضوع المتوخى.
ـ اللجلجة، التمتمة، المطمطة، الغنغنة، البعبعة، الرتة، الحلكة.	الرغبة، المعرفة، القدرة.	"	"	ـ لأسباب نفسية أو فزيولوجية يعجل المتكلم كلامه أو يبطئه.	ـ إن التعجيل أو الإبطاء قد يعيق أو يؤخر إدراك الموضوع.
ـ المخاصمة والعتاب : ـ المنازعة، المجادلة، السب، الشتم، التعييب، التعيير، المباذءة، التنديد.	الرغبة، المعرفة، القدرة.	ـ ذ←م	ح، ما	ـ إذلال الآخر و تخويفه وبيان نقائصه.	ـ يلجأ المتكلم إلى النبز والقذف لما يشعر بأن كيانه يتعرض إلى التهديد، وبأن موضوعه دخل إلى حلبة المنازعة.

ـ الإدانة والشجب	ـ الجهات نفسها + الواجب.	ـ ذ←م	ما، ح، مس.	ـ إذلال الإنسان والحكم عليه .	ـ يتمثل الموضوع هنا في تحسيس المخاطب بالأخطاء التي اقترفها لعله يتداركها مستقبلا. وهناك جهات مخولة لها صفة الإدانة والشجب، على نحو المحكمة، والمؤتمر، والحزب، والنقابة.
ـ التوبيخ.	ـ الجهات نفسها.	"	ما، ح، مس.	ـ تعذيل المخاطب وبيان هفواته ونقائصه، و وعده بالعقوبة.	ـ تحسيس المخاطب بأخطائه وتوعده بالعقوبة لعله يتداركها مستقبلا. وهناك سلطات كانت تحظى قبل ظهور التربية التحررية بحق التوبيخ، على نحو الكنيسة، والبيت، والمدرسة، والسجن.
ـ العقاب واللوم والتأنيب.	الجهات نفسها.	"	ما، ح، مس.	ـ تكدير الآخر بالكلام لإتيانه ما ليس جائزا أو ملائما.	ـ يتمثل الموضوع في تحسيس المخاطب بأخطائه بنوع من الليونة واللياقة والإرشاد لحفزه على تجنبها مستقبلا.
ـ الكشف والإخبار : ـ البوح، الإفشاء، الإذاعة .	الرغبة، المعرفة، الواجب.	ـ ذ←م	ما، ح.	ـ الكشف عما تخفيه السريرة من خبايا.	ـ يتطلب الموضوع القيمي أن يبقى رهن الكتم، لكنه يفقد قيمته بوصفه سرا مصونا مجرد البوح به وإفشائه.
ـ الصدع، الإظهار، الجهر، التصريح، البث، السرد.	الرغبة، المعرفة، القدرة.	ـ ذ←م	ح	ـ استخدام الكلام للتعبير عن المواقف والمشاعر الداخلية.	ـ الاستعانة بالكلام لإدراك الموضوع المتوخى.
ـ المصافقة، المساراة.	الجهات نفسها+ الواجب.	ـ ذ←م	ح	تبادل الود والأسرار بين المتحاورين (ذ1+ذ2).	ـ يعتبر الموضوع هو الكلام الحميمي الذي يبين أن كل طرف يخلص الود للطرف الآخر، ويبوح له بسر من الأسرار زيادة في الإخلاص والتقدير.

ـ الخلط وعدم الإبانة : ـ الهذيان، التوطيش، الضغث، المجمجة، الخطل، البرقشة، الإبهام. ـ العياص، التعقيد.	ـ الرغبة، المعرفة، القدرة. الرغبة، المعرفة، القدرة.	ـ ذ←م "	ح "	ـ الإتيان بكلام فاسد، والخلط فيه، وعدم تبيينه. ـ التحكم في ناصية الكلام، واستخدام ألفاظ غير متداولة وتعابير منزاحة عما هو معتاد.	ـ يعيق الخلط وعدم الإبانة من إصابة الهدف المتوخى. ـ يكون الكلام متهدفا في حد ذاته (كما هو الحال في الشعر)، مما يعيق على عينة من المتلقين فهمه وإدراكه.
ـ التوجيهية : ـ الأمر، والطلب. ـ النهي. ـ النصح، الإرشاد، الهداية، الوعظ. ـ الإثارة.	الجهات نفسها " "	ـ ذ←م " "	ح.مس. " "	ـ طلب شيء ما. ـ الحث على الكف عن فعل ما. ـ تقديم إرشادات للمعني بالأمر لعله يرجع إلى الطريق السوي. ـ حض المخاطب على الثورة.	ـ تطويع المخاطب أو كسب وده للحصول على الموضوع المتوخى. ـ المستهدف هو نهي المخاطب عن معاودة الفعل نفسه. ـ المستهدف هو إرجاع المخاطب إلى الطريق المستقيم. – الثورة هي المستهدفة.
ـ التكليفية : ـ التعاقد، المواعدة، المواثقة.	ـ الرغبة، المعرفة، الواجب، القدرة.	ذ1+ذ2←م	ح، مس.	ـ تعهد الطرفين بالالتزام بفعل ما.	ـ يتفق الطرفان على موضوع قيمي هام، ويحددان كيفية التعامل معه والتصرف فيه، ويتعهدان بالالتزام بالشروط المتعاقد عليها.

ـ الوعد	ـ الرغبة، المعرفة، الواجب، + القدرة، القدرة.	ـ ذ←م	ـ ح ، مس.	ـ يطمئن المتكلم مخاطبه بأنه سيحقق له ما أوفاه به، وينيله إياه.	ـ يرتبط الوعد بالمستقبل، فإذا التزم المتكلم بما قاله، فإن المخاطب يظفر بالموضوع المتوخى، وإذا لم يف بوعده فإن المخاطب يحرم منه.
ـ التعبيرية : ـ الاعتذار، التعزية، التبريك . ـ المجاملة، الترحيب، الشكر، الإهلال. ـ الدعاء، الشكوى. ـ التكبير.	ـ الرغبة، المعرفة، الواجب، + القدرة. الرغبة، المعرفة، القدرة. الجهات نفسها + الواجب	ـ ذ←م	ما. ح ح ح	يستخدم المتكلم تعابير مسكوكة في مقامات اجتماعية محددة للتعبير عن مشاعره إزاء الآخرين بوصفه كائنا اجتماعيا بطبعه. ـ إظهار إلى الآخر حاجات محددة، وإشراكه للاستجابة لها. ـ ترديد اسم الله وتعظيمه.	ـ يتجلى الموضوع في إرضاء الآخر ومواساته بمشاركته أفراحه وأحزانه. ـ يكمن الموضوع في حفز المخاطب على تلبية ما يحتاج إليه المتكلم. ـ بيان عظمة الله .
ـ التوكيدية : ـ الإثبات، التكذيب، الإقرار، التأكيد.	ـ الرغبة، المعرفة، الواجب، القدرة، الحمل على الاعتقاد.	ـ ذ←م	ح	ـ الإتيان بالحجج والبينات لتصديق طرح وتكذيب طرح آخر.	ـ لولا أهمية الموضوع لما أجهد المتكلم نفسه لدعم قوله بالحجج والبينات قصد حفز الآخر على تصديقه وتكذيب من يعارضه ويلاجه.

(جدول رقم 3 : التوجهات المتحكمة في الوحدات الكلامية)

3- موضعة الكلام ضمن حالتي النفس والأشياء :

تقر سيميائية العمل بوجود مسافة بين الذات والعالم، وتستلزم البعد المعرفي لبرمجة مشروع الذات من أجل تحقيق المبتغى. في حين أن سيميائية الهوى تهتم بالحالة النفسية وما يَعتريها من مشاعر وانفعالات وأهواء. ولما يشعر المرء ويحس تنعدم المسافة بين الذات والعالم. «إن العالم بوصفه حالة للأشياء ينسخ في حالة الذات، أي أنه يدمج من جديد في فضائها الداخلي والمفرد»[32]. ويندرج مشروعنا في إطار افتراض وجود حالة كلامية تتدخل للصدع بما يوجد في الحالة النفسية، وبيان تحركات الذات وبرامجها في الواقع. قد نتوهم أنها حالة وسطى بين الحالة النفسية وحالة الأشياء، وتتحدد أساسا من خلال الثنائية الأصلية الصمت / النطق. وبما أننا نتعامل مع الكلام بوصفه فضاء يحتاج إلى إعادة بنائه سيميائيا، فإن علاقته بالحالتين السابقتين تتشخص على النحو التالي :

أ- هوى ← كلام ← فعل.

يعني **إعجاب** شخص بفتاة أنه انجذب إليها، وأخذه العجب منها، وأحبها. وتعد هذه الوحدة الاستهوائية حالة شعورية تبين مدى الحب والتقدير اللذين يكنهما المعجِب للمعجَب به. ثم تأتي مرحلة **التصريح** بهذا الإعجاب، وإظهاره في شكل عبارات ملائمة وصادقة. ثم تأتي مرحلة العمل التي تقتضي من الناحية التركيبية اضطلاع المعجب بتحركات ومهمات محددة ومفكر فيها لضمان الانتقال من حالة الفصل (انعدام العلاقة بين الطرفين) إلى مرحلة الوصل (توطد العلاقة بينهما). وهكذا يتبين أنه يتعذر إقامة العلاقة المتوخاة (الفعل) دون التمهيد لها بالتطويع الاستهوائي (وحدات استهوائية تهز النفس وتطربها) وبالتطويع الكلامي (عبارات مؤثرة ونفاذة).

ب- فعل ← كلام ← هوى.

يرتكب فاعل **خطأ** ما، فيقوم من يحظى بسلطة وشرعية (الوالدان، المدرسة، المحكمة) **بتأنيبه وتوبيخه وإدانته وإرشاده.** فتنتج عن هذه الحالة الكلامية المتسمة حينا بالصرامة وحينا آخر بالليونة حالة شعورية لدى المخطئ. وقد تتمثل إما في الندامة على ما اقترفه أو **الاعتزاز** به. وهكذا يتضح من خلال هذا المثال أن **الفعل والهوى** يتعلقان بالماضي، في حين أن **الكلام** يرتبط بالحاضر، ويراهن على ما سيخلفه مفعوله مستقبلا.

ج- فعل ← هوى ← كلام.

لنفترض وقوع احتكاك بين شخصين على قارعة الطريق . فلم يتحمل شخص أن **يدفع** بحجة أنه أهين في كرامته وعزته، وأن الدفع ـ بسبب أن الشخص الدافع لم يعتذر له ـ مقصود لإذلاله والتنقيص من قيمته. على أي إن الفعل ـ أكان مقصودا أم غير مقصود ـ أحدث حالة نفسية **(الشعور بالإذلال وانتهاك العرض)**، وهو ما سيولد رد فعل نفسي لإعادة الاعتبار للذات، وتحسيس الآخر بذنبه، وحفزه على الاعتذار. وهنا نعاين حالة شعورية **(الغضب، الحدة، الانفعال)** محملة في قوالب كلامية (على نحو **اللوم، العتاب، القذف، السب**). وإذا لم يتمالك الآخر نفسه فإن الأمر سيفضي لا محالة إلى **مشاجرة وعراك** (الفعل).

مما تقدم يتبين أن الوحدات الكلامية قد تتقدم أو تتأخر عن الوحدات التمرسية أو الاستهوائية . إن الحالة النفسية التي تنسخ حالة الأشياء بحاجة إلى كلام ينقل مضمراتها من حالة الكمون إلى حالة البروز، ويسعفها على التأثير في الواقع وتغييره. وإذا كانت حالة النفس منفصلة عن حالة الأشياء، فإن الوحدات الكلامية تلعب دورا في الكشف عما تتضمنه السريرة، وفي دفع الذات إلى التحرك والانتقال من حالة إلى أخرى. وبذلك تنهض بدور اتصالي بين الحالتين السابقتين. وتحوي عينات (أفعال اللغة) تستتبع إنجاز أفعال لإحداث تغييرات في العالم، وفي معتقدات المتلقي ومواقفه السلوكية.

4- معالم مشروع سيميائية الكلام :

أ- التلفظ :

يعد التلفظ مصفاة لانتقاء الأشكال المناسبة لتوليد الخطاب، ووساطة بين الخزان البنيوي المفترض والبنى الخطابية. وهو «يتمفصل في جميع مستويات المسار التوليدي سواء أكانت محايثة أم جلية، ويوجد حيثما كان المعنى»[33]. إن بحثنا في قضايا الكلام يستدعي التحرك داخل دائرة **الذاتية في اللغة** من منطلق مغاير. نستفيد من المنجزات والتراكمات التلفظية والتداولية، ليس لغرض الكشف عن المؤشرات التلفظية للكلام الروائي، بل إعادة بنائه سيميائيا، وليس للاستئناس فقط بالمعينات الصرفية والتركيبية، وإنما إعادة بناء أثر الملفوظ أوالكشف عنه بمجهود تأويلي[34]. وفي هذا المضمار، لابد من الارتكاز على **السيميائية الذاتية** باعتبارها ممهدة لتشييد سيميائية الكلام . «وتقوم السيميائية الذاتية أساسا على إعادة الاعتبار لخصائص الذات المعبر عنها في الخطاب وبواسطته، أو على إعادة الاعتبار لمستوى النموذج السيميائي السطحي. ولكن لا يمكن لإعادة الاعتبار هذه أن تشكل جوهر السيميائية الذاتية. ينبغي أيضا صياغة البنية العميقة ذاتها من جديد، وإدماجها في فضاء ذاتي أساسي»[35].

وتأسيسا على ما سبق، فإننا نتعامل مع التلفظ بكونه فعلا سيميائيا تضطلع به الذات لترويج الموضوع السيميائي، وأثرا يكشف عن هويتها وعيناتها الإيديولوجية والدلالية والقيمية. وما يهمنا من التصور الذي اقترحه هرمان باريت للمسار التوليدي، هو أن التلفظ لم يعد محصورا في المراحل الما قبل خطابية، بل تجاوزها إلى التجلي النصي والتخطيب النهائي. وبذلك، أصبح غير مقيد فقط بالتوليد والصيرورة، وإنما أيضا بالتجلي والاكتمال.

لقد ظلت السيميائية متحفظة من النزعة اللغوية، وهذا ما جعلها تعتبر الخطاب أثرا من الآثار الممكنة للنظام الطاقي الداخلي أو الخزان اللغوي المفترض. لكن نتيجة انفتاح السيميائية على المكتسبات الخطابية والتداولية والتلفظية، أصبح السيميائيون يولون أهمية للظواهر الخطابية التي تخترق بلاغة الخطاب وتشكلاته الصورية. كما أن إضفاء الطابع التداولي على نظرية الدلالة أتاح إمكان تقويم الخطاب وأنساق التعبير المختلفة. وبإعادة تقويم مفهوم الخطاب وبالنظر إلى التلفظ في بعده الخطابي[36]، أصبح من الممكن تشييد سيميائية الكلام التي يلعب فيها المتكلم دورا أساسيا في تطويع المتلقي، وتحريك البرامج والمشروعات الحكائية والتلفظية، وتحمل مجموعة من الأدوار التحدثية، وإقامة العلاقة مع البشر، وصوغ صور الملفوظات. إن عملنا متوقف

على الجانب التطبيقي لتبين إمكانات إعادة الكلام الروائي سيميائيا. وهنا وجب الإشارة إلى أن العمل، وإن كان يرتكز على صنافة فردية وإيحائية مراعية لخصوصية اللغة العربية وما تستضمره من قيم، فإن نماذجه ونتائجه قابلة للتعميم على لغات أخرى.

ب ـ الكلام :

وإن اختلفت تعريفات مفهوم الكلام قديما وحديثا[37]، فهي تتفق في كونه فعلا فرديا صادرا عن إرادة المتكلم ومؤهلاته الذهنية والمعرفية، وطريقة خاصة يعرف بها الفرد ما في ضمير غيره من الإرادات والاعتقادات، وجماعا من المواضعات والقيود التي تحتمها مقامات معينة، وملكة شبيهة بالصناعة من حيث قيامها على فضائل الانتظام والدربة والإفادة. وهذا لا يعني أننا نزعم أن فلانا له فضل السبق على الآخر، بل نؤكد أن هناك تقاربا في تناول الحدث الكلامي الذي يضطلع به الفرد « بحسب أحواله وقصده وإرادته واعتقاده، وغير ذلك من الأمور الراجحة عليه حقيقة وتقديرا»[38]. ومع ذلك يبقى الفرق الجوهري بين مختلف التعريفات في كون ما تلد وقدم منها ظل متشذرا ومتفرقا، واستخدم لأغراض خارجة عن اللغة (فلسفية، ودينية، وكلامية، وفقهية، وبلاغية)، في حين أن ما طرف و حدث اندغم في نسق متكامل، واستعمل لأغراض لغوية صرف.

ج ـ افتراض استقلالية البعد الكلامي :

عالجت سيميائية باريس موضوعين جوهريين، وهما **العمل و الهوى**. ويندرج عملنا في إطار معالجة موضوع آخر لا يقل عن الموضوعين السابقين أهمية وملاءمة، وهو **الكلام**. وفي هذا الصدد ننطلق من الفرضيتين التاليتين :

1- يعد مشروع سيميائية الكلام منظومة مفاهيمة مدمجة في النظرية العامة للدلالة. وهذا ما يستدعي بناء نموذجها الخاص، واختيار أنساق تشخيصها (لغة واصفة، ومنهجية محددة)، والبرهنة على استقلالية البعد الكلامي داخل النظرية السيميائية.

2- لقد تقصدنا الإشارة إلى سيميائيتي **العمل و الهوى** حتى نأخذ فكرة عن منطلقاتهما المعرفية والمنهجية، ونميز بين جهازيهما المفاهيمين. وما يبرر وجود مشروع سيميائية الكلام هو تميزه عن سيميائيتي **العمل و الهوى**، وبرهنته على خصوصية موضوعه.

وفيما يخص الخطوات التي سنتبعها لتشييد سيميائية الكلام، فإننا سنتعامل مع المجموعات الدالة (des ensembles signifiants)[39] على النحو التالي :

1- التمظهرات المعجمية والدلالية للوحدات الكلامية : جهاتها، ووجْهاتُها، وبناها العاملية، وأدوارها التحدثية، ومكوناتها التركيبية، وأنساقها الدلالية الصغرى، وخطاطتها التحدثية المقننة.

2- التطويع التلفظي : أطراف التلفظ، وأفعال اللغة، والجهات، ومشروع الكلام، والحجاج.

3- المقاطع التحدثية : اللغات الفردية، واللغات الاجتماعية، والأدوار التحدثية، والمسارات الخطابية، والكلام النمطي.

4- الصورية : الصوري والموضوعاتي، التوزيع الصوري، علاقة الصوري بالواقع.

الهوامـش :

1- Greimas (A.J) et Courtés (J) , Sémiotique . Dictionnaire raisonné de la théorie du langage , I , Hachette, 1979 , P5.

2- Ibid P 179.

3- Greimas (A.J) , "Les acquis et les projets" in Courtés (J), Introduction à la sémiotique narrative et discursive, Hachette ,1976, PP 15/20.

4- Greimas (A.J) , Du sens, Essais sémiotiques, Seuil, 1970, p. 187.

5- Greimas (A.J) , " Les acquis et les projets ", op.cit P16/17.

6- Ibid P 17.

7- Greimas (A.J) et Courtés (J), Sémiotique. Dictionnaire raisonné de la théorie du langage , op.cit , P 53.

8- Greimas (A.J) , Du sens. op. cit , P 173.

9- Ibid P 172/173.

10- Greimas (A.J) , "Les acquis et les projets " , op.cit P 22.

11- Greimas (A.J) , et Courtés, Sémiotique. Dictionnaire raisonné de la théorie du langage , P 320.

12- Greimas (A.J) , " De la colère " in Du sens II , Seuil , 1983 ,PP 255/ 245.

13- Parret (H) , Sémiotique des passions , Actes Sémiotiques , Bulletin II , N 9 ,1979.

14- Greimas (A.J) & Fontanilles (J) , Sémiotique des passions , Seuil , 1991.

15- Ibid P 110.

16- Hénault (A) , le pouvoir comme passion, PUF, 1994, P. 210.

17- Ibid P 214.

18- Ibid P8.

19- Ibid P 179.

20- Ibid P. 207.

21- Landowvski , « De quelques conditions sémiotiques de l'interaction », in Acte sémiotique, V 50, 1983, p 7.

22- في معرض حديث كريماص على كفاية المتكلم أشار إلى جهات الرغبة في + القدرة على + معرفة القول.

A.J.Greimas ,«Les Actants ; les Acteurs et les Figures », in Du sens II. Essais Sémiotiques, Seuil , 1983 , p 53.

أشار فليب هامون إلى الجهات التي يتمتع بها الواصف: الرغبة في القول + معرفة القول + القدرة على القول + القول (الوصف).

Ph .Hamon , Introduction à l'analyse du descriptif, Hachette, 1981 , p 198.

23- J.Courtés , Le conte populaire : poétique et mythologie, PUF, 1986, p 18.

24- A.J.Greimas & J.Courtés , Sémiotique Dictionnaire raisonné de la théorie du langage, 1979, p 7.

25- أبو منصور الثعالبي، كتاب فقه اللغة، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، [د.ت]، ص 95.

26- P.V.D.Heuvel, Parole, Mot, Silence Pour une poétique de l'énonciation , José corti , 1985 ,p 67.

27- رفيق العجم، موسوعة مصطلحات أصول الفقه عند المسلمين، مكتبة لبنان ناشرون ، ط1، 1999، مادة الكلام ج 2 ، ص/ص 1238 - 1239 .

28- المرجع نفسه، ص 1239، ع 1.

29- يقول الله تعالى ﴿لاخير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف﴾، سورة النساء ، 114.
قال النبي (ﷺ) : « من صمت نجا ». « من كف لسانه ستر الله عورته، ومن ملك غضبه وقاه الله عذابه، ومن اعتذر إلى الله قبل الله عذره ». « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت ». « من كثر كلامه كثر سقطه ، ومن كثر سقطه كثرت ذنوبه، ومن كثرت ذنوبه فالنار أولى به.
أخذنا هذه ا لأحاديث وغيرها من المنذري، الترغيب والترهيب في الحديث الشريف، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، مصر 1960.

30- A.J / Greimas, J.Coutrtés, Dictionnaire (1979), op.cit p 191.

31- استعنا بالمعاجم التالية :
ـ ابن منظور، لسان العرب المحيط، دار الجيل / لسان العرب 1988 .
ـ أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري، الصحاح المسمى تاج اللغة وصحاح العربية، حققه وضبطه شهاب الدين أبو عمرو، دار الفكر، ط1، 1998.
ـ الإمام محمد الدين محمد بن يعقوب بن محمد بن إبراهيم الفيروزابادي الشيرازي الشافعي، القاموس، طبعة جديدة لونان، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1،1995.

32- A.J.Greimas, J .Fontanille, Sémiotique des passions,op. cit, p 13.

33- H. Parret, Les passions essai sur la mise en discours de la subjectivité, Mardaga, 1986, p. 153.

34- يقول باريت في هذا الصدد : « ليس أثر الملفوظ مثبتا في الملفوظ على شكل مؤشرات صرفية-تركيبية أو دلالية-تركيبية، وإنما ينبغي إعادة بنائه أو الكشف عنه بمجهود تأويلي» المرجع نفسه، ص 151.

35- Ibid p. 50 .

36- نورد هذه القولة التي تؤكد ما نريد إثباته : «لا يبعث على أي تناقض إذا أكدنا أن عالم اللغة والسيميائي لا ينبغي لهما أن يهتما بالتلفظ إلا في بعده الخطابي (أي بمحفل التلفظ / أثر الملفوظ، وليس بالذات الما قبل ـ خطابية أو النفسية ـ الاجتماعية)، وأن التلفظ هو غير الملفوظ وإن كان مثبتا فيه»، هرمان باريت، الأهواء دراسة في تخطيب الذاتية، م.سا، ص 151.

37- يمكن في هذا الصدد الرجوع إلى كتاب، عبد السلام المسدي، التفكير اللساني في الحضارة العربية، الدار العربية للكتاب / ليبيا تونس، 1981.

38- ابن سنان الخفاجي، سر الفصاحة، بيروت، 1982، ص 44.

39- يرى جاك فونتاني أن السيميائية كانت، منذ بدايتها، تلح على معالجة الخطاب وليس الأدلة. ولهذا اقترح تقطيعا يراعي انسجام الخطاب وتشكله من مجموعات دالة أو وحدات شكلية. أنظر في هذا الصدد إلى :

Fontanille(J), Sémiotique et littérature Essai de méthode, PUF,1999, p 23.

الفصل الثاني :

التمظهرات المعجمية والدلالية للبث

تمهيد :

نركز، في هذا الفصل، على النزوع الدلالي (sémantisme) لوحدة **البث** ؛ وذلك باعتبارها تشكل موضوعة مركزية داخل رواية **ذات** لصنع الله إبراهيم، وتتحكم في زمام برامجها الحكائية سواء أكانت أساسية أم خاصة. سنعتمد على المعجم لاستنتاج المعلومات الأولية عنها، ثم سنتوقف على مختلف تجلياتها في خطابات متباينة في نوعها (بما في ذلك المتن الرئيس رواية **ذات**). وما نتوخاه من ذلك هو تبيان تنظيماتها الجهية الضمنية، ونماذجها التركيبية، وأنساقها الدلالية الصغرى، واستجلاء ما يستتبعه المسار التلفظي من علاقات وبرامج وأدوار تحدثية وتلفظية. ونحتكم أساسا إلى الممارسة التلفظية للارتقاء من التعريف المعجمي الصرف إلى معاينة كيفية تشغيله سياقيا وتخطيبه، وإعادة بنائه وصياغته سيميائياً.

1- الوحدة الكلامية الكبرى :

تعتبر معجمية **البث** وحدة كلامية كبرى داخل رواية **ذات** ؛ وذلك ليس فقط بسبب تواترها، بل أيضا باعتبارها تشكل موضوعة مركزية. وهي تعد من بين العناصر المندمجة في مقولة **الكشف والإخبار**. وتحوي هذه الوحدة الكلامية ثلاثة عناصر تقيم فيما بينها علاقات بين ـ ذاتية : الباث، والموضوع، والمبثوث له. ويستتبع المسار التلفظي اضطلاع الباث بإخبار المبثوث له. وتوجد بينهما علاقة تواصلية، تنهض أساسا على رغبة الطرف الأول في جذب اهتمام الطرف الآخر بتشنيف مسامعه وإمتاعه بأخبار طرية ومفيدة وممتعة. وإذا لم يعجب المبثوث له بها، فإنه سيتطير منها، ويخل بالعلاقة التواصلية القائمة بينه وبين الباث. وتوجد بين هذا الأخير والموضوع (الأخبار المبثوثة) علاقة الملكية. فالباث يزعم بأنه يملك أخبارا نادرة و ثرة أو أسرارا، لا يمكن أن يذيعها إلا لأقرب الأصدقاء إليه لكسب مودتهم وثقتهم. ويختلف الباثون باختلاف الوظائف المسندة لهم، وبحسب طبيعة الغايات المتوخاة من بث الخبر. فإذا كان هذا الباث صِحافياً فهو يراهن من نشر الخبر على السبق الإعلامي لمباغتة المبثوث له وإثارة اهتمامه. وإذا كان كاتبا فهو يدقق في الخبر ويتقصاه لإفادة القراء. وإذا كان مدرسا فهو يتوخى من بث المعلومات والأخبار إلى تنشيط العملية التعليمية/ التعلمية،

وإشراك المتعلمين في بناء الدرس وحفزهم على تقويمه بإبداء مواقفهم الشخصية. وبمجرد أن يذاع الخبر يصبح ملكا لمن التقطه وتلقفه. وفي هذا الصدد، نذكر نوعين من التواصل بالموضوع[1] :

1- في الحالة الأولى نجد الباث يحتفظ لنفسه بالموضوع، وهي بمثابة عملية انعكاسية réfléchie تنتهي بامتلاك الموضوع.

و (ذ3) ← (ذ1 ∩ م ∪ ذ2)

2- وفي الحالة الثانية يسعف الباث المبثوث له على اكتساب الموضوع محدثا تحولا متعديا transitive ينتهي بالمنح .

و (ذ3) ← (ذ1 ∩ م ∩ ذ2)

2- التمظهر المعجمي :

يعتبر المعجم «برنامجاً أو سلسلة منتظمة من المعلومات مصاغة في لغة مشفرة وقادرة على إعطاء الأجوبة لأسئلة مصاغة هي الأخرى بواسطة هذه الشفرة»[2]. وتتضمن هذه السلسلة المصدرة بمعجميات بارزة مجموعة من المترادفات. وبما أننا نرتكز على المرجعية السيميائية ، فإننا ننكر ظاهرة الترادف[3] معتبرين أن كل مفردة تحوي مقومات خاصة تميزها عن مرادفاتها المحيلة على مرجع واحد. فالفرق بين التمام والكمال أنهما وإن اشتركا في مقوم إزالة النقصان، فإن الأول لإزالة نقصان الأصل، أما الثاني فهو لإزالة نقصان العوارض بعد تمام الأصل[4].

يعرف **لسان العرب** مفردة **البث** على النحو التالي : «بث الشيء والخبر يبثه بثًا، وأبثه بمعنى، فانبث : فرقه فتفرق، ونشره ؛ وكذلك بث الخيل في الغارة يبثها بثا فانبثت، وبث الصياد كلابه يبثها بثا ؛ وانبث الجراد في الأرض : انتشر، وخلق الله الخلق فبثهم في الأرض، وفي التنزيل العزيز : وبث منها رجالا كثيرا ونساء ؛ أي نشر وكثر ؛ وفي حديث أم زرع : زوجي لا أبث خبره أي لأنشره لقبح آثاره ...

وفي حديث عبدالله : فلما حضر اليهودي الموت، قال : بَثْبِثُوه أي كشّفوه ؛ حكاه الهروي في الغريبين، وهو من البث إظهار الحديث...

والبث : الحال والحزن، يقال أبْثثك أي أظهرت لك بثي ...

والبث : الحزن والغم الذي تفضي به إلى صاحبك. وفي حديث أم زرع : لا يولج الكف ليعلم البث ؛ قال : البث في الأصل شدة الحزن، والمرض الشديد، كأنه من شدته يبثه صاحبه ... ويقال : أبثثتُ فلانا سري، بالألف، إبثاثا أي أطلعته عليه وأظهرته له»[5].

ويعرف معجم **الكليات** معجمية البث كما يلي : « إظهار ما كان خفيا عن الحاسة، حديثا كان أو هما أوغيرهما ؛ والإيجاد والخلق ، ومنه : ﴿ وبث فيها من كل دابة﴾* والفراش المبثوث : أي المهيج بعد سكونه. وبث السلطان الجند : نشرهم»[6]

3- التمظهرات التوليدية :

من خلال الملفوظين أو البرنامجين السالفين يمكن أن نستنتج التمظهرات المعجمية - الدلالية التالية :

3-1 النشر : انتشر الخبر انذاع، ونشرت الخبر وأنشره : أي أذعته. وجاء القوم نشرا أي متفرقين[7]. يكون الخبر مجموعا ومؤمنا في الصدر، لكن يصبح بعد نشره منثورا ومفرقا في مواضع عديدة. وهكذا لا يبقى ملكا مصونا في حوزة الباث ، بل يغدو ملكا مشاعا بين الناس، يتناقلوه فيما بينهم. وكل واحد منهم يتصرف فيه حسب مزاجه وهواه، ويؤوله تبعا لأغراضه الخاصة به. ويستطير الخبر بسرعة بين الناس كالنار في الهشيم، إما لندرته أو طراوته أو جدته أو لغاية محددة (الإشاعة، المنافسة، الدعاية الانتخابية، الإشهار). وغالبا ما تحرك الخبر بواعث قيمية (تمييز الخبر الصحيح من الكاذب أو المزيف) و إيديولوجية (استخدام الخبر لتغيير معتقدات الناس وترسيخ حقائق أخرى بدلا منها). وفي كلا الحالين يتعمد الباث إحكام الخبر وإتقانه، ويدعمه بالحجج والمعطيات الكافية حتى يضمن رواجه ومقبوليته داخل المجتمع .

وفي هذا الصدد لا تهم صحة الخبر أو عدم صحته، بقدر ما يهم إحكام صياغته وسرده لتحقيق أغراض محددة سلفا. وتدخل عوامل أخرى في اللعبة نفسها إما لمساعدة الخبر على الانتشار أو لإعاقته.

3-2 الإظهار : ظهر الشيء : تبين، وأظهرت الشيء : بينته. الظهور : بدو الشيء الخفي، الظفر بالشيء والإطلاع عليه. وظهرت به : افتخرت، وظهر بالشيء ظهرا : فخر[8]. يكون الخبر سرا مصونا لكن سرعان ما ينكشف ويذاع. وحينئذ « يسهل ما كان وعرا، ويهون ما كان عزيزا، ويلين ما كان شديدا»[9]. أن يصير الخبر بعد الصيانة عَلماً معناه أن الذات فقدت ملكا عزيزا عليها مودعا في موضع حصين .

ولا يمكن لها أن تعرف قيمته إلا بعد أن يصبح في ملكية الآخرين يتصرفون فيه حسب طريقتهم الخاصة. وهكذا نلاحظ أنه بمجرد تجرد الذات من جهة معرفة الفعل تخسر ما كانت تمتلكه ليظفر الآخرون به، وتفقد برنامجها الحكائي القاعدي المتمثل في صون الخبر وعدم إفشائه. ويستضمر الظهور مقوم الفخر، وهو ما يبين أن المُظْهِرَ

---

* سورة البقرة : 163 .

لا يشعر بالندامة إزاء ما فقده، وإنما يعتز بذلك بدعوى أنه قدم خدمة جليلة للمبثوث له : إطلاعه على خبر لم يكن يعرفه، أو مسارّته.

وتعتبر عملية الإظهار وسطا بين الأهرة والظهرة :

الأهرة / ما بطن من الخبر	=	إظهار الخبر / إخراجه من القوة إلى الفعل للتباهي والافتخار به.	=	الظهرة / ما ظهر من الخبر

3-3 الإطلاع : أطلعه على الأمر : أعلمه به. والاسم الطِّلعُ. وفي حديث ابن ذيزن : قال لعبد المطلب : أطلعتك طِلعة أي أعلمتكه ؛ الطِّلع بالكسر : اسم من اطلع على شيء : إذا علمته[10]. يصرح هذا الملفوظ بطرفي التلفظ : يضطلع المتلفظ بتمكين المتلفظ له بخبر لم يعلمه من قبل. وتفيد معجمية الإطلاع أن الخبر كان مخفيا، ثم ظهر وانكشف للعيان. وإن كان الخبر على هذا النحو، فهو لا يحتاج إلى الكتمان لأن قيمته تكمن في نشره وإعلام الآخرين به.

3-4 الإخبار المحزن :

تخصص بعض التمظهرات التوليدية حالة الخبر، فهو عبارة عن غم وحزن يفضي بهما الباث (حزينا أكان أم مريضا) إلى المبثوث له. ويتقصد الباث تلوين ما يبثه من أخبار بمسحات التوجع والتألم والحسرة لإشعار متلقيه بمعاناته وأتراحه.

4- أدوار ووضعيات تلفظية :

نستنتج من تلك التمظهرات المعجمية أدوارا تلفظية لبث الخبر : ناشره، ومظهره (أو مذيعه)، والمطلع عليه، والكاشف عن غمه. ويجلي كل دور على حدة وضعية تلفظية محددة :

- نشر الخبر و إشاعته بين الناس في مواضع مختلفة لإدراك أغراض محددة سلفا (إخبار الرأي العام، وكسب رهان المنافسة والسبق الإعلامي، ورد الاعتبار إلى الذات، وتكذيب أطاريح الخصم والتنقيص من شأنه).

- إظهار الخبر وإذاعته للصدع بما تحويه الطوية، وإخراجه من حيز القوة إلى الفعل (أسرار، وقضايا شخصية، وعيوب، ومشروعات، ومخططات، وبرامج).

- إطلاع المتلفظ له على خبر ما، وإعلامه به (معلومات ومعارف عالمة، شؤون عامة، إشاعات، وقائع).

ـ في الدور الأخير نعاين مزاوجة بين ما يتعلق بالاستهواء (الحزن والغم) و ما يهم التلفظ (البث والإخبار). وفي هذا الصدد، يكون المتلفظ مهموما أو مصابا بمرض عضال، فيكاشف مخاطبه بأحزانه وأتراحه. فالبث هنا ـ بوصفه وحدة كلامية ـ يمارس تطويعا مُضَعفا (استهوائي وتلفظي)، ويتمحور حول اضطلاع الباث بالتأثير في المتلفظ له حتى يتعاطف مع حالته النفسية ووضعيته الصحية.

يقتضي كل دور إنجازا محددا (النشر، والإظهار، والإطلاع، والإخبار المحزن)، ويتطلب كفاية تلفظية للاضطلاع به كبرنامج حكائي لإدراك الموضوع المتوخى، ويستتبع سلسلة من الجهات (الرغبة، والمعرفة، والقدرة، والواجب، والفعل)، وتأتي في مقدمتها جهة الحمل على الاعتقاد (faire-croire) وجهة معرفة القول (savoir-dire).

أ) ـ يعقد الباث مع المبثوث له **ميثاقا تحققيا وتلفظيا** (توافق ضمني) لحمله على التصديق بالحقائق التي يطلعه عليها. وفي هذا الصدد، ينبغي أن يتحقق بين طرفيْ التلفظ توزانٌ قار يقوم أساسا على اعتقادهما الخبر المبثوث.

ب ـ إن الباث الذي يتثاقل لسانه وتنتابه عيوب، أو يصاب بالحصر، أو تخونه التعابير اللغوية يجد صعوبة في إبلاغ مقاصده، وقد يتعذر عليه إدراك مبتغاه.

وفي الحالتين معا تلعب الشروط المقامية والمحددات النفسية دورا في تواصل عاملِيْ التلفظ، وتحفزهما على التفاعل ليتبادلا الدورين معا (الإقناع والتأويل). ومن ثمة لا يظل المبثوث له عاملا سلبيا يكتفي فقط بتفكيك شفرات الأخبار، وإنما يسهم في مساءلتها ومناقشتها رغبةً منه في الكشف عما تورَّى منها، وفي مكاشفة الباث بما تحويه سريرته (**التباث، والمسارة، التجالي، المباداة**).

وفي السياق نفسه، يعقد الباث مع المبثوث له **ميثاقا أخلاقيا**. يقتضي هذا الميثاق من الباث قول الحقيقة، ويتطلب من المتلفظ له ليس فقط تصديق الخبر والاقتناع به، وإنما أيضا صونه وكتمانه إذا كان سرا، وعدم التصرف فيه إذا كان علما. وفي هذا الإطار، تكون المراهنة على كينونة الباث (الصدوق) و كينونة المبثوث له (الأمين) . وما يهم هو ظهور كينونة الذات التي تتجلى في شكل «برمجات (programations) خطابية وسلوكات لاحقة. وبهذا المعنى، فإن مفهوم الصورة المستهدفة (image but) يسعف على الموافقة بين منطق التوقعات ومنطق الاقتضاءات : فالصورة المستهدفة هي الوسيلة التي تستبق بواسطتها الذات تحقيق برنامج ما ووقوع حالة معينة. إن التآلف بين **توقع** مشيد على الاستيثاق وبين **اقتضاء** قائم على الضرورة التركيبية يخلف أثر معنى الحفز»[11]. إن الصورة المستهدفة التي توجه الباث تكمن في تطلعه إلى حمل المبثوث

له على تصديق ما يطلعه عليه. وهذا ما يقتضي منه إحكام التطويع الاستهوائي (إضمار الصدق) والتطويع التلفظي (القدرة على الإقناع) والبرمجة الحكائية (تنظيم الأخبار، انتقاء العناصر الملائمة، معرفة مواقع القول وأوقاته واحتمال المخاطبين[12]) للوصول إلى المبتغى الذي يتمثل أساسا في إفضاء محتويات الملفوظات إلى المبثوث له وحفزه على اعتقادها. ولن يسترسل الباث في مكاشفة المبثوث له إلا إذا ائتمنه أو أجبر على الكلام (على نحو الاستنطاق في مفوضية الشرطة). وقد يحصل ذلك عن طواعية إذا كان الباث مغفلا أوغبيا أو تمتع مخاطبه بالقدرة على إنطاقه وحفزه على البوح.

5- الأضداد :

1-5 الكتمان : « نقيض الإعلان، كتم الشيء يكتمه كتما وكتمانا واكتتمه وكتَّمه ... والاسم الكُتمة. وحكى اللحياني : إنه لحسن الكِتمة. ورجل كُتمة، مثال هُمزة، إذا كان يكتم سره. وكاتمني سره : كتمه عني ... ورجل كاتم وكتوم، وسر كاتم أي مكتوم، عن كراع. ومكتَّم بالتشديد : بولغ في كتمانه».[13] يتمتع الكتوم بالقدرة على عدم إفشاء الخبر، فهو يحرص على صونه بوصفه سرا. وكلما توفر المرء على هذه الميزة إلا وكان محافظا على علاقته مع غيره، ومواطنا صالحا متجنبا قالة السوء، ومسؤولا أمام ضميره عما يجب أن يضطلع به. وهناك أمور كثيرة تستلزم الكتمان (أسرار الدولة، الأسرار المهنية، العلاقة الزوجية، العلاقة الغرامية). وبالمقابل، توجد أمور تستدعي عدم الكتمان. ومن ضمنها :

أ– عدم كتمان العلم :

أنزل الله في كتابه العزيز الهدى النافع للقلوب والحدود والأحكام لنشرها بين العباد، وإرشادهم إلى جادة الصواب. فالكتوم يستحق لعنة الله ولعنة اللاعنين[14]، ويلجم يوم القيامة بلجام من نار[15].

ب ـ معاينة الجريمة :

إن معاينة جريمة ما لا تقتضي الكتمان، لأن انكشاف خيوطها قد يعرض الكتوم إلى الإدانة بحجة التواطؤ أو المشاركة.

في الحالة التي تستدعي الكتمان، نجد الكتوم يضطلع بدور موضوعاتي أخلاقي (الرصين ، والمنضبط) ومهني (موظف) واجتماعي (زوج، وزوج) وعاطفي (محب)، يحتم عليه التشبث ببرنامجه الحكائي المتمثل في عدم البوح بالسر حتى لايعرض نفسه لعقوبات أو انتقادات، وينفضح أمره بين الناس، فتتوتر العلاقة التي تجمعه مع طرف آخر.

وفي الحالة الثانية التي تنهى عن الكتمان نلاحظ ما يلي :

أ- يدعو الوازع الديني الكتوم إلى التحرر من شرنقة الكتمان لبث ما يحويه كتاب الله من تعاليم وأحكام لهداية البشر إلى الصراط المستقيم. وعليه، ينبغي له أن ينهض بدور موضوعاتي ديني (مؤمن) واجتماعي (مصلح)، وينشر برنامجه الحكائي (هداية عباد الله) بين الناس .

ب- يحض الواجب الاجتماعي المواطن على تبليغ مفوضية الشرطة بوقوع جريمة ما. وإن هو كتمها، فهو ـ إثر إماطة اللثام عن ملابساتها ـ سيدان باعتباره متواطئا ومعيقا للعدالة. وإذا قام بواجب الإخبار، فقد اضطلع بدور موضوعاتي (مبلغ) وبدور عاملي (مساعد) لإسعاف العدالة على معرفة مرتكب الجريمة ومتابعته قضائيا.

وتتفق الحالتان (الكتمان وعدمه) في جهة **معرفة** الأخبار والمعلومات، وجهة **انعدام الرغبة** في بثها وإطلاع الآخرين عليها. وتختلفان في كون جهة **انعدام الرغبة** صادرة في الجالة الأولى عن **الخوف والحذر** من انكشاف السر، و ناجمة في الحالة الثانية عن **الضنانة** بالعلم على البشر.

2-5 التلقي : « يقتضي استقبال الكلام وتصوره »[16]. «وفلان يتلقى فلانا أي يستقبله. والرجل يُلقي الكلام : يلقنه. وقوله تعالى : ﴿ إذا تَلَقَّوْنَه بألسنتكم﴾ ؛ أي يأخذ بعض عن بعض. وأما قوله تعالى : ﴿ فتلقى آدم من ربه كلمات ﴾ ؛ فمعناه أنه أخذها عنه ؛ أي تعلمها ودعا بها[17].

يتناقض البث والتلقي وإن كان كل طرف يستدعي بالضرورة الطرف الآخر في إطار عقد **ميثاق تلفظي** لضمان تواصل فعال (الفعل الإخباري). فالبث هو إظهار الكلام وإطلاع المتلقي عليه، والتلقي هو أخذ الكلام واستقباله وتصوره. ويدخل الباث مع المتلقي في علاقة بين ـ ذاتية استيثاقية تقتضي من الأول ممارسة الفعل الإقناعي، وتوظيف البرامج الجهية في نطاق بنيات التطويع، والمراهنة أساسا على **جهة الحمل على الاعتقاد.** وتستلزم من الثاني منح ما يتلقاه منزلة المحايثة (الكينونة، ولا كينونة)، وتوظيف البرامج المعرفية المعقدة (التعليق، والنقد، والتعميم، والمقايسة، والتقويم)، والانطلاق من بنيات ثابتة معطاة لفهم العالم. « وإذا كان الباث يركب رسالته فعلا والمتقبل يفككها ليدركها فإن كليهما، عند التحاور الطبيعي، غيرُ مدرك لفعله ذاك، لأن الحدث اللغوي كلي بالضرورة عند البث وعند التلقي[18].

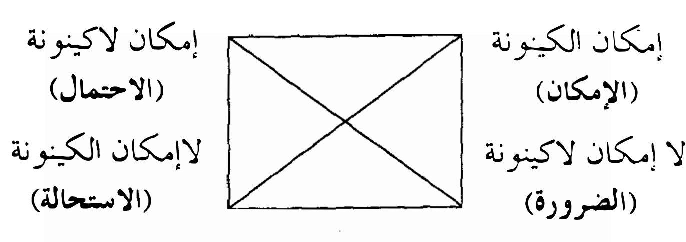
ويمكن أن نعيد ترتيب مرادفات التلقي على النحو التالي : الأخذ ← الاستقبال ← التصور. تفيد معجمية **الأخذ** أن المتلقي جرد الباث من ملكية الخبر، وأصبح هو الآخر

يتمتع به. ويعنى بالاستقبال أن المتلقي يواجه الخبر ولا يستدبره علامة على رغبته في الإصغاء إليه وأخذه عن الباث. والتصور «هو بحسب الاسم تصور مفهوم الشيء الذي لا يوجد وجوده في الأعيان، وهو جار في الموجودات والمعدومات»[19]. ويتطابق هذا التعريف تقريبا مع المفهوم الذي يرتبط بالصورة الصوتية السمعية، ولا يحيل مباشرة إلى الواقع لأنه قائم بالذهن فحسب.

وما يأخذه المتلقي عن الباث هو عبارة عن ذبذبات صوتية، ونشاط فزيولوجي (التصويت والسمع)، وعلاقات اعتباطية بين الدال والمدلول. ويتطلب منه ذلك **كفاية معرفية** (compétence cognitive) لاستخدام المعارف اللغوية، وتفكيك الشفرات، وتأويل البرامج المعقدة، وتنظيم البرامج الحكائية والتفاعل معها، وتشغيل الخلفيات المعرفية، ومنح مختلف مواضيع المعرفة منازل تحققية.

3-5 الحصر : « ضرب من العي ... فهو حصِرٌ : عيي في منطقه ؛ وقيل : حصر لم يقدر على الكلام»[20]. و «كل من امتنع من شيء لم يقدر عليه فقد حصر عنه. ولهذا قيل حُصر في القراءة، وحُصر عن أهله»[21]. يتفق التعريفان المعجميان في جهة عدم القدرة على الكلام. يصاب الحصر بالحبسة أو العي فيتعذر عليه الصدع بمواقفه ومشاعره، وبثها إلى المتلقي. ومع ذلك يظل محافظا على النموذج اللساني الجماعي، وقوانينه المجردة، ومعجمياته المختزنة والمرصوصة في دماغه في شكل معجم يتقاسمه مع أفراد مجتمعه. فهو ـ لأسباب نفسية أو فيزيولوجية ـ يفقد ملكة توظيف اللسان، وإخضاعه لإرادته للتعبير عما يختلجه والتلفظ بما يشغل باله.

ويراهن الحصر على إمكان الكينونة (pouvoir-être) ليسترجع دوره بوصفه متكلما، وعلى إمكان الفعل (pouvoir-faire) ليتواصل مع الآخرين بفعالية وفصاحة[22]. « إن المتكلم إنما يصير متكلما بأن يفعل الكلام وأن الكلام لا يكون فعلا إلا للمتكلم، وذلك يحيل كونه متكلما لم يزل ...إن الكلام لا يكون كلاما إلا بأن يحدث على ضرب من الترتيب ويكون من هذا الجنس المعقول الذي لا ينفك مما يقتضي حدوثه»[23]. وهكذا يتبين من خلال هذه القولة أن الكلام يرتهن بفاعله على جهة الفعلية، ولا تكتمل مؤشراته ومقوماته إلا ضمن حدث الإنجاز الإرادي والقدرة على التلفظ بعبارات مفهومة. ويمكن أن نوزع جهة إمكان الكينونة في المربع السيميائي على نحو يمكنها من إبراز مقولات جهية متطابقة :



(خطاطة رقم 1: تشكل مقولات إمكان الكينونة[24])

ويمكن أن نستنتج من هذا المربع السيميائي المقولات التالية :

1- الإمكان : هو عندما يتحرر المتكلم من الحبسة أو العي، ويكون قادرا على التعبير بطلاقة عن مواقفه ومشاعره. وفي هذا الصدد حدد أبو منصور الثعالبي الفروق الموجودة بين المتكلمين في حدة الكلام وفصاحته[25].

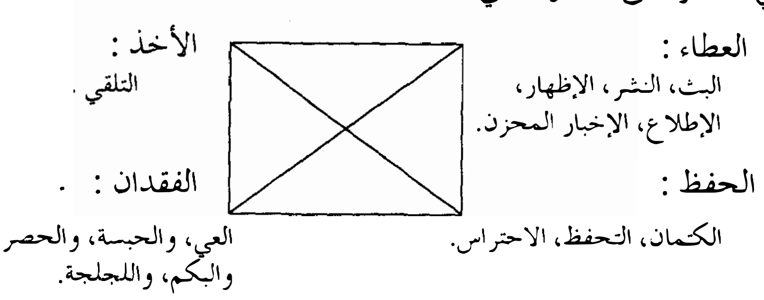
2- الاستحالة : عندما تعترض الحَصِرُ بعض العوائق النفسية والفزيولوجية فتجرده من القدرة على التلفظ بأداء سليم . وقد أفرد أبو منصور الثعالبي فصلا في ترتيب المصنفين ضمن هذه المقولة : «رجل عييٌّ وعيٌّ. ثم حصرٌ. ثم فةٌ. ثم مفحمٌ .ثم لِجلاجٌ .ثم أبكم[26]. وما يجمع بين هؤلاء هو التعذر عن الكلام .

3- الاحتمال : لما يستطيع الحَصِرُ التغلب على العوائق النفسية أو الفزيولوجية، ويقدر على الصدع بما يشغله مبددا وجوه الاستكراه ومظاهر البشاعة التي تتخلل ملفوظاته.

4- الضرورة : يجد الحَصِرُ نفسه أمام وضعيات تفرض عليه التعبير عن آرائه وانفعالاته، ولو اقتضى منه ذلك أن يتثاقل لسانه، ويتردد فيه، وتعترضه عقد وعيوب. فما يهم المتلقي هو أن يجهد الباث نفسه لإطلاعه على مقاصده.

6- النسق المصغر للبث :

بعد الفراغ من تحليل الدلالة المعجمية لوحدة البث، نختزل تمظهراتها في نسق دلالي مصغر على النحو التالي :



(خطاطة رقم 2 : النسق المصغر لتمظهرات البث)

6-1 تحدد المواقع الأربعة مواقع تلفظية متباينة في كيفية أدائها للخبر (الموضوع) وتعاملها معه : فالعطاء يبين أن الباث يضطلع بفعل إرادي لتمكين المتلقي مما كان يمتلكه[27]، والأخذ يعني أن المتلقي سيستلم الملكية من الباث ليتصرف فيها كيفما يشاء، والحفظ يلغي مؤقتا دور المتلفظ ليصون ما يختزنه من أخبار (الكتوم)، أو يحتاط أو يتحفظ من نشرها لأسباب معينة، والفقدان يبين أن المتلفظ فقد بالبتة القدرة على الكلام (الأبكم)، أو لم تسعفه الردود المناسبة (المُفحم)، أو تثاقل لسانه (اللجلاج)، أو تخللته عيوب وعقد أخلت بسلامة أدائه (العي، والحصر).

6-2 ويمكن أن نقسم الوحدات الرابدة بالمواقع الأربعة إلى نوعين :

أ- نوع ما قبل تلفظي : ويشمل المصاب بالحبسة الذي يتعذر عليه الكلام، والكتوم الذي يتقصد عدم تشغيل آلة الكلام، والأبكم الذي لاتسعفه هذه الآلة قطعا لعاهته المستديمة والناجسة.

ب- نوع تلفظي : ويندرج فيه الباث، والمتلقي، واللجلاج، والمطلع، والناشر، والمظهر، والمخبر الحزين، والحصر، والعي.

6-3 و بالاعتماد على جهة القدرة ونقيضها (عدم القدرة أو العجز) يكمن أن نوزع الأدوار إلى ثلاث فئات. توجد فئتان على حدين متنافضين (القدرة والعجز)، وتتوسطهما فئة تجمع بينهما معا (على أساس التظاهر بالعجز واستضمار نقيضه).

أ- تسمح فئة بالتعبير عن القدرات اللغوية والكفايات الإدراكية بحرية وطلاقة (الباث، والمتلقي، والمظهر، والناشر ..).

ب- وتجعل فئة أصحابها يعدلون عن الكلام وإن كانوا متمكنين من زمامه وناصيته (الكتوم، والمحترس، والمتحفظ) ؛ وذلك صونا لما يستضمرونه من أسرار ومواقف.

ج- وتتسم الفئة الثالثة بالعجز عن الكلام، وتحوي أدواراً مرتبة من حالة العجز التام (الأبكم أو الأخرس) إلى حالة العجز المؤقت (المُفحم)، مروراً بحالة وسطى تجمع بين العي وإدخال بعض الكلام في بعضه الآخر (اللجلاج، العي، والحصر).

6-4 وتتدخل الوِجْهَةُ لتضع جدا بين صنفين من الأدوار. أحدهما يحوي الأدوار المتسمة **بالاستمرارية أو الديمومة** (durabilité) الأخرس، والأبكم، واللجلاج، والحصر، والعي، والباث، والمتلقي. وثانيهما يستقطب الأدوار المنعوته **بالانقطاع والنقصان** (imperfectivité) (الكتوم، والمتحفظ، والمحترس). ويُشترط في بعض الأدوار أن تكون مكتملة حتى تؤدي ما هو منوط بها على الوجه الأحسن (الباث، والمظهر،

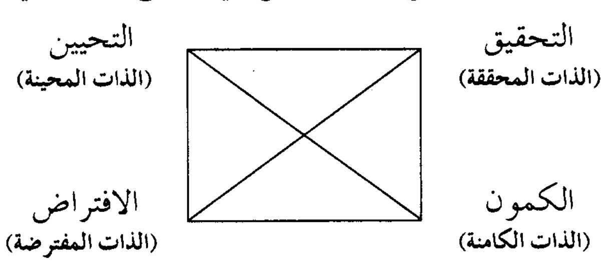
والناشر، والمطلع، والمخبر الحزين).

وعلى سبيل التمثيل، تتسم زمنية دور الكتمان بالامتداد (**الاستمرارية**) من زمن الماضي (لحظة استقبال السر) إلى زمن المستقبل (لحظة الإفصاح عنه) مرورا بالحاضر (الاحتفاظ به وعدم الكشف عنه). وتتجاذب وجهة البث زمن الحاضر (إظهار الخبر) وزمن المستقبل (ماسيخلفه الخبر من أثر في نفسية المتلقي ومعتقداته).

5-6 ليست الأدوار المختلفة حكرا على متلفظ واحد، إذ يمكن له أن يضطلع بأكثر من دور، ويتنقل من دور إلى آخر حسب الضرورة والحاجة. وقد يضطلع بأكثر من دور في الوقت نفسه. ذلك على نحو أن يكتم أسرارا، ويتحفظ من بث أخبار معينة، ويطلع متلقيه على شؤونه الشخصية، ويظهر موقفه من قضية ما. كما يمكن أن يلجلج أو يتحبس في كلامه أثناء ارتباكه أو خجله أو توتره. وقد يصاب المتلفظ الفصيح والمعافى بالبكم نتيجة صدمة نفسية حادة أو حادثة سير مروعة أو داء عضال. وبتنقله من دور إلى آخر أو من موقع إلى آخر، يتغير المسار التركيبي وتتبدل القيم المرتبطة به. فتحول الكتوم إلى المفشي يستتبع الانتقال من موقع الحفظ (الكتمان) إلى موقع العطاء (البث)، ويكشف عن البرامج الحكائية المستضمرة والخفية، ويثير زوبعة أخلاقية قد تفضي إلى توبيخ ومقاضاة من باح بالأسرار وأذاعها. وإذا امتثل كتوم العلم إلى تعاليم الله المسطرة في كتابه العزيز (أحكام الإسلام، وأمر محمد وصفته)، فبثها ونشرها بين الناس، فيجازى على فعله، ويتجنب الدخول إلى الجحيم.

6-6 ما يجمع بين مختلف تلك الأدوار هو اتفاقها في جهة واجب الكينونة (devoir-être). إن التآلف بين التوقع الاستيثاقي والاقتضاء التركيبي يحفز المتلفظ على تخيل الصورة التي يجب أن يكون عليها. ويتحكم في هذا التصور موجه الوصل (la modalisation de la jonction) الذي يرتبط بالفرد، وموجه الموضوع (الكلام) الذي يستمد نسغه من الإيديولوجية الجماعية (مجموع المقومات والشروط التي ينبغي للمتكلم احترامها). إن اقتران جهة واجب الكينونة بجهة إمكان الكينونة (pouvoir-être) «يبين أن بعض التسميات المشتركة تنجم عن التماثلات الدلالية الحدسية»[28]. فعلى سبيل المثال، يحلم الباث دوما بأن يظهر في صورة الفصيح والمقنع والذليق[29] للضرورة الاجتماعية (التواصل، وإدراك المراد). أما الكتوم، فيتغيا أن يظل في مستوى الثقة التي وضعها فيه صديقه أو حزبه أو رئيسه. ويتحتم عليه في حالة تحمله لأدوار موضوعاتية معينة (جندي، مخبر في المخابرات، عضو مجلس إدارة شركة) عدم إفشاء الأسرار ولو تعرض للتعذيب والتنكيل ؛ وذلك استدفاعا لتهمة الخيانة وامتثالا لما يمليه عليه حسه الوطني وضميره المهني.

7-6 إن المواقع التي سبق لنا أن حددناها تقدم لنا صنافة للأشكال التلفظية. ويقصد بأنماط وجود الذات مختلف المنازل التي تضطلع بها ذات الحالة في المسار الحكائي العقلاني. ووسمت المواقع التي تشغلها الذات في متخيلها التلفظي (مسار خيالي) بالأشباه. ويمكن أن نوزع هذه المواقع في المربع السيميائي على النحو التالي :



(خطاطة رقم 3 : المربع السيميائي الدال على مسار الأشباه الوجودية)[30].

لما نتتبع مسار الأشباه الوجودية نلاحظ أن الكتوم (الذات الكامنة) قد يتحول إلى مفش (ذات محققة). وبقدر ما يحافظ الكتوم على أسراره، فهو يظل ذاتا مفترضة تترقب الظروف المواتية لتحيين بعضها وتحقيقها في شكل ممارسة تلفظية. ويستجمع الباث النفس والمادة لإظهار ما تستضمره سريرته (الذات الكامنة)، ثم يفترض ما سيبثه (الذات المفترضة)، ثم يحينه (الذات المحينة)، ثم يحققه في شكل ملفوظات مفهومة سواء أكانت شفهية أم مكتوبة. وإن كان الأبكم تعوزه الآلة **الكلامية للتعبير عما يختلج في صدره،** فهو ينتقل من موقع الكمون إلى موقع التحقيق باستخدام الإشارات والحركات وإصدار الأصوات المبهمة. ومن خلال هذه الأمثلة يتبين «أن الأشباه الوجودية تشمل المواقع المتعاقبة لظهور الكينونة»[31].

وتتميز الذات الكامنة للكتوم (من لا يرغب في إفشاء أسراره) بواجب عدم فصلها عما تستضمره وتخفيه من أسرار، وبالرغبة في وصلها بها إلى أن تتاح فرصة إخراجها إلى حيز الوجود والتداول. وهكذا يتحدد موجه الكتوم على الشاكلة التالية :

1- واجب عدم الفصل ←─── كينونة الوصل.

2- الواجب ←─── الرغبة.

ويتسم الباث **بواجب الفصل** عن الأخبار والصدع بها، **وبالرغبة في إيصالها** إلى الآخرين. ومن ثمة يتخذ الموجه الصيغتين التاليتين :

1- واجب الفصل ←─── كينونة الوصل.

2- الواجب ←─── الرغبة.

ويتخيل كل متلفظ صورة ملائمة للدور الذي ينبغي له أن ينهض به. فالكتوم يريد أن يظل ذاتا كامنة حيال بعض الأسرار التي يحتفظ بها ، ولا يتحول إلى ذات محققة إلا عندما تقتضي الضرورة منه ذلك. أما الأبكم فهو يتغيا أن يصبح ذاتا محققه تتلفظ بملفوظات منضدة ومفهومة. ويحقق جزءا من أحلامه باستخدام الإشارات والإيماءات المتواضع عليها للتواصل مع الآخرين. ولا تستوفي الذات شروط اكتمالها إلا عندما تنتقل إلى مستوى التحقق، فتنجز الممارسات التلفظية، وتتواصل مع المتلفظ له، وتصبح مجسدة ومعبراً عنها في الخطاب وبواسطته[32] .

وتستتبع مختلف المواقع والأدوار المسار الجهي التالي:

الرغبة	المعرفة	القدرة	الواجب	الإنجاز
تنتاب المتلفظ الرغبة في بث معلوماته طوعا. لكن يمكن أن يرغم إكراها على الصدع بها.	ينبغي للمتلفظ أن يكون متسما بكفاية معرفية : الإلمام بتراكيب اللغة وفصاحتها، ونحوها، ومعجمياتها.	- القدرة على الكلام، والتحكم في ناصيته. - وفي هذه الجهة تتباين مستويات المتكلمين بحسب فصاحة تراكيبهم، وخلو ألسنتهم من عيوب وعاهات.	- يرسم كل متلفظ صورة تحدد ما يجب أن يكون عليه في مقامات محددة. وتستلزم هذه المقامات من المتلفظ استخدام أنماط معينة من الكلام.	يتجلى الإنجاز في شكل ملفوظات شفهية أو مكتوبة. وفي هذه الأثناء يتحقق الفعل السيميائي وتتجسد الذات في آثار لغوية وخطابية ملموسة.

(جدول رقم 4 : المسار الجهي للأدوار المختلفة)

7- التخطيب : تجليات البث في النصوص :

7-1 القرآن الكريم : التفريق والذر :

نستشهد بالآيتين التاليتين اللتين وردت فيهما معجمية البث. يقول الله تعالى : ﴿ومن آياته خلق السماوات والأرض وما بث فيهما من دابة وهو على جمعهم إذا يشاء قدير﴾*. ويقول أيضا : ﴿ فكانت هباء منبثاً ﴾*.

والمعنى الإجمالي للآية الكريمة الأولى أن الله جلت قدرته يستطيع بإرادته أن يفرق في الأرض والملائكة والجن والإنس وسائر الحيوانات، ويجمع متى يشاء مخلوقاته. وفي الآية الكريمة الثانية، أتت المعجمية المعنية حالا «منبثا»، وهي متضمنة كذلك

* سورة الشورى : 28 .
* سورة الواقعة : 6 .

لمقوم [+ التفريق]. ويعنى بالمبتث ما تبثه الرياح وتذروه فلا يبقى منه شيء. ومجلا الآية أن الله يوم القيام قادر على قلع الجبال ونسفها وذرها، فتصير كالعهن المنفوش.

ومن خلال الآيتين يتضح تواتر مقوم [+ التفريق]، ويفيد أن الله تعالى قادر على تفريق مخلوقاته في ربوع الأرض، وذر الجبال كما لو كانت رهج الغبار. وينطبق مقوم التفريق على الكلام. فالكلام البثّ أو المبتث أو المبتوث هو عبارة عن قذفات ودفعات صوتية مطردة تتفرق وتنتشر في الزمكان.

2-7 الشعر : الإحزان والتأليم :

- يقول أبو العتاهية :

مضى صاحبي واستخلف البث والأسى *** علي فلي من ذا وها ذاك صاحبي

- يقول طرفة بن العبد :

لعمري لموت لا عقوبة بعده *** لذي البث أشفى من هـوى لايزايلــه

دار الفجائــع والهمـــوم ود *** ر البث والأحزان والشكـــــــوى

- ويقول ابن زيدون :

خليلي مهــلا لا تلومــا فإنني *** فؤادي أليف البث والجسم مدنــف

- يقول الأعشى :

ويقبــل ذو البـــث والـــراغبــو *** ن في ليلة هي إحدى اللـــــــــزن

يتبين من خلال هذه الشواهد[33] أن معجمية البث تفيد التطويع الاستهوائي الذي يمارسه البـاث على المبثـوث له لجعلـه يشعـر بما يعانيه من غم أو مـرض (التأليم). (faire-pâtir) وتستدعي قوة التوتر (force tensive) من هذا الأخير واجب التعاطف والمواساة، والاضطلاع بدور انفعالي (thymique) لتبيان مدى تأثره بحالته النفسية أو الصحية.

3-7 الواقعة : البث والتحقق :

«... وتحركت صوبه تتمايل في دلال ونعومة، وأمسكت بيده، وأخذت تبثه غرامها وهيامها وبأنها تحبه منذ طفولتها. ولما وجدت منه عدم انتباه لها وافقت على الزواج من صديقه لتكون بجواره خاصة وأنها تعرف مدى ارتباطهما ببعضهما البعض...»[34].

وردت المعجمية المعنية فعلا يفيد إظهار المرأة ما تكنه من حب وهيام لصديق زوجها (فوزي). واجترأت على مصارحته بعد كتمان السر منذ الطفولة. وورد السر حمّالا لحالة استهوائية (الغرام والهيام). ولم يكن نتيجة تعاقد بين طرفين، بل تعهدت به ذات واحدة، صابرة على غليانه كالمرجل بين أحشائها سنوات طوال (ذات كامنة). وكانت تفترض السيناريوهات الممكنة لتطلع معذبها بسرها المكنون. وحانت الفرصة لما سافر زوجها (خالد) ثم قدم فوزي إلى بيتها ليطمئن على حالها. فبثت له حبها وهي مصممة على إيقاعه في فخ الخطيئة والخيانة. وتحقق السر في شكل شفهي مصحوب بعلامات الإغراء والإغواء (التمايل، الإمساك بيد خالد، ارتداء منامة شفافة، جسد فاتن). قاوم فوزي التطويع التلفظي والاستهوائي، فامتنع عن مجاراة زوجة صديقه الحميم في غيها. ولما فشلت خطتها، أسرعت بإعلام زوجها مدعية أن فوزي حاول انتهاك حرمتها وعرضها. فأفضت المشاجرة بين الصديقين إلى مصرع خالد ومقاضاة فوزي.

يكشف البث عن الحقيقة الكامنة في النص. وتتجلى في شكل مؤشرات التحقق التي تبين ما إن كان الخبر حقيقة أو زيفا ، سرا أو كذبا. وعمل البث على نقل السر (محور اللاظهور والكينونة) كما لو كان حقيقة لاتحتمل التكذيب (محور الظهور والكينونة). وهكذا، صدعت المرأة بحبها وهيامها، وأحاطت البرنامج الحكائي (إيقاع فوزي في الأحبولة) بهالة استهوائية حتى تثبت لفوزي أن الأمر ليس مزاحا أو دعابة، بل هو تعبير عن مشاعر صادقة. وخشية أن تنكشف صورتها أمام زوجها، عجلت بمراسلته لتمويه الحقيقة (محور الكذب : الظهور واللاكينونة)، وإقناعه بأن توأمه الروحي اعتدى عليها لاغتصابها. وأشعل فتيل الغيرة نار الفتنة والعداوة بين الصديقين، ولم ينطفئ إلا بوقوع نهاية مأساوية. « ... لم يصدق فوزي ما حدث ومال على القتيل واحتضنه، وأخذ يبكي وينتحب بحرقة شديدة، وأخذ يصرخ قتلت أعز الناس، قتلت صديق عمري. وأخيرا حمل الجثة وذهب بها إلى النقطة. وقف أمام ضابط النقطة يبكي واعترف بأنه قتل صديقه».

من خلال هذه الواقعة يتبين أن ما بثته المرأة لم يكن صادرا عن قناعة بوصفه حقيقة راسخة، وإنما باعتباره نزوة عابرة سرعان ما تبددت باستنكاف فوزي عن الزنى والفسق. ومع ذلك استطاعت الزوجة أن تحكم نسج خيوط أكذوبة لإعطاء صورة مغايرة عما حدث فعلا، و تكدير صفو العلاقة التي كانت تجمع بين الصديقين الحميمين.

4-7 وسائل الإعلام : التحكم والتطويع :

«وقد ازداد استغرابي هذه السنة من البرنامج الرياضي الذي يبث بالاسم نفسه، ويقدم لقطات لمقابلات في كرة القدم تخوضها فرق بعيدة عن جمهورها، وليست لها ملاعب» ..

« خلال هذه الأيام القليلة الماضية، شرعت قناة الأقاليم الفرنسية الخاصة التي تحمل اسم TL1 في بث نسخة ثانية منها بالذبذبة نفسها..»[35].

« صرحت اللجنة الفيدارلية للاتصال، عند إعلانها عن تخفيف القيود فيما يتعلق بملكية البنوك لشركات البث الإذاعي والتلفزيوني ، بأن البنوك خالفت القواعد القديمة مرارا...»[36].

نتيجة الثورة اللسانية والإعلامية، أصبحت معجمية **البث** تفيد الإرسال. وهي تستدعي بالضرورة المبثوث له (المرسل إليه) لعقد ميثاق تلفظي أو تحققي، والدخول في علاقة مباشرة أو غير مباشرة، ثنائية أو جماعية. وقد ترتب على تزايد الاهتمام بالتواصل في الوقت الحاضر، تضاعف محطات البث الإذاعي والمتلفز، وارتفاع أعداد الصحف والمجلات، والنزوع إلى صناعة الخبر، وتحسين جودة تكنولوجيا المعلومات، وتنويع أساليب استمالة الجماهير العريضة واكتساحها والتحكم فيها، واستدرار الأرباح بتوسيع دائرة المشهرين والمحتضنين والمشتركين والممولين.

إن العلاقة التي تجمع بين محطات البث والجمهور يمكن أن يعاد صوغها سيميائيا على النحو التالي : ذ1 ←م← ذ2. فالباث ذ1 يراهن على امتلاك الموضوع، والتحكم فيه ، وتوجيهه كيفما يشاء (الجمهور العريض). ولهذا الغرض، فهو يجدد أساليب التواصل، ويُحكم ضروب التطويع (التلفظي، والتمرسي، والاستهوائي) ليكون في مستوى مقاومة المنافسين، والتفوق والتغلب عليهم (ذ2). وتتحكم في الباث جهة **الحمل على الاعتقاد** (الفعل الإقناعي) لتطويع الجماهير، وتغيير معتقداتهم، وحضهم على تبني مواقف وسلوكات جديدة، ثم جهة **واجب الفعل** (devoir-faire) التي تتوافق دلاليا مع جهة **الرغبة في الفعل** (vouloir-faire)، وتستشرف ما ينبغي القيام به لتحسين الخدمات، والرفع من الجودة والمردودية والإنتاجية، واستقطاب فئات عريضة من المتلقين.

8- التجليات المعجمية والدلالية للبث في رواية ذات :

1-8 البث المرصد مرآتيا :

« فقد أبدى السكان ـ شأنهم شأن بقية المصريين ـ انصياعا تاما للتوجيه الذي تلقوه

عبرجهاز البث المركزي في صورة ربة منزل تنهال بالمطرقة على جدران مطبخها المغطاة إلى منتصفها بطلاء زيتي قاتم...» ص 45.

سيشتغل جهاز البث المركزي بوصفه إرصادا مرآتيا[37] يستوعب قضايا وموضوعات الرواية ويعكسها صغيرة. وينهض بوظيفة التلقين المذهبي indoctrination التي تتغيا توحيد سلوك المصريين وفق النموذج أو الطراز الأمريكي. وما تقوم به ربة البيت في المحكي المؤطَّر ما هو إلا مرآة تلتقط، بطريقة مكثفة، انخراط الشعب المصري في مسيرة الهدم والبناء.

يفيد البث في هذا المحكي (الوصلة الإشهارية) الإرسال والتطويع. فهو لا يكتفي بإرسال صورة نمطية عن المجتمع الرأسمالي، بل يوجه المشاهدين إلى إصلاح منازلهم وتجميلها بأحسن المعدات والأثاث المستوردة، وتغيير نمط عيشهم وسلوكهم لمواكبة ما حصل في المجتمع من تغيرات. ويمزج المحكي المؤطر بين ثلاثة ضروب من التطويع لإمتاع المشاهد وإقناعه :

ـ التطويع التلفظي : يشتغل الكلام لتثبيت سلسلة المدلولات الطافية، وتحديد عناصر المشهد أو المشهد ذاته (وصف تقريري للصورة)، وصد المعنى الإيحائي عن التكاثر في اتجاه المناطق الفردية جدا (أي التي تحد من القدرة الإسقاطية للصورة) أو في اتجاه القيم المحزنة[38]. يتدخل الكلام لتحديد ماهية المرجع (ما هذا؟) وتسميته وتوضيحه، والحد من تناسل مقوماته، وإبراز مزاياه ومنافعه. وغالبا ما تستخدم الأفعال اللغوية المباشرة أو غير المباشرة لحث المشاهد على البحث عن المادة المعروضة في الأسواق واقتنائها.

ـ التطويع الاستهوائي : يقدم المحكي مقارنة بين ما قبل إصلاح المنزل (طلاء زيتي قاتم، الدواليب الخشبية المليئة بالصراصير، دواليب الصاج التي أكلها الصدأ) وما بعده (اكتست جدرانه وأرضيته بالسيراميك الملون المستورد، واستبدلت المواسير والحنفيات البالية بأخرى إيطالية ذات لمعان سوبر ديوتي أو طويل المفعول) وذلك لحفز المشاهد على الانخراط في مسيرة الهدم والبناء لضمان مسكن يدخل البهجة والسرور، ويبعث على الفخر والاعتزاز.

ـ التطويع التمرسي : لا يعتمد المحكي المؤطَّر على الكلام والأهواء، بل يقدم إنجازا لتقليده واحتذائه. ويتجلى في اضطلاع ربة منزل بتحطيم جدران ودواليب المطبخ، وإصلاحه وتأثيثه وتزويده بالمعدات من الطراز الرفيع.

ويمكن أن نشخص ما تقدم في الخطاطة التالية :

المتلفظ ⟵	المحكي المؤطر ⟵	المتلفظ له
- اضطلاع التلفاز المصري بالفعل الإقناعي. - ممارسة مختلف أشكال التطويع. - المقصدية : توجيه المصريين إلى سلوكات جديدة لمواكبة سياسة الانفتاح والخصخصة.	- تقديم مضامين وأهواء الوصلة الإشهارية. - تلخيص مسيرة الشعب المصري في محكي مقتضب متمحور حول ربة منزل.	- اضطلاع المشاهد بالفعل التأويلي - الاقتناع بمسيرة الهدم والبناء.

(خطاطة رقم 4 : البث المرصود مرآتيا).

2-8 تجليات البث المحلي :

ما يبين أن البث المركزي قد أثر في البث المحلي (مقرات العمل، المنازل، الشارع)، هو تبدل سلوك الفواعل وطرائق تلفظها. فذات تريد أن تحطم أسوار المقاطعة المفروضة عليها من طرف زميلاتها في العمل بموضوع مثير. ويتعلق برغبتها في ابتياع الموكيت ، ليس بسبب وهن وتقادم السجادتين، وإنما بغية التواصل مع زميلاتها والتباهي بحمها الاستهلاكي. «ذات هي التي كانت تطالب في الأيام الأخيرة بالموكيت، ليس فقط لأن السجادتين المفروشتين في الصالة أصابهما الوهن، وإنما أساسا من أجل موضوع مثير للبث تقتحم به أسوار المقاطعة المضروبة حولها» ص 160.

حركت الأبراج السكنية الجديدة في نفسية عزيز الرغبة في بث إلى زوجته صفية وإلى ذات قصة تحول عبد المنعم جابر في سنوات معدودات من عامل نسيج إلى مالك ومهرب كبير. «لم تخل الرحلة من البث : فالأبراج السكنية الجديدة استدعت من عزيز قصة عبد المنعم جابر، الذي تحول في عشر سنوات من عامل نسيج إلى مالك لخمسة أبراج وشركة مقاولات وأخرى للسياحة قبل أن يهرب بالملايين المفترضة من البنوك» ص 126.

تناقل أقران عبد المجيد فضيحة البنك الذي قام بتهريب أكثر من نصف مليار دولار إلى الخارج، وكذا الأخبار المتعلقة بسيرة عبد الرحيم مبروك مدير البنك المفضوح. «فمنذ بعض الوقت أصبح الموضوع اليومي للبث بين أقران عبد المجيد هو فضيحة البنك الذي قام بتهريب أكثر من نصف مليار دولار (600 مليون دولار) إلى الخارج تحت سمع السلطات وبصرها، بل وبموافقة رسمية من البنك المركزي، وتداول العاملون بالطبع الشائعات المتناثرة عن السيرة الشخصية لعبد الرحيم مبروك، مدير البنك المفضوح، والتي لم يعرها عبد المجيد اهتماما إلى أن قرأها بعينه هذا الصباح في

إحدى صحف المعارضة» ص 94.

نكتفي بهذه الشواهد التي تبين أن التلقين المذهبي كان له تأثير على سلوك الفواعل وطريقة التباث فيما بينها. فلا تخلو ملفوظاتها من حب الملك والمال، والتباهي بالممتلكات الجديدة، وتهريب الأموال، والترقي الاجتماعي. وهكذا اقترن البث بالتواصل، والتباهي، والإخبار. ويمكن أن نجمل تجليات البث المحلي في الخطاطة التالية :

الباث ⟵	**الرسالة المبثوثة** ⟵	**المبثوث له**
مقصدية الإخبار والتباهي والتواصل.	أخبار الصحف والرأي العام ،والشائعات،والشؤون الشخصية والعامة.	- التطلع إلى معرفة الأمور الحديثة. - الاقتناع داخليا بجدوى الملكية الفردية والترقي الاجتماعي.

(خطاطة رقم 5 : تجليات البث المحلي).

3-8 ظرفية البث :

يقترن البث تركيبيا بالتلفظ والأهواء. ويتكون التلفظ من ثلاثة أطراف أساسية، وهي : الباث، والموضوع، والمبثوث له. ويتطلب التلفظ من الباث أن يكون ذاتا **عارفة** لها دراية بما سيُبث، وبشروط التلفظ، وبطريقة أدائه. ولا تصبح الذات محققة إلا بعدما تُشخص بالتلفظ، وتصدر عنها أقوال شفهية أو مكتوبة. ومن ميزات الرواية أنها تستطيع أن تطلعنا عن الشفافية الداخلية للفواعل، وترصد المراحل الماقبل-خطابية التي تمر منها الذات (الكمون، والافتراض، والتحيين) قبل أن تصبح لها منزلة تلفظية محددة في الخطاب وبواسطته.

ويهم الجانب الاستهوائي الأدوار الانفعالية التي تنهض بها الذات أثناء عملية التلفظ، فتكون مرتاحة، أو متوترة، أو مرتبكة، أو محترسة.. الخ. وكل دور من هذه الأدوار يؤثر على سير التواصل، ويكون مشروطا بظرفية زمكانية معينة.

في الرواية، تحين الفواعل، على قدر فهمها وحسب إمكاناتها ومحتوياتها، التلقين المذهبي في سلوكها اليومي و محادثاتها المعتادة ، وتنافس جهاز البث المركزي في تلقف الأخبار الطريفة والحديثة، ونشرها بين الجيران والزملاء. ويشغل البث حيزا زمنيا (المساء، والصباح، واليوم) ومكانيا (المنازل، مقرات العمل، الشارع)، ويلائم طبيعة المبثوث له ومستواه الثقافي وماهيته (ذكر أو أنثى)، ويرتهن بالميثاق التحققي الذي يقتضي من الباث تعديل الخبر وحبكه وتطريزه حتى يقتنع به المتلقي، و يخضع لحيثيات الزمان والمكان. وهذا ما سنحاول توضيحه اعتمادا على الشواهد التالية :

«فمنذ بعض الوقت أصبح الموضوع اليومي للبث بين أقران عبد المجيد هو فضيحة البنك الذي قام بتهريب أكثر من نصف مليار دولار..» ص 94.

«لم تضمن ذات برنامج البث المسائي المشترك مع سميحة شيئا عن زيارتها للطبيب» ص 65.

«فمع تكورها المتزايد، وخطوها المتباطئ، ارتفعت درجة اهتمام الماكينات بها، إذ رأت في حالتها مطية صالحة لأهدافها، فقرة افتتاحية البث الصباحي عن آخر التحركات (وجه الأرنب)، فقرة معادة عن متاعب الحمل والمضاعفات والمحظورات...» ص 154.

« لم تشترك ابتهال في الرحلة بسبب ارتفاع مفاجئ في درجة حرارتها، ولهذا لم تسمع ذات بالكارثة إلا صباح اليوم التالي في الأرشيف، إذ كان الحادث على رأس موضوعات البث، بعد أن نشرته الصحف تحت عنوان يطمئن فيه مأمور قسم مصر الجديدة الجمهور..» ص 101.

يستدعي أي زمكان برنامجا خاصا للبث ، ومراعاة فقراته حسب نوعية الخبر، وطبيعة المخاطب. فهناك أخبار وشائعات تشكل الموضوع اليومي للبث نظرا لأهميتها أو خطورتها (على نحو الفضائح والوقائع والشؤون العامة والمحلية). ويتسابق الناس في ترويجها ونشرها واستخلاص العبر منها. ويتناوبون على أداء الدور التلفظي (الباث) والاضطلاع بالدور الاستهوائي (حسب طبيعة المشاعر والانفعالات التي تنتابهم أثناء عملية البث) متخذين مواقف أخلاقية من الخبر المبثوث أومن المتحدث عنه (إدانته أو الاعتزاز به)، ومتصمين بجهة إمكان الكينونة المتمثلة في تقديره أو الاستخفاف به. وينتمي خبر البنك المفضوح إلى هذه العينة، بحيث شغل الناس أياما كثيرة، وحفزهم على اتخاذ مواقف أخلاقية (التعجب من تهريب أموال الخزينة العامة دون رقيب أو حسيب، وبدلا من محاكمة المدير تم تنقيله إلى بنك هونج كونج بمرتب شهري أفضل بكثير من سابقه) .ومع ذلك لم ينفعل عبد المجيد لسماع الخبر، بل تعامل معه برصانة عاقدا المقارنات الضرورية لاستخلاص النتائج الطبيعية.

وتوجد أخبار أخرى عبارة عن مكاشفات يضطلع بها المتلفظون للتعبيرعن مشاعرهم وهمومهم الذاتية، والتباهي بالملك، والتواصل مع الآخرين. وتنتمي الشواهد المتبقية إلى هذه العينة من البث. وإن كشفت ذات عن شؤونها الشخصية لجارتها سميحة، فهي لم تكاشفها بزيارتها للطبيب الذي قرر استئصال أحد ثدييها لإنقاذ حياتها من موت محقق . وما دفعها إلى كتم إصابتها بداء السرطان عن سميحة،

هو أنه سبق لها أن أبدت مرارا إعجابها بثدييها المتكورين. ولما حبلت ذات خفت حدة المقاطعة التي كانت مفروضة عليها من طرف زملائها بالعمل. وأصبح كل زميل أو زميلة ـ خلال فترة بث خاصة ـ يقدم النصائح لذات لتحافظ على سلامتها وصحتها وتضمن النمو الطبيعي لجنينها ، ويراهن على تغيير معتقداتها وسلوكاتها (ومن أهمها فقرة دينية عن الصلوات والأدعية المناسبة)، ويطلعها على مستحدثات الأمور.

وهكذا يتضح، مما سبق، أن البث يلعب دورا استهوائيا في مكاشفة الآخر بالهموم والشؤون الذاتية، وإثارته بالنصائح المفيدة وأساليب المجاملة. وإن أدى دوره الانفعالي المتمثل في فك العزلة مؤقتا (فترة الهدنة) عن ذات، وإشراكها في مناقشة المواضيع المختلفة، وإطلاعها على المستجدات (في مقدمتها موت سبعين تلميذا في حادثة سير مروعة) ؛ فهو يظهر حقائق ويستضمر أخرى. وهذا ما جعله ثابتا في محور التضمن بالإيجاب (العطاء/ الحفظ، أو الظهور / لا كينونة). فوحده الناظم الخارجي (صنف من الساردين) يعرف ما تخفيه الفواعل، وتستره من خبايا وأسرار وخدع. أما على مستوى الظاهر، فباستثناء المقاطعة المكشوفة، لا يوجد أي مؤشر يثبت ما تستضمره الفواعل من مشاعر إزاء ذات.

تتدخل الظرفية في تبدل الخبر من حيث طبيعته و نوعيته. فالبث الصباحي يقترن بالتحاق الموظفين بعملهم، وتنافسهم في بث الأخبار الجديدة. أما البث المسائي، فيتعلق بمكاشفة ذات زميلاتها وصديقاتها بهمومها الشخصية ومتاعبها مع زملائها وزوجها. «لم تتمكن من الإكمال لأن الدموع انهمرت فجأة من عيني ذات، لا بسبب بريخت، وإنما تمهيدا للفقرة التالية في البث. واستمعت صفية في فضول لقصة المقاطعة ثم لشكوى مرة من عبد المجيد انتهت بجملة درامية : «خلاص .. ما عدتش أطيقه» ص 120.

وإذا كان الحدث هاما فهو يستأثر باهتمام الناس، ويصبح مادة إخبارية للنشر والتداول والتأمل لمدة معينة (البث اليومي). وإذا كان البث المسائي أو ما يماثله لا يحتاج كثيرا إلى جهة معرفة الكلام، لأنه عبارة عن مكاشفة مصحوبة بانفعالات (البكاء، والشكوى، والحسرة، والتنهد) يُتوخى منها التأثير في المتلقي (التطويع الاستهوائي) ؛ فإن الضربين الآخرين من البث (البث الصباحي أو البث اليوم) أو ما يماثلهما، يتطلبان كفاية لغوية لنقل الخبر، وإقناع المتلقي بأهميته وصحته وفائدته. وإن كشف المتلقي عن لعبة الظهور والكينونة في ما يبثه له الباث، فهو قد يلوذ بالتطويع المضاد (anti-manipulation) للاحتراس منه وعدم تصديقه. «لا يخص الأمر هنا عدم الاعتقاد، وإنما الاقتناع بعدم الاقتناع»[39].

4-8 قنوات البث :

توجد في الرواية ثلاثة أنواع من قنوات البث، وهي : جهاز البث المركزي، وجهاز سندر، وجهاز البث المحلي.

يتغيا جهاز البث المركزي (التلفاز) التأثير في شريحة كبيرة من المواطنين. وقد قدم وصلة إشهارية دالة على الشروع في سياسة الانفتاح، ثم نشرة إخبارية متمحورة حول طمأنة الرئيس الشعب المصري بتأثير خفض أسعار البترول على الإيرادات ، واضطلاع وزير الحكم المحلي بإبراز أهمية المرحلة القادمة التي ستكون بداية تطور جذري في ديمقراطية التخطيط والتنفيذ.

يوضع جهاز سندر على الفيديو لتمكين أجهزة التلفزيون القريبة من التقاط ما يرسله من أشرطة. وقد استعان به عبد المجيد لمشاهدة ما يبثه له جاره الشنقيطي من أفلام مستعارة من نادي الفيديو.

تقلد أجهزة البث المحلية الجهاز المركزي في التقسيم الزمني للبرامج (برامج صباحية، وبرامج مسائية)، واختيار الفقرات المناسبة (دينية، وسياسية، واقتصادية، وعائلية)، وصناعة مادة البث وتوجيهها، والمراهنة على التواصل والإقناع . «كان لقاء الأيدي فاتحة لالتقاء الشفاه : ونقصد بذلك إعادة تشغيل قناتي البث، وبأقصى قوة، من أجل تغطية الفجوة المعلوماتية التي أحدثتها المقاطعة» ص 278. ولقد سبق أن بينا أن قنوات البث المحلي تنشر ما جَدَّ من الأخبار بدءا مما يتعلق بالشأن العام وانتهاء بالقضايا والأمور الشخصية. وهذا ما يجليه المقطع الحكائي التالي : «هكذا علمت ذات بالتطورات الأخيرة في حياة جارتها، بدءا من إحالة رئيس مجلس مصر الجديدة إلى التحقيق بتهمة تلقي الرشوة، وانتهاء بنوبات القيء المتكررة التي تصيبها» ص 278.

5-8 الخطاطة التركيبية التلفظية :

أ- المقطع المكبر :

بالعودة إلى مختلف التجليات المعجمية والدلالية لوحدة البث ، يمكن أن نخرج بمقطع مكبر (macroséquence) عبارة عن جهاز تلفظي (خطاطة تحدثية مقننة) يتكون من العناصر التالية :

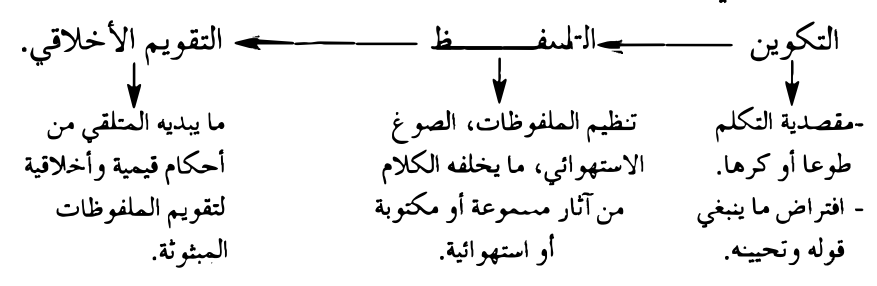
المقصدية ← الحفظ أو العطاء ← البث / أو الصمت / أو الفقدان ← النشر، الذر، التفريق، الإطلاع ، الإظهار، الإخبار المحزن، الإرسال، التواصل، التطويع، التباهي. ← التلقي : الاقتناع أو التطويع المضاد / التقويم الأخلاقي

(خطاطة رقم 6 : المقطع المكبر للبث)

يشترط البث من الناحية التركيبية وجود تواصل بين الباث والمبثوث له، ومراهنة طرف على امتلاك الموضوع وحرمان الآخر منه. فكلما التزم المتكلم الصمت إلا وحرم المتلقي مما يملكه من أخبار ومعتقدات ووجهات نظر (و (ذ3) م ∪ ذ1 ∩ ذ2) ؛ وعندما يتلفظ بها، تصبح في مِلاك الآخرين يتصرفون فيها حسب ما يشاؤون. وعلى الرغم من تفاهة الخبر المبثوث وبساطته، فإن الباث يتوخى منه إقناع المتلقي بأهميته وجدواه، ومطالبته إشراكه معتقداته ووجهة نظره. ولا يتلقى المتلقي مواضيع البث بسلبية كما لو كان وعاء فارغا، بل يستعين بخلفياته المعرفية، ويشغل سبلا استدلالية لتقويمها واتخاذ موقف منها.

ب ـ المقطع المصغر :

يعنى بالمقطع المصغر (microséquence) البحث عن الجهات الضرورية لإنجاز فعل ما. وقبل أن يبث الباث ملفوظاته (الإنجاز)،تحركه حوافز (جهة الرغبة) هي عبارة عن مشاعر وانفعالات إزاء موضوع معين. ويستعين بجهة المعرفة للإحاطة بشروط المقام وبالمواضعات اللغوية، وبجهة الإمكان لبيان قدراته اللغوية في التبليغ والحجاج، وبجهة الواجب لإعطاء الآخرين صورة عن ذاته (بليغ، أو فصيح، أومسلاق، أو مِدْره، أو لَسِن)، أو لعب دور تلفظي مجبر على الاضطلاع به بحكم المهنة أو الظرفية أو المواضعات الاجتماعية (أستاذ، أو أب، أو محام، أو رئيس مجلس النواب..). وتنتاب الباث أزمة استهوائية (القلق، الارتباك، التوتر) يقاومها بكل ما أوتي من حنكة وتجربة لإدراك مبتغاه، والتعبير عن مشاعره ومواقفه دون تردد أو لجلجة. وتخضع الملفوظات المبثوثة للتقويم الأخلاقي من طرف المتلقين لتبين مدى صدقها، ومطابقتها للواقع، واحترامها للسنن والأعراف المتواضع عليها. ويمكن أن تتحدد معالم المقطع المصغر على النحو التالي :



(خطاطة رقم 7 : تمفصلات المقطع المصغر).

ج- الخطاطة المقننة : التحقيق الملموس.

« لم تتمكن من الإكمال لأن الدموع انهمرت فجأة من عيني ذات، لابسبب بريخت، وإنما تمهيدا للفقرة التالية في البث. واستمعت صفية في فضول لقصة المقاطعة ثم لشكوى مرة من عبد المجيد انتهت بجملة درامية : «خلاص ..ماعدتش أطيقه» ص 120.

نورد هذا الاستشهاد لبيان تمفصلات البث في المقطعين المشار إليهما سابقا (المكبر والمصغر). فلما نقرأه بطريقة مكبرة يتضح لنا أن المتلفظة (ذات) تنطلق من مقصدية إظهار همومها ومشاكلها المهنية والعائلية، وإطلاع صديقتها صفية عليها ؛ وذلك لحملها على اعتقادها وتصديقها. وإن كشفت ذات عن بعض مقاصدها (العطاء)، فهي عمدت إلى إخفاء أخرى (الحفظ) بدعوى أن طوق النجاة في الحياة هو تجنب ذكر الحقيقة في أي حال من الأحوال. «هكذا لم تكتم ذات فحسب أن هناك العشرات وليس مجرد «حد تاني»، وإنما أخفت أيضا، وربما عن نفسها أساسا، الدافع الحقيقي الذي أتى بها إلى الاسكندرية» ص 120. ومع ذلك استطاعت صفية بفطنتها وذكائها أن تقاوم التطويع التلفظي والاستهوائي، وتبذل قصارى جهودها لرد ذات إلى جادة الصواب، وتكشف عن تناقضها. «وبالنتيجة كشفت عن تناقضها : «إما أسيبه أو أحبل منه تاني»» ص 120.

يتبين ـ من خلال قراءة مصغرة ـ أن ذات تنطلق من برنامج جاهز ومعيش (المقاطعة المهنية، وتوتر العلاقة مع الزوج)، فتحينه وتحققه لإقناع صفية بوضعها المهني والعائلي المتوتر. وأرفقته بالبكاء وبالجملة الدرامية للتعبير، بصدق، عن مشاعرها وإحساساتها الممضة والمنغصة، وبيان أنها أصبحت غير قادرة على العيش مع عبد المجيد تحت سقف واحد. وبعد أن أصغت صفية إلى الملفوظ المبثوث، حكمت عقلها لتقويمه أخلاقيا، فاستنتجت تسرع ذات في موقفها وضرورة رأب الصدع وإصلاح ذات البين، واستعرضت مزايا عبد الحميد ومحاسنه محاولة منها لإقناع ذات وحفزها على التراجع عن موقفها المتسرع (لا يجري وراء النساء، ولا يلعب القمار، ولا يتعاطى المخدرات، ولا يجلس في المقاهي، بالإضافة إلى أنه يحبها، ولا يهينها، ولا يضربها).

9- الدور التحدثي للبث :

تتناوب العوامل والفواعل في الاضطلاع بالبث. وكل واحد منها يؤديه على طريقته

الخاصة ولغاية محددة. في البداية نرصد أهم الحالات في الجدول أسفله، ثم نستنتج منها المنزلة المعطاة للدور التحدثي.

الشواهد	الدور التحدثي	عوامل البث
1- « قررت أن تعمل بالقاعدة الذهبية، التي تنص على صناعة مادته ولا انتظارها. المهم أنها تحدثت إلى البواب الكهل ...عدة مرات» ص 52.	ـ مقنعة ومطوعة.	ـ تتغيا ذات إقناع البواب بضرورة احترام الميثاق التلفظي الذي ينص على تنظيف السلم، واستبدال الصفائح المعدنية بجرادل بلاستيكية مزودة بالأغطية. ونظرا لعدم تنفيذه، فقد تمت الدعوة إلى اجتماع سكان العمارة لتدارس الأمر من كافة جوانبه.
2- « فمنذ بعض الوقت أصبح الموضوع اليومي للبث بين أقران عبد المجيد هو فضيحة البنك الذي قام بتهريب أكثر من نصف مليار دولار (600 مليون دولار) إلى الخارج تحت سمع السلطات وبصرها ...» ص 94	مظهرون وناشرون ومشيعون.	ـ يتناقل موظفو البنك فضيحة تهريب الأموال إلى الخارج بطريقة مكشوفة دون أن تتخذ السلطات الوصية أي إجراء مناسب.
3- « لم تتمكن من الإكمال لأن الدموع انهمرت فجأة من عيني ذات ، لا بسبب بريخت ، وإنما تمهيدا للفقرة التالية في البث . واستمعت صفية في فضول لقصة المقاطعة الغامضة ثم لشكوى مرة من عبدالمجيد انتهت بجملة درامية : «خلاص.. ما عدتش أطيقه» ص 120 .	ـ مظهرة ومقنعة.	- تكشف ذات عن همومها العائلية والمهنية محاولة منها لإقناع صفية بالتعاطف والتجاوب معها، ومشاركتها أحزانها ومآسيها.

4- «كان في صحبة ماكينة بث من نوع آخر : شيخ العرب.. وما كان شيخ العرب ليصمد أمام إغراء مستمع جديد» ص 121.	- مظهر ومقنع وفتيق اللسان.	-يحدث الشيخ متلقيه (عبدالمجيد، وذات، وصفية) عن ماضيه المجيد الحافل بالبطولة والمغامرة. لكن خيط التواصل انقطع بسبب انجذاب المتلقين إلى متابعة البرامج المتلفزة. وهو ما أرغم الشيخ على الانسحاب في وقار.
5- «فقد أبدى السكان -شأنهم شأن بقية المصريين- انصياعا تاما للتوجيه الذي تلقوه عبر جهاز البث المركزي في صورة ربة منزل تنهال بالمطرقة على جدران مطبخها..» ص 54.	- مقنع وموجه ومطوع.	- تتوجه وكالة الإشهار إلى عموم الشعب المصري لاستبدال معتقداته السياسية والاقتصادية (الاشتراكية) بأخرى (الليبرالية الاقتصادية والخصخصة).
6- «فمع تكورها المتزايد، وخطوها المتباطىء، ارتفعت درجة اهتمام الماكينات بها ، إذ رأت حالتها مطية صالحة لأهدافها : فقرة افتتاحية للبث الصباحي عن آخر التحركات..» ص 154.	- ناصحون ومقنعون .	- يفك الموظفون العزلة مؤقتا عن ذات تعاطفا معها بوصفها حاملا. ويستغلون وضعها الجديد لتقديم نصائح وإرشادات لها حتى تعتني بجنينها.
7- «ذات هي التي كانت تطالب في الأيام الأخيرة بالموكيت، ليس فقط لأن السجادتين المفروشتين في الصالة أصابهما الوهن، وإنما أساسا من أجل موضوع مثير للبث تقتحم به أسوار المقاطعة المضروبة حولها» ص 160.	- مظهرة ومكاشفة ومقنعة.	- تتغيا ذات فك العزلة المضروبة عليها من طرف زملائها في العمل بإظهار رغبتها في استبدال الفراش المتآكل والمتقادم بآخر جديد ومتماش مع التقليعة.
8- « لم تخل الرحلة من البث: فالأبراج السكنية الجديدة استدعت من عزيز قصة عبد المنعم جابر، الذي تحول في عشر سنوات من عامل نسيج إلى مالك لخمسة أبراج وشركة مقاولات وأخرى للسياحة قبل أن يهرب بالملايين المقترضة من البنوك» ص/ص 126/125.	- مطلع ومقنع ومستنكر ومدين.	يحكي عزيز قصة عبد المنعم لزوجته صفية وصديقتها ذات لبيان ما رافق سياسة الانفتاح من مظاهر اجتماعية فظيعة كالتهريب والاغتناء السريع.

(جدول رقم 5 : الأدوار التحدثية لوحدة البث)

من خلال هذه الشواهد نستنتج ما يلي :

أ- وردت وحدة البث في سياقات مختلفة، مستقطبة عوامل تلفظية مختلفة، ومستتبعة أدورا تحدثية متباينة. فهي تقترن تركيبيا بثلاثة عوامل تلفظية عامة قمينة باستيعاب كافة الأدوار التحدثية المتعلقة بها (الذات 1، والموضوع، والذات 2). وعندما توظف هذه العوامل في الخطاب تُشحن بدلالات مناسبة، وتتحمل وظائف خاصة، وتنهض ببرامج خطابية محددة. وينضاف الدور التحدثي إلى الأدوار المتعارف عليها سيميائيا (الدور العاملي، والدور الفاعلي، والدور الانفعالي) على نحو يكون فيه خاضعا لمنطق الأشباه التلفظية (الصورة التي يريد المتكلم أن يكون عليها)، وموظفا ترسانة من المواضعات والسنن اللغوية الملائمة لإرغامات المقام (يحتم مقام الفصل أن يتكلم الأستاذ بهذا الشكل، لا غيره)، ومستثمرا الكفاية المعرفية للمتح من الخزان اللغوي المجرد الذي يتقاسمه أفراد المجموعة اللغوية كما لو كان معجما متماثلة نسخه (ملكة الفرد في توظيف اللسان). وهكذا قد يؤدي المتكلم أدوارا سيميائية في الوقت نفسه. فعلى سبيل المثال يجمع عزيز في الشاهد (السابع) دفعة واحدة بين الدور العاملي (عامل مساعد)، والدور الفاعلي (موظف، ومتزوج)، والدور الانفعالي (غير مساند لسياسة الانفتاح، وممتعظ من مظاهرها المستبشعة)، والدور التحدثي (فاعل داخلي **يطلع** زوجته وصديقتها على قصة عبد المنعم، **ويقنعهما** بما صاحب سياسة الانفتاح من مظاهر خطيرة، ثم **يدينها ويستنكرها**). وفي الشاهد الأول تضطلع ذات بالأدوار التالية : الدور العاملي (ذات فاعلة)، والدور الفاعلي (ربة بيت، وموظفة)، والدور الانفعالي (مُحَمِّسة، ومحرضة)، والدور التحدثي (مقنعة، ومطوعة).

ب- يؤدي المتكلم أدورا تحدثية متعددة ، ويتنقل من دور إلى آخر . وليست تلك الأدوار دائمة بل ظرفية تستدعيها مقتضيات المقام وأحواله. ففي الشاهد الأول، تحمل ذات دور المطوع والمقنع لحض الحارس على القيام بالواجبات المتفق عليها. ونتيجة فشلها في مهمتها (ممارسة الحارس للتطويع المضاد)، عقد سكان العمارة اجتماعا عاما للتداول في الأمر من جوانب مختلفة. وفي الشاهد السابع ، اقتضى المقام من ذات أن تثير موضوعا جذابا لجلب انتباه زميلاتها، وحفزهن على التحدث معها. وقد استطاعت بقدرتها الإقناعية أن تتفوق في مهمتها، وتتباهى أمام من يكن لها الحقد والبغضاء.

ج- سبق لنا، فيما قبل، أن فحصنا وحدة البث معجميا، فاستخرجنا من المعجم مرادفاتها وأضدادها. وبعد توظيفها في الرواية، استقطبت مصانف جديدة جعلتها تؤدي وظائف تحدثية (الإقناع، والتطويع، والإشاعة) ووظائف استهوائية (التباهي،

والتحميس، والتحضيض) من نوع آخر. وإلى جانب استضمارها لجهات أساسية (على نحو الحمل على الاعتقاد، وواجب الكينونة، ومعرفة الكلام)، فقد استدعت بالضرورة جهة معرفة الحكي (savoir-raconter)، وجهة معرفة التشخيص (savoir-représenter) . فعندما يزاوج المتكلم بين الإقناع والإمتاع، فهو يسلب من المخاطب مقاومته، ويخفف من حدة رفضه، ويحمله على تصديق مواقفه طوعا. وفي هذا السياق، يمكن أن نستدل بالشواهد التالية : في الشاهد الرابع، يسخر الشيخ قدراته الحكائية لإمتاع متلقيه بأمجاده وبطولاته. وفي الشاهد الخامس، يوظف التلفاز الصورة الإشهارية ليكون أقدر على مخاطبة فئات عريضة من المواطنين والتأثير فيهم، وإقناعهم بالمسيرة الوطنية للهدم والبناء. وفي الشاهد الثامن ، يقدم عزيز محكيا بسيطا لإقناع مخاطبتيه بما آلت إليه الأوضاع بعد تنفيذ سياسة الانفتاح، ثم حضهما على استبشاعه وإدانته.

د- لقد سبق لنا أن أبرزنا الطابع الزمني المستضمر في الوحدات الكلامية. فالكشف عن السر يضع حدا نهائيا للكتمان. وتتسم الإشاعة بالتكرار والاستمرارية. ويمهد الإظهار (الشروع) لما سيأتي في المستقبل القريب أو البعيد. وبتوظيف وحدة البث في سياقات مختلفة، تباينت وجهاتها على النحو التالي :

الشاهدان : 1+7	≈	الشواهد : 2+5+6	≈	الشواهد : 3+4+8
الشروع		الاستمرارية		الانقطاع

وإن اشتركت الشواهد (2، و5، و 6) في مقوم [+ الاستمرارية]، فهي تتباين في سعة مدتها. فالدعاية لسياسة الانفتاح تستغرق سنوات كثيرة (الشاهد الخامس). أما الحمل فيدوم شهورا معدودات (الشاهد السادس). أما الإشاعة فتشغل الناس أياما محدودة فينطفئ وهجها وزندها (الشاهد الثاني).

ج- يبرم الباث والمبثوث له ميثاقا تحققيا، وهو عبارة عن تعاقد ضمني وأخلاقي يقتضي من الأول قول الحقيقة، ومن الثاني تصديقها. ونادرا ما يحترم الطرفان القواعد المتفق عليها. وذلك نتيجة التخلي عن القيم الأصيلة، وتفاقم ظواهر التدليس والتضليل والافتراء. و لا يتوخى الباث غالبا إيصال خبر ما إلى المتلقي، بل يسعى إلى تغيير معتقداته، والتأثير في محيطه المعرفي. كما أن هذا الأخير لا يستسيغ ما يعرض عليه من معلومات إلا بعد تفكيكه وتأويله وإثباته، ومعرفة المقصدية التواصلية التي ينطلق منها الباث. ومصداق هذا الكلام ينطبق على الشواهد نفسها. فكل متكلم يتظاهر بقول الحقيقة، «ويبرز ظهورا ما (paraître) على نحو يكون فيه شبيها لما لا يمثله »[40] أو كما لو كان مماثلا للكينونة. ومن ميزات الرواية أنها تستطيع أن تكشف عن لعبة

الحقيقة بإبراز كل شخصية على حقيقتها، وبالنفاذ إلى تمثلاتها ولغتها الداخلية. و لقد سبق أن أشرنا إلى أن الناظم الخارجي ـ من بين حالات عديدة ـ بيَّن البون بيْن ما تتظاهر به ذات أمام صديقتها صفية وبين ما تخفيه وتكتمه من أسرار . « لم تكتم ذات فحسب أن هناك العشرات وليس مجرد «حد تاني»، وإنما أخفت أيضا، وربما عن نفسها أساسا، الدافع الحقيقي الذي أتى بها إلى الإسكندرية، وهو إشعال إحدى الجمرتين الخامدتين في حياتها الروحية القاحلة، الأمر الذي تبين من الوهلة الأولى عدم جدواه» ص 120. ولم تكن صديقتها متلقية سلبية، بل كانت تتوسل بسبل استدلالية لمعرفة نسبة الحقيقة في الأخبار المبثوثة، و استطاعت بالفعل أن تكشف عما يعتريها من تناقض. ومن خلال الشواهد المعروضة يتبين أن أغلب الأخبار (الإشهار، الإشاعة، الشكوى، قصة عبد المنعم جابر، أمجاد وبطولات الشيخ ..) إنما تتظاهر بقول الحقيقة (محور لا كينونة - الظهور أو محور العطاء - الأخذ)، وتتصرف في المبثوث، وتدخل عليه تعديلات وتحسينات حتى « تحصر آثار التواصل واللاستقرار الناجم عن التأويلات المُحْترسة جداً التي تتحكم فيها مقاصد الآخرين »[41].

خاتمـة :

مما تقدم نخرج بالخلاصات التالية :

أ- ليس للتلفظ وجود إلا بواسطة الخطاب، لذلك لم نكتف بالنوى الدلالية والتركيبية التي يتشكل منها، وإنما استعنا بالمعجم بوصفه استعمالا وتجليا ثقافيا، وعاينا استخدام الوحدة الكلامية الكبرى في خطابات متعددة. فبالإضافة إلى إعادة بنائها سيميائيا، كان همنا منصبا على إبراز بعدها التلفظي : تفاعل عوامل التلفظ ودخولها في علاقة بين-ذاتية (مقصدية الذات 1، والنزوع الدلالي للذات 2، ورواج الموضوع بينهما)، وامتثال الباث للإيديولوجية الجماعية (مجموع الشروط التي ينبغي للمتكلم احترامها)، واستحضار الوحدة الكلامية للمحفل الثقافي والخصوصية الحضارية (الممارسة التلفظية)، واعتضاد الكلام بالصوغ الاستهوائي (pathèmisation) وبالإشارات لتقوية حظوظ إدراك المبتغى، وحفز المتلقي على إصدار أحكام إيجابية.

ب ـ لقد سبق لكريماص (A.J. Greimas) وفونتاني (J.Fontanille) أن بينا في كتابهما المشترك (**سيميائية الأهواء، 1991**) مدى محدودية التحليل المعجمي وعجزه عن فهم دينامية الاستعمالات في سياقات جديدة. لذلك عالجا هويين (البخل والغيرة) بواسطة دراسة «ممتدة»، تستند إلى المعطيات النصية المتعددة والمتنوعة، وتعتمد على استعمالات الكتاب من حقول معرفية متباينة. وكانا يسعيان أساسا إلى إغناء النماذج التركيبية، وفهم تنظيم التمظهر المعجمي ـ الدلالي في كليته[42]. وهكذا أكبَبْنا على

مقاربة النزوع الدلالي لوحدة البث في إطار التفاعل الجدلي بين المستوى السيميا-حكائي (المسارات الوجودية، والبرامج الحكائية، والتنظيم الجهي) وبين المستوى الخطابي (نشدان الصورة المستهدفة، توقع الأشباه التلفظية بوصفها محافل مفترضة أو محافل تضطلع بها كائنات ورقية كما لو كانت كائنات بشرية). وقد أسعفنا هذا التفاعل على استنتاج النموذج التركيبي للبث، وخطاطته التركيبية التلفظية، ونسقه الدلالي المصغر، وتنظيمه الجهي (وفي مقدمته الحمل على الاعتقاد، وواجب الكينونة، ومعرفة القول)، ودوره التحدثي .

ج- إن تخطيب البث روائيا أضاف إلى الخطاطة التحدثية الأصلية مقوم الإرسال الذي فرضته الثورة الإعلامية. ونظرا لكثرة استعماله وتداوله أصبح بديلا للمقومات المتعارف عليها قديما (التفريق، والذر، والنشر)، بدعوى أنه يحتويها ويشملها.

الهوامش :

1- Groupe d'entrevernes, Analyse sémiotique des textes, éd.Toubkal , 1987, pp 24-28.
2- Dubois (Jean et Claude), Introduction à la lexicographie, Larousse, 1971, p 9.

3- هناك موقف (ابن فارس وثعلب) ينكر ظاهرة الترادف بدعوى وجود اسم واحد، وما بعده مجرد ألقاب وصفات. وهناك موقف ثان يقر بظاهرة الترادف. و في هذا الصدد يقول سيبويه متحدثا عن خصائص اللغة العربية : «اعلم أن من كلامهم اختلاف اللفظين لاختلاف المعنيين، واختلاف اللفظين والمعنى واحد، واتفاق اللفظين واختلاف المعنيين .. واختلاف اللفظين والمعنى واحد نحو ذهب وانطلق».
محمد إقبال عروي، « السيميائيات وتحليلها لظاهرة الترادف في اللغة والتفسير »، عالم الفكر، المجلد الرابع والعشرون، العدد الثالث، يناير/ مارس، 1996، ص 197.

4- الزركشي، المرجع نفسه ،ص 201.

5- ابن منظور، لسان العرب المحيط، أعاد بناءه على الحرف الأول من الكلمة يوسف خياط، دار الجيل، دار لسان العرب، بيروت، ج 1، 1988 مادة بثث ع 2/1 ص 158 .

6- الكفوي (أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني)، الكليات، معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، قابله على نسخة خطية وأعده للطبع ووضع فهارسه د عدنان درويش، محمد المصري، الرسالة، ط1، 1992، ص/ص 246 / 247 .

7- ابن منظور، لسان العرب المحيط، م.سا، مادة نشر، ج 6، ص 636.

8- ابن منظور، المرجع نفسه، مادة ظهر، ص 658.

9- بن حزم (أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد)، طوق الحمامة في الألفة والألاف، حققه وصوبه وفهرس له حسن كامل الصيرفي، مطبعة الاستقامة بالقاهرة، [د.ت]، ص 39. [حتمت مقتضيات السياق تحويل المضارع إلى الماضي] .

10- ابن منظور، لسان العرب المحيط، م.سا، ع 3، ص 604.

11- A. J Greimas et J.Fontanille , Sémiotique des passions , Seuil , 1991, p117.

11- «فلا يتحمل الإيجاز في موضع الإطالة فيقصر بلوغ الإرادة، ولا الإطالة في موضع الإيجاز فيتجاوز مقدار الحاجة إلى الإضجار والملالة، ولا يستعمل ألفاظ الخاصة في مخاطبة العامة، ولا كلام الملوك مع السوقة، بل يعطي لكل قوم من القول بمقدراهم، ويزنهم بوزنهم، فقد قيل : لكل مقام مقال»، الكاتب (أبو القاسم)، البرهان في وجوه البيان، تحقيق أحمد مطلوب وخديجة الحديثي، مطبعة العاني، بغداد، 1967، ص 194.

13- ابن منظور، لسان العرب المحيط، م.سا ، ج 5، مادة كتم ، ع 2/1، ص 221.

14- يقول الله تعالى : ﴿إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون﴾، البقرة ، 159 .
ويقول في موضع آخر : ﴿وإذا أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لَتُبَيِّنُنَّهُ للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمنا قليلا فبئس ما يشترون﴾، آل عمران ، 187.

15- ويروى عن أبي هريرة قال الرسول (ﷺ) : « من سئل عن علم فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار».

16- الكفوي، الكليات، م.سا، ص 313.

17- ابن منظور، لسان العرب المحيط، م.سا، ع 1،ج 5 ص 390.

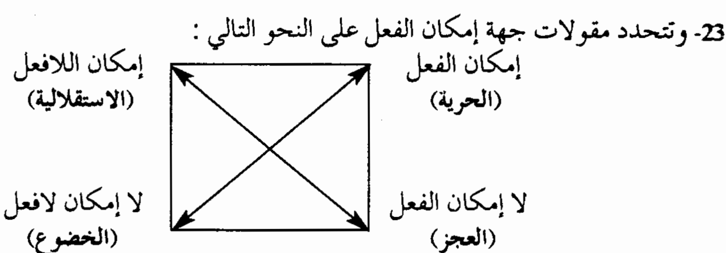
18- عبد السلام المسدي، التفكير اللساني في الحضارة العربية، الدار العربية للكتاب، ليبيا/ تونس 1981، ط1، ص 305.

19- الكفوي، الكليات، م.سا، ص 290.

20- ابن منظور، لسان العرب المحيط، م.سا، ج1، ع 3، ص 650.
21- الكفوي، الكليات، م.سا، مادة حصر، ص 360.

22- A.J. Greimas et J. Courtés, Sémiotique Dictionnaire raisonné de la théorie du langage, Hachette. 1979, p 287.

23- وتتحدد مقولات جهة إمكان الفعل على النحو التالي :



24- A.J Greimas et J.Coutés, Sémiotique Dictionnaire raisonné de la théorie du langage, op.cit, p 286.

25- الثعالبي (أبو منصور)، كتاب فقه اللغة، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، [د.ت]،ص 72.

27- ابن جني، عبد السلام المسدي، التفكير اللساني في الحضارة العربية، م.سا، ص 290.

28- A.J.Greimas et J.Courtés, Sémiotique .Dictionnaire... op.cit ,p 98.

29- معرفة حسن الكلمات وسلاستها وجريانها على القياس الصحيح. وقد أورد أبو منصور الثعالبي الصور التالية : «إذا كان الرجل حاد اللسان قادرا على الكلام فهو ذرب اللسان وفتيق اللسان . فإذا كان جيد اللسان فهو لسنٌ .فإذا يضع لسانه حيث أراد فهو ذليقٌ. فإذا كان فصيحا بين اللهجة فهو حُذاقي (عن أبي زيد). فإذا كان مع حدة لسانه بليغا فهو مسلاقٌ . فإذا كان لاتعترض لسانه عقدة ولا يتحيف بيانه عجمة فهو مصقع . فإذا كان لسان القوم والمتكلم عنهم فهو مِدْرَهٌ»، كتاب فقه اللغة، م.سا، ص 72.

30- A. J.Greimas et J.Fontanille , Sémitique des passions , op.cit ,p141.

31- Ibid , p 141.

32- انظر إلى : 4- معالم مشروع سيميائية الكلام (الفصل الأول).

33- آخذنا هذه الشواهد الشعرية من القرص المندمج (CD.Rom) المعنون ب « الموسوعة الشعرية »، المجمع الثقافي، الإمارات العربية المتحدة، أبوظبي، الرقم 0806 99041 - [د.ت].

34- « زليخة ويوسف عام 1999 »، جريدة الأحداث المغربية، العدد 301، 8 أكتوبر 1999 (نقلا عن صحيفة العربي الأسبوعي)

35- اقتطفنا هذه النتف من ملحق إذاعة وتلفزة، جريدة الإتحاد الاشتراكي، 4، أكتوبر، 1999.

36- هربرت أشيللر، المتلاعبون بالعقول، ترجمة عبد السلام رضوان، عالم المعرفة، الإصدار الثاني، عدد 243، 1999، ص 247.

37- يعد أندريه جيد هو أول من صاغ مفهوم الإرصاد المرآتي في يومياته (1939/1889) «أحب كثيرا أن نعثر في العمل على موضوع هذا العمل نفسه منقولا على مستوى الشخصيات. لاشيء ينير الموضوع ويوطد أبعاد المجموع أثبت من ذلك . وهكذا توجد في لوحات مملنغ (Memling) أو كونتين متزيس (Quentin Metzys) مرآة صغيرة محدبة داكنة تعكس بدورها داخل الغرفة الذي يجري فيها المشهد المرسوم. وهو ما نعاينه أيضا في لوحة الوصيفات لفلاسكيز (Velasquez) (لكن مع اختلاف طفيف). ونجده أخيرا في الأدب، في مشهد من إحدى مسرحيات هاملت (Hamlet)، وفي مسرحيات أخرى وكذلك مشاهد العرائس وحفلات القصر في وليام مستر..» .

ويحيل تعريف جيد إلى تلميحات فيكتور هيجو : «كل أعمال شكسبير باستثناء عملين (ماكبيث ، وروميو وجولييت، أربع عشرة مسرحية على ست عشرة) تكشف خصيصة يبدو أن المعلقين والنقاد المرموقين

لم يعيروها أهمية لحد الآن .. وهي فعل مضعف يخترق المسرحية ويعكسها صغيرة. فإلى جانب العاصفة في المحيط الأطلسي توجد عاصفة في كوب الماء..»

أنظر في هذا الصدد إلى :

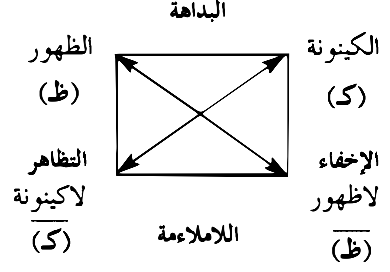
Lucien Dällenbach ,le récit spéculaire Essai sur la mise en abîme , Seuil, 1977, p 15/16.

38- Barthes (Roland), «Rhétorique de l'image », Poétique, n 4,1964, p 44.

39- A.J.Greimas et J.Fontanille, Sémiotique des passions, op.cit 241.

40- Peter Aege Brandt et Roberto Flores, «Niveaux et stratégies de là véridiction », Actes sémiotiques , n° 39 /40, 1999 , p 5.

وفي هذه الدراسة اقترح الباحثان السيميائيان مصطلحية محايدة للتحقق على النحو التالي :



41- Pierre Livet, «Limitations cognitives et communication collective », in Introduction aux sciences cognitives , sous la direction de Daniel Andler, coll, Folio/Essais ,Gallimard, 1992 , p 471.

42- A.J.Greimas et J .Fontanille , Sémiotique des passions , op.cit , p;190.

الفصل الثالث :

التمظهرات المعجمية والدلالية
للحديث و الشكوى و الطلب

تمهيـد :

سيرا على نهج الفصل السابق، سنخصص هذا الفصل لاستخراج الوحدات الكلامية الكبرى من الروايات الحافة (**الضوء الهارب** لمحمد برادة، **برج السعود** لمبارك ربيع، **شطح المدينة** لجمال الغيطاني) لتحليلها **معجميا ودلاليا** (إبراز تمظهراتها). وما يهمنا أساسا هو استنتاج بعض الضوابط والثوابت المنهجية القابلة للتعميم على أية وحدة كلامية، والمدعمة لاستقلالية البعد الكلامي داخل النظرية السيميائية.

1- التمظهرات المعجمية والدلالية للحديث :

يعد **الحديث** وحدة كلامية كبرى في رواية **الضوء الهارب** لمحمد برادة. وهي تندرج ضمن مقولة **الكشف والإخبار**. وتستقطب هذه الوحدة الكلامية طرفي التلفظ التاليين : المحدِّث والمحدَّث.

فالمحدِّث هو من ينجز الحديث ويكثره. وقد أشارت المعاجم إلى أصناف المحدثين على النحو التالي :

- رجل حدوث : من كان حسن الحديث.
- هو حِدْث نساء : يتحدث إليهن.
- هو حِدْث ملوك : صاحب حديثهم وسمرهم.
- رجل حَدِثٌ وحِدِّيثٌ ومحدِّثٌ : كثير الحديث، حسن السياق.

أما المحدَّث، فهو من يتناهى إلى سمعه الحديث في يقظته أو نومه. وهو ليس عنصرا سلبيا يكتفي بالإصغاء، بل يعد عنصرا إيجابيا في حث المحدِّث على تقدير كلامه مع مراعاة نشاط مخاطبه ومرتبته.

وما يجري بين الطرفين ويدور بينهما هو الحديث . ولما نستقرئ بعض المعاجم نجد أن معجمية الحديث تفيد التعاريف التالية :

- الخبر[1].

- هو اسم من التحديث وهو الإخبار[2].

- النطق يحتاج إلى مخرج ومؤد ليصير كلاما، والكلام يحتاج إلى عبارة ونظم ولفظ ليصير قولا، والقول يحتاج إلى حركة وآلة وقطع صوت ليصير حديثا، والحديث يحتاج إلى قلب ذكي وسمع فهيم، فيرجع إليه كما بدا ليصير سماعاً[3].

ـ كل كلام يبلغ الإنسان من جهة السمع أو الوحي في يقظته أو منامه [4].
ـ إيصال المعنى من ذهن إلى آخر بواسطة الكلام[4] .
ـ المروي من أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم، ويسمى كذلك خبرا [5] .
وتتضمن هذه التعاريف المعجمية المعاني التالية:

أ ـ الرواية والإخبار : ما يروى من أقوال الرسول (ﷺ). ويأتي في مقدمته الحديث الصحيح لسلامة لفظه من الركاكة ومعناه من مخالفة آية أو خبر متواتر أو إجماع. ويرى محمد علي التهانوي أن الخبر أعم من الحديث لكون الأول يصدق على كل ما جاء عن النبي وغيره، ولكون الثاني يختص بالنبي لاغير[6]. وقيل بينهما عموم وخصوص مطلق. فكل حديث خبر من غير عكس[7]. ويستنتج سعيد يقطين من كلام التهانوي عن الموضوع نفسه أن الحديث قول مباشر يضطلع به المتكلم ، في حين يقوم الراوي بالخبر. وتبعا لذلك نجد الخبر يختلف عن الحديث، اختلاف المتكلم عن الراوي. ولا يلغي هذا الاختلاف التداخل بينهما[8].

ب ـ الإيصال : كل ما ينطق به المحدِّث فيتناهى إلى سمع المتلقي ليعلمه. وقد اصطفى الله صفوة من البشر ليوحي إليهم ، ويكلفهم بنشر رسالته على وجه الأرض.

ج ـ الإيجاد : تتكون مادة لفظة الحديث من ثلاثة أحرف (الحاء والدال والثاء) من أصل واحد، وهو كون الشيء لم يكن[9]. وهكذا يعنى بالحديث الكلام الذي يحدث منه الشيء بعد الشيء. ولا يسمى الكلام كلاما إلا بعد أن يصير حدثا منجزا ومدركا له حيز في الزمان والمكان. وما ينقص الأبكم هو القدرة على إحداث الكلام وإنجازه. ولذلك يستعين بالإشارات والإيماءات ليبلغ بها البغية.

ونتيجة تقاطع المقطع المكبر بالمقطع المصغر نحصل على الخطاطة التالية :

المقصدية ← الحفظ ← التحدث ← | ـ الإيجاد ← التلقي :
والعطاء | أو الصمت | ـ الإيصال | الاقتناع
| أو الفقدان | ـ الإخبار | أو التطويع المضاد
التقويم الأخلاقي

(خطاطة رقم 8: المقطع المكبر للحديث)

نعاين في الخطاطة العناصر نفسها تقريبا التي استقطبها المقطع المكبر للبث. فطرفا التلفظ يراهنان بشكل كبير على التواصل بوصفه ميثاقا أوليا يمكنهما من تبادل وجهات نظرهما ، والاضطلاع بالبرنامج الحكائي الأساسي (الإخبار). ولما تتعرض علاقتهما لأزمة استيثاقية (crise fiduciaire)، فهي تؤثر على تواصلهما بحدوث قطيعة (انتفاء

الحديث المباشر) أو شجار بينهما (تبادل السباب والشتائم). وفي كل الأحوال يلعب الكلام دورا أساسيا في تعكير الأجواء أو تلطيفها، وفي تنغيص عيش فلان أو رد الاعتبار له. كما ينبغي للمتكلم ألا يزعم بأنه مالك الحقيقة وأهل للتصديق، وإنما يطلب من غيره مشاركته اعتقاده بالحجج والبراهين ، ويضع في حسبانه أن المتلقي ينطلق من معتقداته الخاصة لتفكيك ما يتلقاه منه وتأويله وتقويمه.

ويستتبع البرنامج الحكائي للإخبار في المقطع المصغر دينامية جهية (معرفة القول، ومعرفة الحكي، والحمل على الاعتقاد)، وتتنوع وجهاته بحسب طبيعته كما يلي : تشمل **الاستمرارية** كل ما يندرج ضمن النوع الحكائي ويثار في مختلف أصناف المجالس[10]، وتدخل ضمن **الانقطاع** ضروب المخاطبات والمكالمات الهاتفية، وتتسم أحاديث المغازلة والمفاوضات بصبغة **الشروع** . وكل ما يتحدث به المتلفظ أو يعترضه في حديثه (العي، والنسيان، والصمت، وثقالة اللسان وعيوبه) إلا ويخلف آثارا استهوائية في نفسية المتلقي وردوده، ويؤثر في سيرورة البرنامج الحكائي المضطلع به، ويخضع في النهاية إلى تقويم أخلاقي. وفي هذا الصدد لابد من الإشارة إلى أن المحدثين يعرفون، بصفة إجمالية، مكونات **الخطاطة التحدثية المقننة** ؛ وخاصة ما يتعلق بالتكوين (لكل مقام مقال) والتقويم الأخلاقي (تثمين الكلام وتقديره). وهذا ما يقتضي منهم تحضير مشروع كلامي يستوعب السيناريوهات الممكنة تفاديا لوقوعهم في أي زلة أو ورطة، وتحسبا لأي طارئ من الطوارئ.

1-1 الكفاية التحدثية :

تتكامل مختلف التعاريف المعجمية في أداء البرنامج الحكائي للإخبار والإيصال والإيجاد. ويحيل هذا البرنامج في شق منه إلى المرجعية الدينية (الوحي والحديث)، مبينا ما يتمتع به الرسول من كفاية للتعبير عن الحقائق الدينية (الحديث النبوي) والإعراب بلفظه وعبارته عما تلقاه من الله بالإلهام والمنام (الحديث القدسي)، وما يتسم به بعض المحدثين والرواة من قدرات ومواصفات لنقل الحديث، وتمييز صحيحه من ضعيفه.

ويقتضي البرنامج الحكائي من المحدِّث التوفر على قدرة الإنجاز التي تمكنه من استعمال الصيغ اللسانية المقعدة في سياق ملموس ؛ وذلك لإيصال إلى محدَّثه ما يتلجلج في صدره من مواقف وانفعالات.

وتتطلب وحدة الحديث **ميثاقا تحققيا وتلفظيا وأخلاقيا** بين المحدِّث والمحدَّث. فإذا كان الأول يضطلع بالفعل الإقناعي، ويزعم قول الحقيقة، وينشد الفصاحة في كلامه ؛

فإن الثاني ينهض بالفعل التأويلي، ويستخدم خلفياته المعرفية، وينتخل ما يتلقاه لتصديقه أو رفضه. ولما يحدث المحدِّث مخاطبه في سر معين، فإن الأمانة تستلزم حفظه وكتمانه والمنفعة به.

ولقد سبق أن رأينا أن المحدِّث يؤدي أدوارا تلفظية متعددة (الحدوث، حِدْث ملوك، حِدْث نساء، حدِّيث). وكل دور منها يستتبع كفاية تحدثية خاصة وبرنامجا حكائيا ملائما للاستعمال، وذلك حتى يكون المضطلع به عند حسن ظن محدثه. ينبغي للحدوث أن يكون لسانه سالما من العيوب، ويتجنب الكلام الفطير الذي لم يخمره التدبر والتفكير، ويخاطب الناس على قدر أفهامهم، ويستخدم الجد والهزل في محلاته، ويوجز أويطنب على مقدار احتمال المستمعين ونشاطهم. «فإذا تبين منهم إعراضا عنه وتثاقلا عن استماع قوله، خفف عنهم، فقد قيل : من لم ينشط لكلامك فارفع عنه مؤونة الاستماع منك» .[11] إن مبالغة الحدِّيث في الحديث محبوبة ومطلوبة في بعض المقامات ، وخاصة تلك التي يغلب عليها الطابع التعليمي. ومجلاه إيصال المعلومات إلى جمهور عريض بالشرح والتمثيل. إن «الإيجاز ينبغي أن يستعمل في مخاطبة الخاصة وذوي الأفهام الثاقبة الذين يجتزئون بيسير القول عن كثيره وبمجمله عن تفسيره ... أما الإطالة فهي مخاطبة العوام، ومن ليس من ذوي الإفهام، ومن لايكتفي من القول بيسره، ولا يتفتق ذهنه إلا بتكريره، وإيضاح تفسيره»[12]. وإذا كانت مجالسة النساء تتطلب من المحدِّث الثرثرة والخطل وسفاسف الأمور، فإن مجالسة الملوك تقتضي منه التروي في الكلام، وتفادي قبيحه وأرذله، واستخدام الهزل في «أوقات كلال أذهانهم وتعب أفكارهم ليستجمعوا به أنفسهم، ويستدعوا به نشاطهم، ويروحوا به عن قلوبهم خوفا من ملالها وكلالها»[13].

وتستقطب تلك الأدوار جهات محددة، تأتي في مقدمتها الجهات التالية :

أ ـ **معرفة القول** : سلامة اللسان من العيوب، والتحكم في تراكيب اللغة ونحوها، ومخاطبة المتلقين على قدر أفهامهم ومراتبهم.

ب ـ **الحمل على الاعتقاد** : الإتيان بالحجج والبراهين، واستخدام الإيجاز أو الإطناب في محلاته المناسبة، ومراعاة الأفق الممكن للمتلقين ، والمزاوجة بين الإمتاع والإقناع لضمان إقبالهم على القول وإنصاتهم له ونفاذه إلى عقولهم.

ج ـ **معرفة الحكي** : (savoir-raconter) تنظيم معلومات الحديث في تصميم ممنهج، وسردها بطريقة مشوقة ومثيرة، والقدرة على التصرف فيها تبعا لمعاينة ردود فعل المتلقين .

2-1 تخطيب الحديث :

قبل أن نبين تخطيب معجمية الحديث في رواية **الضوء الهارب**، سنستأنس، في بُداهة الأمر، بكيفية استخدامها في كتاب **البرهان في وجوه البيان.**

«وأما الحديث، فهو ما يجري من الناس في مخاطبتهم ومجالسهم ومناقلاتهم، وله وجوه كثيرة. فمنها : الجد والهزل، والسخيف والجزل، والحسن والقبيح، و [لملحون] والفصيح، والخطأ والصواب، والصدق والكذب، والنافع والضار، والحق والباطل، والناقص والتام، والمردود والمقبول، والمهم والفضول، والبليغ والعيي»[14]

إن هذا التعريف شامل يستوعب قنوات محدودة ووجوها كثيرة لبيان تداول الناس للحديث فيما بينهم. فقد حصر المؤلِّف القنوات في ثلاث كما يلي:

أ ـ **المخاطبة** : وتشمل المحادثة، والمراسلة، والجدل، والمناظرة، وإلقاء الخطبة، ومراسم التعيين.

ب ـ **المجالسة** : وتحوي مجالس السمر، ومجالس الهزل، ومجالس الجد، ومجالس السوقة والرعاع، ومجالس الرعية، ومجالس الملوك والعلماء، ومجالس النساء.

ج ـ **المناقلة** : وتفيد ما يتناقله الناس فيما بينهم من أخباروأحاديث وأشعار. وتدخل ضمنها الأحاديث النبوية التي يرويها الرواة الثقاة بالإسناد.

كما عين وجوها كثيرة للحديث. وكل وجه يحدد نوعا كلاميا ملائما لفئة من المتلقين. وهكذا، أدخل في الحديث كل كلام أوجبه الرأي ووافق عليه أهل الأدب، أو ما يستعمل للخلاعة والمجون ومتابعة الهوى، أو ما يقصد به الاسترواح والتسلية، أو ما يستعمل للنميمة والغيبة والمكر والخديعة، وما يتعلق بسفساف الأمور وأراذلها، أو ما يمت بصلة إلى معالي الأمور ومحاسنها. واشترط في المحدِّث أن يكون متسلحا بجهة معرفة القول وملما بأدب الحديث. «فأما أدب الحديث، فإن أصله، وعمدته، وبهاءه، وزينته، اتقاء الخطأ فيه والزلل واللحن والخطل.ثم أن يكون حقا سالما مما يهجنه من معايب القول التي قدمنا ذكرها. ثم أن يقدر المحدِّث مقدار كلامه، ومقدار نشاط مستمعه، فلا يحمله منه ما يضجره ويقصر عنه شيئا» [15].

استخدم ابن وهب الكاتب صيغة المفاعلة لتبيان التفاعل الحاصل بين الأطراف المشاركة في عملية التلفظ (المخاطبة، والمناقلة)، ثم صيغة مفعل الدالة على اسم المكان (مجلس) الذي يستدعي كلاما مناسبا لمخاطبة فئة اجتماعية محددة. لا يطلق المحدِّث الكلام على عواهنه، بل يراعي فيه نوعية المتلقين وتوقعاتهم وموقعهم

الاجتماعي. وهذا ما يجعل الكلام يتعدد ويتنوع بحسب تعدد وتنوع الفئات الاجتماعية وتباين مطامحها وأنساقها الثقافية والأخلاقية. وإذا كان ابن وهب الكاتب متضبطا للمقطع المكبر، فهو قد ركز على برنامج الإخبار مبينا وظائفه ومقاصده في مختلف المجالس، وأبرز أهمية التأطير الأخلاقي في توجيه الكلام وإصابة الأهداف المتوخاة. فالكلام السخيف مذموم ومعيب في مجالس العلماء والعقلاء والملوك، ولكنه مقبول في أوساط العوام والرعاع الذين لم يتأدبوا، ولا خالطوا الفصحاء. والناس في استعمال الهزل ضربان : استخدمه الحكماء والعقلاء لاسترجاع نشاطهم و القضاء على الرتابة والملالة، أما السفهاء والجهال فاستعملوه للخلاعة والمجون .

سنأخذ عينات من معجمية الحديث ومشتقاتها لبيان كيف تجسدت مراحلها في رواية الضوء الهارب .

أ- « عاد [العيشوني] ينظر إلى غيلانة، وهي تضع قطع الثلج في كأسها مسترسلة في الحديث عن همومها وعن حيرتها تجاه صمت ابنتها فاطمة» ص 82.

قبل هذا المقطع استحضر الناظم الخارجي البرنامج الحكائي للإخبار بواسطة معجمية «سردها». ونعاين في هذا المقطع الوجهة التي تفيد الاستمرارية (مسترسلة في الحديث). ومع ذلك تخللت الاستطرادات والانقطاعات الحديث المسترسل والمتواصل. ويقوم أي حديث من الناحية التركيبية على ذاتين موجودتين بالقوة أو الفعل : المحدِّث والمحدَّث. وهما في الرواية ليسا دورين قارين، بل دوران فارغان يملأهما العيشوني وغيلانة بالتناوب. فكل طرف يتدخل ليملأ الفجوة الزمنية التي باعدته عن الآخر، ويطلعه على ما طرأ على حياته من تغيرات، ويدعوه إلى مشاركته همومه وتطلعاته. وهكذا يتضح أن الغرض الأساسي من الحديث هو محاولة طرفي التلفظ دعم التواصل بينهما، وتمتين أواصر علاقتهما، واسترجاع ألق الألفة القديمة بعد أن غدت حجابا يعتم المستحدثات التي عرفتها حياتهما. وفي هذا الصدد، تتسلح غيلانة بجهة معرفة الحكي، و تُطَوِّع الكلام للكَشْفِ عن حالتها الانفعالية (الهموم والحيرة)، وحَفْزِ العيشوني على تقدير كدر عيشها، واستدراجه لإطلاعها على آخر الأخبار والمستجدات عن ابنتها فاطمة. لكن العيشوني لم يجبها لأنه لا يعرف شيئا عن فاطمة منذ أن زارته في السنة الماضية، ثم انقطعت عنه أخبارها. ولذلك اكتفى بمواساتها وطمأنتها، ثم وجه الحديث وجهة الجنس.

يتمحور المقطع المصغر حول هوى القلق الذي يتجلى من خلال متغيرات صورية : «لجة القلق»، «الظروف القاسية»، «العجز والتردد»، «مفجوعة»، «نبرة نحيبية». ويعتبر هذا القلق بمثابة الطاقة التي مدت الحديث بالحيوية والقوة . فكل طرف يريد أن

يطلع الطرف المقابل على ما يدمدم في صدره، ويجتره من خيبات وانكسارات. أما غيلانة، فهي امرأة مجروحة ومفجوعة تتكلم بحرقة والتياع عن تجاربها والعالم المحيط بها. وأما العيشوني، فهو يجري ثلاثين سنة وراء أوهام متجددة لم تتخذ شكلا يمكنه من تجسيدها على قماش اللوحة.

ب ـ «تتحدث «فاطمة في الرسم والأدب وتتنقل إلى ما شاهدته في الشوارع، وتستشهد بما حكته لها صديقتها عن أبيها الذي يعلو خواره كلما ضاجع أمها» ص 11.

يتكون برنامج الإخبار مما تعرفه فاطمة عن الرسم والأدب، وعما شاهدته في الشوارع، وعما حكته لها صديقتها عن أبيها. فهي تحمل الصورة التي رسمتها لها أمها عن العيشوني، لذلك حاولت في مباشرة حديثها أن تستجيب لتنظراته وتوقعاته. وما أسهم في إقامة جسر العلاقة بينهما هو اضطلاع فاطمة بمفاجأته بأنها ابنة صديقته غيلانة. وأجملت الغرض من زيارتها له بهذه الجملة المشرعة على احتمالات عديدة، والمفعمة بالرغائب والاستيهامات المغفية: «أنا قصدتك أنت، واعلم أنني سأجد عندك ما أفتقد». ويتعضد برنامج الإخبار بأهواء **المباغتة والتشويق والإثارة والإعجاب** لحفز العيشوني على الدخول في دائرة الحميمية والمكاشفة. وقد توفقت فاطمة في ممارسة التطويع الانفعالي، إذ استطاعت أن تورط محدثها في شرك الحديث، ويقبل طوعا أن ينسج معها خيوط الألفة التي تتوخاها.

ج ـ «خلال برهة الصمت التي ترافق حديثهما، كان العيشوني يحاول أن يستعرض وجوه النساء اللائي عرفهن في طنجة وخارجها، عله يعثر على تلك التي تزعم زائرته أنها حكت له عنها كل شيء» ص 13.

ما يسترعي الانتباه في هذه المتوالية السردية هو استحضار الناظم الخارجي للصمت الذي يعد عنصرا جوهريا في المقطع المكبر. ولقد سبق لنا، في الفصل الأول، أن اعتبرناه أحد طرفي ثنائية المصدر الجوهري (الصمت/ النطق). وهو يفيد انقطاع الكلام، ويتفرع عن هذا الأخير ثم يعود إليه. إنه البداهة في حد ذاتها[16]. وقد يكون إراديا أو غير إرادي. فالصمت الإرادي يشمل الفرجات والبياضات و «الثقوب» النصية، ونقط الحذف، والمضمر، والضمني، وصيغ التظاهر والتخفية، والتلميح. أما الصمت غير الإرادي، فتندرج ضمنه الحبسة، والحصر، والقصور اللغوي، والعجز[17]. كان الصمت مبعدا من دائرة التلفظ، لكنه - خلال العقود الأخيرة - أعيد له الاعتبار، وأصبح علامة تلفظية على قدم المساواة مع الكلام. «نعرف أن الصمت «يتكلم»، و «فصاحته» تلعب دورا أساسيا في التواصل، ويمكن أن يكون أكثر «رعبا» من الصرخة»[18].

وفي المتوالية السردية، يتبين أن فاطمة تتعمد الصمت لممارسة استراتجية إغراء المتلقي[19]. فهي ـ من الفينة إلى الأخرى ـ تصمت لتشغيل خيال العيشوني، وتشويقه لتخمين المرأة التي تقصدها في كلامها ، وإثارته بأسلوبها في الإلماح والمباغتة. ولقد كانت المفاجأة عظيمة لما أخبرته بأن الأمر يتعلق بعشيقته وأمها غيلانه. لهذا يتبين أن فاطمة احترمت مراحل الخطاطة التلفظية المقننة **للحديث** لتحقيق مقصديتها، وتطويع العيشوني ليعترف بوجودها وحضورها المشع ، ويقبل أن تقضي السهرة معه. ولم تشغل فقط برنامج الإخبار بوصفه امتداداً لثنائية الأخذ والعطاء، بل رافقته أيضا باستراتجية الصمت والاستهواء. فلم يكن الحديث والهوى إلا معبرين يفضيان إلى الممارسة (قضاء فاطمة السهرة مع العيشوني، ومقاسمته سريره، واقتناص اللحظات الهاربة من حياة أمها).

د ـ «أخمن عتابك بعد انقطاع أخباري لأكثر من سنة على لقائنا. كنت وعدتك أن أتصل، وأن نلتقي من جديد، لأحدثك عن نفسي بعد أن استمعت إليك طويلا، غير أنني لم أكن أحس أن لدي ما أقوله أو بالأحرى، قدرت أن أوان ذلك لم يحن.» ص 97.

أثناء إقامة فاطمة بمنزل العيشوني كانت تقتحم حياته للتعرف أكثر على ماضيه، وسوابق أمها. ولم تترك له فرصة ليتعرف عليها عن كثب. وقد تداركت الموقف لما بعثت له رسالة طويلة من مدينة مانتون الواقعة على حدود إيطاليا شرق موناكو لتحدثه عن ذاتها وتكاشفه بجوانب داجية من حياتها. وتدور الرسالة بأتمها حول البرنامج الحكائي للإخبار المرفق بعينات استهوائية حتى يكون لها وقع في نفسية العيشوني، وتسري الغم عن قلب كاتبتها، وتعاود النظر في صفحات من أطوار حياتها. وهذا ما وعت به هذه الأخيرة لما صدعت بهذه الحقيقة : «وأنا أكتب لك للإخبار والتنفيس، وربما أيضا لأفهم ما عشته إلى الآن، فإنني أنقل لك ما أحسسته آنذاك بدون رتوش» ص 120. وتتضمن الرسالة ما اذخرته فاطمة من تجارب بجامعة فاس وطنجة وباريس ومانتون، وما عاشته من تجارب عاطفية مع الداودي لما كانت طالبة، فأنسلها من صلبه بنتا سمتها «ندى»، ثم مع زوجها ماتياس بيدال، وما اعترى حياتها من تقلبات وانكسارات ومتاعب. و ما كانت تتغياه فاطمة من استرسالها في الحديث عن ذاتها، هو إقناع العيشوني بجدواها وقيمتها، وانتزاعه من قبضة أمها لتستمتع وحدها بحبه. وبعد أن كاشفته بجوانب من حياتها وحياة أمها، وأطلعته على تقديرها وحبها له، وعلى النصائح التي كانت تقدمها لها حتى لا تصبح نثارا من الورق تذروه الرياح، ما عليه إلا أن يقوِّم التجارب التي جمعته بهما ، ويعيد النظر في كثير من الأوهام التي تراءت له من معاشرتهما والاحتكاك بهما، ويدرك مكانته ومنزلته مما قالتاه في حقه.

وفي كل ما سبق نعاين أن القلق يشغل محطة أساسية في المقطع المصغر للغيرة، ويذكي الحماس في فاطمة لتبوح بالأسرار، وتتحدث بصدق ومرارة عن حياتها. وببروز هوى **الغيرة** على سطح الأحداث أصبحت العلاقة مكونة بين ثلاثة عوامل تركيبية : المحبوب (العيشوني)، والمنافس (غيلانة)، والغيور (فاطمة). وهي تشتغل في الآن نفسه كأدوار استهوائية وتلفظية (المحدِّث، والمحدَّث، والمتحدث عنه). وتجسد فاطمة في حديثها أزمة استهوائية بسبب الضيق و الامتعاض (الاسترجاع) من ارتباط أمها بالعيشوني، والتخوف والحذر (الاستباق) من افتقاده. وهكذا يتضح أن المقطع المكبر للحديث يتقاطع في كثير من تمفصلاته مع المقطع المكبر للغيرة كما شخصه كريماص وفونتاني في الخطاطة التالية :

الارتباط الشديد	← الحذر المتسم بالشك ←	القلق الشك النظرة الخاصة العاطفة التقويم الأخلاقي	←	الحب الكراهية

(خطاطة رقم 9 : المقطع المكبر للغيرة)[20].

مما سبق يتضح أننا حاولنا معالجة معجمية الحديث من الزاوية التركيبية (الوجهة، والعوامل التلفظية، والبرنامج الحكائي، والشكة الجهية) ومن الناحية الدلالية (المتغيرات الصورية، وتحيين القيم وتخطيبها). ومن ثمة يتبين أنه خلال التجلي الخطابي لهذه المعجمية تتحين بعض عناصرها الجوهرية في المقطعين المتشابكين (المكبر والمصغر)، وتُؤَطَّر أخلاقيا بوصفها ممارسة تلفظية تطبعها الإيديولوجية الجماعية بقيمها ومواضعاتها. ولا يؤدي الحديث دوره ويفضي إلى الفعل إذا لم يمتعن بالعينات الاستهوائية الملائمة.

2- التمظهرات المعجمية والدلالية للشكوى :

تشكل معجمية الشكوى وحدة كبرى في راوية **برج السعود** لمبارك ربيع. وهي تندرج ضمن المقولة **التعبيرية**. « والهدف المتوخى منها هو التعبير عن الحالة النفسية المحددة في شرط الصدق، وحيال حالة الأشياء المحددة في المحتوى القضوي »[21]

يعرف **لسان العرب** معجمية الشكوى على النحو التالي : « شكوتَ فلانا : أخبرتَ عنه سوء فعله بك. الشكوى، فهو مشكوٌّ ومشكيّاً.

الشكايـة : ما يصفه به غيرك من المكروه.

الاشتكاء : إظهار ما بك من مكروه أو مرض أو نحوه.

يشاكي الرجل أميره ؛ هو فاعلتَ من الشكوى، وهو أن تخبر عن مكروه أصابك. والشَّكْوُ والشكوى والشَّكاةُ والشَّكَاءُ كله : المرض.

قال بعضهم : الشاكي والشكيُّ الذي يمرض أقل المرض وأهونه.

والشَّكِي : الذي يشتكي. والشَّكِيُّ : المشكو.

وأشكى الرجلَ : أتى إليه ما يشكو فيه به»[22].

ونجد في **معجم مصطلحات الأدب** التعريف التالي :

«الشكوى : التألم من جفوة الحبيب وبعده عن المحب، أو من قسوة الدهر، أو أولياء النعمة، وهو أحد لأغراض الشعر»[23] .

ويبين صاحب **مقاييس اللغة** أن «أصل الشين والكاف والحرف المعتل واحد يدل على توجع من الشيء»[24].

وفي **مفردات ألفاظ القرآن** يرد الحد الآتي : « اَلشَّكْوُ وآلشِّكايةُ وآلشَّكاةُ وآلشَّكْوى : إظهار البث، يقال شكوت وأشكيت. ﴿قال إنما أشكو بثي وحزني إلى الله﴾ يوسف 86.

أصل الشكو، فتح الشكوة وإظهار ما فيها وهي سقاء يجعل فيه الماء، وكأنه في الأصل استعارة، كقولهم : بثثت له ما في وعائي، ونفضت ما في جرابي، إذا أظهرت ما في قلبك. المشكاة : كوة غير نافذة قال: «كمشكاة فيها مصباح، وذلك مثل القلب، والمصباح مثل نور الله فيه»[25].

وما يجمع بين هذه التعاريف المعجمية هو التركيز على الحالة النفسية التي تنتاب المشتكي، وتستقطب الصور المحزنة على نحو : المكروه، والسوء، والمرض، التألم، والقسوة، التوجع، والهم، والغم. ولا يمكن للمتلقي أن يدرك ما تستضمره نفسية المشتكي إذا لم يصدع بشكواه. وقد أشارت المعاجم إلى دور بعض الوحدات الكلامية في الكشف عن الشكوى، وهي : الإظهار، والإخبار، والبث.

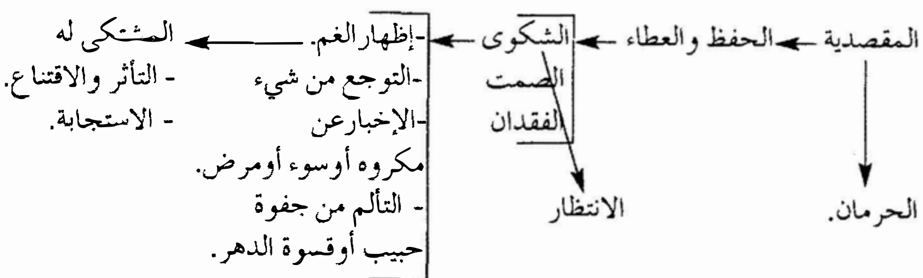
وتتشكل البنية العاملية للشكوى من أربعة عوامل : المشتكي (الذات)، والشكوى (الموضوع)، والمشتكى له (المساعد)، والمشتكى منه (المعيق).

وتصدر الشكوى عن حالة نفسية متعلقة بحالة الشيء (ممارسة ما)، وتُبرمَج ضمن البرنامج الحكائي للبث (الإخبار المحزن) المراهن على التأثير في المشتكى له، وإقناعه بفحوى الشكوى ومغزاها. وقد تكون الشكوى انعكاسية بسبب معاناة شديدة

ألمت بالمشتكي (مرض، ومكروه، وخيبة، وإخفاق) أو متعدية تستدعي في الوقت نفسه فاعلين متميزين نتيجة وقوع تطاول من طرف (المشتكى منه) على آخر (المشتكي). وفي كلا الحالين يستنجد المشتكي بالمشتكى له (سواء أكان حاضرا أم غائبا) لمساعدته في التخلص من محنته وورطته. و يشترط سيرل في التعاقد بين المشتكي والمشتكى له الصدق في الشكوى حتى يَستبعدَ من يتظاهر بها، ويصرح بما ليس فيه.

ولما نعود إلى قول يوسف في الآية الكريمة نجد شكواه تقترن بالبث والغم والإظهار. ويتوخى (المشتكي) من إبلاغ محتواها إلى الله (المشتكى له) أن يفرِّج الهم عنه ويكشفه. فهو يعاني من حزن عظيم لا يصبر عليه حتى يبثه إلى الله وحده الذي تنفع الشكوى إليه[26].

وتنجم الخطاطة التالية عن تشبيك المقطع المكبر بالمقطع المصغر :



(خطاطة رقم 10 : المقطع المكبر للشكوى)

تتكون الشكوى ـ في المقطع المصغر ـ بوصفها تعبيرا عن حالة نفسية يتجاذبها الماضي (ما حدث) والمستقبل (تحقيق المبتغى)، وتتشخص كتحميس يضطلع به المشتكي لإبلاغ مقاصده (ما يحس به من حرمان معنوي أو مادي) إلى المشتكى له. وهكذا تتطلب الشكوى من المشتكي كفاية تلفظية (الحجاج والبرهنة) وكفاية استهوائية (الانفعال وإظهار الغم) لحمل المتلقين على مناصرته وتصديقه والاستجابة لشكواه، ومقت وإذلال المشتكى منه (التقويم الأخلاقي). ويفضي القلق الناجم عن الشكوى إلى الأزمة الاستهوائية (الانفعال الشديد)، ويستتبع حركية جهية (الرغبة، ورغبة الكينونة، ورغبة الفعل، ومعرفة القول) للاضطلاع بالإنجاز التلفظي (امتثال المشتكي للإيديولوجية الجماعية).

ويمكن أن يُختزل المقطع المصغر للشكوى في المتوالية التالية :

الحرمان ← الشكوى ← الانتظار ← الاستجابة أو عدم الاستجابة.

ويتضح من هذه السلسلة أن العينات الاستهوائية تحيط بالشكوى من كل جانب، وتتحكم في سيرورتها من البداية إلى النهاية. كما أن الشكوى تستضمر في حد ذاتها برنامجا استهوائيا (التألُّم و التأليم).

نستخرج من برج **السعود** عينات من الشواهد التي وردت فيها وحدة الشكوى :

أ- « هل هو المسيح مر ليلا فأبرأهم جميعا من كل سقم وشكوى صادقة أو كاذبة»، ص 51.

- «الناس هنا يبدون في نظر عمار على الأقل، كأنهم يشكون العلل لمجرد التسلية، أو لمجرد أن تسمع من قبل الغير، وربما من قبل أنفسهم أيضا. صحيح أن ثم حالات، كان عمار بحكم ما يسعى إلى الكشف عنه، يجر مفحوصيه وزائريه إلى الشكوى من أسقام تحتمل أن تكون حقيقية أو متوهمة في الوقت نفسه، بيد أن حالات أخرى ، وهي الأغلبية من مفحوصيه، يشكون بالفعل من علل، أو ينكشف عندهم ما يستحق الشكوى، لكن مجرد أخذ ذلك مأخذ الجد من قبل المشخِّص لا من قبل عمار بالذات، يجعل الشاكي يتسم وهو يؤكد بصيغة لا تحتمل أكثر من المجاملة، أنه سيتبع النصائح.

أما تلك الابتسامة المرافقة للجواب فكان عمار يترجمها مباشرة إلى ما يشبه الإشفاق على هذا الطبيب الشاب، وعلى آخر غيره من العناء الذي يتحمله، وهو يقدم نصائحه وتوجيهاته بمظهر الجدية !» ص 73.

نستنتج من هذين المقطعين الحكائيين مظهرين للشكوى. أحدهما حقيقي وصادق (الكينونة/الظهور)، وثانيهما متوهم وكاذب (لاكينونة/الظهور). وبما أن سيرل يشترط في المقولة التعبيرية الصدق، فإننا نستبعد من اهتمامنا الشكوى التي لا تتوفر على هذا الشرط، ولا تتسم بتلاؤم التجلي والمحايثة. فأغلب مفحوصي عمار، يشكون بالفعل من علل . وهذا بالذات ما حفزهم على قصد عيادته لمعرفة الأمراض التي يعانون منها، ثم الاسترشاد بنصائحه وتعليماته. ويعد المرض من بين المراحل الأساسية في المقطع المكبر. ويستهدف المشتكون من عرض برنامجهم الحكائي الخاص تحسيس عمار بمعاناتهم وحرمانهم، وإقناعه باتخاذ إجراءات للحد من وطأتها وشدتها. وبما أنه كان جديا في عمله، فهو كان يستدرجهم للصدع بشكواهم دون الخوض في تمييز ما هو صادق مما هو مفتعل . وما يدل على أن البرنامج قد أدرك المتوخى منه، هو ارتسام البسمة على وجوههم، وانغمارهم في موجة من السرور (حالة مبهجة). في حين أوَّل عمار ذلك كما لو كانوا يشفقون عليه من العناء الذي يتحمله وهو يسدي لهم النصائح بالجدية الفائقة.

ب ـ «جعلت الفقيه جلولي يفتح فاه بالشكوى من زوجته لبناصر ! لا عجب أن يشكوها الآن، هو الذي لم يشكها لأحد غير لسانه قبل ذلك .. لا عجب، إنه يشكوها مريضة ... يشكو مرضها إلى بناصر .. وبعبارات تدل على أن وراء اللسان السليط للفقيه جلولي، قلبا مرهف الإحساس، عطوفا بقدر ما هو أتون .. غيرة .. بركان !» ص 120.

نعاين أيضا في هذا المقطع الحكائي تشخيص المرحلة نفسها المتعلقة بالشكوى من المرض. وما حفز المشتكي (الفقيه جلولي) على مكاشفة المشتكى له (بناصر) بسريرته ، هو العلاقة الحميمة التي تجمعهما. فبالإضافة إلى أن بناصر يعد من القلائل الذين يوفون بـ «الشرط» للفقيه، ويؤدونه في وقته، فهو يهابه لقدرته على فلق الحجر، وتجميد الماء في المآقي. وبمجرد أن تناهت الشكوى إلى أذني بناصر بادر بمواساته وطمأنته متمنيا لزوجته الشفاء العاجل . وما لم يستسغه الفقيه هو التبرير الذي أعطاه بناصر لظاهرة جهل الجيران لما يقع في المنازل القريبة منهم. فهو تبرير مبالغ فيه، لأن أهل البطنية يعرف بعضهم عن بعض أكثر مما يلزم، بل يعرفون حتى ما لم يقع .

ج ـ «لم يكن عمار يخفي جزعه الداخلي، بل لم يخف ذلك حتى أمام قاصديه من أهل البلدة وهم يشكون من أعراض غير مفهومة. كانت أول مرة يواجه فيها عمار هذا السيل من المفحوصين، وبنفس الأعراض، لذلك قرر وأعلن على رؤوس الاشهاد : أن مركزا طبيا يجب أن يقام الآن في البطنية، وعلى وجه الاستعجال، وأن انتقال الناس إلى الطبيب في المركز المعتاد، لم يعد مجديا» ص 151.

يحين المقطع الحكائي المرحلة نفسها وهي المتعلقة بمعاناة أهل البطنية من مرض خطير أعراضه غير مفهومة. وهذا ما حض عمار على بذل قصارى جهوده لتحسيس المسؤولين ببناء مركز طبي بالقرية، وللتعرف على الدلالة الحقيقية للأعراض بالتنقل ما بين البلدة والمعهد العلمي بالمدينة، وبفحص عينات الدم والإفرازات والفضلات، وبمتابعة النتائج مع الأخصائيين، وباستحضار طبيب المركز وممرضة لمعاينة الظاهرة في عين المكان. وكللت الجهود جميعها بالتخفيف من وتيرة الإصابات المتزايدة، والحد من انتشار العدوى، ومعالجة المصابين.

من مرادفات معجمية الشكوى المرض. فالشَّكْوُ والشَّكْوى والشَّكاةُ هو المرض. ويقال الشاكي والشكي للذي يمرض أقل المرض وأهونه (**لسان العرب**، ص 350). لكن من خلال تجليات الشكوى في النص الروائي ، يَتَّضح أن المرض لا يمثل إلا مرحلة من مراحلها المفترضة. وعندما نعود إلى المعجم نفسه نجد أن معجمية المرض تعني : «السقيم نقيض الصحة، يكون للإنسان والبعير، وهو اسم للجنس» (ص، 469، ع 2، م4). ونستنتج من هذا الحد تمييزا بين حالتين. إحداهما يكون فيها الإنسان متمتعا بصحته

وعافيته، وثانيتهما يعاني فيها من السقم أو المرض. وبذلك يقيم المعجم بين الحالتين حدا قيميا. فالمريض يحس غالبا أنه في وضعية سيئة (الصورة السلبية)، ويتمنى أن يسترجع صحته وعافيته (الصورة الإيجابية). وتنتصب بين الحالتين حالة وسطى تمهد للصح من المرض، وهي النقاهة. وعندما يكون المرء مريضا تعوزه الكفاية الجهية (عدم القدرة على الفعل، وعلى الكلام أحيانا). ولذلك يستند إلى الكفاية المعرفية (معرفة الفعل، ومعرفة القول، وواجب اتخاذ القرار ..) والكفاية الاستهوائية (رغبة الفعل، التأليم) لإقناع وتحسيس المشتكى له بحالته الصحية، وحمله على اتخاذ قرارات فورية إزاءها. ويتشخص الميثاق المبرم بين المريض والمعالج باعتباره إكراها أخلاقيا (contrainte morale)، إذ يحتم على الطرف الأول إيصال برنامجه ذي الطبيعة الإخبارية والتحسيسية إلى الطرف الثاني لإيجاد حل لشكواه (فعل شيء ما). ويجد هذا الأخير نفسه في وضعية التواصل المكره (communication contraignante) التي «ترغمه على الإجابة وإتمام الرسالة المتلقاة»[27]. وإذا لاذ بالصمت أو استنكف عن الجواب، فهو غالبا ما يذكي زند البرامج الاستهوائية المتعلقة بالاحتجاج، والسخط، والتنديد .

إن الشكوى (المعاناة من مرض) تنجم عن الهوى الأولي (الألم)، وتستتبع برنامجا إخباريا وتحسيسيا لحفز المشتكى له على فعل شيء ما إزاء وضعية المشتكي. وإن كان الحرمان الذي يشعر به المشتكي يستعجل المشتكى له في الإتيان بالحلول، فإن الشكوى ـ كما هو موضح في المقطع المصغر ـ تستدعي الانتظار . و في هذا الصدد ميز كريماص بين الانتظار البسيط والانتظار الاستيثاقي. فالأول يقيم العلاقة بين الذات والموضوع القيمي الذي تبحث عنه. أما الثاني، فيفترض وجود علاقات جهية بين الذات و ذات أخرى[28].

وفيما يخص موضوعنا، فالانتظار البسيط يجعل المريض يترقب بكَلَفٍ إدراك الموضوع المنلفت الذي يؤلمه و يعذبه نفسيا وجسديا (الأمل في استرجاع صحته وعافيته)، ويحين الذات الفاعلة التي تتسم بالجهة التالية : الرغبة في أن يكون متصلا. ويتشخص هوى الانتظار على النحو الموالي :

$$\text{ذ1 الرغبة } [\text{ذ2} \longrightarrow (\text{ذ1} \cap \text{م.ق})]^{*}$$

أما الانتظار الاستيثاقي فهو مبني على علاقة بين ـ ذاتية. فالمريض يصدع ببرنامجه مراهنا على الثقة التي وضعها في المشتكى له لتحقيق آماله وحقوقه .

*ـ ذ1 هي ذات الحالة.
ـ ذ2 هي ذات الفعل.

ويمكن للمشتكي أن يقيم مع الشبيه الذي يتصوره ميثاقا خياليا (contrat imaginaire) وفي هذا الصدد «لا تتعهد الذات الفاعلة بأي شيء، وينجم الموجه الفعلي (déontique) عن «خيال ذات الحالة»(29). وعليه، يقترح كريماص صياغة إضافية لتبيان طبيعة العلاقة الجهية التي تربط الذات بالشبيه الذي شيدته، وتبين تماهيها مع الذات الفاعلة «الحقيقية». فلا يكمن الانتظار الاستيثاقي للذات فقط في رغبتها في أن تكون متصلة بالموضوع المنشود (ذ1 ←الرغبة [ذ2 ←(ذ1 ∩ م.ق)])، وإنما في إيمانها أيضا بواجب الاتصال بالذات الفاعلة (ذ1←الاعتقاد [ذ2 ←الواجب (ذ1 ∩ م.ق)] ويتطلب الانتظاران السابقان **الصبرَ والتحملَ** إلى أن ينكشف الغم ويذهب المرض. وتلعب هتان الوحدتان الاستهوائيتان دورا في استماتة المريض، وحفاظه على أمل استرجاع صحته وحيويته. وما يجمع بين هذه الوحدات الثلاث هو اشراف المستقبل، واجتياز فترة زمنية عصيبة نفسيا.

مما تقدم يتضح أن الشكوى تتشخص بوصفها تكثيفا لبرامج خطابية وحكائية معقدة، واستقطابا لوحدات استهوائية (**الحرمان، الثقة، الانتظار، الأمل، الألم، المعاناة، الاحتجاج، الصبر، التحمل**..) تبين الحالة النفسية للمشتكي. وما كان يهمنا من ذلك هو استجلاء التجليات النصية للشكوى، وبيان مدى امتثالها للمقطع المكبر، وإبراز ما تستتبعه بعض مراحلها المفترضة من برامج وجهات وأزمنة وأدوار تلفظية، و تتيحه من إمكانات لمعاينة كيف تتعالق وتتشابك السيميائيات الثلاث فيما بينها (سيميائية العمل، وسيميائية الأهواء، وسيميائية الكلام).

3- التمظهرات المعجمية والدلالية للطلب :

ومن بين الوحدات الكلامية التي تتواتر بكثرة في رواية **شطح المدينة** لجمال الغيطاني، نذكر أساسا وحدة **الطلب** ومشتقاتها المصنفة ضمن المقولة التوجيهية. «إن الهدف التحدثي لأفعال هذه المقولة يكمن في أنها تشكل محاولات لحفز المخاطب على فعل شيء ما. ويمكن أن تكون المحاولات متواضعة جدا لدعوته إلى الفعل أو الإيحاء له به، ويمكن أن تكون محاولات محتدمة لحثه عليه»(30). وقد سبق لنا أن أشرنا إلى أن فئة الأفعال التحدثية التوجيهية تحوي أفعال الأمر، والطلب، والنهي، والنصح، والإرشاد، والهداية، والوعظ، والإثارة. نحو : آمرك بالانصراف من هذا المكان، أنصحك بالتريث قبل اتخاذ القرار الحاسم، أطلب منك ألا تزعجني كثيرا.

ويعرف ابن وهب الكاتب الطلب على النحو التالي : «كل ما طلبته من غيرك . ومنه الاستفهام، والنداء، والدعاء، والتمني، لأن ذلك كله طلب، فإنك إنما تطلب من الله ـ

عز وجل ـ بدعائك ومسألتك، وتطلب من المنادى الإقبال إليك أو عليك، وتطلب من المستفهم [منه] بذل الفائدة لك»[31].

وقسم علم المعاني الإنشاء قسمين : طلبي وغيرطلبي. فأما الإنشاء الطلبي هو ما يستدعي مطلوبا غير حاصل وقت الطلب . وهو خمسة أنواع على الوجه التالي : الأمر، والنهي، والاستفهام، والتمني، والنداء . وكل واحد من هذه الأساليب لا يحتمل صدقا ولا كذبا، وإنما يطلب به حصول شيء لم يكن حاصلا وقت الطلب، ولذلك يسمى الإنشاء فيها طلبيا. وأما الإنشاء غير الطلبي فهو ما يتحقق وجود معناه في الوقت الذي يتحقق فيه وجود لفظه، أي في الوقت الذي يتم التلفظ به. فإذا قال شخص : قبلت الزواج، فإن معنى الزواج أو وجوده يتحقق في وقت التلفظ بكلمة القبول[32].

يعرف **لسان العرب** الطلب بأنه « محاولة وجدان الشيء وأخذه. والطِّلبة : ما كان لك عند آخر من حق تطالبه به. والمطالبة : أن تطالب إنسانا بحق لك عنده، ولا تزال تتقاضاه وتطالبه بلك»،ص 601، م 4، ع 1.

ويورد صاحب **مقاييس اللغة** التعريف التالي : «الطاء واللام والباء أصل واحد يدل على ابتغاء الشيء ، يقال طلبت الشيء أطلبه طلبا، وهذا مطلبي، وهذه طِلبتي، وأطلبت فلانا بما ابتغاه، أي أسعفته به» ص414.

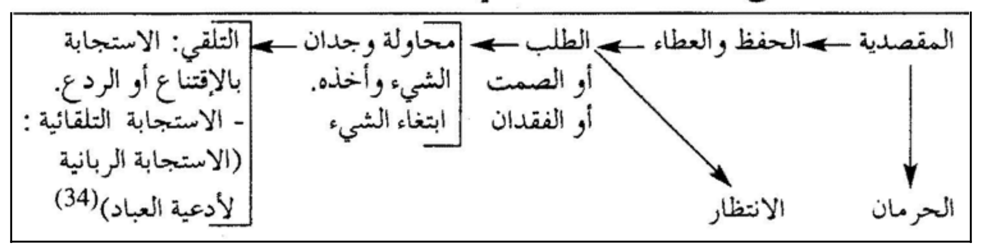
يتبين من خلال هذين التعريفين المعجميين أن معجمية الأخذ أساسية بسبب تمحور الطلب عليها . وتقابلها معجمية **الإعطاء** التي تؤشر على وقوع تحول متعد يضطلع من خلاله المطالَبُ بتمكين المطالِب من الموضوع القيمي. وما يحفز المطالِب على طلب شيء ما، هو حرمانه منه. وهكذا يشتغل الحرمان مرة أخرى كما لو كان حالة أصلية تثير في المطالِب الرغبة في ابتغاء ما ينقصه (سواء أكان موضوعا ملموسا أم مجردا). ويمكن أن نضيف إلى المقاطع المثبتة في التعريفين المعجميين (**الابتغاء** ←**الطلب** ←**الأخذ**) مقاطع أخرى تعطينا نظرة مجملة عن المسار التلفظي للطلب :

الحرمان ← الابتغاء ← الطلب ← [- الاستجابة ← [- الأخذ أو الإعطاء
-عدم الاستجابة — - عدم الأخذ أوعدم الإعطاء]

وعندما يثق المطالِب بالمطالَب، يعرض عليه طلباته بمرونة وشفافية وحماس . ولما تنعدم الثقة بينهما (manque fiduciare) يتخذ الطلب صبغة الإكراه والضغط، فيجد المطالَب نفسه أمام اختيار اضطراري لاتخاذ القرار الحاسم (جهة واجب اتخاذ القرار

(devoir-décider). وفي هذه الحالة لا يراهن المطالِب على الإقناع، وإنما على الردع[33]. فالأستاذ الذي يأمر تلميذا بمغادرة الفصل تكون أساليبه الإقناعية قد استنفدت . فهو يضطر إلى استخدام هذا السلوك غير التربوي وغير المجدي للردع فقط. وإن امتثل التلميذ لطلب الأستاذ ، فهو ـ في قرارة نفسه ـ غير مقتنع بخلفية الزجر ودواعيه.

ويتشخص المقطع المكبر للطلب كما يلي :



(خطاطة رقم 11 : المقطع المكبر للطلب)

ويمكن أن يؤدي الحرمان إلى الأزمة الاستهوائية في حالة عدم تحقق برنامج الطلب (التمرد، والخيبة). كما يمكن أن يتعرض الطلب كأي وحدة كلامية إلى الأزمة التلفظية في حالة ثقالة اللسان وعيوبه وانزياحه عن معايير الإيديولوجية الجماعية ومواصفاتها. وعلى نحو ما عاينا في الشكوى، يحتاج الطلب هو الآخر إلى الانتظار البسيط (علاقة المطالِب بالمطلوب) والانتظار الاستيثاقي (وجود علائق جهية بين طرفي التلفظ). ويتركز تقويمه الأخلاقي على مدى استجابة المطالَب للمطالب المعروضة عليه من طرف المطالِب. وهذا ما يجعل العلاقة بين طرفي التلفظ إما تكون مهددة بالانقطاع والتوتر في حالة عدم الاستجابة للمطالب ، وإما تكون مؤهلة للتحسن والتعزيز في حالة الاستجابة لها. وتحيل كل واحدة من هاتين العلاقتين إلى حالة انفعالية خاصة (البهجة والحزن). وفي معرض استجلاء بعض معالم النزوع الدلالي لوحدة الطلب، توضحت لنا أدوارها التحدثية (المطالِب، والمطالَب، والمطالبة أو الطلب أو المطلب)، وكفاياتها الجهية (وفي مقدمتها الحمل على الاعتقاد، ومعرفة القول)، ووجهاتها (على نحو الاستمرار والتردد).

نأخذ من رواية **شطح المدينة** العينات التالية :

أ ـ «حاول الحكماء المنحدرون من الفلاسفة معالجته خفية، ولهم معرفة بالطلب، وعلم النجوم، وصنوف المعارف الكفيلة، خشوا ذيوع أحواله، خاصة أن الناحية كانت على وشك خوض حرب ضد ثلاث مقاطعات متجاورة، بسبب الصراع على نبع

مائي في الجبل القريب، لمائة خاصية فريدة، عند وضعه في إناء يفور، نسبت إليه» ص/ص 118/117.

يتعلق الأمر بمطالِب (محارب قديم) اندملت جروحه بسبب استبساله واستماتته في المعارك التي شارك فيها، واستقر بالناحية، وأوكلت إليه مهمة تسيير شؤون الخلق، وتنظيم وتوزيع المياه، واستغلالها بواسطة الصهاريج. ويشغل دَوْرَ المطالَب الحكماءُ الذين لهم دراية واسعة بالطلب (تشخيص المرض ومعالجته)، فقرروا الاستجابة له خفية حتى لا ينكشف أمره لدى أهل المدينة وأعدائها على حد سواء، وأشاعوا بأنه سليم من كل عطب، وعنده الحلول للأمور المستعصية. وقد حافظت وحدة الطلب على بعض تمفصلات المقطع المكبر. فالمحارب القديم تراجعت صحته، وانحسرت شجاعته وهيبته (الحرمان)، فعرض طلبه على الحكماء في شكل برنامج حكائي (ابتغاء العلاج وإيجاده). وما تحركهم في هذا الاتجاه إلا دلالة على امتثالهم لطلبه لما يتمتع به من سلطة رمزية. ولا يكشف الناظم الخارجي عن مرحلة الإعطاء التي يمكن أن تؤول تأويلا وضعيا (إنقاذ الأطباء المريض من الموت المحقق بالأدوية الناجعة) أو تأويلا عقائديا (الله وحده هو القادر على الإماتة والإحياء). لكن الناظم الخارجي أوحى بأن حالة المريض تفاقمت إلى حد افتقاده القدرة على التفكير، وتم تعويضه برجل قوي للاضطلاع بمهمة تدبير أحوال الناس، والتصدي للذين يحاولون الاستيلاء على نبع الماء الفوار. وما قام به الحكماء إزاء المريض، يتمثل في نقل المريض إلى مكان منيع ومحصن للاختباء من الموت على وجه الدقة (الفعل المعرفي).

مما تقدم يتبين أن المطالَب مطوَّع تلفظيا بجهتي معرفة القول والحمل على الاعتقاد، واستهوائيا بالتأثير (ومازاد في سَوْرة التأثير هو ما يتمتع به المحارب القديم من رأسمال رمزي). وهو يتسلح بجهة معرفة الفعل لمعالجة المريض، ونقله إلى مكان أمين. وهكذا يطفو على السطح «البعد المعرفي الذي يتطور بموازة مع ازدياد المعرفة (باعتبارها نشاطا معرفيا) المسندة للذوات المتموضعة في الخطاب»[35]. فالحكماء يتوفرون على معرفة يتعذر على الناس العاديين التوفر عليها، وذلك على نحو معرفة علم النجوم، وصنوف المعارك، وتصميم الحصون التيهاء. وشاع بأنهم تدخلوا في توقيت الزمن بإيقاف اللحظة إبان الدخول إلى الحصن. وهذا ما أنقذ المريض من الموت. وكما عاينا سابقا فإن المريض يستغرقه ويستوعبه الانتظار بنوعيه : البسيط (المراهنة على استرجاع الصحة والعافية) والاستيثاقي (وضع الثقة بالمعالجين).

ب ـ «ليس هذا أغرب ما شيد، إنما ذلك الحصن المنيع، إذ استدعاه ملك البلاد

والمتصرف في شؤونهما، طلب منه إقامة بناء، يتحدث عنه، ويعجب منه أبناء الأزمنة المقبلة، على الفور، بدأ يشحذ أروع ما عنده، صمم حصنا منيعا، قويا، بديعا، لم يفهمه أحد أثناء العمل به، ولم يتعرف إنسان على صورته المكتملة..» ص/ص 122/121.

يطلب الملك نمرود من المهندس تصميم حصن في غاية الروعة والمناعة. وطبعا امتثل للطلب واستجاب له، فبنى حصنا منيعا وبديعا وسامقا، يحوي الفصول الأربعة. وما يهمنا من المقطع الحكائي هو التقويم الأخلاقي. فالملك توخى من بناء الحصن أن يكون مفخرة، ومعلمة نادرة، ومدار حديث الأزمنة، لذلك أبعد المهندس إلى مكان منعزل حتى لا تطلع جهة معينة على التصميم. وكان جزاء الحصن هو الإهمال بعدما أفشى المهندس لمساعدي الملك بوجود حجر فيه لو دفعه طفل صغير بإصبعه لسقط البناء كله. فأحدث هذا الخبر المفجع تحولا انفعاليا (transformation thymique) من حالة الافتخار والاعتزاز بالحصن إلى حالة التقزز والامتعاض منه. وهكذا تحول ذلك الحصن، مع مر الزمن، إلى طلل وأضحوكة . في حين كان يراهن الملك من تشييده على أن يكون غاية في الرونق والعجب، وتتويجا لمنجزاته العظيمة، وعاكسا لصورته (جهة واجب الكينونة) في تدبير أمور الرعية ومصالحها.

ج ـ « يتبادل النادل التحية مع صاحبته، يعرف كل منهما الآخر، يبدو نطقها عند حديثها إليه مختلفا، أكثر تأنقا، أنثويا، تحدد ما تطلبه، مشيرة بيديها، ترجع من لحظة إلى أخرى لتتطلع على القائمة، لم تستطلع رأيه، ربما تخصص المطعم في صنف واحد، أو تعرف طبقا معينا تريده أن يتذوقه» ص 128.

يرد الطلب في هذا المقطع الحكائي لتشغيل البرنامج الحكائي المتعلق بابتغاء الزبون أكل وجبة بالمطعم . ولذلك تتوجه المطالِبة إلى المطالَب (النادل) لتلبية حاجتها مما تشتهيه من الأطعمة. وقبل أن تصدع بطلبها ، ألقت نظرة على القائمة رغبة منها في معرفة (VOULOIR-SAVOIR) نوعية الواجبات المهيأة والمتوفرة. لكن المطعم مخصص لإعداد صنف واحد ، وهو أطباق المقانق . وبمجرد استجابة النادل لطلبها، أصبحت المطالِبة غير محتاجة أو محرومة. ويُعنى بالحرمان معجميا « نقيض الإعطاء أو منع العطية» **لسان العرب**، م 1، ع 2، ص 617. وقد تعترض البرنامج الحكائي (ابتغاء وجبة أكل) أزمة استهوائية و تمرسية بسبب العوز المالي. وآنذاك يمكن أن تتدخل عوامل (السلف، والصداقة، والتبرع، والسماحة، والتساهل) لمساعدة المطالبة على التخلص من ضيقها المالي، وأخذ ما ترتضيه من الأطباق إرضاء لرغباتها الداخلية. وفي حالة توفرها على النقود، ستكون الأمور ميسرة ومذللة لإدراك مآربها ومتمنياتها (إمكان الفعل، وفعل الفعل).

وتتمفصل وجهة العوز المالي وفق المعادلة التالية :

الشروع		الاستمرار والتكرار		النهائي
الإحساس بالجوع أو اشتهاء شيء ما	=	تصاعد حدة التوتر	=	الاطمئنان (تحقق الطلب).

ويتضح من خلال هذه المعادلة أن إدراك الطالب للموضوع القيمي يضع حدا لمشاعر التوتر والقلق، ويعوضها بالمشاعر والانفعالات المبهجة. وهذا النوع من الطلب قد لا يحتاج إلى التطويع الاستهوائي والتلفظي، لأنه يقوم أساسا على وساطة المال التي تسعف على الانتقال من مرحلة الحرمان والحاجة إلى مرحلة الأخذ والإعطاء، ومن مشروع البرنامج الحكائي (الرغبة وواجب الكينونة) إلى تحققه على أرض الواقع (فعل الفعل).

بعد تحليلنا للتمظهرات المعجمية ـ الدلالية لوحدة **الطلب**، اتضح أنها تراهن على تحقيق شيء ما (فعل الفعل) بواسطة المسار التلفظي والاستهوائي. وللتدليل على الوجود الخطابي للطلب، تقصينا استعماله الجماعي في المعجم، واستعماله الفردي في رواية **شطح المدينة** لجمال الغيطاني. وهو ما أسعفنا على استنتاج نماذجه التركيبية والدلالية، وجهاته، ووجهاته، وبرنامجه الحكائي. لقد انطلقنا من المعجم بوصفه خطابا يشخص استعمالا ثقافيا (الثقافة العربية الإسلامية) لاستنتاج المقطع المكبر للطلب، ثم التأكد من الامتثال أو عدم الامتثال لمراحلها وتمفصلاتها المقننة في الرواية.

خاتمة :

سبق لنا أن حصرنا المصدر الجوهري لأي ممارسة تلفظية في ثنائية الصمت/ الكلام. وبما أننا منشغلون أساساً بالكلام، فقد جمعنا وحداته، ثم صنفناها في مقولات محدودة، ثم بينا التوجهات العامة المتحكمة فيها. وبما أن هذه الوحدات كثيرة، فقد اكتفينا بالعينات الأكثر ترددا في المتن الروائي. وحاولنا من خلال تحليل تمظهراتها المعجمية والدلالية أن نستخلص منهجية في العمل قابلة للتعميم على وحدات أخرى، وبناء القاعدة السيميا- حكائية للكون التلفظي. ويمكن أن نعرض الخلاصات المتوصل إليها فيما سيأتي من النقاط :

1- قدمنا نماذج من **الخطاطات التحدثية المقننة**، وهي تعطينا نظرة مجملة عن سيرورة الكلام بدْءاً من المقصدية وانتهاء بالتلقي. ولما نقارن فيما بينها نلاحظ ما يلي :

أ- تنطلق كل النماذج من المقصدية التي "تُكسب الكلام ديناميته وحركيته . بل هي منطلق الدينامية" [36]. وهي تتعلق بالفكرة التي يحملها المرء عما سيفعله.[37] ويرى شيشولم Chisholm أن المقصدية الموظفة في مقاطع خطابية يمكن أن تفسر انطلاقا من **حالات نفسية** أو قوى مدبرة كالاعتقاد، والرغبة، والتصور.[38] وبما أن هرمان باريت أراد تخليص التداولية من العدوى الذهنوية (mentaliste)، فهو قد تعامل مع المقصدية بوصفها فعلا مقصديا [79]، أي أنها لا تتحدد إلا انطلاقا من فعل.

ب - يجد المتلفظ نفسه أمام اختيارين : إما إظهار مقصديته في شكل ملفوظات شفهية أو مكتوبة (العطاء) وإما عدم الصدع بها (الحفظ). وتطابق الحالة الثانية الإصرار في المسار الاستهوائي، أي ما يدعم ذات الحالة لمواصلة الفعل رغم المصاعب والمثبطات. أما الحالة الأولى فتشخص الانتقال من وضع الافتراض إلى وضع التحقق؛ وذلك لتحقيق أغراض معينة وتأدية وظائف خاصة في مقامات محددة. وهذا ما يجعل المتلفظ ينخرط في البرنامج الذي تفرضه عليه وحدة كلامية ما، ويبذل قصارى جهوده بما أوتي من مؤهلات معرفية (وفي مقدمتها معرفة القول، والحمل على الاعتقاد) ليؤديه بنجاح، ويدرك مبتغاه.

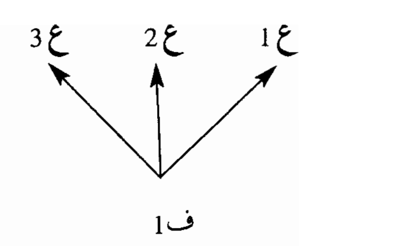
ج - تخضع الوحدة الكلامية أثناء التلفظ بها ومقاومة الصمت إلى حالات كلامية يتدخل فيها المخرج (سلامة النطق أو عدمه) والمقصدية (ما يراد فعله)، والصفة (الهمس، والجهر، والشدة، والرخاوة، انخفاض الصوت وارتفاعه)، والحالة النفسية (الغضب والفرح، والاضطراب، والتوتر..)، والشروط المقامية (الزمن، المكان، المخاطب). وسبق أن عاينا أن هذه الحالة تتقدم على الحالة النفسية وحالة الأشياء، أو

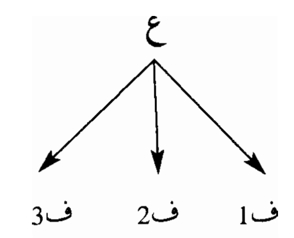
تتأخر عنهما، أو تتوسطهما حسب طبيعة الوحدة والغايات المتوخاة منها. فالطلب - إن توفرت الشروط - يفضي إلى الفعل. أما الشكوى فهي تراهن على تحقيق فعل يتدارك ما أنجز سابقا، ويعيد الاعتبار للمشتكي.

وقد تتباين مواصفات الحالة الكلامية حتى داخل الوحدة نفسها الموظفة في صيغ ومقامات مختلفة . وإذا بحثنا في هذه المسألة بالطريقة التي اتبعناها، فإننا سنخرج لا محالة بالثوابت نفسها التي مازلنا بصدد تبيانها وتبريزها. وقد تسعفنا الأفعال الكلامية في تشخيص الحالة التي نتحدث عنها. فهي التي تجعل الكلام متماشيا مع مقتضيات الأحوال ومتطلباتها. «فالأمر له أربعة صيغ تنوب عنه كل منها مناب الأخرى في طلب أي فعل من الأفعال على وجه الاستعلاء والإلزام... لكن الأمر قد يخرج عن معناه الحقيقي، وهو طلب الفعل من الأعلى للأدنى على وجه الوجوب والإلزام، لدلالة على معان أخرى يحتملها لفظ الأمر وتستفاد من السياق وقرائن الأحوال. ومن هذه المعاني : الدعاء، والالتماس، والتمني، والنصح والإرشاد، والتخيير، والإباحة، والتعجيز، والتهديد، والتسويه، والإهانة والتحقير» (40) .وما يهمنا من هذه القولة هو بيان أن الدور التحدثي للآمر تناط به وظائف متعددة، ويستقطب معاني مختلفة بحسب طبيعة المقصدية المنطلق منها، والشروط المقامية التي تتحكم فيها. فحالة الآمر تتأثر بموثرات خارجية تحتم على صاحبها تبني صيغة دون أخرى لطلب فعل ما.

د ـ تتضمن كل وحدة كلامية برنامجا حكائيا خاصا يستدعي من المتلفظ كفاية معرفية وتركيبية وجهية لتطويع المتلفظ له (فعل الفعل أو فعل عدم الفعل (النهي))، وحمله على تصديق معتقداته. وهذا لا يعني أن المتلفظ له عنصر سلبي يكتفي بالالتقاط والتخزين، بل يمارس فعلا تأويليا يمكنه من غربلة ما يتلقاه وتقويمه، ويحتم على المتلفظ أن يقدر نشاطه ويضعه بعين الاعتبار. وبالإضافة إلى المتلفظ له يلعب المقام أيضا دورا أساسيا في توجيه الصيغ الكلامية، وتحديد موضوعها وتوجهها، وإرغام المتلفظ على التروي فيما سيبثه، والتحوط مما يهجنه من معايب القول، وتقدير مقدار كلامه.

2- اختزلت سيميائية العمل دوائر عمل الشخصيات إلى العلاقة المزدوجة بين العامل والفاعل. نستحضرهما لبيان مدى تميزهما عن أدوار أخرى. و «يعد الصوغ الفاعلي إجراءً يكمن في عملية الإسقاط بواسطة انفصال الفواعل التي لها منزلة (ليس - أنا)، والتي تسند لها وظائف تركيبية في شكل أدوار عاملية وجهية، وكذا وظائف دلالية في شكل أدوار موضوعاتية» (41). فالعوامل تتعلق بالتركيب الحكائي، أما الفواعل فتضطلع بوظائف دلالية، ونتعرف عليها من خلال الخطاب الذي تتجلى فيه. والعلاقة بين العامل والفاعل ليست مجرد علاقة تضمين لحالة في فئة، بل علاقة مزدوجة :





إذا أمكن لعامل واحد (ع 1) أن يتجلى في الخطاب عبر عدة فواعـل (ف 1، ف 2، ف 3)، فإن العكس ممكن كذلك ، ففاعل واحد (ف 1) يمكن أن يكون مؤلفا من عوامل عديدة (ع 1، ع 2، ع 3).

لما أنجز كريماص وفونتاني كتاب **سيميائية الأهواء** انضاف مفهوم الدور الانفعالي إلى الصوغ الفاعلي الذي كان يشمل فقط العوامل والفواعل. ويعرفانه على هذا النحو «مقارنة مع الأدوار العاملية التي يخضع ترابطها لتتابع التجارب والموجهات، فإن الدور الانفعالي يظهر عموما بوصفه مقطعاً من المسار العاملي، ويصبح ديناميا بواسطة التركيب البين-جهي intermodale. إن التلفظ - الذي يروم التخطيب - يعتمد على المقاطع الجاهزة والمقولبة للتعبير عن المناطق الحساسة في المسار العاملي»[43]. ويعترفان بصعوبة التمييز بين الدور الفاعلي والانفعالي ، ويريان أن هذه الصعوبة تتبدد وتنجلي بفضل معالجتها بطريقة متأنية جدا. ومن بين ما يفصل بينهما أن «تَجَلّي الدور الموضوعاتي يخضع قطعا لانبثاث الموضوع في الخطاب، في حين أن تَجَلّي الدور الانفعالي يخضع لمنطق الأشباه الاستهوائية، وللانبثاث الخيالي المستقل عن الموضوع» [44]. ونقدم المثال التالي الذي يوضح أكثر الوظيفة التي ينهض بها كل دور من الأدوار الثلاثة . تستقطب العلاقة الغرامية الفواعل التالية : الغيور، والمحبوبة، والمنافس. ويقابلها التوزيع العاملي الآتي : ذ 1 / ذ 2 / م ـ ذ 3 . ونميز في هذه العلاقة بين نوعين من الدورين الانفعاليين : نوع يهم ذات 1 التي تظهر على التوالي مالكة، و مرتابة ومتكبرة، وغيورة. ونوع يهم ذات 2 وذات 3 اللتين تتسمان بالفظاظة، والغُنج، والقسوة [45].

في معرض حديث كريماص وفونتاني عن الأدوار السيميائية، أشارا إلى الدور الأخلاقي الذي يرد في نهاية المسار الخطابي للفاعل أو للذات الاستهوائية، ويهم النتائج الظاهرة والقابلة للملاحظة والتقويم. «ففي الزهو يتحدد الدور الأخلاقي الأول على نحو مستقل عن التجلي الاستهوائي، وذلك انطلاقا من تقويم تحققي (une évaluation véridictoire) (رأي مبالغ فيه). أما الدور الأخلاقي الثاني، فيتحدد انطلاقا من التجلي الاستهوائي نفسه (المغالاة)»[46]. ولا ينحصر التقويم في

الملاحظة والنقد، بل يستدعي تفاعلا جهيا بين المخبر والملاحظ (الرغبة في المعرفة ≠ *عدم الرغبة في المعرفة*).

وفي دراستنا للتمظهرات المعجمية تكرر ذكر الدور التحدثي. وهو المقطع المتعلق بحالة الفاعل الكلامية (الكلام وأداؤه). وقد يلتبس هذا الدور بالدور الموضوعاتي. لكنه يتميز عنه بوصفه يهم الفاعل من حيث هو متكلم، ويخضع لمنطق الأشباه التلفظية المستقلة عن الموضوع. فمن بين الأدوار التحدثية التي يمكن أن يضطلع بها الفاعل، نذكر الثرثرة، والوعظ، والطلب، والشكوى. وكل دور تستدعيه مقامات معينة، وتتحكم فيه مقاصد مسبقة، ويؤديه الفاعل لتحقيق أغراض محددة. وكما رأينا في بداية هذا الفصل، فإن المعجمية تتضمن في طياتها أدوارا تلفظية محتملة يمكن أن يشغلها المتكلم خطابيا. وهكذا حوت معجمية الحديث أصناف المحدثين التاليين : حدوث، حِدْث نساء، حِدْث ملوك، حَدِثٌ وحِدِّيثٌ ومحدِّثٌ. ومن ثمة يتبين أن مفهوم المتكلم أو المتلفظ عام تخصصه الأدوار التحدثية. فهو يصدع برغبته في الحصول على شيء مستعملا صيغا لغوية ووحدات كلامية مناسبة. وكل وحدة أو صيغة تملأ حيز المتكلم بالدور التحدثي الملائم. فهو عندما يكون حسن الحديث يكون حدوثا. ولما يكون مكثر الكلام يكون ثرثارا. وقد يتداخل أحيانا الدور الانفعالي (الذي يهم الجانب الحساس في المسار الموضوعاتي) مع الدور التلفظي (الذي يتعلق بالكلام في المسار الموضوعاتي) في بعض الوحدات، على نحو التهديد، والتنديد، والإدانة، والشكوى، والإهانة، والشتم. ويُحتكم، في هذا الصدد، إلى المقطع المكبر والمصغر لأخذ فكرة مجملة عن التمظهر في شموليته، وعن التحول الذي يقع في منظومة بعينها. وحتى ولو ركزنا على الدور التلفظي في الوحدات المذكورة، فإن الجانب الانفعالي يفرض نفسه بوصفه عاملا معضدا لتيسير الحصول على الشيء المنشود. فلو استخدم المهين أساليب التحقير والازدراء والتبكيت عارية من الانفعالات المناسبة، فإن كلامه لن يصيب الهدف المتوخى. وسبق لنا أن أشرنا إلى وجود نوعين من الأدوار التلفظية : أحدهما يهم ماقبل التلفظ (على نحو الكتوم)، وثانيهما يتعلق بما بعده (على نحو الباث، والمشتكي، والمحدث).

3- يأتي التقويم الأخلاقي، في نهاية مطاف المسار التلفظي، ولهذا فهو يتسم بميسم **النهائي و المكتمل**. ويُقَوِّمُ الكلام من طرف المتلفظ له لمعرفة مقاصده، واستكناه خلفياته، ثم لاتخاذ موقف منه. وغالبا ما ينكب التقويم على بعض التعابير التي تثير حفيظة المتلفظ له أو تخرج عن الإيديولوجية الجماعية، فتتطلب تدخله لتعديلها أو تصحيحها أو تحسينها. ولا يمكن أن يُبعد المتلفظ من دائرة التقويم الأخلاقي، لأنه هو

الآخر يمارس نقدا ذاتيا على ما يتلفظ به. و يترتب عن تدخل الثقافة في الممارسة التلفظية، استعمال معجميات معينة وإهمال أخرى، واستبدال بعض المعاني بأخرى. وفي هذا الصدد عاينا من خلال تخطيب عينة البث أنه تم التراجع عن بعض معانيها (المصيبة، الخبر المحزن، المرض)، وأصبحت - مع انتشار وتطور الوسائل الإعلامية - تفيد الإرسال. وإذا رجعنا إلى المعاجم العربية، فسنجد كثيرا من المعجميات مشحونة بمعاني لا تطابق استعمالها الحالي (على نحو النضال، والتظاهرة، والنص، والعقل..). وهذا ما يتطلب تجديد المعاجم حتى تراعي ما طرأ على بعض المعجميات من تغيرات سيميولوجية. كما يتطلب التفكير في عدم مطابقة بعض المفاهيم المتداولة للمجتمعات العربية، ومراعاة ظروف تكونها، ومواكبة ممارستها الثقافية والسياسية [47].

****

الهوامش :

1- الإمام مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزبادي الشيرازي الشافعي، القاموس المحيط، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1995، ج1، ص222.
2- أبو البقاء أيوب بن موسى الحسين الكفوي، الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، قابله على نسخة خطية وأعده للنشر ووضع فهارسه عدنان درويش ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، ط1، 1992، ع2، ص 370.
3- جيرار جيهامي، موسوعة مصطلحات الفلسفة عند العرب، مكتبة لبنان، ط1، 1974، ص 115.
4- أبو القاسم الحسين بن محمد بن المفضل المعروف بالراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، ضبطه وحققه إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1997، ص 124.
5- مجدي وهبة، معجم مصطلحات الأدب، مكتبة لبنان، ط1، 1996، ص 625.
6- محمد علي التهانوي، كشاف اصطلاحات الفنون، تقديم وإشراف ومراجعة رفيق العجم ، مكتبة لبنان، بيروت، ط1، ج1، 1996، ص 625.
7- الكفوي (أبو البقاء)، الكليات، م.سا. ع1، ص 370.
8- سعيد يقطين، الكلام والخبر مقدمة السرد العربي، المركز الثقافي العربي، ط1، 1997، ص 193.
9- أبو الحسن أحمد ابن فارس بن زكريا، مقاييس اللغة، تحقيق عبدالسلام بن هارون، دار الجيل، بيروت، ج2، 1991، ص 36.
10- سعيد يقطين، الكلام والخبر، م.سا. ص 216.
11- أبو الحسن إسحاق بن إبراهيم بن سليمان بن وهب الكاتب، البرهان في وجوه البيان، تحقيق أحمد مطلوب وخديجة الحديثي، مطبعة العاني، بغداد، 1967، ص 195.
12- المرجع نفسه، ص 196.
13- المرجع نفسه، ص 284.
14- المرجع نفسه، ص 246.
15- المرجع نفسه،ص 304.

16- Van Den Heuvel (Pierre), Parole, Mot, Silence pour une poétique de l'énonciation, Librairie José Cortim 1985 , p65
17- Ibid, p.p 73 / 85
18- Ibid, p 67
19- Ibid, p 65
20- Greimas (A. Julian) et Fontanille (Jacques), Sémiotique des passions, Seuil, 1991, p 268.
21- Searle (John r), Sens et expression études de la théorie des actes de langage, trad. et préface, par Joëlle Proust, éd Minuit, 1982, p 54.

22- ابن منظور، لسان العرب، أعاد بناءه على الحرف الأول من الكلمة، يوسف خياط، م 3، 1988، ع 3/2، ص 350.
23- مجدي وهبة، معجم مصطلحات الأدب، م.سا، ع1، ص 81.
24- أبو الحسن أحمد بن فارس بن زكريا، مقاييس اللغة، م.سا، م3، ص 207.

25- أبو القاسم الحسين بن محمد المفضل المعروف بالراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، م.سا.ص 299.

26- يرى القرطبي في تفسيره للبث : هو ما يرد على الإنسان من الأشياء المهلكة التي لا يتهيأ له أن يخفيها، وهو من بثثته أي فرقته، وسميت المصيبة بثا مجازا. القرص المدمج المتعلق بالقرآن الكريم.

Vresion 6.3. Copyright (c) 1991 - 1996. Sakhr Software.

27- Greimas (A.J) , « Le défi » ,in Du Sens II Essais sémiotiques , Seuil , 1983,p216.

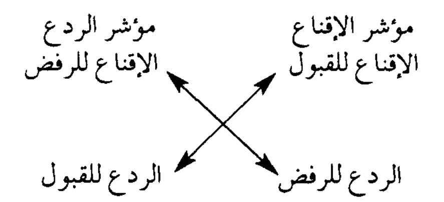
28- Greimas (A.J) , « La colère » , Ibid , p230.

30- Searle (J.) , Sens et expression , op.cit ,p53.

31- ابن وهب الكاتب، البرهان في وجوه البيان، م.سا. ص 113.

32- عبد العزيز عتيق، علم المعاني، دار النهضة العربية، بيروت، 1984، ص/ص 79/75.

33- أنظر في هذا الصدد إلى تمفصلات الإقناع التي شخصها كريماص في المربع السيميائي التالي :



(في المعنى II م.سا،ص215).

34- ﴿وقال ربكم ادعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين﴾، سورة غافر،60.

35- Greimas (A.J) et Coutés (J) , Sémiotique Dictionnaire raisonné de la théorie du langage , Hachette , 1979 ,p40.

36- محمد مفتاح ، دينامية النص [تنظير وإنجاز] ، المركز الثقافي العربي ، ط1، 1987، ص 39.

37- Parret (Herman) , Pragmatique philosophique et épistimologique de la pragmatique : Connaissance et contextualité , in Le langage en contexte Etudes philosophiques et linguistiques de pragmatique , cet ouvrage collectif a été réalisé sous la direction de Herman Parret (Fonds National Belge de la Recherche Scientifique) , Amesterdam / John Benjamins B.V , 1980 ,p37.

38- Ibid , p34

39- Ibid , p38.

40- عبد العزيز عتيق ، علم المعاني ، م. سا.ص/ص 81 / 83 .5

41- Greimas (A.J) et Fontanille (J), Sémiotique des passions, op.cit, p 175.

42- Greimas (A.J), «les actants, les acteurs et les figures», in Du sens II, op.cit , p 49.

43- Greimas (A.J) et Fontanille (J), Sémiotique des passions, op.cit, p 175.

44- Ibid, p 176.

45- وردت هذه الأمثلة مفرقة في كتاب سيميائية الأهواء، المرجع نفسه.

46- Ibid , p 168.

47- ما اضطلع به عبد الله العروي في سلسلة مفاهيم بدءاً بمفهوم الأدلوجة (1980) وانتهاء بمفهوم العقل. (1996) وما أنجزه محمد مفتاح في المفاهيم معالم، المركز الثقافي العربي، ط1،

الفصل الرابع

التطويع التلفظي في رواية ذات

تمهيد :

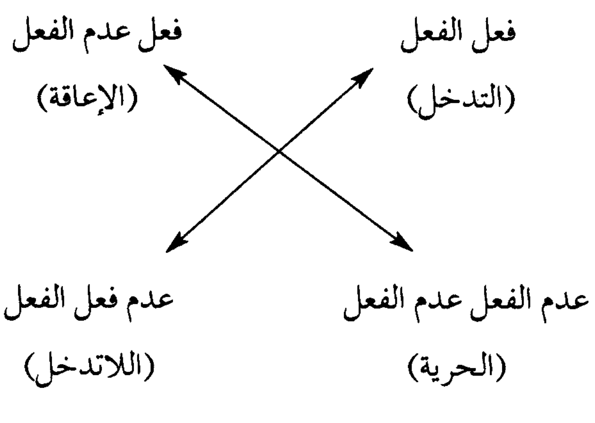
حاولنا في الفصلين السابقين النظر إلى الوحدات الكلامية بوصفها بنيات خطابية وحكائية معقدة، ومحكيات مصغرة مكتفية بذاتها. وكان همنا منحصرا في التدليل على استقلالية الكلام داخل النظرية السيميائية، وتبيان مدى خضوعه للممارسة التلفظية بالاحتكام إلى الاستعمال الفردي أو الجماعي، وإلى مواضعات الإيديولوجية الجماعية.

سنخصص هذا الفصل لإبراز أهمية وملاءمة الكلام داخل الخطاطة الحكائية المقننة. فقد يحول الكلام دون إدراك المراد، وقد يسعف على ذلك. ففي رواية **الأرض** لعبد الرحمن الشرقاوي (1970)، لم تؤد العريضة الهدف المتوخى منها، بدعوى أنها كتبت بأسلوب المنفلوطي. وهو ما فوت على الفلاحين إيصال مطالبهم إلى السلطات العليا. فمحمود بك لم يفهم محتوى العريضة المقدمة له، واعتبرها تحديا للحكومة، وإهانة لوزير الأشغال، ونشرا للفوضى. وفي **قصة مكدرة** (1862) لدستويفسكي Dostoïeveski يصدع الجنرال برالينسكي Pralinski بالأفكار الليبرالية الجديدة في وسط لا يدرك معانيها ولا يستسيغها. وأكثر من ذلك ، فالناس يسخرون منه، وينتقصون مما يتلفظ به، فاعتبر ليبراليته مجرد ترف عابر لا يمكنه أن يصمد أمام الواقع العنيد. وعندما نعود إلى كتاب **الإمتاع والمؤانسة** لأبي حيان التوحيدي[1]، نجد أن عاملي التلفظ (أبو حيان التوحيدي والوزير) وضعا في الليلة الأولى ميثاقا تلفظيا فيما بينهما لتحقيق المبتغى (المحادثة والتأنيس). فاشترط الوزير على أبي حيان أن يتجنب تفنن البغداديين، ويبالغ في الوصف، ويجزم في القول، ويفصل في الحكم، ويجيب باسترسال وسكون البال بملء فيه وسعة صدره. أما أبو حيان التوحيدي فاستأذنه في استخدام كاف المخاطبة، وتاء المواجهة، حتى يتخلص من مزاحمة الكناية ومضايقة التعريض، ويركب غوارب القول من غير تقية ولا تحاش ولا محاباة. فمن خلال هذه الأمثلة، يتبين أن التطويع التلفظي لا يؤدي وظيفته إلا إذا وعى المتلفظ بأهمية الكلام وأبعاده التواصلية في إدراك المراد، وبضرورة صياغته على قدر فهم وعقل المتلفظ له، وباحترام مقتضيات الأحول وطقوسها.

1- التعريف بالتطويع التلفظي :

لقد سبق لنا في الفصل الأول أن بينا موقع التطويع داخل الخطاطة الحكائية، وأبرزنا بأنه يعد مرحلة أساسية لتحريك الأحداث وتعبئة البرامج الحكائية. ويتميز التطويع بكونه عملا إنسانيا ممارسا على الآخرين، بهدف حثهم على تنفيذ برنامج معين[2]. وهو عمل ذو بعد أحادي مشروط بقدرة المطوِّع على تطويع المطوَّع، والعكس غير صحيح. وبهذا المعنى فالتطويع «ليس وحدة تفاعلية أو حوارية. وحتى في حالة وجود التطويع المتبادل، فإن الأمر يتعلق بتطويعين متوازيين»[3]. و«يعد كذلك عملا مقاصديا intentionnel تشترك فيه الذوات، وتكون اندلاليته مبدئيا غير مصرح بها ومعبر عنها»[4]. و«يمكن لظاهرية التطويع أن تَتَسَمْيَأَ بمجرد أن ينحصر اهتمامنا في الطريقة التي تتجسد فيها تلك المقصدية في شكل مسار أو برنامج حكائي»[5].

يستتبع تعريف التطويع الإحالة أولا إلى جهة كينونة الفعل، ثم ثانيا إلى فعل الفعل. وإن اندرجت الجهتان في مستويين مختلفين (أولهما في المستوى التداولي، وثانيهما في المستوى المعرفي)، فهما يطابقان البنى الجهية الفعلية التي تتشخص معالمها في المربع السيميائي الموالي :



(الخطاطة رقم 12 تجليات الفعل[6])

«بوصف التطويع تمظهراً خطابيا، فهو ـ في الوقت نفسه ـ يستضمر، بنية تعاقدية وبنية جهية. ففي الواقع، يتعلق الأمر بتواصل يدفع من خلاله المرسل المطوِّع المرسل إليه المطوَّع إلى موقع انتفاء الحرية (عدم القدرة عدم الفعل)، وبالتالي يجبره على قبول الميثاق المقترح. فكما يتبادر من خلال الوهلة الأولى هو تغيير الكفاية الجهية للمتلقي

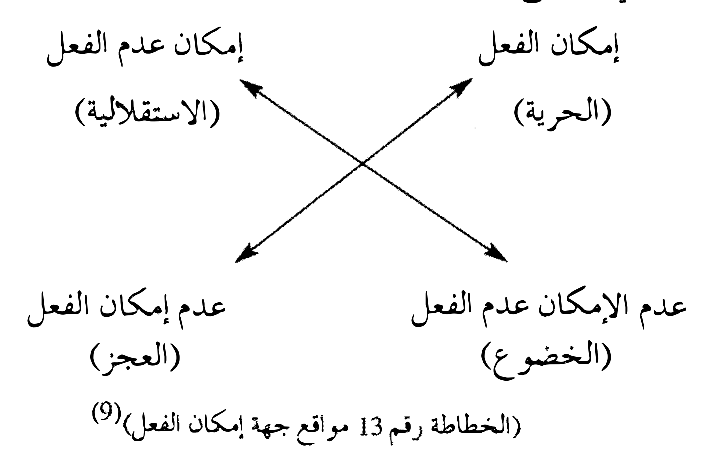
ـ الذات : فإذا قرن هذا الأخير جهة **عدم الإمكان عدم الفعل بجهة واجب الفعل** ، فإن الأمر يتعلق بالإثارة والتخويف. وإذا قرن الجهة نفسها **بالرغبة في الفعل** ، فإن الأمر ـ بالأحرى ـ يتعلق بالإغراء والإغواء»[7]. يعد هرمان باريت الإغراء من نطاق التطويع، بسبب شكه في تطوير المُغرى به لبرنامج تبعا لجهة الرغبة في الفعل ولمقصدية الفعل. ويقول في هذا الصدد ما يلي : «فإذا لم أقر بأي تشابه بين التطويع والإغراء ، فإن المعيار المقاصدي ـ بالنسبة للذات 1 والذات المشاركة 2 ـ ليس ملائما للتعريف بالإغراء . فهو لا يهم الكفاية المقاصدية للعمل والرغبة التطويعية للمرسل ، كما لا يهم مقاصدية العمل التي يستضمرها المرسل إليه» [8].

يتطلب التطويع من المتلفظ ممارسة الفعل الإقناعي، ومن المتلفظ له الاضطلاع بالفعل التأويلي. ومجلا ذلك فيما يلي :

أ ــ يمارس المطوِّع فعله الإقناعي مركزا على جهة الإمكان. فعلى المستوى التداولي، يقترح على المطوَّع مواضيع إيجابية (القيم الثقافية) أو سلبية (التهديدات). وفي حالات أُخَر، يقنع المرسل إليه بالمعرفة. أما على المستوى المعرفي، فينبغي له، إذن، أن يُدْرك ما يعتقده (بخصوص كفايته الجهية) في شكل أحكام سلبية أو إيجابية.

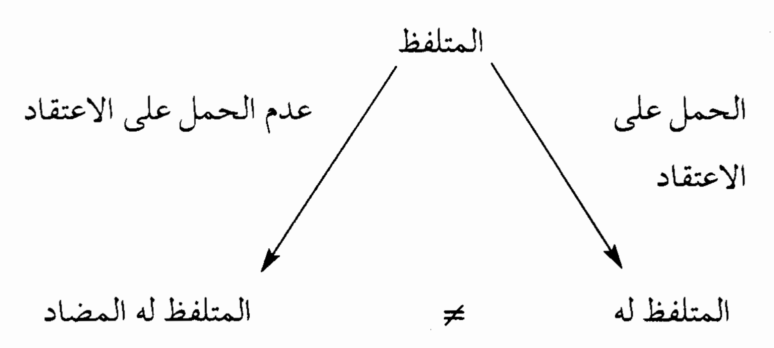
ب ـ يجد المطوَّع نفسه يمارس فعلا تأويليا ويختار بالضرورة ما بين صورتين من كفايته (إيجابية في حالة الإغراء، وسلبية في حالة الإثارة) أو ما بين موضوعين قيميْن (إيجابية في حالة الإغراء، وسلبية في حالة التخويف).

فعلى صعيد الكفاية الجهية للمرسل إليه، يتوجب مراعاة جهة إمكان الفعل التي تتوزع فضائيا في المواقع التالية :

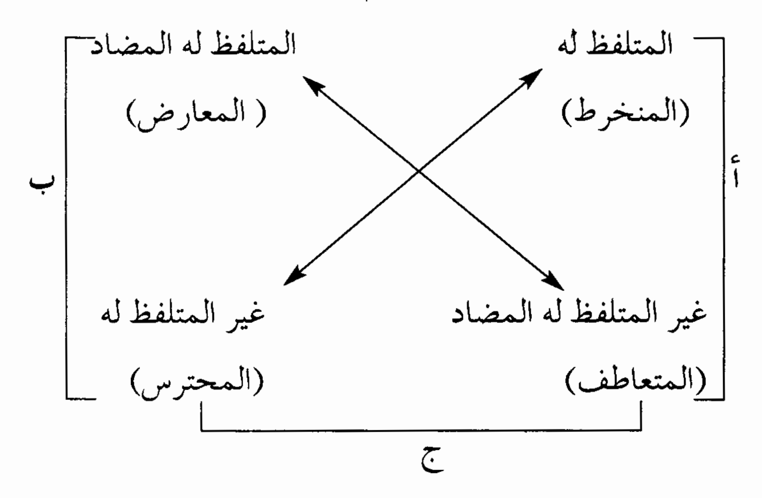


(الخطاطة رقم 13 مواقع جهة إمكان الفعل)[9]

قد يؤدي التلفظ دورين متباينين. يضطلع المتلفظ، في أحدهما، بحمل المتلفظ له على مشاركته معتقداته، ويراهن، في ثانيهما، على تغيير معتقدات المتلفظ له، وحفزه على استبدالها بأخرى. وجسد جوزيف كورتيس هذين الدورين في الترسيمة التالية :



وقد يشغل المتلفظ له مواقع عاملية متباينة تبين مختلف العلائق التي تجمعه بالمتلفظ، وتبرز مدى استساغته لمعتقداته أم رفضه لها.

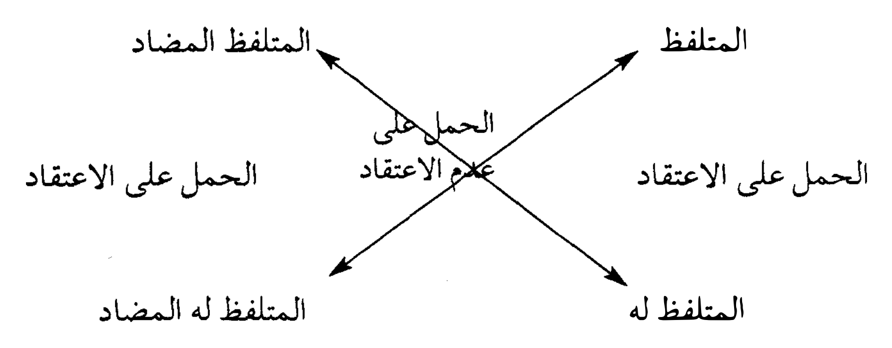


(الخطاطة رقم 14 المواقع العاملية للمتلفظ له).

إن المتلفظ له وغير المتلفظ له المضاد (مؤشرا) ـ كما هو الشأن بالنسبة للمتلفظ له المضاد وغير المتلفظ له (مؤشر ب) ـ يوجدان في علاقة تكامل. بطبيعة الحال، فإن دور المتلفظ له (من ينخرط) ودور المتلفظ له المضاد (من يعارض) يضطلع بهما، إن اقتضى الحال، فاعل واحد (أي المتلفظ له بالمعنى المتعارف عليه) [10].

وبالمقابل، لما يجالس مرشح خصما سياسيا في إطار الحملة الانتخابية المنقولة عبر

شاشة التلفاز ، فإنه يؤدي دور المتلفظ. في حين ينهض منافسه بدور المتلفظ المضاد. ويتوزع الجمهور بين وظيفتي المتلفظ له والمتلفظ له المضاد. وهكذا يبرز في الخطاطة الموقع العاملي للمتلفظ المضاد الذي يمكن أن يطوِّع إيجابا المتلفظ له المضاد بواسطة جهة الحمل على الاعتقاد، ويطوِّع سلبا المتلفظ له بفضل جهة عدم الحمل على الاعتقاد.



(الخطاطة رقم 15 تضعيف وظيفة المتلفظ)

أشرنا، فيما تقدم، إلى أهمية التطويع في تغيير معتقدات المتلفظ له، وحفزه أو حضه على فعل شيء ما. وهذا لا يعني بأن المتلقي طرف سلبي ومذعان، وإنما يتمتع بمؤهلات معرفية وذهنية تجعله يُقوِّم ما يتلقاه، ويعاود النظر فيه بإمعان قبل اتخاذ الموقف الملائم. ويجد نفسه أحيانا مجبرا على الامتثال والانصياع للفعل التطويعي بحكم الطاعة أو الواجب لإرضاء المتلفظ والاستجابة لرغباته. وإن التطويع التلفظي يرد مصطحبا للتطويع الاستهوائي الذي يدعمه بالقوة العاطفية (force émotive) ودرجتها (فالتعهد بقول الحقيقة في القسم أقوى منه في التوكيد)، ويسعف على إدراك المبتغى بتوظيف الأساليب ذات الشحنات الانفعالية (الإغراء، والتحذير، والتخويف، والتهديد، والإدانة). وفيما سيأتي، سنركز على الوسائل والتقنيات التي يستعين بها المتلفظ لممارسة التطويع التلفظي. وهذا ما يحتم الانتقال من السيميائية الصارمة إلى السيميائية الملطفة الأكثر انفتاحا على التأويلات الدلالية الممكنة، والأكثر ارتباطا بالمقاربات الأخرى التي اقترحتها المجالات القريبة والتكميلية [11]. وبالإفادة من هذه المجالات يمكن أن نسهم في تطوير سيميائية التطويع التي مازالت في بُداهة مشوارها، وبيان أهميتها في إرساء دعائم سيميائية الكلام.

2- دعائم التطويع التلفظي :

1.2- الأفعال اللغوية :

1.1.2- التعريف بالأفعال اللغوية :

اختزلها ج.ل.أوستين John.L.Austin و ج.ر. سيرل John.R.Searle في خمس مقولات متباينة . ونسوق في هذا الصدد هذه القولة لجويل بروست Joëlle Proust التي تجمل فيها ما استخلصته من مقولات عامة تستوعب الأفعال التحدثية فقط : «نقول للغير كيف هي حالة الأشياء (توكيدية)، ونحاول أن ندفعهم إلى فعلها (توجيهية)، ونتعهد بفعلها (وعدية)، ونعبر عن مشاعرنا ومواقفنا (تعبيرية)، ونحدث تغيرات في العالم بواسطة تلفظاتنا (إعلانية)»[12]. ويعتبر ج. موشلر J.Moeschler فعل الكلام فعلا معقدا جدا بسبب تضمنه لثلاثة مظاهر دفعة واحدة : مظهر مقاصدي يرتبط بالقيود التي يفرضها على تأويله (ضرورة إدراك المقصدية التحدثية للمتكلم)، ثم مظهر اصطلاحي يرتبط في الوقت نفسه بشروط الاستخدام وبأنواع الأفعال القابلة للاستدلال، ثم مظهر مؤسساتي يتحدد من خلاله الفعل الكلامي بوصفه مجموعة من الحقوق والواجبات (المعايير)، وليس باعتباره مجموعة من القواعد اللغوية[13]. ولا تلعب المقصدية دورا أساسيا لإحداث تأثير في المجتمع، وإنما في تحديد المميزات الثلاث الآتية : إحداها تهم إعداد قائمة مستوفية لجميع أنواع أفعال الكلام، وثانيتها تخص تفسير نوع العلاقة الخاصة بين كل نوع من الأفعال وشروط الصدق، وثالثتها تتعلق بفهم دور مفهوم «اتجاه التسوية»، أي العلاقة الموجهة بين العالم والقول[14]. وندمج أفعال الكلام في سيميائية الكلام للاعتبارات المنهجية التالية :

أ- أدمجت مدرسة باريس فعل الكلام في نظريتها مانحة له منزلة خاصة. فهو بمثابة فعل حركي ونشاط جسمي يندرج في إطار البعد التداولي للخطاب، ويعالج في الإطار الشامل للنحو الحكائي. وبوصفه فعلا خاصا، فهو يظهر قبل كل شيء كفعل معرفة، أي كفعل يسعف على اتصال المتلفظ له بموضوع المعرفة. ويمكن أن يعتبر كفعل الفعل، أي اضطلاع ذات بتطويع أخرى بواسطة الكلام. ومن ثمة تبدو أهمية الكفاية الجهية للذوات في محفل التواصل التعاقدي والجدالي. فما يصدر عنها من أفعال كلامية يمكن أن يُفسر كإنجازات جهية ذات طبيعة معرفية قابلة لتكوين موضوع سيميائية التطويع. وفي هذا الإطار المحدد يدرج صاحبا **المعجم المعقلن** تحاليل فلسفة اللغة التي ما

مازالت جزئية (أوستين، وسيرل. وفي نطاق محدود ديكرو) [15].

ب- نبه سيرل إلى عدم الخلط بين الأفعال les verbes التحدثية والأعمال les actes التحدثية. فالأفعال لاتدل على القوة التحدثية صراحة. ففعل عبر أو اقترح أو لمح لايعين نوعا من العمل، وإنما الأسلوب الذي سيتم من خلاله إنجاز عدد معين من أنواع العمل[16]. فبالإضافة إلى توفر فعل الكلام على المعنى القضوي، ينبغي أن يتوفر أيضا على القوة التحدثية. وذلك على نحو :

أعدك بأنني سأســـافر غدا

⇓ ⇓

م.ق ق.ت

ويرى فرنسوا ريكاناتي François Récanati أن القوة التحدثية للملفوظ هي المقصدية التي يعبر عنها المتكلم لإنجاز فعل تحدثي بواسطة تلفظه[17].

لقد جعلنا الوحدات الكلامية أشمل من الأفعال التحدثية حتى نتعامل معها بوصفها محكيات مصغرة وبرامج مكثفة تتضمن العُدَّة المفاهيمية للتحدث، ويقع الانسجام المفاهيمي بينها وبين الوحدات الاستهوائية والوحدات التمرسية، وتستوعب الألفاظ المشتقة من التحدث (على نحو الترحيب، والتحية، والشكر). ويرى بنفنست أن الميزة الجوهرية والبيانية للتحدثي délocutif تكمن في القول وليس في الفعل الذي هو خصيصة الأفعال المشتقة من أسماء الذوات dénominatifs [18].

ج- لا ترتبط أفعال الكلام بنشاط القول، وإنما بنشاط الفعل. وتكمن وظيفة التلفظ في تحقيق الفعل (العمل الناجم عن القول). وهذا ما يقتضي التمييز بين الفعل اللغوي (أفعال الكلام) والفعل غير اللغوي (الإنجاز بالمعنى السيميائي). و «يمكن للفعل التحدثي ألا ينجز من طرف المتكلم. فهو لما يقول شيئا ويعبر عن معنى فإنما يشخصه كما لو كان منجزا»[19]. ففعل الوعد لا يعني التعهد بالوعد، وإنما يعني كذلك الفعل ذاته لإنجاز هذا التعهد. وينشطر فعل العامل إلى فعل لغوي (كائن كلامي) وفعل غير لغوي (كائن العمل). ويتضح هذا بالملموس في الكذب الذي يضع هوة بين البرنامج العملي وبين البرنامج الخطابي[20]. ويرى أتباع فلسفة اللغة أن أفعال الكلام تُقَوَّمُ بواسطة السعادة والنجاح أو التعاسة والإخفاق. والحالة هذه، يظل الفعل مشخصا كما لو كان منجزا على أرضية الواقع ، ويُعزى إخفاقه أو تعاسته إلى عدم أهلية من يضطلع

به، أو عدم إخلاصه، أو نكثه للعهد [21]. ويرفض بنفنست مجاراتهم في مثل هذا التعليل للأفعال غير الموفقة (تعاسة الملفوظات الإنجازية)، بدعوى «أنها لا تكون حقيقة إلا عندما تصدق بأنها أعمال. وفي منأى عن الظروف التي تجعلها إنجازا، فمثل هذه الملفوظات لا تساوي شيئا. وأي شخص يمكن أن يردد في الساحة العمومية هذه العبارة : «آمركم بالتعبئة الشعبية». فمثل هذه العبارة لن تكون عملا بسبب انتفاء السلطة المطلوبة . فهي ليست إلا كلاما، ومجرد صخب فارغ وصبيانية وجنون. فلا وجود للملفوظ الإنجازي الذي ليس بعمل. فليس له وجود إلا بوصفه عملا صادرا عن السلطة. مع العلم أن أعمال السلطة تكون قبل كل شيء ودائما تلفظات يتلفظ بها من له الحق في ذلك »[22].

د ـ اقترنت أفعال الكلام أساسا باللغة العادية. لكن ظهرت مؤلفات عالجت الأفعال ذاتها في نصوص وخطابات متسقة ومنسجمة[23]. «فعندما نهتم ليس فقط بالملفوظات المنعزلة، وإنما أيضا بالنصوص كما هي حالة تحليل الخطاب، لا يمكن أن نقتصر على الاشتغال بواسطة الأفعال اللغوية الأولية (الوعد والتنبؤ)، وإنما تتعامل التداولية النصية مع مقاطع طويلة شيئا ما من الأفعال اللغوية التي تمكن من إحداث قيمة تحدثية شاملة في مستوى عال، وهي الأفعال اللغوية الكبرى les macro-actes»[24]. وتضاربت الآراء فيما يخص منزلة أفعال الكلام داخل الحقل الأدبي. فهناك طرح يرى بأن أفعال الكلام مصطنعة لا تتعلق بفعل شيء ما، وهناك طرح بقر بأفعال لغوية خاصة بالأدب سواء أكانت مباشرة أم غير مباشرة. وبينهما يوجد طرح توفيقي يرى في المحكيات الأدبية نوعا من الملفوظات المتعلقة بفئة «النصوص المعروضة التي تزعم التسلية والإخبار والدسيسة، وتتشخص بكونها قابلة أن تُحكى»[25]. وهناك من يشكك (على نحو جيرار جنيت G.Genette) في أفعال الكلام المشخصة أدبيا بدعوى عدم صدق المتلفظ، وتظاهره بفعل شيء ما، وتلفظه بأفعال مصطنعة وغير مباشرة وإن كانت تفضي إلى عمل محدد. وهناك من يخالف هذا الطرح (على نحو آن أوبرسفيلد Anne Ubersfeld) معتبرا الأفعال الكلامية أفعالا نفسية خيالية يُضطلع بها لإحداث تغييرات في العلائق البشرية. وما يهمه من الكائنات الورقية ليس البحث عما تقوله، وإنما ما تفعله عندما تصدر أقوالا. وإن كانت تلك الأفعال خيالية ومصطنعة، فهي تؤدي الوظيفة نفسها التي تؤديها في الواقع . وبهذا حكمت الكاتبة على المسرح بأنه تقليد للكلام المتداول في المجتمع، والإستراتيجية الخالصة لكلام البشر[26].

وهذا الطرح الأخير يعضده صاحبا **المعجم المعقلن** معتبرين أن الذوات المشاركة في التواصل ـ سواء كانت مدرجة في الخطابات الصورية أو المحللة بوصفها «ذواتا ورقية» أو «ذواتا **حقيقية**» تنتج هي الأخرى خطابات ـ تكون موسومة بكفاية جهية، وذلك حتى تفسر الأفعال اللغوية التي تنتجها بوصفها إنجازات جهية ذات طبيعة معرفية، قابلة بأن تكون موضوع سيميائية التطويع. وهكذا نرجح كفة الطرح الذي يتعامل مع الأفعال الكلامية **الكبرى بوصفها إنجازات جهية تشخص الواقع بطريقة مضادة،** وتحافظ في الآن نفسه على كثير من مواضعاته، بما فيها انبناء النص على قاعدة الميثاق التحققي، وضرورة توفر العناصر الملازمة حتى يؤدي الفعل الكلامي الوظيفة المتوخاة. وإن كان الجمهور يعرف مسبقا أن شخوص الفيلم تتلفظ بأفعال مصطنعة وخيالية، فهو يتعامل معها كما لو كانت «حقيقية» متجاوبا عاطفيا مع هذه الشخصية أو تلك، ومتتبعا أفعالها لمعرفة مدى التزامها أو عدم التزامها بما تعهدت به.

هـ ـ نشير، في الأخير، إلى أهمية أخذ بعض الانتقادات التي وجهت لأفعال الكلام مأخذ الجد نظرا لوجاهتها وملاءمتها. ونذكر منها على وجه الخصوص انتقادات إميل بنفنيست وبيير بورديو وبارتريك شارودو. فإميل بنفنست عالج الفعل الإنجازي معالجة لغوية صرف باعتباره صادرا عن سلطة أو التزام، ومقترنا بضمير المتكلم، ومحيلا إلى مرجع ، وقادرا على خلق ظروف جديدة، ومتسما بالفرادة لكونه لا ينجز إلا مرة واحدة في زمكان محدد(27). وشدد بيير بورديو على أن سلطة الكلمات ليست كامنة في ماهيتها، بل في جملة من الشروط التي تحدد طقوس السحر الاجتماعي. وفي مقدمتها مميزات المتلفظ ووظيفته الاجتماعية، وخصائص المؤسسة التي فوضت له أمر التحدث باسمها، وتوفر الشروط الخاصة التي تستدعي الإجراءات والصيغ اللغوية المناسبة (28). ولم يتعامل باتريك شارودو مع الفعل اللغوي من منظور فلسفي (الفلسفة التحليلية)، بل أعطاه منزلة خاصة في إطار مشروعه اللساني ـ السيميائي. وفي هذا الصدد وظفه بوصفه جزءا من مشروع شامل للتواصل، وجملة من الشروط والتمثلات اللغوية المشتركة، وإخراجا يضبط العلاقة بين المتكلم (المنتج) وبين المتلقي (المؤول).

2.1.2- مفعول التوجيه في رواية ذات :

إن رواية **ذات** مُشْرعة على بدايات متعددة. تتعلق البداية الطبيعية بميلاد ذات. وهذه البداية ـ على حد تعبير الناظم الخارجي ـ لن يرحب بها النقاد بسبب خروجها عن

اللياقة الأخلاقية، واستئثار النظرة العصرية لفن القصة بالنظرة الحسية الذكورية. وتخص بداية أخرى اجتثاث النتوء الصغير لذات، الذي سبب إزعاجا شديدا للمصريين في قديم الزمان. ويؤثر الناظم الخارجي البداية المحملة بقدر عال من الدراما، وهي التي تهم لحظة الصدمة الكبرى أو ليلة الدخلة. لكن البداية الحقيقية التي تمثل المرحلة الأولية للبرنامج الحكائي (التطويع)، فتم تأخيرها إلى حد الصفحة الرابع والخمسين، إذ تشخصت في شكل توجيه تلقاه المصريون من جهاز البث المركزي (صورة إشهارية لربت بيت تهدم مطبخها لتبنيه وتؤثثه من جديد).

وتتحكم في التطويع علاقة تراتبية ما بين جهاز الدولة وبين الشعب المصري. فقد وظف الطرف المهيمن التلفاز ليفرض على المهيمن عليه رؤية معينة للمجتمع، ويحفزه على مساندة سياسة الانفتاح السياسي والاقتصادي والانخراط في مسيرة الهدم والبناء. ويندرج التوجيه ضمن الأفعال المشتقة من التحدث (délocutifs) والدالة على إنجاز الفعل بالتلفظ به، ويستمد فعاليته الإنجازية والرَّمزية مِن المؤسسة الرسمية التي وظفته لخدمة أغراضها ومآربها[29]. لقد اختار الجهاز الحاكم، من بين إستراتيجيات متعددة، تمرير خطابه السياسي بواسطة الصورة الإشهارية. و بتركيز الناظم الخارجي على التوجيه، لم يغفل ما للكلام من دور أساسي في تقديم وصف تقريري للصورة، وتثبيت السلسلة الطافية للمدلولات على نحو يمكن من مواجهة رعب الأدلة الملتبسة [30]. ويتضمن التوجيه أيضا فعلا لغويا من نوع خاص، وهو المُضَمَّن الذي يحدده أوسوالد ديكرو بمعايير النفي. فالمطروح le posé هو الرسالة التي تلقاها المصريون من جهاز البث المركزي، وتؤشر على نهج مصر سياسة جديدة على عهد السادات قوامها الانفتاح والخصخصة. وأما المضمَّن le présupposé فيستتبع عدم تلقي المصريين أي توجيه في العقود السالفة لما كانت مصر على عهد جمال عبد الناصر تنهج سياسة الاقتصاد الموجه والتأميم. ولقد سبق لنا أن بينا أن هذه الرسالة الإشهارية تمثل إرصادا مرآتيا لأنها تعكس، في شكل مصغر، ما يعيشه المجتمع المصري من تحولات سياسية واقتصادية واجتماعية. وما يبين أن ذلك التوجيه كان له أثر ووقع في نفسية المصريين، هو انصياعهم له انصياعا تاما. وذلك لأنه يستمد مفعوله من الشروط التي تمنحه الشرعية وتفرضه كسيادة تستدعي الاعتراف به. «فليست سلطة الكلام إلا السلطة الموكولة لمن فوض إليه أمر التكلم والنطق بلسان جهة معينة. والذي لا تكون كلماته (أي فحوى خطابه وطريقة تكلمه في الوقت ذاته) على أكثر تقدير، إلا شهادة ، من بين

شهادات أخرى، على **ضمان التفويض** الذي وكل للمتكلم»[31]. وهكذا، أوكلت الدولة إلى التلفاز مهمة النطق بإيديولوجيتها ذات النزوع الليبرالي، والتعبير عنها بطرائق وأساليب مختلفة حتى تستحوذ على أفئدة الجماهير العريضة، وتحضهم على إحداث قطيعة مع المرحلة السالفة (الناصرية). فهذا النوع من «التلقين المذهبي» ـ القائم بواسطة الترفيه ـ هو الظاهرة التقليدية لما يسمى بـ «الدعاية السوسيولوجية». يسعى التلقين المذهبي ـ المصطلح الذي ابتكره المنظر الفرنسي جاك إلول J.Illul ـ إلى «تحقيق تكامل أكبر عدد من الأفراد، وتوحيد سلوك أعضائه وفقا لنموذج معين، ونقل طراز حياته إلى الخارج، ومن ثم إلى الهيمنة على المجتمعات الأخرى... وبالتالي يصبح هذا الطراز مادة الدعاية السوسيولوجية ليس بسبب قيمه الثابتة، بل لأنه يجمع في بنيته المبادئ الأساسية لرؤية معينة للمجتمع. أما صفة الاجتماعية فإنها تعني أن طراز الحياة هذا، موضوع الدعاية يعبر بصورة مكثفة عن مفهوم معين للنظام الاجتماعي القائم في أطر إيديولوجية معينة، والذي يريد فرض النماذج السلوكية التي تميزه عن غيره»[32]. فمن خلال هذه القولة، يتضح أن التوجيه الإيديولوجي ذو وجهين : أحدهما خارجي يهم نقل نموذج غربي لتفكيك وزعزعة النموذج السائد، وثانيها داخلي يتعلق بصهر الفرد في المجتمع والسعي إلى التقدم وتحقيق التكامل [33].

ويعتبر التوجيه مقولة (بتعبير سيرل) يراهن من خلالها المتكلم على حفز المتلقي على فعل شيء معين. ويمكن أن يكون التوجيه متواضعا جدا كما هو الحال في الرسالة الإشهارية، إذ يقصد به دعوة الشعب المصري إلى الفعل أو الإيحاء به بدلا من الحث عليه. ولهذا فهو لا يتخذ صبغة الإكراه، بل يوظف أساليب الترفيه والإمتاع لاستدراج المتلقي إلى مشاركته معتقداته الإيديولوجية. «وكلما ازدوجت أساليب الإقناع بأساليب الإمتاع، إلا وكانت إذ ذاك، أقدر على التأثير في اعتقاد المخاطب، وتوجيه سلوكه لا يهبها هذا الإمتاع من قوة في استحضار الأشياء، ونفوذ في إشهادها للمخاطب، كأنه يراها رأي العين»[34]. ويرتهن فعل التوجيه بالانخراط الفعلي للمواطنين في مسيرة الهدم والبناء. ويجد كل مواطن نفسه مجبرا على الامتثال والانصياع له حتى لا يتأخر عن ركب المجتمع. وهذا ما يحتم عليه اكتساب قيم جهية لضمان الانتقال من برنامج حكائي إلى آخر، وتأهيل نفسه من الناحية المالية لينخرط في مسيرة الهدم والبناء (الإنجاز)، ويكون له اعتبار ومنزلة داخل المجتمع الذي يعيش فيه (الجزاء).

3.1.2- من الفعل اللغوي (التوجيه) إلى الفعل غير اللغوي (الممارسة) :

جسدت الدولة التوجيه على أرض الواقع بإحداث تغيرات جوهرية في النسيج الاقتصادي وإعداد المجال العمراني والرقابة الإدارية واستقطاب الاستثمارات والعملة الصعبة. ولم تخل سياسة الانفتاح من آفات تكبح جماح التطور، وتثبط العزائم والمطامح. وهذا ما تحيل عليه كليا نتف الأخبار المؤطرَة، وجزئيا بعض التمفصلات الحكائية في المحكي المؤطِر (وخاصة تلك التي تتعلق بالمنجزات الهائلة التي عرفها حي «مصر الجديدة» لأنه أول ما يطالع السائح ، ولأن رئيس الجمهورية يسكن فيه). أما على المستوى الاجتماعي، فقد تمكنت فواعل العمارة المؤهلة ـ من الناحية المالية ـ اللحاق بمسيرة الهدم والبناء، والمحافظة على جدولها الزمني بنجاح. وذلك على نحو موظف الزراعة الذي يغير ورق الحائط بلون أكثر حداثة كلما حل موعد رش القطن، ويستبدله بالأخشاب، ويثبت جهاز الآنتركوم على باب شقته. ثم المدرس العائد من الكويت الذي استبدل الموكيت، وأضاف جهازا كهربائيا وجهاز تكييف جديدين. ثم الحاج فهمي الجزار الذي انضم إلى سكان العمارة في مرحلة متأخرة وبالأسلوب العصري أي الامتلاك بدلا من الاستئجار. ثم ضابط الشرطة بعد عودته من مهمة أمنية في سلطنة عمان. ثم ضابط الجيش بعد عودته من مهمة تدريبية في الولايات المتحدة، ومن بين ما قام به استبدل سيارته (الفيات131) القديمة بواحدة مازاد على الصفر. وتأخرت ذات عن اللحاق بالمسيرة بسبب أعذار زوجها (على نحو المراهنة على النجاح في امتحان الإجازة الذي لم يتقدم له أبداً، والحصول على عقد عمل بدول الخليج العربي)، ومعاناتها من الضائقة المالية على إثر ارتفاع الأسعار، وتشبثها باشتراكية جمال عبد الناصر المعادية لبدعة التمليك. وهكذا عاشت ذات ردحا من الزمن متأرجحة بين رياح التوجيه الهوج (البرنامج الحكائي الأساسي) وبين الوفاء لمبادئها الثورية (البرنامج الحكائي المضاد). وإن ظلت تحن إلى العهد الناصري ، فهي قد بدأت شيئا فشيئا تتحرر من شرنقته لتتباهى أمام زملائها في العمل بقدرتها على الانخراط في المسيرة. وفي هذا المضمار «توقف جمال عبدالناصر عن المجيء حاملا معول الهدم، لكن أنوار السادات واصل زياراته الليلية وفي يمينه قطع السيراميك المعهودة. ذلك أن جعبة ذات المالية نفدت قبل أن يصل السيراميك إلى السقف بمسافة شبرين، واضطرت إلى استكمال المساحة الباقية بدهان الزيت المألوف» ص 69.

أدركت ذات أن اللحاق بالمسيرة يتطلب إدراك البرنامج الحكائي للاستعمال (جمع

المال). وبما أن راتبها وراتب زوجها متواضعان جدا، فقد بدأت تعتمد على نفسها؛ وذلك بتوزيع قمصان النوم المهربة من بور سعيد، والاتجار في المواد التموينية، وسحب أكبر كمية نقود من عبد المجيد رغم معارضاته المتكررة، وجمع العلاوات والمكافآت، وتكوين جمعية ادخار بالأرشيف من عشرة أشخاص يتناوبون على أخذ ألف جنيه عند نهاية كل شهر. وبفضل ذلك استطاعت أن تواجه المهام المطروحة، فاقتصرت على استبدال مرحاض الحمام بواحد حديث، ثم أولت اهتمامها بالمطبخ، فغطت جدرانه والأرضية بالسيراميك المصقول الفاخر وردي اللون. إن إصرار ذات على اللحاق بالمسيرة انتهى بالإخفاق نظرا للوتيرة السريعة التي سار عليها المجتمع المصري للتأقلم مع النهج الرأسمالي. فلم تجد بأسا من مجاراة الحاج الطيب لمساعدتها على تطهير روحها من العفاريت، والتحرر من الضغوط النفسية المتفاقمة.

وعليه، لا يكفي الانصياع فقط للتوجيه بدعوى أنه صادر من جهات وهيئات عليا في التراتبية الاجتماعية، وإنما ينبغي تحقيقه أيضا على مستوى الواقع. وهذا يتطلب من الفواعل أن تكون متسمة بالكفاية الجهية (الرغبة، والمعرفة، والواجب، والإمكان، والفعل)، وقادرة على الانخراط في مسيرة الهدم والبناء بالتخطيط المعقلن للحاجات وادخار الأموال، ومقتنعة بالتوجه الليبرالي الذي نهجه أنور السادات، ثم حسني مبارك. وإذا أعوزتها الوسائل الضرورية لتنفيذ التوجيه، فإن الهوة ستعمق أكثر بين الفعل اللغوي والفعل غير اللغوي، وبين الأماني والواقع المعيش.

4.1.2- الأفعال اللغوية الناجمة عن التوجيه :

انصاع المجتمع المصري للتوجيه الذي أصدره جهاز البث المركزي. فبدأت كل عائلة تجهد نفسها للحاق بمسيرة الهدم والبناء رغم المصاعب والمثبطات والإحباطات. ولم يخل الخطاب الرسمي من الإشادة بالنتائج الطيبة التي نجمت عن المسيرة على المستويات جميعها. ووظفت الفواعل الأفعال الإنجازية لتنفيذ محتويات التوجيه، ومجاراة سياسة الانفتاح. وهذا ما سنبرزه من خلال التركيز على بعض العينات التي تعطينا نظرة مجملة عن الآثار التي خلفها التوجيه في الحياة الاجتماعية والاقتصادية. في البداية سنركز على انعكاساته داخل أسرة ذات (الملفوظات : 1 ، و2 ، و3 ، و4 ، و5 ، و6، ثم انعكاساته داخل المجتمع قاطبة (الملفوظان : 7، و8).

1- «ما تلمسنيش» ص 10.

يتضمن هذا الملفوظ نهيا، ويعنى به «طلب الكف عن الفعل أو الامتناع عنه على وجه الاستعلاء أو الإلزام» [35]. ومن يمعن النظر في أساليب النهي المختلفة، يجد أنها قد تخرج عن معناها الحقيقي للدلالة على معاني أخرى تستفاد من السياق وقرائن الأحوال. و يفيد النهي في الملفوظ **الالتماس** لأنه صادر من شخص إلى آخر يساويه قدرا ومنزلة. فذات تلتمس من زوجها عدم لمسها لتحسسه بمعاناتها من المقاطعة المضروبة عليها من طرف زملائها في الأرشيف بسبب تباهيها بالانخراط في المسيرة ووفائها لثورة جمال عبد الناصر، وتحمله مسؤولية ما نجم عن نهجه لسياسة الهدم والتخريب والأنانية والبلادة. «التعبير عن النفس الذي تدرج من اتهام عبد المجيد بالهدم (بالنظر إلى سوابقه في كسر الأكواب الزجاجية، والطاجن المصنوع من الفخار، وطبق البايركس الذي كان جزءا من عفش الزوجية، ومسئوليته عن ضياع الباطنية التي تركها على حافة البلكونة فأطارها الهواء) والتخريب (فلولاه لكانت أكملت تعليمها وصارت الآن صحفية أو مذيعة) والأنانية (المتمثلة في اهتمامه بنفسه و أسرته وتجاهل احتياجاتها من أحذية وسراميك) والبلادة «وإلا فبماذا يوصف تقاعسه عن السفر إلى الخارج لتحسين حياتهم التعسة» ص 100. فهذه السياسة تمثل برنامجا حكائيا مضادا للبرنامج الحكائي الذي سطرته ذات للحاق بمسيرة الهدم والبناء. ولهذا قررت الاعتماد على نفسها لجمع المال والتخطيط لتجميل المنزل وتأثيثه. وتحملت، على مضض، تصرفات وأفعال زوجها المعاكسة لمطامحها وتطلعاتها. ولم تكن ذات تتوخى فقط نهي زوجها عن لمسها، وإنما إشعاره بعدم انسجام وجهتي نظرهما فيما يخص مواكبة إجراءات المسيرة وحيثياتها. وكلما توترت العلاقة فيما بينهما يلجأ هو إلى الفراش، بينما تلجأ هي إلى المرحاض، و كل واحد منهما يستعرض في دماغه الحجج الدامغة المدعمة لوجهة نظره في انتظار الفرصة الملائمة للمواجهة.

2- «وماله... فيها إيه» ص 102.

3- «لماذ لا تسافر إلى الخارج ؟» ص 102.

في الملفوظ (2) لا تتأسف ذات عما إذا باشر زوجها السرقة لجمع المال، بل تحرضه ضمنيا على ذلك. وهذا ما تعبر عنه صراحة صيغة النفي الواردة في الملفوظ. فهي تشف عن رغبة ذات في جمع المال مهما كانت الوسيلة المفضية إلى ذلك. ولهذا

ليست السرقة عيبا ما دامت ستمكن ذات من تحقيق حلمها الرأسمالي. ولكن ذات ـ في قرارة نفسها ـ لا تحض عبد المجيد على ذلك الفعل المستبشع وغير المشروع، وإنما تريد أن تتحداه لإظهار عجزه وعدم قدرته على تلبية حاجات ومتطلبات الأسرة الملحاحة، وتستحثه على البحث عن أي مخرج لتيسير التحاقها بركب مسيرة الهدم والبناء. وهذا ما يعضده الملفوظ الموالي (3).

فهو يرد ليكشف عن طوية ذات التي تحض زوجها على السفر إلى دول الخليج للعمل براتب محترم. لكن الجواب عن السؤال المطروح هو من اختصاص رؤساء عبد المجيد في البنك، ورهين بوصول دوره في الانتقال إلى أحد فروع البنك في دول الخليج. ومع ذلك لما حانت نوبته تم تجاوزه لصالح أحد مرؤوسيه الذي يحمل شهادة جامعية. فلو تحقق المطلوب من السؤال لأنجزت ذات كثيرا من مشروعاتها في تزيين الشقة وتأثيثها، وضمان مستقبل زاهر لأبنائها.

4- «لازم عاوزه موكيت» ص 159.

يخرج الأمر في هذا الملفوظ عن معناه الأصلي (طلب الفعل على وجه الاستعلاء والإلزام)، ويقصد به الالتماس الذي يعد «طلبا صادرا عن الأنداد والنظراء المتساوين قدرا ومنزلة»[36]. فذات تتوخى من إصدار أمرها إلى زوجها تلبية طلبها لابتياع الموكيت، وذلك ليكون موضوعا مثيرا تقتحم به أسوار المقاطعة المضروبة عليها من طرف زملائها في الأرشيف. لكن عبد المجيد لم يستجب لالتماس زوجته مستندا إلى ضرورة توفير نفقات إضافية لا تقل عن خمسين جنيها في الشهر لتربية أمجد. «لكن معارضة عبد المجيد كانت حاسمة تستند لا إلى أسس جغرافية (جونا الحار المترب) أو حضارية (تراثنا الخاص من السجاد والحصير) وإنما إلى اعتبارات عملية، تتمثل في كتلة جديدة من النفقات لا تقل عن خمسين جنيها في الشهر من أجل ولي العهد : ألبان جافة تعوضه عن جفاف لبن الأم، ودار حضانة تستقبله في الصباح لتتمكن من الذهاب إلى الأرشيف كي تواجه المقاطعة» ص 160.

5- «الحجاب ده ما ينفعش.. لازمك حجاب كامل» ص 218.

يصدر عبد المجيد الأمر على وجه الاستعلاء والإلزام لأنه يعتبر نفسه أعلى منزلة ممن يخاطبه ويوجه الأمر إليه. فهو يأمر ذات بأن تدني عليها الحجاب لتخفي زينتها عن غير بعلها. وما حفزه على مطالبتها بذلك هو نزوعه الديني وانضباطه لتعاليم الله. لكن ذات

لم تعر لأمره أية أهمية، إذ ظلت تتبرج وتتزين بأحمر الشفاه. لما تأزمت حياتها بسبب سجن عبد المجيد وصعوبة مسايرة وتيرة مسيرة الهدم والبناء، لم تجد بدا من مجاراة الحاج الطيب للتخلص من العفاريت بقراءة آيات بينات من الذكر الحكيم. ورغم كثرة المشاكل التي تعاني منها ذات، فهي قد ظلت مصممة على بذل قصارى الجهود للحاق بالمسيرة.

6- «حافظوا على نظافة مصر الجديدة لأنها أول ما يقابل السائح» ص 207.

إن كان الآمر غير محدد في هذا الملفوظ، فهو يحيل إلى هيئة عليا مفوض لها التوجه إلى المأمور (عامة الناس) لمطالبته بالمحافظة على نظافة مصر الجديدة لأنها أول ما يشاهده السائح، ولوجود مقر رئاسة الجمهورية بها. وإذا نقلنا هذا الإعلان من الحديقة الصغيرة وسط ميدان روكسي إلى مصر القديمة، سيصبح عديم الجدوى والفعالية. فسلطته يستمدها من الشروط التي أوجدته حتى يؤدي الوظيفة المتوخاة منه. ولا يتسم هذا الإعلان بالتكليف والإلزام، وإنما هو طلب يحمل بين طياته النصيحة والإرشاد. إن جهة ـ معروفة عند عامة الناس بأنها تابعة للدولة ومحاطة بهالة من الشرعية والاعتراف ـ هي التي فوض لها نصحهم بالمحافظة على نظافة الحي. وبما أنهم يعتبرونها من إحدى واجباتهم، فهي قد لقت استجابة واسعة. وتتزامن حملة النظافة التحسيسية ذات «الطابع القومي» مع ما تعرفه مصر الجديدة من تقدم عمراني بسبب نهج سياسة الهدم والبناء. «فبالإضافة إلى تصاريح الهدم (للفيلات والعمارات القديمة المتينة التي لن تنهدم من تلقاء نفسها) والبناء (لناطحات السحاب الزجاجية التي تنهدم من غير تصريح) خلق الكوبرى الذي أقيم فوق ميدان الطيران لتسهيل المرور في طريق صلاح سالم السريع مشاكل جمالية معقدة» ص 157.

7- الرئيس مبارك في تكساس : «معظم الشركات الأمريكية التي قامت بالاستثمار في مصر تمتعت بنسبة عالية من الأرباح، فلدينا أكبر سوق في الشرق الأوسط ونملك الأيدي العاملة الرخيصة» ص 73.

يعبر الرئيس حسني مبارك عن ارتياحه من نتائج مسيرة الهدم والبناء (جلب الاستثمار الأجنبي، تحقق الأرباح بنسبة عالية، إنشاء أكبر سوق في الشرق الأوسط، التوفر على يد عاملة رخيصة). فهو يصدع بالفعل التعبيري (acte expressif) لتقريب الأجانب من المنجزات التي حققتها مصر، ولحفز الشركات على الاستثمار بها، وللإعراب عن

مشاعر اعتزازه وافتخاره بالنهج الذي تسير عليه. ويتكلم مبارك بلغة المؤسسة التي يمثلها بوصفه رئيسا للجمهورية. وهي تستمد سلطتها من عوامل خارجية (الرأسمال الرمزي الذي أسند إليه أمر النطق باسم الشعب المصري، ومكانته الاجتماعية، وسمات المؤسسة التي فوضت له أمر الإلقاء، وطبيعة التلاؤم بينه وبين ما يصدر عنه من خطاب)، وتتميز بقواعد بلاغية معينة (التكرار، وترديد القوالب الجاهزة، وإبراز الإيجابيات، وطمس السلبيات، والإشادة بالمنجزات التي تحققت). «إن أي أداء للكلام سيكون عرضة للفشل إذا لم يكن صادرا عن شخص «يملك سلطة» الكلام، وبصفة أعم، إذا لم يكن «الأشخاص والملابسات ملائمين لتطبيق القواعد التي يتعلق بها الأمر». وبعبارة موجزة، إذا لم يتوفر المتكلم على السلطة التي تخول له أن يتفوه بالكلمات التي ينطق بها. وربما كان الأهم من كل ذلك، هو أن نجاح عمليات السحر الاجتماعي التي هي **الأعمال السلطوية أو الأعمال المشروعة**، والأمر سيان، يتوقف على اقتران مجموعة من الشروط المترابطة التي تتألف منها الشعائر الاجتماعية»[37]. ومن ثم يتبين أن [illegible] الفعل التعبيري لا يستمد قوته من ذاته، وإنما من شروط خارجية. وهو يمثل السلطة ويرمز إليها. وفي حالة ما إذا تلفظ به شخص آخر لا يملك سلطة الكلام و ليس له حق إلقائه أو التفلظ به خارج المؤسسات التي تسمح له باستخدامه وتداوله ، فإنه يصبح مجرد عجعجة وهراء.

استتبع التوجيه كثيرا من الأفعال اللغوية الصغرى لتنفيذه على مستوى الواقع. وإذا كانت فئات المجتمع المصري قد انصاعت له واعترفت به بوصفه خطاب نفوذ وسلطة يؤشر على مرحلة سياسية جديدة، فقد تباينت إراداتها وعزائمها في تحقيقه بحكم التفاوتات الاجتماعية، ومعاناة أكثرها من الفاقة والحاجة. وقد صاحبت مسيرة الهدم والبناء آفات اجتماعية لم تعمل إلا على تعميق الفوارق الطبقية، وتفاقم بعض الظواهر المستبشعة (تهريب الأموال إلى الخارج، وبيع البضائع واللحوم الفاسدة، وتوتر العلاقات الاجتماعية).

2.2- الجهات :

1.2.2- التعريف بالجهة :

يعتبر هرمان باريت Herman Parret الجهات مميزات تحدد قيمة حقيقة الجمل. فجهات الضرورة والاحتمال (aléthique) تعبر عن حقيقة حالات الأشياء. أما جهات

المعرفة (épistémique) والفعل (déontique) فتتعلق بالمعرفة التي نحملها عن تلك الحالات[38]. ويمكن أن نقول بصفة عامة إن اختيار جهة معينة من طرف المتكلم للتعبير عن موقفه إزاء الملفوظ أو/ و المتلقي يتحكم فيه معياران : **1-** معلوماته التي أودعها في الملفوظ، **2-** وتعهده بما تلفظ به (المصلحة، والأسبقية، والمعايير الاجتماعية، والأعمال السابقة، ومقاصد المستقبل). إن أي نقاش يثار حول الجهات ينطلق من جملتين على النحو التالي :

أ ـ أعرف أننا سنصل إلى مراكش عبر البروج.

ب ـ أعتقد أننا سنصل إلى مراكش عبر البروج.

فمن الواضح أن اختلاف الجملتين يكمن على مستوى التلفظ، بدعوى أن الملفوظ يظل هو نفسه تقريبا. وهكذا، يتضمن الملفوظ الأول خبرا يقينيا يبين أن المتلفظ متأكد من معلوماته عن الطريق الذي سيقطعه ليصل إلى مدينة مراكش. وإذا وصل إليها مرورا بالبروج، فخبره صحيح. أما المتلفظ بالملفوظ الثاني، فهو غير متأكد من معلوماته. ولذلك فهو يتحاشى العتاب والنقد في حالة عدم صحتها، ولن يحصل على أي تنويه في حالة ثبوت عكس ذلك [39].

وانطلاقا من التعريف التقليدي للجهة بوصفها «ما يغير محمول ملفوظ»، يعد التوجيه (la modalisation) إصدار ملفوظ منعوت بأنه موجه، وهو يحدد ملفوظا وصفيا. «ويتحدد المحمول الموجه بوظيفته التنظيمية الوحيدة، وبهدفه المتعدي القادر على إدراك ملفوظ آخر باعتباره موضوعا». «ويمكن أن يدرك ذلك بطريقة أخرى. أ ـ فالفعل يوجه الكينونة (الإنجاز، والفعل) ؛ ب ـ والكينونة توجه الفعل (الكفاية)؛ ج ـ والكينونة توجه الكينونة (جهات التحقق)؛ د ـ والفعل يوجه الفعل (الجهات الفعلية)» [40].

من خلال هذه التعريفات الأولية، أشرنا إلى الجهات الثلاث التي استنتجها المناطقة لتحديد محتوى الملفوظات (جهات الضرورة والاحتمال، وجهات المعرفة، وجهات الفعل) [41]. وأضاف إليها السيميائيون الجهات التحققية التي تعالج معضلة الحقيقة في الأنماط الخطابية المختلفة. ولما يتعامل عالم اللغة بالجهة، فهو يحدد «نواتها الصلبة»[42] مكرسا جهده للقضايا الصرفية والتركيبية والمعجمية. ولقد اعتمد هرمان باريت على تنميط شامل لا تمثل فيه الجهات الثلاث السابقة إلا مقولة واحدة :

أ ـ **الجهات التوزيعية** : لا يقتصر توزيع الصيغ النحوية على الأفعال الموجهة، وإنما يشمل باقي المقولات والوحدات النحوية.

ب ـ **الجهات الافتراضية** : تشمل جهات الضرورة والاحتمال، والمعرفة، والفعل.

ـ **الجهات التحدثية** : تشمل الأفعال اللغوية.

ـ **الجهات الأكسيولوجية** : فبما أن لفظة «أكسيولوجية» تقابلها إلى حد ما لفظة «سيميائية»، فإن باريت يفكر طبعا في التحلل «المسرود» الذي لا يعد شيئا آخر غير استخدام كفاية جهية تنتظم فيها، بطريقة خاصة، جهات المعرفة والرغبة والإمكان والواجب[43].

لم يتعمق كريماص في الجهات إلا بعد إصدار كتابه الموسوم ب **في المعنى** II (1983) إذ بين دورها في تنظيم الخطاب وإمكان إقامة نسق موجه مكتف بذاته بواسطة تحليل مقومي وتركيبي. وإن كان قد قدم تصورا شموليا عن الجهات الأربع (الرغبة، والمعرفة، والإمكان، والواجب)، فهو يقر بأنه ليس كاملا ونهائيا، وبأنه في مسيس الحاجة إلى صياغته في شكل صنافة. ولما نعود إلى كتاب **علم الدلالة البنيوي** (1966)، نجد كريماص قد ركز على ثلاث جهات (الرغبة، والإمكان، والفعل) مبينا دورها في تحديد العلائق الثنائية بين العوامل الستة. وما يسترعي الانتباه في سيميائية باريس ـ بالإضافة إلى موضعة الجهات على المستوى المعرفي وصوغها إجرائيا ـ هو اقتراح تنظيم مركبي لها، وتصنيفها وفق سلسلة من التماثلات، وتوزيعها على مواقع المربع السيميائي موسومة بتسميات مناسبة، وترتيبها حسب مقاييس محددة : داخلي / خارجي ، جواني / براني، تشييد الذات / تأهيلها / تحققها، المُذوَّتة/ المُوضَّعة.

2.2.2- الجهات والتحدث :

ما يهمنا منهجيا من تناول فضية الجهات، هو بيان منزلتها في مشروع سيميائية الكلام على وجه العموم، وإبراز مفعولها التطويعي على وجه الخصوص. ولذلك ارتأينا إبداء الملاحظات التالية :

أ ـ لقد سبق لأوستين أن بين الدور الأساسي الذي يلعبه المحمول الإنجازي (الأمر والوعد) والموجه (الإمكان والواجب) في تحديد قيمة الأفعال اللغوية [44]. وفي السياق نفسه اعتبر كريماص الفعل اللغوي الموضع الذي تظهر فيه الجهات [45]. إن الفعل الافتراضي فعل مرجع وإرشاد، ولهذا تتحكم فيه قيود وجودية ومعرفية، في حين أن الفعل التحدثي مكون من حقيقة معينة، ومعلل بلعبة إنتاج المقاصد وإعادة التعرف

عليها [46]. ومن خلال هذه القولة لباريت يتبين أنه نظر إلى الفعل التحدثي من زاوية تداولية لبيان علاقة الملفوظ بالسياق التلفظي. وقد خصص إدي روليت Eddy Roulet دراسة لفحص استخدام الفعلين الموجهين (الإمكان والواجب) في الطلب والاستئذان، وبيان تغيراتهما الدلالية في السياقات المختلفة [47].

ب ـ لقد سبق لنا أن أشرنا في الفصل الأول إلى جهات القول متفرقة. ففي معرض حديث كريماص عن كفاية المتكلم لمح إلى جهة معرفة القول. «يمكن أن ندرك كفاية المتكلم كتأليفية من جهات الرغبة والإمكان ومعرفة القول» [48]. أما فليب هامون فقد أبرز كفاية الشخصية المفوض لها أمر الاضطلاع بالوصف. ويأتي القول (الوصف) بعد أن تكون هذه الشخصية قد توسمت بجهات الرغبة في القول، فمعرفة القول، فإمكان القول [49]. وترى جليان لان مرسيي أن «جهات القول قادرة على أن تُروِّج بين العوامل تبعا لمنطق الامتلاك / الافتقاد، فأي كسب موجه يخلف خسارة مطابقة سواء أكانت جلية أم مضمرة . فالشرطي المتحري يبحث عن معرفة القول التي ستمكنه من تجريد المجرم من معرفة عدم القول. وتتمنى سيدتي كليف Mme Cléve إمكان القول الذي لا يمكنها إدراكه إلا بإقصاء زوجها (ما يدل عليه موته)» [50]. وتتحدد جهات القول في علاقتها المركبة بالجهات الثلاث المتداولة (الرغبة، والمعرفة، والإمكان)، وتنتظم وفق الأدوار المسندة لعوامل الفعل (على نحو الوصل التحدثي، والفعل التحدثي.. إلخ).

ج ـ يدرج كريماص جهة الاعتقاد (croire) ضمن الجهات الفعلية (factitives) التي تهم العلاقة التراتبية بين ذاتين متباينتين : ذات الفعل (ذ1)، والذات الموجهة (ذ2). وتتفرع ثلاث جهات مركبة من جهة الفعل، وهي : جهة فعل الفعل، ومعرفة الفعل، وفعل الحمل على الاعتقاد. وتنتمي جهة الفعل وجهة الاعتقاد إلى عالم معرفي واحد. «فالفعل الإقناعي والفعل التأويلي ما هما إلا إجراءان معرفيان، ينتهيان في الحالة الأولى بالحمل على الاعتقاد، وفي الحالة الثانية بالاعتقاد (أو بعبارة أخرى بالفعل الابستمي). وعلى المستوى العميق والمجرد للغة، يمكن أن يُختزل هذا النموذج التفسيري إلى عدد قليل من العمليات البسيطة. لكنه ـ على المستوى السيميا ـ حكائي ـ يمكن أن تطرأ عليه تمديدات مركبية تتيح إمكان المماثلة بين الفعل الإقناعي والتطويع الحكائي، وبين الفعل التأويلي والجزاء الحكائي ؛ وتَخَيُّلِ هذه المسارات المحكمة في شكل خوارزمات معرفية» [51]. فمن خلال هذه القولة يتضح أن إقناع المتلفظ له رهين بمدى تمثله للمعرفة التي يتلقاها (أنساق الفكر، والمعتقدات، وطبيعة الذهنيات)، كما يتبين أن المتلفظ يضطلع بجهة الحمل على الاعتقاد لتطويع المتلفظ له، وأن هذا الأخير

يستخدم جهة الاعتقاد لإضفاء الحقيقة على المتلفظ به. ويعد كريماص التطويع عملية فعلية تتم وفق الرغبة (الإغراء والاستغواء)، والإمكان (الإثارة والتهديد)، والمعرفة (الحجاج المنطقي والبرهنة العلمية). مما سبق نستنتج أن سيميائية باريس منحت لجهتي الحمل على الاعتقاد والاعتقاد منزلتين تحدثيتين (التطويع والمجازاة) (أو التطويع المضاد)، وبينت مدى ارتباطهما بالجهات الفعلية (تطويع المتلفظ له لفعل الفعل) التي تندرج ضمنها جهة المعرفة (ضروب البرهنة والإقناع).

د ـ إن الملاحظات السابقة تفضي بنا إلى استنتاج الجهة التحدثية التي يمكن أن يرتكز عليها مشروع سيميائية الكلام. قد نتردد في البداية بين جهتي معرفة القول والحمل على الاعتقاد نظرا لاندراجهما معا في إطار البعد الاستيثاقي والمعرفي، وتداخلهما من حيث أن التطويع ـ وفق المعرفة ـ يقتضي استخدام الحجاج والبرهنة، وأن القدرة على الإقناع تعتبر إنجازا معرفيا. لكن كلود زلبيربيك Claude Zilberberg فصل منهجيا بينهما [52]، وذلك بإدراج ما يتعلق بالمعرفة في إطار البعد المعرفي، وما يتعلق بالاعتقاد في إطار البعد الاستيثاقي. ويمكن أن نسترشد بهذا التمييز الدقيق الذي يتطلب من المتلفظ كسب ثقة المتلفظ له ومودته إن أراد حمله على تصديق ما يبثه له والاعتقاد بأنه يمثل الحقيقة (croire-vrai). وفي هذا المضمار تستتبع جهة الحمل على الاعتقاد بالضرورة جهتي معرفة القول وإمكان القول (ما يبرز الكفاية المعرفية واللغوية لدى المتلفظ). ويمكن أن نرصد، أسفله، جدولا يظهر منزلة مشروع سيميائية الكلام بين منزلتي سيميائية العمل وسيميائية الأهواء :

	الموضوع	الجهـة	البعد المعتمد
سيميائية العمل	ـ الانـجـاز (إدراك الموضوع المبحوث عنه) ـ حالة الأشياء.	الفعل.	البعد المعرفي (تنامي المعرفة) والبعد التداولي (تسلسل الأعمال).
سيميائية الأهواء	إعادة بناء الأهواء سيميائيا. ـ الحالة النفسية.	الكينونة.	البعد الانفعالي (ما ينتاب الذات من مشاعر وانفعالات).
سيميائية الكلام	إعادة بناء الكلام سيميائيا. ـ حالة الكلام وقوته.	الحمل على الاعتقاد (الإقناع).	البعد الاستيثاقي (الثقة بالكلام، نقل المعرفة الحقيقية).

(جدول رقم 6 منزلة مشروع سيميائية الكلام).

3.2.2- تجليات البعد الاستيثاقي في رواية ذات :

يتطلب البعد الاستيثاقي توفر الثقة المتبادلة بين عاملي التلفظ، وتعاقدهما على المستوى التلفظي والتحققي، واستخدام كل واحد منها كفايته الجهية لضمان تواصل فعال. وإذا كان المتلفظ يستخدم جهة الحمل على الاعتقاد بوصفها ضربا من ضروب التطويع، فإن المتلفظ له يستخدم جهة الاعتقاد لتصديق ما يتلقاه أو جهة عدم الاعتقاد لرفضه ومحاجته (التطويع المضاد). ويتحقق الأثر التحدثي للفعل الإقناعي بواسطة محمولات إنجازية (الأمر، والطلب، والنهي) أو جهية (الإمكان، والواجب). وقد يتشخص في شكل أفعال لغوية مباشرة أو غير مباشرة أو صيغ مجازية لحمل المتلفظ له على تغيير معتقداته وإحلال معتقدات جديدة محلها.

وقد سبق لنا أن ألمعنا إلى أن الدولة وظفت جهاز التلفاز لحمل الشعب المصري على استساغة إيديولوجية الانفتاح السياسي والاقتصادي. وبطبيعة الحال انصاع المواطنون لها رغم ردود فعل ومقاومة بعض الفئات التي ظلت، ردحا من الزمن، وفية للاشتراكية الناصرية، ومتألمة من الآفات والسلبيات التي أفرزها الوضع السياسي الجديد. وبمجرد أن سنت الدولة سياستها الجديدة، شرع المواطنون في التسابق للحاق بمسيرة الهدم والبناء رغم كثرة المشاق والمصاعب. وبما أن الدولة تراهن على إحداث قطيعة مع العقود السالفة ، فقد وظفت كل أشكال الإقناع (الصورة الإشهارية، الخطب، قصاصات الأخبار) لحفز المواطنين على الانخراط في مسيرة الهدم والبناء. وما يدل على اقتناع سكان العمارة بها هو حرصهم ما أمكن على احترام برمجتها الزمنية. وإن تأخرت ذات عن ركب أغلب سكان العمارة ، فهي قد تداركته نسبيا لما بدأت تعتمد على نفسها، واقتنع زوجها بمتطلبات المرحلة الجديدة.

ولاتستوفي جهة الحمل على الاعتقاد شروطها (الوصل التحدثي) إلا باستخدام وجوه الكلم في مواضعه، ومعرفة أحوال الأمور وطقوسها، وإحكام جهتي معرفة الحكي ومعرفة القول، واجتماع اللب عند التلفظ. والغرض المتوخى منها هو حفز المتلفظ له على اعتقاد ما يتلقاه، ثم الاضطلاع بفعل محدد مسبقا. وهكذا، يتبين أن البعد الاستيثاقي الذي يجمع بين عاملي التلفظ (الثقة المتبادلة بينهما) يستتبع بالضرورة البعد المعرفي (معرفة الموضوع وقواعد اللغة وطبيعة المرحلة ومتطلباتها) والبعد التداولي (الاضطلاع بسلسلة من الأعمال للحاق بمسيرة الهدم والبناء) والبعد الانفعالي (استساغة التوجيه، والرغبة الملحاحة في مواكبة متطلبات المرحلة الجديدة، وتفاقم ظاهرة المقاطعة بين المواطنين). ويمكن أن نجمل تجليات البعد

الاستيثاقي في الجدول أسفله :

	المتلفظ (المطوِّع)	المتلفظ به (المطوَّع)	الوظيفة
الفاعل	ـ الدولة ـ ذات	ـ المواطنون ـ عبد المجيد	ـ لما تولى أنوار السادات الحكم شرع في تطبيق سياسة ليبرالية. فكان لزاما عليه أن يقنع الشعب بأهميتها في تحسين ظروفهم الاجتماعية والاقتصادية، وبنواقص وتعثرات السياسة الاقتصادية التي اتبعها جمال عبدالناصر. ـ بعد أن تخلصت ذات من شبح جمال عبدالناصر، أجهدت نفسها لإقناع زوجها بمتطلبات المرحلة الجديدة ، وبتوفير ما ترتضيه ليشكل موضوعا للإثارة والتباهي أمام زملائها وجيرانها.
الجهة	الحمل على الاعتقاد (زعم قول الحقيقة) ⇓ التطويع	الاعتقاد (تصديق ما يقال) ⇓ الانصياع للتطويع	ـ ينبغي أن تكون الثقة متبادلة بين عاملي التلفظ حتى يحصل التفاهم بينهما. أما في حالة العكس ، فإن كل واحد منهما سيزعم قول الحقيقة مدعما وجهة نظره بالحجج والأدلة المناسبة.(التطويع والتطويع المضاد).

(جدول رقم 7 تجليات البعد الاستيثاقي في رواية ذات).

4.2.2- الإقناع بالمحمولات الإنجازية والجهية :

تتحقق جهة الحمل على الاعتقاد بواسطة المحمولات الإنجازية التي تدعو إلى تنفيذ عمل محدد. ففي الملفوظ (رقم 4) استخدمت ذات الالتماس لإقناع زوجها بشراء الموكيت. لكنه لم يستجب لطلبها بحجة كتلة من النفقات لتعليم ولي العهد أمجد وتربيته. ويتوخى الإعلان (رقم 6) دفع المواطنين للحرص على نظافة مصر الجديدة. فتنفيذهم للأمر يدل على اقتناعهم بفحواه ومغزاه، وهو ما حصل فعلا. وإن لم يكترث المواطنون به فيحصل عكس ما كان متوقعا.

ويمكن أيضا أن يتحقق الحمل على الاعتقاد بواسطة محمولات جهية :

8- يجب عليك أن تأتي قبل السادسة مساء.

فالوجوب في هذا الملفوظ يفيد طلبا إلزاميا. وينطلق المتلفظ من سلطته التقديرية (الأب) لإقناع ابنه بالرجوع إلى المنزل قبل حلول الساعة السادسة مساء. وقد يمتثل الابن للطلب بحجة الخوف أو الاقتناع . وقد لا يمتثل له متحملا وابل العتاب والتأنيب الذي سينهال عليه.

9- بإمكانك أن تغلق النافذة.

10- هل يمكنك أن تغلق النافذة.

رغم اختلاف صيغتي الملفوظين (الإثبات والنفي)، فهما يتضمنان المحتوى الدلالي نفسه. ويتجلى أساساً في توجيه المتلفظ للطلب إلى المتلفظ له بطريقة غير مباشرة، وذلك لحفزه على إغلاق النافذة. وبطبيعة الحال، لا ينفذ المرء الطلبات والأوامر أيا كان نوعها ومصدرها بدون التفكير والتروي فيها. فإذا اقتنع بها بسبب من الأسباب (الواجب، الحشمة)، فإنه سينفذها بطواعية. وقد يجد نفسه عكس ذلك مجبرا على النهوض بها بذريعة الطاعة أو المصلحة.

• من خلال هذه العينات من الأمثلة أردنا أن نثبت أن جهة الحمل على الاعتقاد (الإقناع) تكون ـ بشكل من الأشكال ـ متضمنة في المحمولات الإنجازية والجهية. ولا يمكن للمرء أن ينفذ ما هو مطلوب منه إذا لم يكن مقتنعا به أو مكرها على فعله. وتبين لنا من الملفوظات المقتطفة من الرواية أن المتلفظ يحقق من خلالها وصلا تحدثيا لحفز المتلفظ له على إحداث تحولات إيجابية في مسيرة الهدم والبناء. وهذا ما جعلنا نتعامل معها بوصفها برنامجا حكائيا للاستعمال يسعف صاحبه على إدراك الموضوع القيمي المحدد في إطار البرنامج الحكائي الأساسي.

3.2- الحجاج :

1.3.2- ماهية الحجاج :

«يشكل الحجاج أحد العوامل التي تحظى بامتياز لضمان التماسك الخطابي، وهو يفترض بالفعل عملا معقدا هادفا، وسلسلة من الحجج المترابطة في إطار استراتجية شاملة تسعى إلى دمج المستمع في نطاق الأطروحة التي يدافع عليها المتلفظ. ويعد كذلك نوعا من التفاعل اللفظي الموجه إلى إحداث تغيرات في معتقدات الذات. وما ينفرد به الحجاج أنه لا يؤثر مباشرة في الآخر (على نحو إعطاء أمر)، وإنما في التنظيم الخطابي نفسه الذي ينبغي له أن يتوفر في حد ذاته على أثر إقناعي : فالمتلفظ يحاج المتلفظ المشارك(co-énonciateur) بوصفه قادرا على الخضوع للنشاط العقلي، وذلك بتطويقه داخل شبكة من الاقتراحات التي لا يمكن أن يتخلص منها»[53].

ولقد أصبح الحجاج موضوعا للسانيات بعد ظهور أعمال ديكرو (1973، و1980 ب)، وأنكومبر وديكرو (1983). أما قبل هذه التواريخ وبعدها، فمازال الحجاج يشكل الموضوع المؤثر لدى البلاغيين (برلمان Perleman وألبرخت تيتيكا Olbrechts-Tyteca) والمناطقة الطبيعيين (كرايس Grice 1982، وبوريل Borel وكرايس وميفيل Mieville 1983). وإذا كانت البلاغة تراهن على فن الإقناع (الكلام الفعال)، فإن اللسانيات تهتم بالوسائل المختلفة التي يتوفر عليها المتكلم لتوجيه خطابه، وإقامة علائق بين الحجج. بإيجاز، فهي تهتم بمختلف أنماط تحقيق فعل الحجاج. ومن ضمنها نذكر على سبيل المثال : الروابط الحجاجية، ومراتب السلم الحجاجي، ومدمجات الحجاج، ومدمجات النتائج، والتوجه الحجاجي...

ويشمل الحجاج ثلاثة مجالات متباينة في وظائفها : البرهنة Démonter (استدلال تحليلي، ومنهجية معقلنة للفهم)، وإقامة الحجة argumenter (منهجية حوارية تشغل أحكاما قيمية)، والإقناع persuader (فن الإيحاء والتطويع بوسائل شتى) [54]. وما يهمنا هو المجال الثالث مع مراعاة ما يلي :

أ ـ ليست اللغة فقط وسيلة للتواصل والإخبار، وإنما أيضا مجموعة من الأدوار المتبادلة يراهن من خلالها كل متلفظ على تعزيز صورته لدى الآخر، وتغيير معتقداته وتمثلاته.

ب ـ يعتبر الفعل الإقناعي شكلا من أشكال التطويع. ولذلك فهو يستدعي الجهات المناسبة (وفي مقدمتها جهة الحمل على الاعتقاد) لحفز المتلفظ له على قبول الميثاق التلفظي وضمان فعالية التواصل.

ج ـ وإن كان الفعل الإقناعي فعلا إدراكيا، فإننا نموضعه منهجيا في إطار البعد الاستيثاقي. وذلك لأن المتلفظ يزعم قول الحقيقة، ويريد أن يصدقه المتلفظ له حتى ولو كان كلامه كذبا وبهتانا. وإذا انعدمت الثقة فيما بينهما، فإن الطرفين يدخلان بوعي أو بدونه في حرب تلفظية. يحاول كل واحد منهما أن يربح معاركها واشتباكاتها بما أوتي من حجج وقدرة على المناورة.

د ـ إن المتلفظ يستضمر أو يصرح بالنتيجة التي يتوخى إيصالها إلى المتلفظ له. ولأجل ذلك فهو يستخدم مناورات تلفظية لحمله على تصديقها واعتقادها. وتدخل أساليب الإيضاح ضمن تلك المناورات لإفهام الخطاب، وضمان تماسكه، ودعمه بالحجج الكافية. ويعرف كرايس الإيضاح على النحو التالي : «هو مجموع الإجراءات الخطابية التي يجب أن تقود المستمع / القارئ إلى التدليل على حكم قيمي»[55].

2.3.2- معالم الاستراتجية الحجاجية في رواية ذات :

لبيان هذه المعالم سنحلل الإيضاح انطلاقا من الزوايا التالية :

1.2.3.2- النموذج والنموذج المضاد :

«يشكل النموذج إبدالا بالنسبة للمستمع الذي يعرف بأنه مجبر على تقليده»[56]. لقد عمل جهاز البث المركزي على تسريب النموذج الليبرالي ليحل محل النموذج الاشتراكي المضاد. ولم يصمد هذا النموذج الأخير أمام إغراءات السوق، وتفشي مظاهر الاستهلاك والمنافسة والتمليك. ومع مر الأيام أصبح النموذج الليبرالي موضوع البث اليومي بين مختلف الشرائح الاجتماعية في الأمكنة جميعها. وإن عانت الفئات الاجتماعية المستضعفة والمتوسطة من سياسة الانفتاح الاقتصادي، فهي قد شحذت عزيمتها للتنافس فيما بينها لأخذ موقع في مسيرة الهدم والبناء. وقد ترسخ النموذج الليبرالي بالصورة الإشهارية والخطب الرسمية وقصاصات الأخبار التي أكبّتْ على بيان إيجابيات النموذج الجديد للنهوض بالاقتصاد الوطني، وحل المعضلات الاجتماعية المتفاقمة. وما تتوخاه صحف المعارضة من الكشف عن عيوب النموذج الليبرالي ونواقصه، هو إصلاحه حتى لا تتضرر الفئات المستضعفة منه، وتستفحل الفوارق الاجتماعية.

2.2.3.2- التوجه الحجاجي :

لا يتضمن الملفوظ محتوى إخباريا (أو قضويا) فقط، وإنما له كذلك قيمة تحدثية تستتبع فعلا لغويا (القول). وهذا ما يوجه الملفوظ توجيها حجاجيا (l'orientation argumentative)[57] وفي هذا الصدد، سنستشهد ببعض الملفوظات التي يمكن أن تسعف على تشخيص الميثاق الاستيثاقي المبرم بين الدولة والشعب المصري.

11- «فقد أبدى السكان ـ شأنهم شأن بقية المصريين ـ انصياعا تاما للتوجيه الذي تلقوه عبر جهاز البث المركزي» ص 45.

إن ورود لفظة «تاما» أعطت للملفوظ توجيها حجاجيا، وذلك لبيان أنه لم تحصل أية معارضة أو مقاومة للرسالة التي تلقاها المصريون من جهاز البث المركزي ، وتأكيد نتيجة مستضمرة مفادها أنهم استجابوا بالكلية للنموذج الليبرالي، وتخلوا عن النموذج الاشتراكي. وهذا ما يتضح لو استبدلنا اللفظة نفسها بألفاظ أخرى، وذلك على نحو : «قليلا»، و«قليلا جدا»، و«محدودا جدا». فكل لفظة توجه الملفوظ توجيها حجاجيا خاصا. ومجلاه عموما هو أن نسبة محدودة من المصريين هي التي انساقت مع النموذج الليبرالي، في حين أن الغالبية العظمى ترفضه. وهكذا يحصل عكس ما هو مثبت في الرواية. وإن اشتركت الملفوظات المستوعبة لتلك الألفاظ في المحتوى الإخباري (المقول)، فهي تختلف في التوجيه الحجاجي (القول). وبما أنها تنتمي إلى الطبقة الحجاجية نفسها، يمكن أن ترتب في السلم الحجاجي على النحو التالي :

تاما

قليلا

قليلا جدا

محدود جدا

12- «حافظ سكان العمارة على الجدول الزمني للمسيرة بنجاح». ص 55.

يشكل هذا الملفوظ فعلا لغويا إعلانيا مفاده أن سكان العمارة انضبطوا للتوجيه السياسي الجديد، وبدأوا يمارسونه في حياتهم العملية. ولهذا الغرض خصصوا جدولا زمنيا لمواكبة مسيرة الهدم والبناء. إن ورود لفظة «بنجاح» أعطى للملفوظ توجيها حجاجيا إيجابيا، ومفاده أنهم لم يتهاونوا ويتقاعسوا فيه، وهذا ما بوأه مكانة عليا في السلم الحجاجي. ويستند القارىء إلى خلفياته المعرفية وتجاربه الشخصية لملء المراتب الشاغرة والاضطلاع بالاستدلالات المناسبة التي تمكنه من إدراك التوجه الحجاجي للملفوظ المعاين. وهكذا يتصور مراتب أعلى من النجاح (بدقة متناهية) أو أقل منه (بانضباط)، شريطة أن تنتمي إلى الطبقة الحجاجية عينها، وتفيد التوجه الحجاجي الإيجابي، وتتفاوت في تأديته.

بدقة متناهية.

بنجاح.

بانضباط

13- «لم يكن تخليص عبد المجيد هو ما عنته ذات في مبدأ الأمر، إذ كانت ما تزال تفكر في اللحاق بمسيرة الهدم والبناء» ص 342.

يفيد الفعل الناقص «ما تزال» الاستمرارية، ويحيل في الآن نفسه على المطروح (كانت تفكر في اللحاق بالمسيرة) والمفترض (ما تزال تفكر في اللحاق بها). فرغم كثرة المشاكل التي انهالت على ذات، لم تثن عزيمتها على مسايرة إيقاع ووتيرة مسيرة الهدم والبناء. ولا يتضح التوجه الحجاجي للملفوظ إلا باستبدال الفعل نفسه بفعلين ناقصين آخرين، وهما كان (الانقطاع) وأصبح (الشروع).

ويمكن أن تتموضع الملفوظات المبدوءة بهذه النواسخ في مراتب السلم الحجاجي على النحو التالي :

- ما تزال تفكر (الاستمرارية)
- أصبحت تفكر (الشروع)
- كانت تفكر (الانقطاع)

من خلال هذه الشواهد يتبن أن الفعل الإقناعي الجوهري ينحو في اتجاه حفز المصريين على الإعجاب بالنموذج الليبرالي والانصياع له. وما يدل على ثقتهم به واستجابتهم له هو تصميمهم لجداول زمنية مضبوطة للحاق بمسيرة الهدم والبناء، والإصرار على مسايرة إيقاعاتها السريعة رغم كثرة المثبطات والعوائق. ولا تمثل ذات داخل المجتمع المصري إلا عينة من بعض الشرائح الاجتماعية المتوسطة التي وجدت نفسها ـ في خضم الانفتاح الاقتصادي والسياسي ـ أمام مشاكل كثيرة ومستعصية. فرغم مشاكلها في الأرشيف (مقاطعة الزملاء لها) والمنزل (ارتفاع التكلفة المالية لتزيين المنزل وتربية الأطفال، واعتقال عبد المجيد) مازالت تجهد نفسها وتكد للحاق بالمسيرة، التي أصبحت تشكل الهاجس اليومي للمواطنين جميعهم إن هم أرادوا التكيف مع أجواء وطقوس الإبدال الجديد، واستيعاب المعالم الكبرى لإيديولوجيته الليبرالية.

3.2.3.2- التماسك النصي :

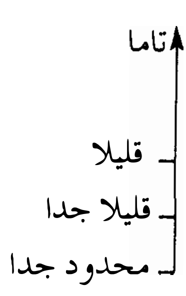
لايمكن للنص أن يؤدي وظيفته الحجاجية إلا إذ كانت عناصره متماسكة. ويستحيل أن يقول الروائي الأشياء كلها دفعة واحدة، إذ يترك هامشا رحبا للقارئ حتى يشغل خلفياته المعرفية ويتدارك ما بقي مغفلا وناقصا، ويحفزه على التعاون للاضطلاع معا بمهمة الفهم والتأويل. وقد تترك رواية ذات انطباعا بعدم انسجامها لتكونها من محكيين متنافرين (قصة ذات، وقصاصات الأخبار). ولما نمعن النظر فيهما معا نجد كثيرا من الروابط والعلائق تجمعهما لإنتاج نص واحد ومتماسك.

وعندما نولي أهمية لتتبع معالم التوجيه الذي تلقاه المصريون قاطبة من جهاز البث المركزي، نجدها متماسكة فيما بينها بواسطة المظاهر والمؤشرات النصية التالية :

أ ـ الالتزام بالموضوع نفسه طيلة النص الحكائي (انخراط المواطنين في مسيرة الهدم والبناء).

ب ـ التدرج الموضوعاتي المنفجر (الاستطرادات، والاسترجاعات، والاستباقات، والتداخل الحكائي).

ج ـ توظيف المحيلات بنوعيها (النصي والمقامي)، وأدوات التنضيد (حروف



12- «حافظ سكان العمارة على الجدول الزمني للمسيرة بنجاح». ص 55.

يشكل هذا الملفوظ فعلا لغويا إعلانيا مفاده أن سكان العمارة انضبطوا للتوجيه السياسي الجديد، وبدأوا يمارسونه في حياتهم العملية. ولهذا الغرض خصصوا جدولا زمنيا لمواكبة مسيرة الهدم والبناء. إن ورود لفظة «بنجاح» أعطى للملفوظ توجيها حجاجيا إيجابيا، ومفاده أنهم لم يتهاونوا ويتقاعسوا فيه، وهذا ما بوأه مكانة عليا في السلم الحجاجي. ويستند القارئ إلى خلفياته المعرفية وتجاربه الشخصية لملء المراتب الشاغرة والاضطلاع بالاستدلالات المناسبة التي تمكنه من إدراك التوجه الحجاجي للملفوظ المعاين . وهكذا يتصور مراتب أعلى من النجاح (بدقة متناهية) أو أقل منه (بانضباط)، شريطة أن تنتمي إلى الطبقة الحجاجية عينها، وتفيد التوجه الحجاجي الإيجابي، وتتفاوت في تأديته.

بدقة متناهية.
بنجاح.
بانضباط

13- «لم يكن تخليص عبد المجيد هو ما عنته ذات في مبدأ الأمر، إذ كانت ما تزال تفكر في اللحاق بمسيرة الهدم والبناء» ص 342.

يفيد الفعل الناقص «ما تزال» الاستمرارية، ويحيل في الآن نفسه على المطروح (كانت تفكر في اللحاق بالمسيرة) والمفترض (ما تزال تفكر في اللحاق بها). فرغم كثرة المشاكل التي انهالت على ذات، لم تثن عزيمتها على مسايرة إيقاع ووتيرة مسيرة الهدم والبناء. ولا يتضح التوجه الحجاجي للملفوظ إلا باستبدال الفعل نفسه بفعلين ناقصين آخرين، وهما كان (الانقطاع) وأصبح (الشروع).

ويمكن أن تتموضع الملفوظات المبدوءة بهذه النواسخ في مراتب السلم الحجاجي على النحو التالي :

- ما تزال تفكر (الاستمرارية)
- أصبحت تفكر (الشروع)
- كانت تفكر (الانقطاع)

من خلال هذه الشواهد يتبن أن الفعل الإقناعي الجوهري ينحو في اتجاه حفز المصريين على الإعجاب بالنموذج الليبرالي والانصياع له. وما يدل على ثقتهم به واستجابتهم له هو تصميمهم لجداول زمنية مضبوطة للحاق بمسيرة الهدم والبناء، والإصرار على مسايرة إيقاعاتها السريعة رغم كثرة المثبطات والعوائق. ولا تمثل ذات داخل المجتمع المصري إلا عينة من بعض الشرائح الاجتماعية المتوسطة التي وجدت نفسها ـ في خضم الانفتاح الاقتصادي والسياسي ـ أمام مشاكل كثيرة ومستعصية. فرغم مشاكلها في الأرشيف (مقاطعة الزملاء لها) والمنزل (ارتفاع التكلفة المالية لتزيين المنزل وتربية الأطفال، واعتقال عبد المجيد) مازالت تجهد نفسها وتكد للحاق بالمسيرة، التي أصبحت تشكل الهاجس اليومي للمواطنين جميعهم إن هم أرادوا التكيف مع أجواء وطقوس الإبدال الجديد، واستيعاب المعالم الكبرى لإيديولوجيته الليبرالية.

3.2.3.2- التماسك النصي :

لايمكن للنص أن يؤدي وظيفته الحجاجية إلا إذ كانت عناصره متماسكة. ويستحيل أن يقول الروائي الأشياء كلها دفعة واحدة، إذ يترك هامشا رحبا للقارئ حتى يشغل خلفياته المعرفية ويتدارك ما بقي مغفلا وناقصا، ويحفزه على التعاون للاضطلاع معا بمهمة الفهم والتأويل. وقد تترك رواية ذات انطباعا بعدم انسجامها لتكونها من محكيين متنافرين (قصة ذات، وقصاصات الأخبار). ولما نمعن النظر فيهما معا نجد كثيرا من الروابط والعلائق تجمعهما لإنتاج نص واحد ومتماسك.

وعندما نولي أهمية لتتبع معالم التوجيه الذي تلقاه المصريون قاطبة من جهاز البث المركزي، نجدها متماسكة فيما بينها بواسطة المظاهر والمؤشرات النصية التالية :

أ ـ الالتزام بالموضوع نفسه طيلة النص الحكائي (انخراط المواطنين في مسيرة الهدم والبناء).

ب ـ التدرج الموضوعاتي المنفجر (الاستطرادات، والاسترجاعات، والاستباقات، والتداخل الحكائي).

ج ـ توظيف المحيلات بنوعيها (النصي والمقامي)، وأدوات التنضيد (حروف

العطف والتعليل، وأدوات الاستثناء، وما يدل على الغاية والشرط والجواب)، والروابط الحجاجية (لأن، بينما، وبما أن، وريثما).

د ـ شروط التكيف الخطابي (المصاحبات النصية) : وتلزم المتلفظ والمتلفظ له بمراعاة الشروط المقامية، واحترام الشفرة اللغوية.

14- قال عبد المجيد : دي كمان عمايل الأم ؟

15- قالت ذات المجربة : لا ده الشنقيطي نفسه. ص290.

فلو أن ذات تلفظت بملفوظ آخر (على نحو الساعة الخامسة والعشرين) لكان ردها متنافرا مع السياق الذي ورد فيه. وحتى تضمن ذات تواصلها وتفاهمها مع زوجها، ينبغي لها أن ترد عليه بملفوظ مناسب. في حين إذا تلفظت بملفوظ غير منسجم مع السياق العام للكلام ، فقد يتبادر إلى ذهنه أنها لم تفهم المقصود من تلفظه أو أنها ساهية عنه أو غير مكترثة به.

هـ ـ السيرورة الحجاجية : في حالة عدم اقتناع المتلفظ له بالحجج المقدمة له، ينبغي للمتلفظ أن يستخدم مناورات تلفظية جديدة، ويضاعف من أساليب الإقناع لعله يفلح في مهمته. وغالبا ما تتدرج السيرورة الحجاجية من مرحلة الرفض إلى القبول. ويمكن أن نشخصها في الترسيمة التالية :

المرحلة الأولى	السيرورة الحجاجية	المرحلة الثانية.
ترددت ذات في الاستجابة		قبلت ذات الانخراط
للنموذج الليبرالي نظرا		في مسيرة الهدم والبناء
لوفائها للنموذج الاشتراكي		بعدما تخلصت نسبيا من
الذي اختطه جمال عبدالناصر.		عقدة جمال عبدالناصر.

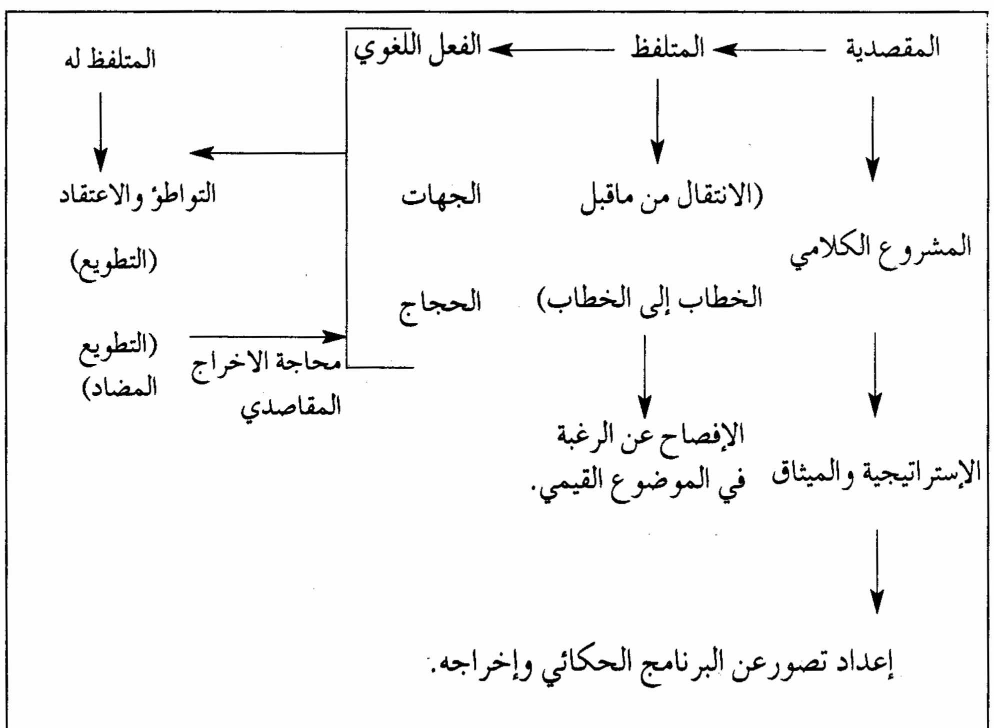
(خطاطة رقم 16 السيرورة الحجاجية)

4.2- المشروع الكلامي :

كان الأجدر أن نبدأ بهذه النقطة لأنها أول ما يفكر فيه المتكلم بوعي أو بغير وعي لاتخاذ التدابير جميعها التي ستسعفه على الخروج من الوضعية / المعضلة situation/ problème بنجاح وفعالية. لكنه ـ لاعتبارات منهجية ـ ارتأينا أن نؤخرها لأنه لا تتوضح معالم المشروع الكلامي إلا بالإفصاح عنه، وبتوظيف العناصر المشار إليها آنفا.

«يتصور المتلفظ فرضية، فينظمها، ثم يعمل على إخراج (mise en scène) مقاصده على نحو يمكن من إحداث بعض الآثار (الاعتقاد والإغراء) في المتلقي»[58]. ولتحقيق هذه الإستراتيجية يفكر في المشروع الكلامي الذي سيناسب مقتضيات الأحوال والظروف، ويستجيب لتوقعات وتنظرات المتلقي. وكما رأينا، فيما سبق ذكره، أن الدولة المصرية تدبرت سياستها الجديدة من الجوانب جميعها. ولهذا استحضرت مجموعة من المناورات والإستراتيجيات التلفظية لجعل الجماهير تستسيغ النموذج الجديد، وتروجه في أحاديثها اليومية. وفي هذا الصدد ركزت الدولة على الفعل اللغوي بوصفه سلوكا وفضاء مشتركا يتجابه فيه الإنتاج والتأويل على حد سواء، وعلى الجهات المناسبة وأساليب الحجاج الضرورية والفعالة لإقناع المتلقي وحمله على تغيير معتقداته وتمثلاته.

يتوخى المتلفظ أن يخلف كلامه أثرا في المتلفظ له، ويجاريه في معتقداته وتمثلاته، ويعزز في ذهنه صورة مثالية عنه. وهذا ما يقتضي منه دراسة ردود فعله، والكشف عن مواطن ضعفه، ومعرفة ما يدغدغ مشاعره وما يمجه ويتقزز منه. وبما أن المتلقي ليس عنصرا سلبيا، فهو قد يعدل الإخراج المقاصدي للمتلفظ أو يرفضه أويؤوله على هواه. وفيما يأتي نقدم ترسيمة متكاملة عن تمفصلات المشروع الكلامي :



(خطاطة رقم 17 مسارات تحيين المشروع الكلامي)

ويمكن أن نقدم، أسفله، جدولا يقدم تركيبا مجملا للدعائم التي يرتكز عليها التطويع التلفظي :

لدعامة التطويعية	الإستراتيجية المرتكز عليها	البنية التعاقدية والجهية
الفعل اللغوي	- اعتبار الفعل اللغوي جزءا من الجهات التحادثية، وشكلا من أشكال التطويع، وذا صبغة لغوية خالصة، وناجما عن الشروط المحددة لطقوس السحر الاجتماعي.	- يعتبر الفعل اللغوي بمثابة : - فعل معرفة يسعف على اتصال المتلفظ له بموضوع المعرفة. - فعل يراهن على تنفيذ ما هو مطلوب، وحمل المتلفظ له على اعتقاد ما يتلقاه .
الجهة	- التركيز على جهات التحدث ، وفي مقدمتها جهة الحمل على الاعتقاد - إدراج هذه الجهة ضمن البعد الاستبشاقي الذي يتجاذبه الفعلا ن السيميائيان التاليان : الفعل الإقناعي والفعل التأويلي .	- تستتبع الجهة التحدثية من جهة المتلفظ حمل المتلفظ له على تصديقه، ومن جهة المتلفظ له الرغبة في الاعتقاد، وواجب الاعتقاد، والاعتقاد (في حالة الاقتناع) أوعدم الاعتقاد (في حالة عدم الاقتناع).
الحجاج	- توسيع مفهوم الفعل الإقناعي ليشمل مجموعة من الإجراءات، الخطابية والحجاجية والجهية، واعتباره عنصرا أساسيا في تحريك البرامج الحكائية وتعبئة المتلفظ له للاضطلاع بالمهمة المنوط بها.	- ينبغي للمتلفظ أن يتوفر على كفاية حجاجية تمكنه من تغيير معتقدات وتمثلات المتلفظ له، وإقناعه بتنفيذ طلباته.
المشروع الكلامي	- يضع المرسل سيناريوهات مختلفة قبل إرسال الذات لتنفيذ فعل ما. ومن ضمن ما يفكر فيه هو ما سيقوله له، ويقنعه به. ولهذا ينبغي له أن يتخذ جملة من التدابير، وفي مقدمتها أساليب الحجاج والإقناع، لحمل المتلفظ له على تصديق كلامه وتنفيذه طوعا.	يكون المشروع في البداية عبارة عن إخراج مقاصدي يتطلب من صاحبه التفكير والتنظيم والتروي للتمكن من إحداث آثار الاعتقاد. وبما أن المتلفظ ليس ا سلبيا يكتفي فقط بالتقتقاطما يتلقاه، فهو يؤوله تعا لقناعته الخاصة.

(جدول رقم 8 دعائم التطويع التلفظي)

خاتمة :

ما يهمنا أساسا من التطويع التلفظي هو بيان دوره في تحريك البرامج الحكائية. وإقناع المتلفظ له بتنفيذ فعل معين. وإذا لم يكن المتلفظ متوفرا على الكفاية اللغوية والتواصلية اللازمة، فسيتعذر عليه إيصال مقاصده ومعتقداته إلى مخاطبه على النحو المطلوب. ويمكن أن يشكل ذلك عائقا يحول دون إدراك المرسل / المتلفظ للموضوع المبحوث عنه. وتتطلب الكفاية التطويعية من المرسل / المتلفظ ومن المرسل إليه / المتلفظ له (في حالة اضطلاعه بالمهمة المكلف بها) إلماما باستخدام الأفعال اللغوية في مقاماتها وظروفها المناسبة، وبتوظيف الجهات وأساليب الحجاج الملائمة. ولا ينبغي للجزاء أن ينحصر في تقويم الفعل فقط (ما أنجز وما لم ينجز)، وإنما يتعداه كذلك ليشمل حتى الكلام المستخدم بوصفه جملة من الأدوار والمواضعات المسعفة على إدراك المبتغى. وفي هذا الصدد، يقتضي الأمر تقويم المشروع الكلامي برمته من مرحلة تخطيطه إلى مرحلة تشخيصه على أرض الواقع، والتوقف عند مواطن الضعف والقوة (ما عرقل تنفيذه أو أسعف عليه). وسبق لنا أن أشرنا إلى أن الكلام قد يشكل إما عاملا يسعف على إدراك الموضوع القيمي أو عاملا يعيق ذلك.

****

الهوامش :

1- أبو حيان التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة، تحقيق خليل منصور، دار الكتب العلمية، ط1، 1998.

2- Greimas (A.J) et Courtés (J) , Sémiotique Dictionnaire raisonné de la théorie du langage , Hachette, 1979, p. 221.

3- Parret (Herman) , Les passions essai sur la mise en discours de la subjectivité, Pierre Mardaga, 1986, p 98.

4- Ibid ,p. 99.

5- Ibid ,p. 100.

6- Greimas (A.J) et Courtés (J) , Sémiotique Dictionnaire raisonné de la théorie du langage, op.cit p. 221.

7- Ibid , p. 221.

8- Parret (Herman) , Les passions essai sur la mise en discours de la subjectivité, op.cit, p. 104.

9- Greimas (A.J) et Courtés (J) , Sémiotique Dictionnaire raisonné de la théorie du langage, op.cit p. 221.

10- Courtés (J), Analyse sémiotique du discours de l'énoncé à l'énonciation, Hachette,1991, pp. 251/252.

11- Courtés (J) , Du lisible au visible introduction à la sémiotique du texte et de l'image, De Boeck, 1995, p. 11.

12- Searle (J.r) , Sens et expression étude de la théorie des actes du langage, trad et préface Joëlle proust , Minuit , 1982, p. 32.

13- Moeschler (J)., Argumentation et conversation , éléments pour une analyse pragmatique du discours., Hatier., Paris, 1985, pp. 32/33.

14- Searle (J.r) , Sens et expression étude de la théorie des actes du langage, op.cit, 26.

15- Greimas (A.J) et Courtés (J) , Sémiotique Dictionnaire raisonné de la théorie du langage, op.cit , pp. 5/6.

16- Searle (J.r) , Sens et expression étude de la théorie des actes du langage, op.cit p. 33.

17- Récanati (F), Les énoncés performatifs contribution à la pragmatique, Minuit, 1981, p. 20.

18- Benveniste(E), «Les verbes délocutifs», in Problèmes de la linguistique générale, tome 1 , Gallimard, 4966, p. 285.

19- Récanati (F) , Les énoncés performatifs contribution à la pragmatique,op.cit p. 223.

20- Lane-mercier (G) , La parole romanesque , Klincksieck, 1989 ,p 280.

21- Benveniste(E), « Les verbes délocutifs» ,in Problèmes de la linguistique générale, op.cit , p. 270.

22- Ibid, p 273.

23- Ubersfeld (A), Lire le théâtre, éditions sociales, 1981.

- Felman (Sh), Le scandale du corps parlant. Don Juan avec Austin ou la séduction en deux langues, Seuil, Paris, 1981.

- Maingueneau (D), L'analyse de discours introduction aux lectures de l'archive, Hachette, 199124 - Ibid, p.174.

25- Maingueneau (D) ,Pragmatique pour le discours littéraire , Bordas / Dunod, 1990,pp. 124/125.

26-Ubesfeld (A) , Lire le théâtre, op.cit, p. 290.

27-Greimas (A.J) et Courtés (J) , Sémiotique Dictionnaire raisonné de la théorie du langage, op.cit. p. 6.

28- Benveniste (E), «La philosophie analytique et le langage», in Problème de linguistique générale. op.cit, pp. 67/2276.

29- Voir Bourdieu (P), «Le langage autorisé : les conditions sociales et l'efficacité du discours rituel» in Ce que parler veut dire, l'économie des échanges linguistiques, Fayard, 1982, pp. 103/119.

30- Benveniste (E), «Les verbes délocutifs», in Problèmes de la linguistique générale, op.cit, p. 279.

31- بير بورديو، الرمز والسلطة، ترجمة عبدالسلام بنعبد العالي، دار توبقال، ط1 ، 1986، ص 64.

32- أديب حضور، «سوسيولوجية الترفيه في التلفزيون»، عالم الفكر، م 28، العدد 2، أكتوبر/ ديسمبر 1999، ص 64.

33- الصفحة نفسها من المرجع نفسه.

34- عبد الرحمن طه، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، المؤسسة الحديثة للنشر والتوزيع بابل، ط1، 1987، ص 31.

35- عبدالعزيز عتيق، علم المعاني، دار النهضة العربية، 1989، ص 90.

36- المرجع نفسه، ص 84.

37- بيير بورديو، الرمز والسلطة، م.سا، ص 66.

38- Parret (H), « la pragmatique des modalités», in Langages, n°43, 1976, p.47.

39- Alexandrescu (Sorin) ,«sur les modalités croire et devoir», Ibid, p. 20.

40- Greimas (A.J) et Courtés (J), Sémiotique Dictionnaire raisonné de la théorie du langage, op.cit, p. 230.

41- أُنظر في هذا الصدد إلى : محمد مفتاح، تحليل الخطاب العربي استراتجية التناص، المركز الثقافي العربي، ط 2، 1986، ص/ص 156 – 158 .

42- تتكون النواة الصلبة من الجهات الافتراضية (على نحو : من الضروري أن يعود علي) ومساعدي الصيغ (على نحو :يجب على علي أن يعود). أنظر في هذا الصدد إلى :

Cervoni (J), L'énonciation, PUF, 1987, p. 81.

43- Parret (H) « L'énonciation en tant que déictisation et modalisation», Langages n° 70 , 1983, p. 91.

44- Roulet (Eddy) « Modalité et illocution pouvoir et devoir dans les actes de permission et de requête», Communication, n°32, 1980, p. 216.

45- Greimas (A.J), Du sens II, essais sémiotiques, Seuil, 1983, p. 67.

46- Parret (H), « La pragmitique des modalités», op.cit, p. 47.

47-Roulet (Eddy) «Modalité et illocution pouvoir et devoir dans les actes de permission et de requête», op. cit, pp. 216 / 237.

48- Greimas (A.J), Du sens II, essais sémiotiques, op. cit, p. 53.

49- Hamon (Ph), Introduction à l'analyse du descriptif, Hachette, 1981, p. 198.

50- Lane-mercier (G), La parole romanesque, op. cit, p. 291.

51- Greimas (A.J), Du sens II, essais sémiotiques, op. cit, p. 117.

52- Zilberbeg (C), «Modalités et pensées modales», Nouveaux actes sémiotiques, n°3 , 1989, p. 11.

53- Maingueneau (D), Analyse du discours, op.cit, p. 228.

54- Boissinot (A), Les textes argumentatifs, coll, Bertrand-Lacoste, CRDP de Toulouse, 1992, p. 8.

55- Maingueneau (D), Analyse du discours, op. cit, p. 245.

56- Ibid p. 223.

57- فيما يخص بعض المفاهيم الموظفة (التوجه الحجاجي، والسلم الحجاجي، والمضمرأو المضمن) اعتمدنا على أوسوالد ديكرو، المقول والقول، منشورات منوي، 1984.

58- Charaudeau (P), Langage et discours. Eléments de sémiolinguistique (Théorie et pratique), Hachette, 1983, p. 5.

الفصل الخامس

التطويع التلفظي في الروايات الحافة.

تمهيد :

نسنستأنس بالمفاهيم نفسها تقريبا التي شغلناها على رواية **ذات** لا متحان إجرائيتها على الروايات الثلاث الأخرى ؛ وذلك سعيا إلى إبراز التطويع التلفظي في مختلف تجلياته وتمفصلاته، والتوقف عند بعض ثوابته ومتغيراته.

1.1- الأفعال اللغوية :

ترتب على كل محكي من محكيات رواية **الضوء الهارب** برنامج حكائي متميز بملفوظاته (ملفوظات الحالة، وملفوظات الفعل). وتتفق المحكيات أغلبها فيما تصدع به الشخصيات من ذكريات وأشجان ومشاعر، وما تبوح به من طوايا ورغبات وأحلام، وما تقتنصه من لحظات هاربة. ونظرا لتضارب المصالح والمشروعات الشخصية، وتواشج العلاقات العاطفية، فإن الشخصيات تتناوب في ممارسة التطويع. فالمطوِّع قد يصبح بدوره مطوَّعا. وذلك ليس لأنه أصبح يشغل موقعا أقل مما كان له، وإنما اقتضته ظروف معينة لتحقيق أغراضه ومآربه الشخصية. وهذا ما سنحاول بيانه فيما يلي :

1- «أظن أنني في بيت العيشوني. أليس كذلك ؟» (ص 11)

تستخدم فاطمة فعلا غير مباشر متقصدة منه معنى تلفظيا غير مصرح به لفظا (الاستئذان)، ثم تردفه بسؤال استنكاري يوحي بجوابه. وإذا تطلب منها هذا الفعل توفير شروط النجاح، فقد استدعى من متلقيها (العيشوني) استخدام قدراته الاستدلالية للكشف عن مضمراته ومقاصده. وبعد أن تأتى له ذلك لفطنته وذكائه، أذن لها بالدخول. وما زاد في إثبات وجودها، وإضفاء الشرعية عليها هو وجهها الأليف، وكلامها المنساب في تلقائية ومودة، وتحدثها في الرسم والأدب. وبعد أن تيقنت من كسب مودة العيشوني وثقته صارحته بالهدف الذي جاءت من أجله. وهو ولوج محراب وحدته ونزواته لحَفْزه على استحضار الذكريات التي كانت تجمعه بأمها غيلانة.

2- «أريد أن أستعيد معك جزءا من زمني المتصرم» (ص41).

ما يميز الفعل غير المباشر هو استخدام اللباقة في الكلام. وهذا ما توخاه العيشوني من استخدام فعل الإرادة حتى يوحي بالهدف الأولي والمضمر، ويستجيب للطلب الذي توخته فاطمة من زيارتها له. وهو المتمثل في استحضارجزء من ماضيه جمعه بعاشقته غيلانة . فأيقظ ذلك شلالا من الذكريات التي تربطه بالمرآة العزيزة / المكروهة (غيلانة)، وبالمرأة التي استدرجته إلى عالم الحب والنظرات المحركة للأشجان.

3- «ما دمت أشتري منك مسبقا عشر لوحات بأسلوبك القديم. فلماذا لا تسرع بالإنجاز ؟ هذا جهدي عليك» ص 20.

يلتمس الدحماني (رجل أعمال) من العيشوني أن يسرع بإنجاز عشر لوحات على الطراز المعتاد. لكن شروط تحقق هذا الفعل تبدلت بسبب تخلي العيشوني عن رسم موديلات النساء العاريات، ورغبته في إيجاد شكل ملائم لإحساساته وعلاقته بالعالم. وكلما حاول القبض عليه، ينفلت منه كضوء هارب، ويظل يلاحقه دون أن يتمكن من إسكانه وإيداعه في قماش اللوحة. ومع ذلك كان يتمتع بنورانيته وإغراءات السراب.

4- «ما المطلوب منك ؟ شيء يلائم موهبتك وجمالك.. اسمعي يا جميلتي لقد وعدت صاحب الفيلا بأنني سأقدم نمرة طريفة تكسر رتابة الحفل.. أطلب منك الامتثال المطلق لكل ما آمرك به بدون مناقشة.. مفهوم ؟» (ص 26-27).

استجابت فاطمة لطلب العيشوني رغم الإحراجات والمخاويف. فتعرت أمام جمهور السهرة كما تلقفتها يد القابلة عندما هلت على هذا العالم. وإذا كان المشهد قد استهوى الرجال، فقد استاءت وامتعظت النسوة منه. وما استجابة فاطمة لقوة الملفوظ التحدثية (الأمر بشلح الثياب) إلا تعبير عما تكنه للعيوشي من إعجاب وحب. فهي لم تجسر على مخالفته رغم أنها تعرف في قرارة نفسها بأنه اختزلها إلى جسد مشاع يتسلى به المتفرجون. وبرر العيشوني ما آمره بها بأنه يدخل في إطار استدراجها لتتعرف على شخصيته وإدراك جوانبها الخفية التي لم تحدثها أمها عنها.

5- «أجي لهنا.. أنا منحبشي بنتي تمشي مع الاولاد... جليني نربي بنتي» (ص 79).

يمثل العيشوني وغيلانة مشهدا عائليا يفترض فيه حضور فاطمة. فيؤدي هو دور الزوج العائد من إدارة الجمارك على الساعة السابعة مساء. وتضطلع هي بدور الزوجة والبنت. وبما أن المشهد يفتقر إلى الشروط الحقيقية للتلفظ، فإن الفعل المنجز فيه يعد ضربا من ضروب الخيال. يمثل العيشوني دور الزوج القاسي الذي لا يستسيغ معاشرة بنته للذكور، فيكثر من أساليب الأمر والنهي على وجه الوجوب والإلزام. ويحذرها من مغبة تكرار الفعل نفسه مرة أخرى.

6- نعاين الأفعال المدرجة في المقولة التعبيرية بين ثنايا الرسالة التي وجهتها فاطمة إلى العيشوني ودفاتره. فقد ضمنت فاطمة في الرسالة التي وجهتها إلى العيشوني من بلدة مانتون مشاعر العتاب والحب والحسرة والضيم، وهي تسترجع شريطا من حياتها في جامعة فاس وفي مدينة باريس، وتركز أساسا على علاقتها الغرامية بالداودي ثم بحاتياس. وفي آخر الرسالة تعده بزيارته للتعرف على أحواله وتطلب منه عدم إخبار أمها بمراسلتها له، لأنه لم يعد هناك ما يربطها بها، ولا تريد أن تسبب لها مزيدا من الألم.

وأبرز العيشوني في مذكراته طبيعة العلاقة التي تجمعه بفضاء طنجة، وبأمه وخوسيو الذي تبناه ، وبالنسوة اللواتي تعرف عليهن (غيلانة، كنزة، فاطمة). وخلا لها حاول أن يجرب الكتابة لعلها تقلص المسافة بينه وبين العالم الذي يكتنفه. ولكن لما تأكد من أن الكتابة ـ رغم افتخاره واعتزازه بما كتب ـ فجة لا تنقل بأمانة سرائر النفس ومكنوناتها، قرر العودة إلى عالم الرسم لمطاردة الضوء الهارب منه باستمرار.

غالبا ما يمارس الأعلى التطويع على الأدنى لحثه على تنفيذ فعل ما. ولاحظنا في رواية **الضوء الهارب** أن التطويع فعل صادر عن الأنداد والنظراء المتساوين قدرا ومنزلة ويستخدم المتلفظ الفعل اللغوي لحفز المتلفظ له على القيام بعمل غير لغوي (على نحو فتح الباب، ونضو الثياب، والتوقف عن كتابة المذكرات). ولكنه في غالب الأحيان يطالبه بتنفيذ عمل لغوي يتطلب **معرفة الحكي والقول** والتوفر على معارف وتجارب ثرة. وهكذا يشغل المتلفظ له دور المتلفظ، ويوظف طاقاته اللغوية والذهنية والمعرفية لاسترجاع لحظات من ألق الماضي، والكشف عن بعض جوانبه الخفية. وتتبادل الفواعل الأدوار التلافظية فيما بينها بحثا عن فهم الذات من خلال عكسها في مرايا متقابلة، وتسليط مزيد من الإضاءات على الأمور الغامضة والملتبسة. فكل مرآة تكشف عما بِقي مغفيا أو مغفلا في المرآة الأخرى. وبهذا الصنيع تكتمل أطراف المحكي المؤطَر.

واستبعت الأفعال التعبيرية الكبرى التي اضطلع بها العيشوني وفاطمة التطويع الذاتي. فقد لاذا بالكتابة (المذكرات والرسالة) للتعبير عن حالتهما النفسية ومشاعرهما الداخلية. وإن كانا يسعيان من خلالها إلى التأثير في المتلقي، فهما لا يتقصدان تغيير معتقداته أو حضه على تنفيذ فعل معين. وكما عاينا تتخلل تلك الكتابة بعض الأفعال الصغرى التي تندرج في مقولات أخرى، وتستتبع أفعالا غير لغوية تلزم المتلفظ بها بتنفيذها إن هو أراد أن يدعم صورته المترسخة في ذهن المتلقي، ويكون صادقا في أقواله.

2.1- كسب ثقة الآخر :

يرى كريماص أن «ذات الحالة» تعتقد إمكان الاتكال «على ذات الفعل لتحقيق آمالها وحقوقها» [1]. وعليه، تسعى فاطمة إلى تحقيق آمالها بحفز العيشوني على مكاشفتها بالعلاقة التي كانت تجمعه بأمها. وبما أن فاطمة تزوره لأول مرة بمنزله، فهي تشغل استراتجيات تلفظية (الأفعال اللغوية والجهات المناسبة، وانسجام الخطاب) وانفعالية (الإثارة، والتشويق، والإغراء، و الإجلال، والإعجاب) لكسب ثقته، وإيقاعه في شركها، وتوريطه في إقامة علاقة غرامية معها ، واستدراجه شيئا فشيئا إلى الاستجابة لطلباتها الملحاحة. و تتوخى من فعلها الإقناعي حمل العيشوني على سرد سيرته التي

تقاسمها مع غيلانة. ويضطلع بذلك باعتباره واجبا اجتماعيا (مراعاة العلاقة التي كانت تجمعه بأمها) أو نفعيا (الاستمتاع بمفاتن فاطمة التي بعثت اللحظات المنفلتة من مرقدها الأبدي). واقتضى منه واجب الفعل التوفر على كفاية جهية ابستمية (معرفة الحكي والقول) لإثبات المعلومات التي تتعلق بطبيعة العلاقة التي كانت تربطه بغيلانة. وهكذا، تُستبدل الأدوار، فيتحول العيشوني إلى متلفظ يراهن ـ بما يتوسم به من كفاية حكائية ـ على تغيير معتقدات المتلفظ له (فاطمة)، وحمله على تصديق أقواله. وجاءت رسالة فاطمة الموجهة للعيشوني صادرة عن دوافع داخلية (التطويع الذاتي)، وساعية إلى المصالحة مع الذات (الجزاء الذاتي). فبعد أن سبق لها أن صارحت العيشوني بمكانته في قلب أمها، ثم تأكدت ـ بفضل معاشرته ـ من مكانتها في قلبه؛ تجرأت على مكاشفته برغبتها في انتزاعه من شرك أمها والاستمتاع وحدها به، وبالتخلص من الوصاية والرقابة لتعيش تجاربها بمفاجآتها وفجائعها، وتسير في الاتجاه الذي سطرته بمحض إرادتها. وهكذا يتبين لنا أن مقاصد فاطمة متغوِّرة على نحو يتعذر القبض عليها دفعة واحدة. فهي من نوع البشر الذي يظهر مقاصد معينة، في حين يستضمر آخرى إلى الوقت المناسب. ففي كل مرحلة تصدع بمقصد معين، ولا تنتقل إلى الآخر إلا بعد تهيؤ الشروط الضرورية واستنفاد ما هو متوخى من المقصد السابق. ولم تفصح فاطمة بمقصدها الجوهري إلا بعد سنة ونصف من إقامتها في باريس، فصدعت في الرسالة التي أرسلتها إلى العيشوني بأن الغرض من زيارتها له كان بدافع غيرتها من أمها، واستبدال المكانة التي كانت تشغلها في قلبه بمكانتها. لكنه ـ من خلال مذكرات العيشوني ـ يتبين أنه كان موزعا بينهما معا، وظل ـ بعد افتراقه عنهما ـ يفكر في زمنه من خلال كل واحدة منهما.

3.1- تقنية الإيضاح :

تستخدم الفواعل المتلفظة ـ بالإضافة إلى الأفعال اللغوية والجهات ـ الوسائل الحجاجية لدعم وجهات نظرها، وتعريف المتلفظ له بمقاصدها وإقناعه بجدواها وملاءمتها. ومن بين تقنيات الإيضاح التي تعتمدها الفواعل في **الضوء الهارب** لبناء فعلها الإقناعي نذكر ما يلي :

1- المناورة التلفظية :

أشرنا فيما قبل إلى أن فاطمة تجرب خططا عديدة لإدراك أهدافها. فهي تستخدم المناورة التلفظية لجعل تمثلاتها ومقاصدها مقبولة من طرف العيشوني في ظرفيات محددة . ولهذا، فهي توظف زادها الثقافي وخلفياتها المعرفية بنباهة وذكاء ، وتستعمل أساليب المجاملة والإطراء، وتتغنج في حديثها، وتمارس لعبة الظهور والكينونة، وتتصرف بنضج وحساسية جذابين، وتتدرج لتحقيق أهدافها المضمرة بدءا من اقتحام

عالم العيشوني ووصولا إلى محاولة إبعاد أمها منه. على عكس ذلك هي غيلانة امرأة لاتناور في تلفظاتها. تتحدث بتلقائية وعفوية، وتطلق ملفوظاتها على عواهنها دون تحفظ أو تريث. وذلك ما يجعل متلقيها لايجد صعوبات في تفكيك وحل ملفوظاتها، والكشف عما تستضمره من معان ، واعتقاد صحة الحجج المستدل بها.

2- المراتب الحجاجية :

يختزل طه عبدالرحمن تصورات المراتب الحجاجية عند اللسانيين والمناطقة في ثلاثة، وهي : المراتب المتضادة، والمراتب الموجهة توجيها كميا، والمراتب الموجهة توجيها قصديا[2]. وتسعفنا هذه المراتب في تحديد التوجه الحجاجي، وترتيب وتصنيف الحجج المدرجة في الطبقة نفسها.

أ- «عرفت نساء بقدر التلون الذي يمكن أن تأخذه الرغائب والنزوات..» ص 13.

تعرف العيشوني على نساء كثيرات بقدر التلون. ويصعب تحديد عددهن، رغم اندراج الملفوظ في المراتب الموجهة توجيها كميا. ولم يذكر العيشوني إلا أربعة منهن (غيلانة، وكنزة، وفاطمة، وطالبة من طنجة تدرس بجامعة محمد الخامس) تاركا القائمة مشرعة على احتمالات أخرى. ومن باب المبالغة والخيال أن نضع الملفوظ نفسه في قمة السلم الحجاجي. باستثناء إذا اعتبرنا العيشوني قد حطم الرقم القياسي في معاشرة النساء . وما أراد تبليغه هو اعتزازه بأنه زير نساء وبقدرته على إيقاعهن في الوله به. ويخضع ترتيب ذلك الملفوظ إلى مقتضى التناقص الذي يبين أنه موجه بطريقة إيجابية، ويظهر مقدار حجيته :

- حطمت الرقم القياسي في معاشرة النساء.
- عرفت نساء بقدر التلون.
- عرفت العشرات منهن
- عرفت زمرة منهن.
- تعرفت على اتنتين منهن.
- تعرفت على واحدة منهن.
- لم أتعرف على أية واحدة.

ب ـ « أحس كأن الذي لاشيء يحدث، كأن الذي أعيشه عشته من قبل» (ص 69/68).

يستضمر ملفوظ العيشوني نتيجة مفادها أن التجارب التي تقاسمها مع غيلانة كانت استثنائية ورائعة، يصعب أن تتكرر. فهي بمثابة ومضات أشرقت في برهات من الزمن، ثم انطفأت إلى الأبد. ولم يبق إلا مُصاصها يـتمتع به العيشوني لما يعاوده الحنين إليها. ومع ذلك يعترف أن حضور فاطمة أعاد الدفء والامتلاء إلى حياته، وجعلها ترتج بعنفوان الشباب والاستجابة. ولا يفهم ذلك الملفوظ إلا بوضع ألفاظه ضمن المراتب المتضادة، مما يتولد عنه الملفوظان التاليان :

ـ كأن الذي عشته لاأعيشه الآن.

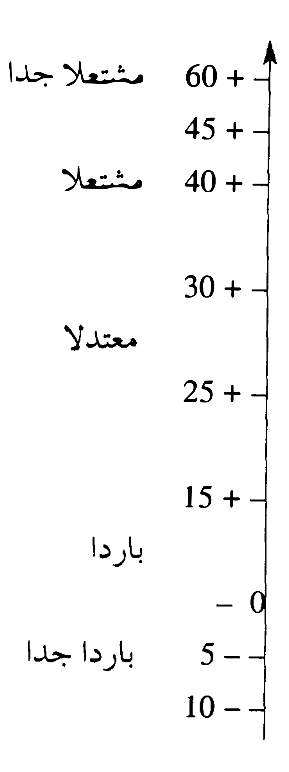
ـ كان الذي عشته لن أعيشه أبدا.

وهكذا يتبين أن عنصر الزمان يلعب دورا أساسيا وجوهريا في ترتيب هذه الملفوظات، وتصنيف مواقف العيشوني من الوجود. فهو يؤثر اللحظات الهاربة التي عاشها مع غيلانة، ويعتز بها لأنها ربعته على عرش السعادة قبل أن تنقاض قوائمه. فمصدر تعاسة العيشوني الآن يتمثل في افتقاده تلك اللحظات. ويتضمن هذا الملفوظ نتيجة أخرى تُجَلِّي بأن العيشوني وإن كان موزعا بين غيلانة وابنتها، فهو يرجح كفة الأولى على حساب الثانية. وهذا ما يمكن أن نوضحه في السلم الحجاجي التالي :

↑
ـ كأن الذي عشته في الماضي مع غيلانة لن أعيشه أبدا.
ـ كأن الذي عشته معها لا أعيشه الآن.
ـ كأن الذي أعيشه عشته من قبل معها.

ج ـ «أبدا لم أعرف جسدي مشتعلا كذلك المساء» ص 68.

نورد هذا الملفوظ لتأكيد ما قلناه سابقا بصدد تفضيل العيشوني لغيلانة عن النساء الأخريات. فهو لم يذق طعم النكهة الجنسية إلا في أمسية قضاها معها. ولا يمكنه أن يشعر بما شعر به إذا لم يجد في مضاجعة غيلانة ما يحقق استيهاماته، ويدغدغ مشاعره، ويحدث الرجة في كيانه. وتفيد حالة الاشتعال التي انتابت جسده عندئذ، أن درجة الحرارة الجنسية كانت مرتفعة جدا. وإن حصل عكس ذلك، فإن العيشوني سيقر بأن جسده كان باردا. وبذلك يتبين أن التوجه الحجاجي قابل للقياس والتكميم. ويمكن أن يقاس تبعا لمقاييس الحرارة المعتادة. وذلك على النحو التالي :



د ـ «علي إذن أن أعود إلى الخطوط والألوان لألاحق الضوء الهارب مني باستمرار» (ص 117).

يرد هذا الملفوظ في نهاية الرواية ليبين أن العيشوني عاد إلى الرسم بعدما تأكد أن الكتابة فجة وسطحية، ويظهر أن برنامجه الحكائي الخاص المتعلق بإنجاز اللوحة التي يحلم بها لم يتحقق بعد . فمازالت يداه لم تطاوعاه على إسكان الضوء الهارب في القماش على نحو يمكن من تحريك المخيلة وإثارة المتعة. وقد اختمر هذا التوجه في ذهن العيشوني بعدما زارته فاطمة بمنزله. فلم يعد مقتنعا برسم موديلات النساء العاريات رغم إلحاح الدحماني على اشتراء العشرات منها قبل إنجازها. ويفيد الملفوظ عينه العلة التي جعلت العيشوني يتوقف عن كتابة المذكرات لاستئناف مشروع الرسم، ويتضمن الاستمرارية الزمنية التي ستظل ممتدة إلى حين أن يفلح في القبض على الضوء الهارب. فرغم إغراءات الدحماني لم يستجب لها العيشوني. فهناك دوافع داخلية وإرغامات جمالية (التطويع الذاتي) جعلته يبحث عن أسلوب يميزه عن السابقين، ويجعله يبدع من حيث انتهوا. وبما أنه لم يفلح في تحقيقه، فقد تعذب نفسيا. ومع ذلك مازال مصرا على تحمل المشاق وألوان المكابدة إلى أن يدرك مراده (المجازاة الذاتية).

4.1- أبعاد تشغيل المشروعات الحكائية :

إن رواية **الضوء الهارب** مشيدة على مشروعات حكائية متنوعة ومتشابكة. قوامها استنطاق ما تستضمره الذات من مقاصد، وإعادة تشكيل ما عاشته من تجارب ووقائع، والنفاذ إلى نفسية الآخر، والتأثير فيه، وتحريضه على مد جسور المصالحة معه. فقبل مجيء فاطمة عند العيشوني كونت صورة متكاملة عنه. ولهذا حاولت أن تخاطب أفق انتظاره وفق ما هيأته له من خطط. وكان أكبر تحد واجهته هو عندما استأذنته بالدخول بطريقة غير مباشرة. وما يبين أنها توفقت فيه هو أنها جعلت العيشوني يتخيل بأنه أمام مشروع رسامة أو كاتبة، ويعتبر أن لقاءه بها ـ على عكس اللقاءات الأخرى ـ لم يخلف لديه انطباعا بالرتابة والتشابه. ولو لم تطاوعها اللغة في المواقف الحاسمة، وتتمتع بجمال بارع وبالقدرة على الحكي ؛ لما استطاعت أن تتوفق في استراتجية الإغراء. ولم تصارحه بسرائرها ورغائبها ومقاصدها إلا بعد تصرم أكثر من سنة على لقائهما. واختارت لذلك مشروعا كتابيا (رسالة) تحدثه عن نفسها بعد أن أصغت إليه كثيرا. فأعادت تلوين ما عاشته من وقائع (خاصة مع أمها وعاشقيها الداودي وماتياس) بأحاسيسها وعواطفها المرهفة وذكائها الأوفر.

ينخرط العيشوني في مشروعات كثيرة. نذكر منها المشروع الحكائي الشفهي المتعلق بما عاشه مع غيلانة، والمشروع الكتابي المتعلق بما حبَّره من مذكرات، ومشروع الرسم الذي يسعفه على الحلم والمثابرة والحب. وتتكامل هذه المشروعات لإعطائنا صورة عن العيشوني الفنان العاشق للحياة والفن والجمال، والباحث عن لوحة تجسد كينونته الوجودية والجمالية. وإن كان في كل مشروع يواجه عينة من المتلقين، فهو يضمنه المقاصد والرؤيات والأحلام نفسها المتمثلة في البحث عن الضوء الهارب منه باستمرار.

من خلال هذه العينة من الأمثلة يتبين أن هناك ضرباً من المشروعات يُتوخى منه سلب قدرة الآخر على المقاومة ، وحمله على تصديق ما يبث له، وذلك بهدف تحقيق أغراض محددة مسبقا. وهناك ضرب ثان يدخل في إطار التنفيس عن الذات، والكشف عن مضمراتها ومقاصدها ورغباتها، وبيان رحلتها الوجودية بحثا عن النغمة المفتقدة التي بإمكانها أن تعيد التوازن المنشود. وإذا كان الضرب الأول يقوم على المناورة والتخطيط والتدبير، فإن الضرب الثاني يكون عفويا وتلقائيا.

1.2- الرواسم اللغوية :

وإن تعددت ضروب التطويع في رواية برج السعود، فهي تشترك في توظيف الرواسم اللغوية والتعابير المسكوكة للتأثير في المتلفظ له، وحمله على تغيير معتقداته. وتتطلب هذه القوالب اللغوية من متلفظها سرعة البداهة، واجتماع اللب في التأليف ليكون عند حسن ظن متلقيه، ويستجيب لمقتضيات المقام ومتطلباته. وهكذا يوظف عمار والفقيه جلولي التعابير المتداولة لطمأنة المرضى أو المتوهمين بالمرض، واستدفاع المضرة عن الشاكين، وتستخدم النسوة تعابير المواساة والتعزية لإزالة الغم من قلوب أفراد أسرة رداد على إثر احتجازه في مركز الدرك للتحري معه في ملابسات قتل إنسان غريب عن البطنية، ويردد الأطفال تعابير التشجيع والإعانة لحَفز حميد على مواصلة إصلاح الفكتوريا 39 حتى يهدر محركها وتدور عجلاتها، وتستعين عبيدة العجوز الداهية بأساليب المدح والإطراء لإقناع بنت الرشام بالزواج بالرماي.

قد تتغير بعض ألفاظ هذه التعابير والأساليب، لكن ذلك لا يؤثر على دلالتها ووظيفتها اللتين استعارتهما من الرواسم الأصلية (les clichés primitifs). وتتناقلها الأجيال محافظة على دورها التداولي الذي تستوفيه وتستلزمه شروط مقامية محددة. وإن استخدمها المتلفظ في غير موضعها ومحلها، فلن يصيب هدفه. وينبغي لهذه التعابير الغُفل أن تذكر في مواضعها المناسبة لتؤدي دورها على أحسن وجه. وتندرج أغلبها في إطار المقولة التعبيرية التي تهم ما ينتاب المرء من مشاعر ومواقف إزاء بعض الحوادث المفجعة أو المفرحة. وبالإضافة إلى دورها التداولي، فهي تضطلع بوظيفة جمالية تتجلى في تشخيص اللغة أدبيا ونقل خطاب الآخر نحو صورة اللغة. «وليست صورة الإنسان في حد ذاته هي المميزة للجنس الروائي، بل صورة لغته. إلا أنه لكي تصير اللغة صورة للفن الأدبي، يتحتم أن تصبح كلاما على الشفاه التي تتحدث، وأن تتحد بصورة الإنسان الذي يتكلم»(3).

2.2- الجهات :

ينبغي للمتلفظ بالرواسم اللغوية أن يتحلى بجهتي معرفة القول والقدرة عليه حتى يتسنى له استخدامها في مواضعها المناسبة. وكلما أحكم ذلك وأحسنه، كسب ثقة المتلفظ له ومودته. وإن كانت هذه المستنسخات لاتعد حججا أو براهين، فهي تدخل في إطار الفعل الإقناعي الذي يراهن على حمل المتلقي على تغيير معتقداته، وحفزه على الانتقال من حالة شعورية إلى أخرى. فالمُعزِّي ـ على سبيل المثال ـ يتلطف في استحضار عبارات التعازي، ويورد ما يتلاءم وطبيعة المقام، ويحرص على أن يكون جادا في منطقه ولباقته للترويح على قلب المُعزَّى ومواساته. لقد حاولت عبيدة أن

تسخر ما أوتيت من ذكاء وخبرة لتغيير نظرة بنت الرشام إلى الرجال، وإقناعها بالزواج بالرماي . ولم تشر إلى بيت القصيد إلا بعدما مهدت له بتعليقات وارتسامات عن حلول بن سيدي رحيل، وبشيء من النبز والنميمة المألوفة، وخبرت طبع صاحبتها. ففاتحتها في الموضوع مستخدمة أساليب الإطراء لإبراز خصال الرماي ومميزاته ونيته الحسنة. « باختصار؛ الرجل يصلح.. ونيته حسنة.. إنه يصلح ألف مرة وإذا لم يكن يصلح، فليس في الدنيا من يمكن أن يصلح.. !» (ص 88).

تتطلب الرواسم اللغوية من صاحبها أن يتسلح بالجهات التالية :

أ ـ معرفة القول : ينبغي للمتلفظ أن يكون حافظا للمستنسخات اللغوية ومستوعبا مضامينها، ويوظفها في مواضعها المناسبة وعلى قدر مراتب المتلقين، ويسخرها لخدمة مآربه وأغراضه.

ب ـ القدرة على القول : لا تتطلب المستنسخات من صاحبها فقط سلامة النطق وحسن التركيب والإحاطة بالمعنى، بل كذلك إدراك مواقع القول وأوقاته، واحتمال المخاطبين به، واستضمار المقاصد، وسرعة البداهة والمباغتة، وقوة الإفحام.

ج ـ الحمل على الاعتقاد : وإن كانت تلك المستنسخات لا تعد حججا أو براهين، فهي تتمتع بقدرة عالية على التطويع. وخاصة إذا استخدمها المتلفظ في مواضعها دون أن يعيا بالكلام أو يرتج عليه أو تخونه البديهة، وكان لسانه سالما من العيوب التي تشين الألفاظ. وتتضمن تلك المستنسخات شحنات عاطفية وشعورية تقوي من العزائم والهمم، وتحض ضمنيا على تنفيذ فعل محدد.

3.2- الوظيفة الحجاجية للرواسم اللغوية :

« يتم الحجاج بإحداث رنين بين ما هو معروف وبين ما هو معروض للتسليم به، فهو ـ بشكل من الأشكال ـ يعتمد على المكتسب، والمسلم به، والمسبق، والتقليد. (...). فلا يعمل قطعا على إعادة تنشيط المدارات السابقة إلا لخلق مدارات جديدة. وإن كان الحجاج في هذه الحالة يكمن في إقامة علاقة بين الأطروحة والمسلم به»[4]. انطلاقا من هذه القولة، نلاحظ أن الرواسم اللغوية تؤدي وظيفة حجاجية باستثمار ما هو مكتسب ومتفق عليه لبناء ودعم حقائق جديدة. وإن كانت ملكا مشاعا بين الناس، فكل متكلم يوظفها للصدع بمقاصده، وتعزيز برنامجه الحكائي بغية الوصول إلى المراد. فهي ـ إذن ـ تلعب دورا أساسيا في تحريك مشاعر المتلقي، وتشغيل ذاكرته، وتغيير معتقداته. وبما أن رواية **برج السعود** تستمد نُسغها ومادتها الحكائية من العالم القروي، فهي غنية بالمستنسخات والمحكوكات اللغوية المتناصة

مع الدليل الشرعي (القرآن والسنة) والحكايات والأساطير الشعبية. فبعد اعتقال رداد، بسبب تلفيق تهمة القتل ضده، توافدت النسوة إلى منزله لطمأنة ومواساة زوجتيه (حليمة وشامة) وهن يرددن الأساليب المعتادة في أي مصاب أو مكروه. ولا تؤدي هذه الأساليب وظيفتها إلا إذا كانت مصحوبة بطقوس اجتماعية (الزيارة الجماعية، الأحاديث عن المكتوب، البكاء والندب، استحضار صور مماثلة..)، تسعفها على إيصال شحناتها الانفعالية إلى المتلقي، وإقناعه بأن ما حصل هو موقوت ومقدر لا دخل للإنسان فيه. ولما تراجع عدد زبائن بناصر، كتب له الفقيه جلولي لوحة فثبتها في مدخل الطاحونة. فكان لما كتب في هذه اللوحة أثر في نفسية القرويين عامة. فبالإضافة إلى إقدامهم بكثافة إلى الطاحونة، انغمر بعضهم في رؤية «عيشة قنديشة» «ومرية الجنية» رأي العين، وفقد الآخرون تركيزهم فضاعت منهم أكياس الطحين والبضائع. وخلفت ملفوظات بن سيدي رحيل إثر زيارته للبطنية مفعولا قويا في نفسية القرويين، إلى حد أنهم أصبحوا يرجعون أي تحسن في حياتهم اليومية إلى بركته. ولا يخفى على أحد ما لبعض العبارات المسكوكة من أثر في نفسية المتلقي، إذ يستجيب لمطالبها دون تردد، وينفذ أوامرها غير المباشرة طوعا. فمبجرد أن تلفظ الحاج صابر بن عتاب بملفوظ «ضيف الله»، لم يتردد القرويون في استضافته والعناية به. وازداد تعاطفهم معه لما علموا بأنه يبحث عن إضاءات وافية فيما يخص ملابسات مقتل ابنه بعقر دارهم. إنه ملفوظ بسيط، لكنه تضمن برنامجا حكائيا خاصا (الاستضافة)، واستلزم مواضعات وتقاليد متوارثة أبا عن جد، واقتضي الاستجابة له دون مواربة أو ومماحكة. لكن تغير الظروف والبنيات الاجتماعية أفقد هذا الملفوظ بريقه وفعاليته داخل المجتمع. وأصبح مردده اليوم يثير لدى المتلقي الشك والحيطة، بل الامتعاظ والتقزز.

إن التعابير المسكوكة التي يتداولها الرأي العام ، تندرج في البناء الحجاجي لكونها تتغيا ترسيخ حقائق جديدة. «ولا يتوفق إعادة تأطيرها، إلا إذا راعت آراء وتَنَظُّرات وبراهين وفرضيات من يُرْجى تغيير مشاكله، أو بعبارة أخرى إطاره المفاهيمي» (5).

4.2- حلم حميميد الأقصى :

تتداخل حكاية الفكتوريا 39 مع المحكيِ المؤطِّر. وهي تتعلق أساسا بما يبذله حميميد من مساع ومجهودات لإصلاح سيارته المعطلة والمتآكلة حتى تغدو صالحة للاستعمال. وهكذا ما فتيء الناظم الخارجي في كثير من التمفصلات الحكائية يردد أن اليوم الموعود لحميميد يكمن في اشتغال سيارته الأثيرة التي تحتل مكانة عليا في متطلبات حياته. فهي موجهة كميا لأنها تتحكم في سيرورة قابلة للتدرج على مقتضى التناقص، وذلك في اتجاه واحد من الأجمل إلى الجميل ، ثم من القبيح إلى الأقبح. ولا

تعطينا الفكتوريا 39 أحكاما قيمية ومراتب حجاجية، وإنما تجمد موقف حميميد من الوجود . فقد رهن حياته كلها باشتغال محركها، لذا كرس أوقاته لإصلاحها، والتوجه إلى المدينة للشغل واستقدام قطع غيار جديدة لها. ويعتبر الناظم الخارجي أن أجمل يوم في حياة حميميد هو اليوم الذي ستشتغل فيه الفكتوريا 39. فهذا اليوم «الموعود» و«المجيد» يمثل بالنسبة لحميميد قمة السلم الحجاجي. لذلك فهو يجهد نفسه من أجل إدراك ذلك اليوم الذي سيتمتع فيه بهدير محرك سيارته ودوران عجلاتها. وتنتهي الرواية دون تحقق ذلك الحلم ومع ذلك لم يستمغ حميميد محاولاته الفاشلة ، وأصر على مواصلة إصلاح سيارته إلى أن يتحقق ما يصبو إليه. وإن كان البعض يسخر من صنيع حميميد ويستخف به، فهناك من يشجعه ويحفزه على مواظبته والاضطلاع به. فلم تعمل أساليب الإطراء والتهنئة إلا على تعضيد قناعاته، والرفع من معنوياته، وشحذ عزيمته وإرادته. وفيما يلي نشخص ما تقدم في الترسيمتين التاليتين : إحداهما تجسد المكانة العليا التي تحتلها الفكتوريا 39 في حياة حميميد ومشاغله اليومية، وثانيتهما تبين أن سعادته لن تدرك ذروتها إلا عندما يتأكد من اشتغالها.

«أجمل شيء في وجوده، الفكتوريا 39 .. » ص 30

«عن اليوم الموعود عندما تتحرك الفكتوريا 39، يوم مجد لايشك في أنه قادم وقريب، يفحم به المتشكك» ص 43 .

5.2- ميثاق استثمار المتخيل :

ما يجمع بين المحكي المؤطِّر والمحكي المؤطَّر هو توظيف الرواسم اللغوية كاستراتيجية للتأثير في المتلقي وتغيير معتقداته . ولهذا الغرض يتقصد المتلفظ استثمار عينات من المتخيل الجماعي في مشروعه الكلامي واستراتيجيته الخطابية. فلا تتوقف كفايته اللغوية فقط على تنظيم الكلام في الأجهزة المفهومية، وإنما تستدعي منه أيضا كسب ثقة المتلقي ومخاطبة وجدانه وثقافته وذاكرته. فلما قدم الرماي إلى البطنية، لم يصدع بمقاصده المتعلقة بالآمال والمشاريع التي ينتظر أهلها تحققها إلا بعد تهيئ الأرضية . وهكذا عمد إلى استفزازهم بعبارات مسكوكة لبيان مدى تخاذلهم عن الكرم الذي كان متأصلا في تقاليدهم وعاداتهم «هاتوا اللبن والحليب والبيض والدجاج ...؟ مات فيهم الكرم... عروبية آخر الزمان، لا كرم ... ولا جرية! أين الخرفان المشوية،

والدجاج المحمر، والكساكس ؟» (ص 20). وبما أن القرويين لم يقوا على سابق عهدهم ، فهم يقرنون الكرم بالمصلحة. «استفزاز مقبول، ويمكن أن يترجم إلى فعل من طرفهم ، شريطة أن يكون معه جديد حقا يخبرهم به، فيما يهمهم» (ص 20). وتأتى ذلك عندما تعشى الرماي عند الشيخ بلحاج مع ثلة من أصحابه، ثم شاع في البطنية كلها ما صدع به من أسرار سارة تهم مستقبلها. وهكذا يتبين أن الرماي وظف ما يتقاسمهُ مع القرويين من خلفيات معرفية لكسب مودتهم، وعقد مواثيق استيثاقية وتلفظية معهم، ومكاشفتهم بالهدف من زيارته. ولهذا الغرض رسم مشروعا كلاميا لإثارة المتلقي، وتطويعه، والتأثير فيه، وحمله على تصديق ما يبثه له. وفي السياق نفسه، لم تدخل عيدة إلى بيت القصيد إلا بعد أن هيأت بنت الرشام نفسيا. ولم تجد أحسن ما تمهد به موضوعها إلا الإعراب عن ارتساماتها وتعليقاتها من حلول بن سيدي رحيل وزيارته المباركة. وتتخلله من الفينة إلى الأخرى استطرادات من النميمة المألوفة . ولما طرقت الموضوع عضدته بمسكوكات لغوية وصور فوتغرافية لإطراء الرماي، وإبراز محاسنه ومزاياه، وسعة نعمه ورزقه. ورغم بساطة الملفوظات التي تلفظت بها (الرجل يصلح .. ونيته حسنة .. فليس في الدنيا من يمكن أن يصلح)، فهي تنفذ بقوة إلى ذاكرة بنت الرشام، وتحفزها على تحيين صورة ذلك الرجل المثالي والصالح والصدوق، التي ما فتئت تسمع بها دون أن تجد ما يماثلها على أرض الواقع. وتبارى الكثير في الحديث عن كرامات رداد الحاصلة والمتوقعة، وتحدثوا عن البركة التي أدركته في السجن، وقرنوها بخير بن سيدي رحيل ومعجزاته. ولا يخفى ما لهذه الحكايات ـ التي يُنْعشها «المتخيل الشعبي» أو «القدسي الشعبي» ـ من أهمية في «إعادة بناء الهوية»، و«استيهام النعيم »، و«الاندماج في الحلم أو المشروع الحي كما يعيشه الناس»[6]، وإشراك المتلقين وتغيير معتقداتهم.

من خلال الأمثلة المقدمة يتبين أن المشروع الكلامي يستثمر مخزون المتخيل لتغيير سلوك المتلقي ومداركه ومعتقداته. ولا يتأتى ذلك إلا بكسب ثقته ومودته بواسطة قواعد التخاطب المتفرعة عن مبدأ التأدب الأقصى [7]، وحفزه على استحضار أنماط أصلية وتطلعات عتيقة. وهكذا يتشخص المشروع الكلامي بوصفه خطة لغوية مدروسة يسير المتكلم على نهجها لبلوغ مقصده. وكل مقام يحتم عليه استخدام هذه الاستراتيجية الخطابية أو تلك، أو توظيف هذه الكفاية اللغوية أو تلك إن هو أراد السير في المسالك المناسبة التي تفضي إلى ما يتوخاه و يحقق مقاصده. ويقتضي أي مشروع كلامي من المتكلم «الاستدلال بالمقاصد على الوسائل الكفيلة بتحقيقها، كما يحتاج إلى الموازنة بين مختلف الوسائل حتى يتخير أفضلها تحقيقا لهذه المقاصد، إن دفعا للاعتراض أو جلبا للاعتراف»[8].

1.3- تضارب قوتين حول الفعل اللغوي نفسه :

تدور رواية **شطح المدينة** حول الصراع التاريخي المحتدم بين الجامعة والبلدية. فكل طرف يسعى إلى إثبات برنامجه الحكائي والبرهنة على سداد مواقفه وحججه. ولما أقدمت الجامعة على استضافة شخصيات من خارج البلد بمناسبة مرور تسعة قرون على تأسيسها، تأجج زند الصراع بين الطرفين سعيا إلى كسب مودة وثقة الزوار والمدعوين، والتأثير في اعتقادهم. ويتأطر الفعل اللغوي المكبر داخل حلبة هذا الصراع. في الصيغ التي تستدعي مطلوبا غير حاصل وقت الطلب. وبما أن الرواية يغلب عليها الخطاب المسرود، فإن تلك الصيغ لم ترد في شكل خطابات مباشرة أو ردود متبادلة إلا لماما. ولما انتهت الحفلة الختامية، أقدمت البلدية على إجلاء ما تبقى من المدعوين في الفنادق معاتبة إياهم على عدم مبادرتهم بزيارتها أولا. ويمكن أن نمثل بفعلين لغويين صغيرين متفرعين عن الفعل اللغوي المكبر :

أ- «ضيافتك تنتهي غدا ، يجب تسليم الغرفة قبل» (ص174).

فهذا الفعل اللغوي (وجوب تسليم مفتاح غرفة الفندق) يستمد نسغه ومشروعيته مما تتمتع به البلدية من نفوذ على فنادق المدينة، ومن قوانينها وتعليماتها الصارمة. وهو فعل يطالب المتلفظ له (الأستاذ الإفريقي) صراحة ليس فقط بمغادرة الفندق الذي يقيم به، وإنما كذلك بالرجوع إلى موطنه الأصلي. وبما أن الوثائق القانونية قد سرقت منه، فقد أرجأ السفر إلى حين تسوية وضعيته. وقد استغلت البلدية الظرف للضغط على الأستاذ الإفريقي، وبيان عجز الجامعة في إيجاد حل ملائم لمشكلته.

ب- « - من استضافتك هنا في هذه المدينة ؟ »

- الجامعة

يبسط يديه في إشارة مبهمة.

- إذن .. كان يجب أن تجيء إلينا أولا..» (ص187).

يتبين من خلال هذا الردود المتبادلة أن المستفهم (موظف الفندق) لم يتوخ من سؤاله الموجه إلى الأستاذ الإفريقي طلب حصول في الذهن لغير حاصل، وإنما تقصد معاتبته على عدم زيارة البلدية أولا. فبالرجوع إلى القرائن السياقية يتضح أن الاستفهام انتقل من المقام الإنجازي/ السؤال إلى مقام إنجازي آخر يفيد العتاب. فالمستفهم يعرف مسبقا أن الجامعة هي التي استضافت الأستاذ بأحد الفنادق التابعة للبلدية، ولهذا تعمد خرق الدلالة الصريحة للاستفهام وتضمينه دلالة جديدة موافقة لمقتضى الاستلزام

الحواري المراد. وبذلك انتقلت الجملة من الاستفهام إلى الإخبار بالعتاب : «أعاتبك على عدم مجيئك إلينا أولا». ولو أنه تفضل بزيارة البلدية أولا لما انهال أنصارها وأتباعها عليه بوابل من صيغ التقريع والعتاب.

أدرجنا هذين المثالين لبيان أن الفعل اللغوي المكبر تتنازعه قوتان متعارضتان. كل قوة تستخدم متغيراته وتجلياته المختلفة لحفز الزوار والمدعوين على استساغة طروحه، وتبني توجهاته، ومشاركته اعتقاداته وتمثلاته.

2.3- مراهنة القوتين المتعارضتين على الإقناع :

كما عاينا في النقطة السابقة، يوجد في رواية **شطح المدينة** برنامجان حكائيان أساسيان متعارضان إلى حد القطيعة. أحدهما برنامج الجامعة الذي يزعم أن ما تحفل به المدينة من مآثر ومنشآت هو من وحي أساتذتها وإرادتهم. وثانيهما برنامج البلدية الذي يدعي أنصاره أن كل ما تتميز به المدينة نفسها هو نابع من تصاميم المهندسين المحكمة وسعة بصيرتهم. وحتى يتيسر لكل طرف إدراك مبتغاه (إقناع المتلفظ له بالمزاعم والاعتقادات)، عمد إلى الاستعانة ببرنامج حكائي للاستعمال. ولهذا الغرض أعدت الجامعة ملفا لضيوفها بمناسبة البرنامج الاحتفالي لمرور تسعة قرون على تأسيسها. وبالمقابل، حضرت البلدية ملفا آخر يشمل معلومات شتى عن مواقع المدينة وتخطيطها وخصائصها الفنية والمعمارية. وبما أن كل طرف يعي بأن المتلفظ له يتمتع بمستوى ثقافي عال، فقد عزز كفايته الجهية وسبله الاستدلالية المتنوعة (توثيق الملف، والصحف، والمؤلفات، والدوريات، وأبحاث) سعيا إلى تغيير معتقداته، وإقناعه بصحة الحجج المعروضة عليه. و الجامعيون لا ينصاعون بسهولة لهذا الطرف أو ذاك، وإنما يستخدمون كفايتهم المعرفية وحسهم النقدي لغربلة ما يتلقوه ودراسته وفحصه وتَقَصّيه بغية الخروج بحكم مناسب.

وعليه، يشتغل المستوى الجهي باعتباره مستوى نقديا يستجمع ويتمثل التوترات الخاصة بالمستوى الأول. ولا يتلقاها مباشرة، وإنما بواسطة المستوى الثاني المتعلق بـ « الإفراط » أو « الندرة »، ثم يحولها إلى عمليات ملموسة وبرامج منفصلة أو متصلة. وهو ما يتشخص على المستوى الرابع (المستوى الحكائي). ويمكن أن نستثمر هذا التصور في الجدول أسفله لموضعة التوجيه في المسار التوليدي على وجه العموم، وبيان موقع جهة «الحمل على الاعتقاد» داخل المستويات المتراكبة على وجه الخصوص [9] :

المستويات	برنامج الجامعة القائم على مهيمنة الاتصال	برنامج البلدية القائم على مهيمنة الانفصال
المستوى الحكائي رقم 4	المراهنة على حمل الضيوف على تصديق البرنامج الحكائي الأساسي للجامعة.	السعي إلى حمل الضيوف على عدم تصديق ما يتلقونه من الجامعة.
المستوى الجهي رقم 3	ترغيب الضيوف في استساغة ما تعرضه عليهم ، وتنفيذ ما تطلبه منهم.	إيقاف برنامج الجامعة وإبطال دعاواها.
مستوى الوجهة رقم 2	نفي الجامعة مقومي الإفراط والندرة من برنامجها الحكائي توخيا من الضيوف مشاركتها اعتقاداتها وتصديقها.	إثبات مقومي الإفراط والندرة في برنامج الجامعة لحمل الضيوف على الشك فيه وعدم اعتقاده.
مستوى التوتر رقم 1	تصدع الجامعة برغباتها وانفعالاتها، وتكشف عن مقاصدها وطواياها بهدف إيصال الدعوى إلى المتلفظ له وتطويعه.	- تتقصد البلدية إيقاف مفعول التأثير والتطويع الذي تمارسه الجامعة . وبالمقابل تعمل على ترسيخ دعاواها ومقاصدها (التطويع المضاد).

(الجدول رقم 9 : موضعة جهة الحمل على الاعتقاد داخل المستويات المتراكبة).

لما نعاود النظر في مهيمنة الانفصال ، نلاحظ أن البلدية تراهن من عمليات الإيقاف والحمل على عدم الاعتقاد وإثبات مقومي الإفراط والندرة على التطويع المضاد للضيوف، والبرهنة على صحة طروحها وسدادها. وهكذا يستتبع الاتصال، المتجلي على مستوى الظهور، اتصالا من نوع آخر مضمر على مستوى الكينونة.

3.3- الحجج والحجج المضادة :

لقد عاينا فيما قبل أن كل طرف يتسلح بالحجج والسبل الاستدلالية الكافية، ويحرص على ترتيبها في شكل مقدمات لخدمة نتيجة محددة، وحمل الضيوف على تصديق معتقداته. وهذا ما دفعهما إلى مقارعة الحجة بالحجة المضادة. ونتيجة انتفاء قاعدة اللباقة من كلامهما، فقد تعمقت الهوة بينهما. «فلا تقرب مع وجود التهديد» (10). وبدلا من أن يشغل كل طرف في برنامجه الحكائي أقوالا مُلَطَّفة وباعثة على الإلْفة والمودة، يوظف عبارات مستفزة ومهددة للطرف الآخر صراحة أو تلميحا. ونعرض في الجدول أسفله عينة من الحجج المتبادلة بين الطرفين :

حجج البلدية	حجج الجامعة
1- الخطط والمشاريع مجرد حبر على ورق بدون بلدية صارمة وواعية يتمتع رجالها بحس تاريخي وثقافي.	1- الحفاظ على الطابع الأصيل للمدينة يرجع فيه الفضل إلى مهندسي الجامعة.
2- يؤكد الذواقة أن نبيذ البلدية أقل جودة، ويقدم في الفنادق الكبرى بالمدن الأخرى. لكنه لا يرقى إلى مستوى النبيذ الجامعي.	2- النبيذ الجامعي ينتج في المزارع التابعة لكلية الزراعة ، ويستخلص من شجيرات كروم نادرة تم جلبها في أزمنة غابرة من بلدان نائية كان الوصول إليها يتم إلا بشق الأنفس. ويقتصر بيعه على المدينة. وللجامعة في زراعة الخمور أمور عجيبة.
3- اختيار يوم صيفي كعيد وطني مع مراعاة الاعتبارات الاقتصادية والسياحية.	3- مبالغة البلدية في اختيار اليوم ، وإضفاء القداسة عليه.
4- الاحتجاج موجه، في جوهره، ضد السلطة الاتحادية ، وهذا مخالف للمادة السادسة من الدستور.	4- الإضرابات احتجاجا على البطاقات الحديثة التي تعتبر مساسا بحرية الإنسان بدعوى أنها تحوي معلومات خاصة (الحالة الصحية، والمزاج الجنسي، والقدرة على الجماع).
5- إن الصحف الثلاث التي تصدر في المدينة والمعبرة كلها عن وجهة نظر البلدية لم تورد احتفال الجامعة إلا في صفحة الحوادث المحلية والجرائم وبعض الإعلانات الخاصة بالمدينة.	5- تفادي دعوة رئيس البلدية للجلوس بالقرب من رئيس الجامعة كما جرى قبل ثلاثة قرون عند الاحتفال بالذكرى المائوية السادسة.
6- ظهور أستاذ أصم وأبكم في البرنامج الذي تعده بربارة هو خدمة لقضية الأشخاص المعاقين.	6- تستغل البلدية البرنامج الاجتماعي المتلفز في الدعاية لتنشيط السياحة، وارتفاع سعر الدولار.
7- ما تتميز به المدينة من مآثر قديمة يرجع الفضل فيه إلى البلدية.	7- يرجع سبب فرادة المدينة في التراث المعماري والفني إلى المركز العلمي، ووجود الكليات العريقة التي درس بها مشاهير الأدب والفن والعلم.

(الجدول رقم 10 الحجج والحجج المضادة).

من خلال هذا الجدول نستنتج ما يلي:

أ- كل طرف يدعم آراءه بكوكبة من الحجج والحجج المضادة لدفع الاعتراضات (الوجه الدافع) وجلب الاعترافات (الوجه الجالب) وفرض الوجه المطلوب [11]. وفي خضم الجدال والتحاجِّ يراهن كل طرف على انتزاع الرضى والاعتراف من الضيوف، والتدليل على صحة وسداد النتيجة أو الدعوى المدافع عنها (أسبقيته في الوجود، وفضله على المدينة). فإذا كان هذا الطرف يستدل على نتيجة معينة، فإن الطرف الآخر

يعاكسها بنتيجة مماثلة. وإن اختلفت طرائقهما وسبلهما الاستدلالية، فهما يتوخيان إثبات الدعوى نفسها (النتيجة والنتيجة المعاكسة) .

ب ـ بما أن هذه الحجج لم ترد في شكل خطابات مباشرة ، فقد فقدت قيمتها الحجاجية الأصلية. وما دفع في ذلك الاتجاه أكثر هو تدخل الناظم الذاتي لنقل حجج الطرفين على لسانه تحت ذريعة الأمانة والحياد. وباستخدامه الصيغ التثمينية والمؤشرات الحجاجية، فهو ـ بوعي أو بدون وعي ـ يوجه الحجة المعروضة نحو وجهة معينة. ولنأخذ على سبيل المثال الفئة الحجاجية الثانية. يستخدم الناظم الخارجي فعلا لغويا (التوكيد) وفعل التفضيل (أقل) وصيغة النفي لتوجيه الحجة المضادة توجيها سلبيا ينتقص من قيمة نبيذ البلدية. وبالمقابل، يوظف بأناة صيغا تثمينة (شجيرات نادرة، لايتم الوصول إليها إلا بمشق الأنفس، ولهم في ذلك أمور عجيبة) لتوجيه الحجة توجيها إيجابيا يبين خبرة الجامعة في إنتاج الخمور، واستخلاصها من كروم نادرة. من خلال هذا المثال، يتبين أن تدخل الناظم الخارجي في حجج الطرفين المتناقضين جعله يقلل من قيمتها الحجاجية، وورطه في شرك الصراع المحتدم بينهما.

ج ـ عندما نأخذ الفئة الحجاجية الأولى، نجد أن كل طرف يوظف حجته لخدمة نتيجة مسبقة. ترى الجامعة أن الحفاظ على الطابع الأصيل للمدينة، يرجع الفضل فيه لمهندسيها (الحجة)، في حين تقر البلدية بأن الخطط والمشاريع بدونها هي مجرد حبر على ورق (الحجة المضادة). وإن حرص الناظم الخارجي على توجيه الملفوظين توجيها إيجابيا لبيان ميزة كل طرف وفضله على المدينة، فهو لم يسلم من المفاضلة بينهما. ولا يتضح ذلك إلا بمعاودة النظر في الألفاظ المستخدمة في كلا الملفوطين. فإذا كانت الجامعة تؤثر نخبة المهندسين لما لها من فضل في الحفاظ على الطابع الأصيل، فإن البلدية ترجع الفضل إلى جميع مواطنيها المتمتعين بحس تاريخي وثقافي، وتبين أن أي مشروع لن يرى النور إلا بعد أن تصادق عليه وتشرف على تنفيذه. وهكذا نلاحظ أن الحجتين المقدمتين مرتبتين ترتيبا قصديا يجعل مرتبة البلدية أكثر علوا من مرتبة الجامعة في السلم الحجاجي. وما جعلها تتبوأ هذه المكانة هو تمتعها بصلاحيات يخولها لها القانون، وبمقتضاها يتعذر على الجامعة أن تخرج أي مشروع يهم معالم المدينة وآثارها إذا مانعت البلدية. كما تحتوي حججها حجج الجامعة بوصفها تابعة لها ، وليست متضادة معها كما قد نتوهم على مستوى الظهور. وهكذا يمكن أن نعيد صياغة الحجتين في الصيغ التالية :

1- الخطط والمشاريع > الطابع الأصيل.

ويتسم عنصر التراجح في كون أن البلدية تختص بالمشاريع والخطط جميعها التي تهم المدينة، بما فيها الحفاظ على طابعها الأصيل.

2- رجال لهم حس تارخي وثقافي > المهندسون.

ومدار الرجحان أن المهندسين طرف من الرجال الذين يتمتعون بحس تارخي وثقافي.

3- مشاريع ⇐ تدخل البلدية.

تستتبع المشاريع تدخل البلدية لتخرج من حيز القوة إلى حيز الوجود. وفي حالة عدم تدخلها تظل المشاريع عبارة عن حبر على ورق.

د ـ تستحث الظرفية العامة (البرنامج الاحتفالي للجامعة) كل طرف على إخراج مقاصده، وتوظيف الجنس الخطابي الحجاجي (مشروع الكلام) لكسب مودة وثقة الضيوف (الميثاق) وتغيير معتقداتهم (الاستراتجية). وبما أن الناظم الخارجي تقصد نقل حجج كل طرف في خطاب مسرود، فهو ـ بالإضافة إلى عدم محافظته على قيمتها الحجاجية ـ قد أخل ببنيتها الحوارية. ولا يمكن أن يقوم التطويع التلفظي في منأى عن الجزاء. وإذا كان الطرفان يتفقان على على تطويع الضيوف وحفزهم على الانخراط في برنامجيهما الحكائيين الأساسيين، فهما يختلفان في تلقي الجزاء. فعلى الرغم من السلطات المخولة للبلدية وحفول ملفها بالمآثر والمنجزات الضخمة، ظل الضيوف متشبثين ومعجبين بالبرنامج الذي أعدته الجامعة. كانوا يحكمون عقولهم فيما يعرض عليهم لاتخاذ المواقف المناسبة، ويحرصون على تتويج جلساتهم وندواتهم ببيان ختامي موحد. ولم يظهر تأثير البلدية إلا بعد انتهاء المدة القانونية لإقامتهم بالمدينة، إذ حضت من بقي منهم على العودة إلى بلاده في أقرب وقت ممكن.

خاتمة :

مما سبق يتضح دور التطويع التلفظي في تحريك البرامج الحكائية، والتأثير في المتلفظ له لتنفيذ فعل ما طوعا أوكرها، وتسريع وتيرة التحولات لإدراك الموضوع المبحوث عنه. ومن بين الأدوار التي يضطلع بها التطويع التلفظي نذكر مايلي :

أ ـ يبرز دور المتلفظ في نقل المفترضات السيميائية والبنى الحكائية من المحايثة إلى التجلي، وذلك بواسطة التحويل البلاغي والخطابي (التخطيب النهائي بما تحمله هذه الكلمة من معنى).

ب ـ يستتبع مشروعا كلاميا (جنسا خطابيا) تؤطره ظرفية محددة، وميثاقا استيثاقيا وتلفظيا يحدد طبيعة العلاقة البين ـ ذاتية ، واستراتجية تكشف عن الغايات المتوخاة من التواصل .

ج ـ يتطلب من المتلفظ توظيف كفايته لتنظيم المادة اللغوية في الأجهزة المفهومية (التلفظ، والحجاج، والحكي، والبلاغة). وتبعا لذلك يتباين المتلفظون في أدائهم اللغوي، ويتفاوتون في مستوياتهم التعبيرية وقدراتهم على الإقناع والتطويع.

د- يستعين المتلفظ بالتطويع الانفعالي الذي يُؤطَّرُ وفق شروط مقامية ملموسة ليؤدي الوظيفة المنوطة به على أحسن وجه. ففي حالة انتفاء الشروط المقامية يصبح كلام المتلفظ مجرد لغو وصخب صبياني. أما في حالة تجرده من الانفعالات الملائمة، فإنه، غالبا، ما ينزاح من الدلالة الصريحة إلى الاستلزام الحواري.

وبعد أن بينا مختلف تجليات التطويع التلفظي في كل عمل على حدة، يمكن أن نرصد بعض ثوابته و متغيراته في الجدول أسفله :

الرواية	نوع التطويع	الفعل اللغوي	الجهات	المشروع الكلامي
الضوء الهارب	تطويع الآخر لكسب مودته وثقته، وحفزه على الكشف عن سرائره. ممارسة التطويع الذاتي للمكاشفة والمصارة والبحث عن التوازن في الوجود.	أفعال لغوية صادرة عن الأنداد المتساوين قدرا ومنزلة. وهي ترمي إلى حفز الآخر على الكلام والإفصاح عما عاشه من تجارب، وما اعترت حياته من تقلبات.	- معرفة القول. - معرفة الحكي. - الحمل على الاعتقاد.	استثمار الأجناس الخطابية (الحكي، والرسالة، والمذكرات، والرسم) لكسب مودة الآخر (الميثاق)، والانخراط معه في استراتجية غرامية مبنية على االصدق والانفتاح والمكاشفة.
برج سعود	تطويع المتلفظ له بواسطة المسكوكات اللغوية التي تحتاج إلى سرعة البديهة وحسن التلطف.	ظيف الرواسم اللغوية بوصفها جملة من التمثلات المشتركة التي يتقاسمها المتكلمون.	- معرفة القول. - القدرة على القول. - الحمل على الاعتقاد.	استثمار المسكوكات اللغوية لاستراتجية شعبية تساير معتقدات المتلقي وذهنيته ، وتراهن على إثارته وتحريك أشجانه والتأثير فيه.
شطح المدينة	التطويع والتطويع المضاد.	كل طرف يوظف الفعل اللغوي لحفز المتلفظ له على مجاراته في اعتقاده، وإبطال دعاوى الطرف المنافس.	الحمل على الاعتقاد.	استثمار الجنس الخطابي الحجاجي لاستراتجية دعائية (الدفاع عن الدعوى)، ولكسب مودة الضيوف وثقتهم (الميثاق).

(جدول رقم 11: ثوابت التطويع التلفظي ومتغيراته).

الهوامش

1- Greimas (A.J) , Du sens II, essais sémiotiques, Seuil, 1983, p 229.

2- طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي، ط 1 ، 1998.

3- ميخائيل باختين، الخطاب الروائي، ترجمة محمد برادة، دار الأمان، ط 2 ، 1987 ، ص 92.

4- Breton (Ph), L'argumentation dans la communication, coll Approches Casbah édition, Alger, 1998, pp 48 / 49.

5- Ibid p 61 .

6- الميلودي شغموم، «المتخيل عن الهوية (الكرامات نموذجا)، بصمات، العدد 4، 1990، ص / ص 31 / 32 .

7- قواعد التخاطب المتفرعة عن مبدأ التأدب الأقصى هي : اللباقة، والسخاء، والاستحسان، والتواضع، والتعاطف. وقوام هذه القواعد التقليل من شأن الذات والرفع من قيمة المخاطب دعما لاعتبار التقرب. أنظر في هذا الصدد إلى : طه عبر الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، م.سا ص 247 / 246 .

8- المرجع نفسه، ص 245.

9- Zilerberg (C) , Modalités et pensées modales, Nouveaux actes sémiotiques, n° 3 , 1989, p23.

10- طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، م.سا. 246 .

11- يعرف طه عبد الرحمن مفهوم الوجه على النحو التالي :
«أما الوجه فهو عبارة عن الذات التي يدعيها المرء لنفسه والتي يريد أن تحدد بها قيمته الاجتماعية، وهو على ضربين : «وجه دافع» أو قل «سلبي» و «وجه جالب» أو قل «إيجابي» ؛ أما الوجه الدافع، فهو يريد المرء أن لا يعترض الغير سبيل أفعاله أو قل هو «إرادة دفع الاعتراض»، وأما الوجه الجالب، فهو أن يريد المرء أن يعترف الغير بأفعاله أو قل هو «إرادة جلب الاعتراف» ؛ فتكون المخاطبة هي المجال الكلامي الذي يسعى فيه كل من المتلكم والمخاطب إلى حفظ (ماء) وجهه بحفظ (ماء) وجه مخاطبه» المرجع نفسه ص 243 .

الفصل السادس

المقاطع التحدثية في رواية ذات

تمهيد :

يقتضي الصوغ الفاعلي (l'actorialisation) من مشروع سيميائية الكلام تحديد دور الفاعل على نحو يكون فيه منسجما مع بنياتها وأنساقها. وقبل ذلك ينبغي أن نبين كيف يحتمد الفاعل، لحظة تجليه، نسغه من التركيب الحكائي السطحي والدلالة الخطابية. وباضطلاعه بأي دور (دور عاملي، دور موضوعاتي، دور انفعالي..)، يعمل على تفريد (l'individuation) ذاته بمقومات وسمات خاصة، وتمييزها عن فواعل أخرى. ومن بين العناصر التي تسهم في تفريده وتمييزه نذكر الكلام.

1.1- البنية العاملية :

تخلى فلاديمير بروب عن تصنيف المواضيع والحوافز، وعن المقاربة التاريخية التي ترتد إلى الماضي؛ وتبنى مقاربة جديدة تتعامل مع الخرافة في تزامنيتها لتحديد خصائصها البنائية، واستنتاج قواعدها المجردة القابلة أن تشتغل كنموذج عام. ويعتبر بروب حضور الشخصية في البنية الحكائية ذا طابع وظيفي، لأنه لاحظ أن ما لا يتغير في الشخصيات هو عملها، ولهذا انصب تحليله على ما تقوم به من وظائف. فرغم اختلافها فهي تنجز الأعمال نفسها[1]. وانطلاقا من متن يتألف من مائة خرافة روسية عجيبة، شخص بروب دوائر عملها، ووزعها منطقيا إلى فئات (أنماط شخصية) متباينة : المعتدي، والواهب، والمساعد، والمرسل، والبطل، والبطل الزائف، وموضوع البحث. واستنتج أن الخرافة تتكون من سبع شخصيات، ومن إحدى وثلاثين وظيفة. وتتوزع هذه الشخصيات السبع في دوائر العمل على النحو التالي [2] :

أ- تطابق الشخصية دائرة العمل مطابقة تامة.

ب- تشغل شخصية واحدة دوائر عمل متعددة.

ج- تتقاسم شخصيات متعددة دائرة عمل واحدة.

وقدم إتيان صوريو E.Souriau جردا للوظائف في مائتي ألف وضعية مسرحية، واستخلص العوامل نفسها التي توصل إليها بروب، واقترح تسميتها بالوظائف حفاظا على اصطلاحيتها في علم التركيب التقليدي. في البداية تردد بين ست و سبع وظائف، لكنه، في الأخير، حصرها في العدد الأول : القوة الموضوعاتية الموجِّهة، وممثل الخير المرغوب فيه أو القيمة الموجِّهة، والمستفيد المحتمل من الخير، والمعارض، والحكم (موزع الثروة)، واسترجاع شيء مفتقد (مضاعفة إحدى القوى السالفة) [3].

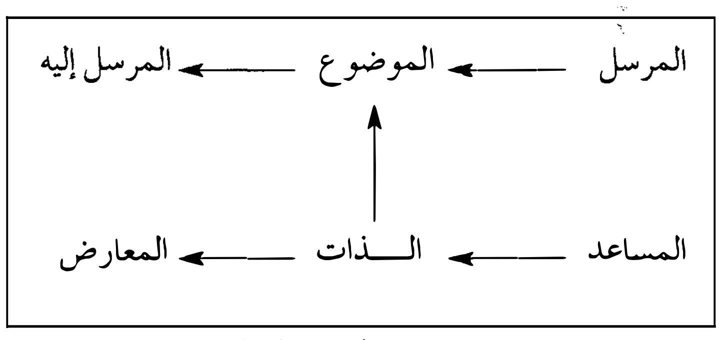
يلتقي تفسير كريماص مع تفسيرات صوريو في نقطة مفادها أن مفاهيم عاملية محدودة تكفي لتنظيم عُويلم micro - univers. لكن قصورها ـ في الآن نفسه ـ يكمن في الطابع الأقل والأكثر صورية الذي نريد إعطاءه لهذين التعريفين : إن تعريف جنس بعوامل محدودة مع تجريد كل محتوى، يعني موضعة التعريف في مستوى صوري عال جدا ؛ وإن تقديم العوامل في جرد بسيط ودون التساؤل عن العلاقات الممكنة فيما بينها، يعني التخلي المبكر عن التحليل، وذلك بترك الجزء الثاني للتعريف (مميزاته الخاصة) في مستوى من الصورنة غير المكتملة [4]. وهذا ما اقتضى من كريماص إعادة توزيع العوامل في ثلاث فئات منطقية تنتظم في ثنائيات على النحو التالي :

ـ الذات = الموضوع.

ـ المرسل = المرسل إليه.

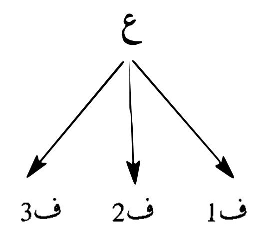
ـ المساعد = المعارض.

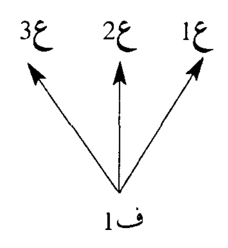
وبلور هذه الفئات التركيبية في نموذج عاملي. تكمن بساطته في أنه ممحور حول الرغبة المستهدفة من طرف الذات، ومشخص بوصفه موضوعا للتواصل بين المرسل والمرسل إليه. وتتغير فيه رغبة الذات بحسب إسقاطات المساعد والمعارض :



(خطاطة رقم 18 النموذج العاملي (5)).

ونورد، فيما يلي، قولة لكريماص يميز فيها بين العوامل والفواعل : «إن التفسير اللغوي الجديد للشخصيات الدرامية الذي اقترحناه بالاعتماد على الوصف البروبي للحكاية الروسية العجيبة، يبحث في المقام الأول عن إقامة تمييز بين العوامل المتعلقة بالتركيب السردي والفواعل المدركة في الخطابات الخاصة التي تتجلى فيها»[6]. ويعتبر العلاقة بينهما ليست مجرد علاقة تضمين لحالة في فئة، وإنما هي علاقة مضاعفة :





فمن خلال هاتين الترسيمتين يتضح أن عاملا واحدا (ع1) يمكن أن يتجلى في الخطاب بواسطة فواعل متعددة (ف1، ف2، ف3). والعكس صحيح، ففاعل واحد (ف1) يمكن أن يكون مؤلفا من عوامل متعددة (ع1،ع2،ع3) (7). ويسعى هذا التمييز إلى تجاوز التصور الساذج عن الشخصية الذي يعتبرها ثابتة على طول الخطاب، واستبداله بتصور آخر يعتبرها فاعلا حركيا وحيويا، يضطلع بعدة أدوار عاملية وموضوعاتية. ولم يكن وكد كريماص وصف وتشخيص الشخصيات حسب ما هي عليه، وإنما حسب طبيعة مشاركتها في المحاور الدلالية الكبرى (التواصل، والرغبة، والبحث)، وعملها داخل الحكي.

وتظهر البنية العاملية أكثر فأكثر بأنها قادرة على فهم وتنظيم المتخيل البشري، وإسقاط الفعل البشري المفترض. ويتمفصل هذا المتخيل تبعا :

أ ـ لانفصالات مركبية تتشخص بوصفها مواقع صورية تمكن من بروز المعنى وتمفصله.

ب ـ ولانفصالات جدولية يتحدد فيها كل عامل بحسب اتسامه بالمؤشر الإيجابي أو السلبي. وهو ما تنجم عنه التمييزات التالية :

ذات إيجابية نقض ذات سلبيته (أو الذات المضادة).

موضوع إيجابي نقض موضوع سلبي.

مرسل إيجابي نقض مرسل سلبي (أو مرسل مضاد).

مرسل إليه إيجابي نقض مرسل إليه سلبي (أو مرسل إليه مضاد)(8).

إلى جانب هذه الانفصالات البنيوية التي تُمَفْصِلُ الفضاء المتخيل في مواقع متباينة، توجد مقولات تتدخل لتنويع البنية العاملية، وتحدد دور العوامل وتدرّجَها المركبي. ويمكن أن تُشَخِّصَ معالمها الكبرى في النقاط التالية (9) :

أ ـ تنهض البنية العاملية أساسا على العمل أو إنجاز مهمة ما. وتعد هذه اللحظة في المسار الحكائي أقرب تعريف للبرنامج الحكائي باعتباره فعلا إنجازيا، وسيرورة

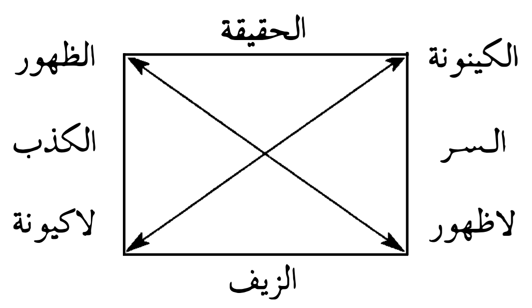
خاضعة لجملة من القيود تعمل ـ بالإضافة إلى المحافظة على خصائص الفعل ـ على تمييزه وتخصيصه وتحقيقه.

ب ـ ولا يمكن للذات أن تحقق ما هو مطلوب منها إلا إذا كانت متوفرة على المؤهلات والجهات الضرورية. ولهذا تُدرج الكفاية ضمن «الوجود» وليس ضمن «الفعل». وعلى الذات المؤهلة أن تسعى إلى تحقيق برنامج حكائي، وتتسم بمجموعة من الجهات التي تسعفها على إدراك موضوع محمل بمجموعة من القيم الجهية (وليس الوصفية).

ج ـ إن دراسة كريماص للمسار الحكائي المبني على مستويي الكفاية والإنجاز المحكومين بترابط منطقي، أفضى به إلى تصور جديد للعامل السيميائي. فلا يكفي التحدث عن الذات السيميائية بشكل تجريدي ، وذلك بوصفها مؤسسة على مفهومي الفرادة و«دوام الكينونة»، وإنما ينبغي، باستمرار، تحديد موقعها السياقي (حالة الذات في علاقتها مع مجموع المسار) ومنزلتها الجهية (توسم الذات تباعا بالجهات التالية : الرغبة، والقدرة، ومعرفة الفعل). وهكذا إذا كان المسار الحكائي يتكون من سلسلة من الحالات الحكائية، فإن الدور العاملي هو، في الوقت نفسه، الحد المَوْقِعِيُّ والجِهِيُّ لكل حالة من هذه الحالات.

د ـ تمر الذات الفاعلة بثلاثة أنماط من الوجود السيميائي. أولها (الافتراض) سابق عن اكتساب الكفاية، وثانيها (التحيين) ناجم عن هذا الاكتساب، وثالثها (التحقيق) يعين الذات إبان قيامها بالفعل الذي يجعلها متصلة بالموضوع القيمي، ومنفذة مشروعها الخاص. ولا نجد فقط ثلاثة أنماط تخص الوجود السيمائي للمواضيع القيمية (موضوع مفترض، ثم موضوع محين، ثم موضوع محقق) مطابقة للمسار العام للذات ومحددة له، وإنما أيضا تطورات ممكنة ناجمة عن الإنجاز. فإما يؤدي التخلي عن المواضيع إلى تمديد الخطاطة الحكائية، وإما تُستخدم ضروب الحرمان الجديدة بوصفها حكائية أو ذرائع للانفتاح على مسارات أخرى.

هـ ـ ويمكن أن تتظاهر الذات بإنجاز فعل ما، وهذا ما يستتبع معالجة قضية التحقق [10]، و يحفز على إماطة اللثام عن «لعبة الأقنعة»، ويعقد من البنية العاملية بمضاعفة أدوارها، وينوع من المسارات التركيبية حسب نوعية الجهات التي تتوسم بها الذوات. ويمكن أن نشخص التأويل السيميائي لمقولة الحقيقة / الكذب وفق التمفصلات التالية :



2.1- الدور الانفعالي :

أضافت سيميائية الأهواء دورا جديدا، وهو الدور الانفعالي. وهكذا نجد أنفسنا أمام ثلاثة أدوار سيميائية أساسية، وهي :

أ ـ **الدور العاملي** الذي يشغل موقعا في البرنامج الحكائي، ويمثل حلقة وصل بين البنية الحكائية والخطابية، ويشكل استثمارا تركيبيا يخضع لتتابع التجارب والتوجيهات.

ب ـ **الدور الموضوعاتي** الذي يعد تلخيصا وتكثيفا للمجرى الصوري، وانبثاثا للمحتويات الدلالية في الخطاب.

ج ـ **الدور الانفعالي** الذي يرتبط بالدور العاملي من حيث أنه يشكل مقطعا داخل المسار العاملي (يستمد هذا المقطع ديناميته من التركيب البين ـ جهي (inter-modale))، وبالدور الموضوعاتي من جهة استقطابه للإحساسات داخل المسار الموضوعاتي.

يقر صاحبا سيميائية الأهواء بصعوبة التمييز بين الدور الموضوعاتي والدور الانفعالي. وبعد مقارنتهما بين الدورين، يخلصان إلى النتيجة التالية : «يخضع الدور الموضوعاتي بصرامة إلى انبثاث الموضوعة في الخطاب، في حين يخضع الدور الانفعالي إلى منطق الأشباه الاستهوائية، وإلى انبثاث خيالي مستقل عن الموضوعة»[11]. فإذا كان الدور الموضوعاتي هو جماع من الموضوعات المتفرقة في الخطاب، فإن الدور الانفعالي هو مجموعة من الانفعالات أو الوحدات الاستهوائية التي يمكن أن نستخلصها في منأى عن الوضعية الحكائية. وإن كان الدور الموضوعاتي متكررا (itératif)، فإن الدور الانفعالي مستديم (permanent) ؛ ولهذا يقتضي وصف البخيل استحضار ملامحه ونظراته وسحنته لما لها من أهمية في إبراز أهوائه وكفايته.

و في هذا الصدد، يمكن أن نمثل بالمشهد العام **للغيرة** لبيان منزلة كل دور على حدة :

	الدور الأول	الدور الثالث	الدور الثاني
الدور العاملي	الذات 1	الموضوع	الذات 2
الدور الموضوعاتي	الغيور	المحبوبة	المنافس
الدور الانفعالي	المالك، المتكبر، الغاضب، المرتاب.	المعتزة والمزهوة بنفسها، الباحثة عن توازن عاطفي، المنتزية.	المتحايل، الانتهازي، المتظاهر بالتفوق، المتحمس، النزاء.
التوجيه الملائم	التعلق = واجب الكينونة.	حق التصرف = واجب اللاكينونة والرغبة في اللاكينونة.	الامتلاك = الرغبة في الكينونة.

(جدول رقم 12 الأدوار السيميائية المختلفة).

يتحمل الفاعل دورا عامليا يشغل موقعا تركيبيا في برنامج حكائي ودورا موضوعاتيا يحدد انتماءه لمجرى صوري. والحالة هكذا، أيؤدي دورا انفعاليا ؟ وكيف تتقاطع الفئات الاستهوائية الكبرى مع صنافة العوامل الحكائية والمراحل الحكائية المقننة ؟

ويمكن أن نعاين هوى الذات الباحثة سواء إبان الميثاق (الحماس) أو لحظة الإنجاز (العناد). كما يمكن أن نستنتج أثناء المرحلة نفسها أهواء خاصة بالمرسل (التقدير، والاستهانة، و حتى الغضب الشديد كذلك) أو هوى خاص بالمرسل إليه (الإخفاق). ومع ذلك يرى كريماص وفونتاني في كتابهما المشترك «أن مثل ذلك التصنيف يظل ناقصا، وإن أسعف في أحسن الأحوال على موضعة الهوى داخل إشكالية عامة. ومع ذلك يظهر تحليل الخطابات الملموسة أن أي عامل إلا و هو مهيأ لاستيعاب مجموع التمظهرات الاستهوائية. فمثلا، يمكن للذات الباحثة أن تشعر هي الأخرى بالغضب الشديد والاستهانة»[12]. وبما أنهما يدافعان عن استقلالية البعد الانفعالي على المستوى السيميا ـ حكائي، فهما قد حاولا الانطلاق من فرضية مفادها* التأكد من إمكان إدراك وبناء الخطاطة الاستهوائية المقننة بوصفها نموذجا قابلا للتعميم، وقادرا على استيعاب المراحل الاستهوائية المختلفة، وتنظيمها في «المحكي» [13]. ولما حللا هويي **البخل والغيرة**، برهنا على صحة الفرضية مستنتجين أشكالا مقننة تسعف على إبراز انتظام وتتابع الأدوار الانفعالية سواء على المستوى السيميا ـ حكائي (المقطع المكبر) أو على مستوى الترابط الجهي (المقطع المصغر).

3.1- الدور التحدثي :

يندرج الدور التحدثي كذلك في إطار الصوغ الفاعلي الذي يسعى ـ من خلال الجمع بين المكون التركيبي وبين المكون الدلالي ـ إلى تشكيل فواعل الخطاب. فبالإضافة إلى ارتهان الفاعل بالفعل والكينونة، يتحدد ويتميز بالكلام. ويقرن ميخائيل باختين بين الفعل والكلام على النحو التالي : «لقد أسلفنا القول بأن المتكلم وخطابه هما الموضوع الذي يخصص الرواية، ويبتدع أصالة هذا الجنس التعبيري. ولكن من الواضح أن الإنسان الذي يتكلم ليس مُشَخَّصاً وحده وليس فقط بوصفه متكلما. ففي الرواية يستطيع الإنسان أن يكون فاعلا على نحو لا يقل عن قدرته عن الفعل في الدراما أو الملحمة، إلا أن لفعله دائما إضاءة إيديولوجية. إنه باستمرار فعل مرتبط بخطاب (ولو كان خطابا محتملا)، وبلازمة إيديولوجية ، كما أنه يحتل موقعا إيديولوجيا محددا. إن فعل الشخصية وسلوكها في الرواية لازمان، سواء لكشف وضعها الإيديولوجي وكلامها، أو لاختبارهما. صحيح أن رواية القرن التاسع عشر قد خلقت مغايرا أساسيا حيث الشخصية لا تغدو أن تكون متكلما عاجزا عن الفعل، محكوما عليه بالكلام العاري : بأحلام اليقظة، وبالمواعظ غير الفاعلة، وبالنزعة التعليمية، وبالتأملات المجدية ..إلخ. وهذا ما نجده أيضا في «رواية الاختبار» الروسية، رواية المثقف ـ العقائدي (التي نجد أوضح نموذج لها في رواية **رودين** Roudine لتورجنيف)» (14).
ولقد سبق لنا أن بينا أن الفاعل كلية تستقطب الفعل والكينونة والكلام على درجات مختلفة لإدراك مبتغاها، وتحقيق مآربها. وهذا ما يحتم مقاربتها بالسيميائيات الثلاث المتداخلة فيما بينها للنظر إليها في شموليتها، ومعالجتها بمنظار نسقي. وهذا ما نقوم به من الفينة إلى الأخرى للفت الانتباه إلى أهمية معالجة الفاعل من منظور متعدد الأبعاد، وإبراز إلى أي حد ما تندغم المستويات الثلاثة (المستوى العملي أو التمرسي، والمستوى الانفعالي، والمستوى التحدثي) فيما بينها، أو يحافظ كل مستوى على استقلاليته داخل النظرية السيميائية. و «تكمن الطبيعة الأساسية للتحدث ليس فقط في خلق علائق بين ـ ذاتية، وإنما في تمكين كل متكلم من بناء هويته، و«التحدث عن العالم». وعلينا أن ننتظر ما سيسفر عن انتظام الإمكانات الخطابية الروائية في برامج تداولسانية pragmalinguistiques، وتوطد علاقاتها بالخطاطة العاملية»(15). ونعتمد على هذه القولة لإبراز مايلي :

أ ـ يسعف الكلام الفرد على تحديد هويته، والانتساب إلى فئة اجتماعية وسيميائية معينة، والتعبير عن موقفه من الوجود. وهكذا يرى بيير زيما أن تلفظ المتكلم يكون مبنيا وفق «ملاءمة جماعية خاصة». فعندما يتكلم مسيحي، مثلا، عن «الحياة الخالدة»،

فكلماته يكون لها معنى، لأنها تحيل إلى ملاءمة خاصة، وهي التعارضات الأساسية بين الجسم والروح، وبين الفاني والخالد؛ ونعرف أن الماركسيين بعضهم والملحدين كلهم يرفضون ملاءمة هذه التعارضات، وينزعون إلى ملاءمة وتصنيف مخالفين. وهذا ما جعل باختين وفوليشينوف ينظران إلى المجتمع بوصفه مشهدا للصراعات والنزاعات البلاغية. وخاصة في المجتمع الحداثي و المتعدد الأصوات الذي يتحدد بكونه مجتمعا «تعدديا»، وحيث تحيل كل شفرة أو لغة اجتماعية بطريقة ضمنية أو جلية إلى الشفرات واللغات الاجتماعية المتنافسة ، بل المتعادية (16).

ب ـ يلعب الكلام دورا أساسيا داخل الخطاطة الحكائية، ويمكن أن نجمل ملامحه العامة في إفصاح المرسل عن الموضوع القيمي، واضطلاعه بإقناع الذات بأهميته وإيجابيته، وتحلي الذات بالمؤهلات اللغوية لاستقطاب المساعدين ومُحاجَّةِ المعيقين. وهذا ما يتطلب من العامل تسخير برامجه التداولسانية واستثمار قدراته اللغوية لفرض الوجه، وكسب مودة وثقة الآخر، ودحض دعاوى الخصوم، إن هو أراد تحقيق مآربه وأهدافه، وإتمام مساره الحكائي بنجاح وفعالية. وقد يصبح التحدث موضوعا قيميا قادرا على الدخول في علاقة وصل أو فصل مع المتكلم ، أو عاملا معيقا (الثرثرة) يثقل القول ويفسده، أو عاملا مساعدا (الكلام الطيب) على توطيد وتمتين العلاقة الثنائية بين طرفين.

ج ـ تستضمر القولة الإلماع إلى التحدث بوصفه إنجازا لغويا أو فعلا سيميائيا (faire sémiotique)، وشرطا لتحقيق الفعل الإنجازي (faire performanciel). ويستلزم تنفيذ أو إنجاز كل فعل من هذين الفعلين (اللغوي وغير اللغوي) توفر الذات على المؤهلات الضرورية. تكون في الفعل الإنجازي عبارة عن قدرات حسية ـ حركية وذهنية (العراك، الحيلة، الاختطاف..)، أما في الفعل السيميائي فتكون عبارة عن كفايات لغوية (التناظر، التحاج، التطويع).

1.2- البنية العاملية لرواية ذات :

لما مثَّل گريماص بالاستثمار الاقتصادي الذي تنطبق تمفصلاته الكبرى على البنية العاملية، لمح إلى الكلام النمطي الذي يلائم بعض العوامل. ويكمن الموضوع الإيديولوجي للمستثمر في إنقاذ المقاولة وحمايتها، ويتحدث البطل أسلوبيا عنها كما لو كان طفلا يحرص على صونها من التهديدات الخارجية، ويتشخص المساعد في الدراسات الإعدادية والسابقة عن الاستثمار : دراسة السوق، والابتكار، والمردودية، والأبحاث الميدانية، ويمثل النظام الاقتصادي المرسل الذي يكلف البطل بمهمة ضمان

فعالية المقاولة مستقبلا. ورغم التقدم التكنولوجي فإن الذات تنتظر القوة السحرية التي تحول، في رمشة عين، الرئيس ـ المدير إلى بطل أسطوري.

فرغم أن كريماص ركز اهتمامه أساسا على العمل الذي يبين دور كل عامل على حدة، فهو قد أسند إلى بعضها الكلام النمطي الذي يميزها عن غيرها. وإن كانت الذات تؤدي دورا اقتصاديا يتجلى في إنقاذ المقاولة وإضفاء الحركية عليها داخل المجتمع، فهي تضطلع أيضا بدور تحدثي يميزها ويضفي المصداقية عليها ويُجَلِّي موقفها من الوجود. ولهذا يستقطب كلامها النمطي كل ما له علاقة بالمقاولة والاستثمار والمردودية والربح.

وإذا طبقنا النموذج الإجرائي للبنية العاملية على رواية **ذات**، نجدها تنهض على العوامل التالية :

1- المرسل : الدولة التي تبنت سياسية الانفتاح الاقتصادي، وبدأت تشيع ثقافة اقتصاد السوق، وتحض الفاعلين الاقتصاديين والاجتماعيين والسياسيين على تمثلها، وترجمتها في سلوكاتهم اليومية.

2- المرسل إليه : الشعب المصري بمختلف شرائحه وفئاته وطبقاته وتوجهاته السياسية.

3- المساعد : كل ما يسعف الشعب المصري على الدخول في العهد الجديد : المال، والاستثمار، والشركات المتعددة الجنسية، والإعلام، والولايات المتحدة الأمريكية.

4- المعيق : الفقر، والخصاصة المالية، والاشتراكية، والحنين إلى الناصرية، وبعض صحف المعارضة.

5- الموضوع : هو موضوع اقتصادي واجتماعي وسياسي يتمثل في اللحاق بمسيرة الهدم والبناء التي سنها العهد الجديد.

6- الذات : تضطلع شخصية ذات بتنفيذ التوجيه الذي تلقته من الدولة، وهو يتعلق أساسا بضرورة ووجوب الانخراط في سياسة الانفتاح الاقتصادي.

نستشف من هذا الجرد المعايير التالية :

أ ـ نجد عاملا أعلى (archi-actant) يصهر أكثر من عامل في بوتقته : فذات تؤدي في الوقت نفسه دور الذات (sujet) بوصفها شخصية محورية، ودور المرسل إليه باعتبارها مواطنة مصرية، ودور المساعد بكونها انخرطت في مسيرة الهدم والبناء. ولم

تصبح عاملا مساعدا إلا بعد أن أحدثت قطيعة مع ماضيها الناصري (عامل معيق).

ب ـ تشتغل الخطاطة العاملية وفق نموذج الاستثمار الليبرالي، وهذا ما استتبع إسناد لكل عامل على حدة كلاما نمطيا مناسبا لتمييز مساراته الخطابيه، وبيان كفايته وأدائه اللغويين، واستجلاء موقفه من الوجود.

ج ـ يمكن لعامل واحد أن يتألف من فواعل عديدة (فمثلا، يحوي العامل المساعد الفواعل التالية : المال، والاستثمار، والشركات المتعددة الجنسية، والإعلام، والولايات المتحدة الأمريكية) ؛ والعكس صحيح، إذ يمكن لفاعل واحد أن يستقطب عوامل متعددة (فمثلا، يضطلع فاعل ذات بأدوار عاملية متباينة، وهي : الذات، والمرسل إليه، والمعيق، والمساعد).

2.2- منزلة الكلام داخل الخطاطة الحكائية :

فكل عامل من هذه العوامل يؤدي وظيفته المحددة سلفا داخل الخطاطة الحكائية. وبما أن المراحل المقننة تتابع بطريقة منطقية، فإن كل مرحلة تستقطب صنفا عامليا يلائم بنيتها. فمرحلة التطويع، بوصفها افتراضا لما سيأتي من الأحداث، تستقطب عاملين : عامل المرسل الذي ينهض بالفعل الإقناعي وعامل الذات الذي يضطلع بالفعل التأويلي. فالعامل الأول يمارس على الثاني نشاطا بهدف حثه على إنجاز مهمة ما. ولكي تحقق الذات ما هو مطلوب منها، وتسهم في إخراج البرنامج الحكائي من حيز الافتراض إلى حيز التحيين، عليها أن تتوفر على المؤهلات الضرورية الموجهة بجهة الكينونة والإحداث (faire-être). وبما أن الكفاية هي ما يدفع إلى الإحداث، فهي تُدرَج ضمن الوجود وليس ضمن الفعل. وتفرز مرحلة الإنجاز (خاصة في الملفوظ الحكائي الخاص بالمواجهة) عوامل مساعدة على إدراك الموضوع (المنح) وعوامل معيقة تحول دون ذلك (الحرمان). وتقترن المرحلة الأخيرة (الجزاء) بالمرحلة الأولى (التطويع) من حيث الحضور القوي للمرسل، واضطلاعه بالفعل المزدوج : أحدهما فعل معرفي يهم معرفة إلى أي حد ما طابق الإنجاز معايير كون القيم، وثانيهما فعل مركب يحوي في الآن نفسه تحقق جهة الإمكان (المكافأة) وفعل المعرفة (الاعتراف الشعبي بأفعال الذات).« إن الفعل الذي يمارسه المرسل يبدو مضاعفا . يتعلق الأمر أولا بفعل معرفي للتعرف، أيْ بتطابق الأفعال المنجزة وطرائق تنفيذها مع معايير القيم التي يملكها ذلك المرسل. فهو الذي يحكم على مدى **مطابقة الأفعال** للكينونات ... فالبنية الجهية التي تميز مثل هذا المرسل هي، إذن، **معرفة الفعل**. إن النوع الثاني من الفعل الذي يعقب المطابقة المحددة في التعرف يلائمه مصطلح **الجزاء**. فهو مصطلح معقد وملتبس، لأنه يعني في الآن نفسه الحكم على المطابقة بوصفها **فعلا** معرفيا وتنفيذا

للإمكان (المكافأة) **والتعريف** (التعرف الشعبي على أفعال الذات). وتتحكم في مجموع هذه الجهات الرغبة الأصلية» [17]. إذا كانت هذه الخطاطة الحكائية وما تستتبعه من عوامل ملائمة لسيميائية العمل، فهي على غير ذلك بالنسبة لسيميائية الكلام. إن الخطاطة الحكائية تقوم أساسا على دلالة العمل، وأهملت ما للكلام من دور في حفز الذات على تنفيذ الفعل، و إقناع المساعدين، وإفحام المعيقين، والتعريف بالمواصفات الإيجابية للموضوع القيمي، وتمييز العوامل وتفريدها. وهكذا تصبح حمالة لوظائف جديدة. وفي هذا الصدد، وجب التمييز بين التطويع كانطلاقة حكائية وبين التطويع التلفظي الذي يمكن أن يمارسه أي عامل يراهن على تحقيق أغراضه في أية مرحلة من المسار الحكائي. ويستخدم المرسل التطويع التلفظي لإقناع الذات بتنفيذ البرنامج الحكائي الأساسي. كما يستخدمه أي عامل يسعى إلى إبراز أهمية وجدوى برنامجه الحكائي الخاص. وفي هذا الصدد نمثل بالدور الذي قامت به ذات من أجل إقناع زوجها بضرورة إصلاح المنزل وتأثيثه، والتباهي أمام زملائها في العمل بقدرتها على الانخراط في مسيرة الهدم والبناء. ونشير كذلك إلى المجهود الذي بذلته صحف اليمين لإظهار مزايا ومحاسن سياسية الانفتاح، وما عادت به من نفع عميم على المصريين قاطبة. ولم يفت صحف المعارضة بيان ما نتج عنها من آفات وسلبيات. وإثر اقتناع سكان العمارة بالتوجيه الرسمي توافقوا على جدول زمني لتنفيذه بانضباط وانتظام. فمن خلال هذه الأمثلة نعاين أن التطويع التلفظي غير متوقف على المرسل، وإنما يمكن أن تضطلع به عوامل أخرى سعيا إلى تحقيق مآربها. وهذا ما نجم عنه إسناد وظائف جديدة إلى العوامل، لم تشر إليها سيميائية العمل إلا نادرا جدا. وتقرن هذه السيميائية الكفاية والإنجاز بالذات الموكول إليها تنفيذ الفعل المتوخى. في حين لا يمكن للمرسل (المطوِّع) أن يقنع الذات بتنفيذ ما هو مطلوب منها (الإنجاز اللغوي) إذا لم يكن متوفرا على الكفاية اللغوية اللازمة. والأكثر من ذلك أن كريماص لم يُلمِّح، في رصده للمواصفات التأهيلية، إلى الكفاية اللغوية التي يمكن أن تشمل كل ما يدخل في الفصاحة والبلاغة والتركيب والحذق الحكائي.

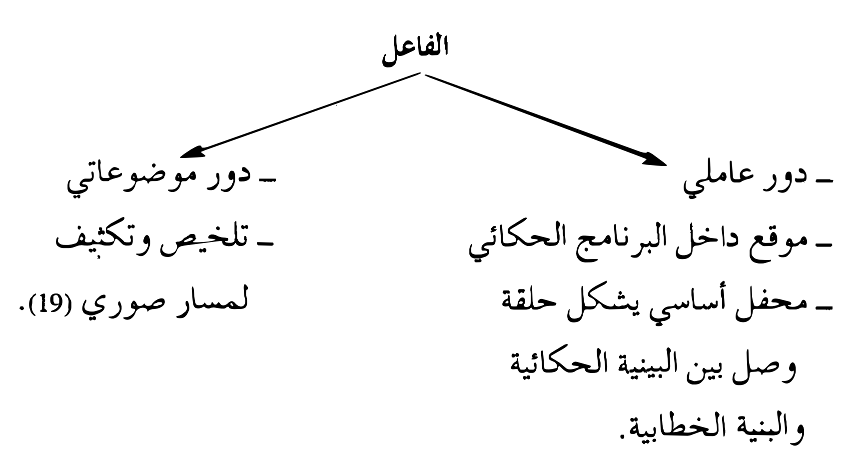
وإذا كانت المراحل تتعاقب منطقيا في سيميائية العمل، فهي تخضع لتنظيم خاص في مشروع سيميائية الكلام وإن ظلت مراهنة على تنفيذ البرنامج الحكائي وتقويمه سلبا أو إيجابا. وعليه، نحصل على ما يلي :

يتطلب التطويع الأساسي من المرسل كفاية لغوية لحفز الذات على إنجاز فعل ما. وتخرج الكفاية اللغوية من حيز الوجود إلى حيز الفعل لما تصبح إنجازا. ولا يخلف هذا الإنجاز أثرا في نفسية المتلفظ له (الذات) إلا إذا توفر نجاح عمليات السحر

الاجتماعي، واكتملت مجموعة من الشروط التي تتألف منها الشعائر الاجتماعية. وتحوي الكفاية جملة من المواصفات التأهيلية بما فيها اللغوية. وإذا كانت سيميائية العمل تقرن الكفاية بالذات، فإن سيميائية الكلام تسندها إلى أي عامل يعبر عن مقاصده ويعرب عن مشاعره. وسبق أن أشرنا إلى أن الإنجاز قد يكون لغويا أو غير لغوي . وإذا كانت سيميائية العمل تعتبره الحلقة النهائية للتحولات المهيمنة في النص، فهو ـ في سيميائية العمل ـ يمثل الوجه المحقق لما يستضمره العامل من مقاصد وبرامج خاصة. وفي هذا الإطار ، قد يتشخص كفعل إقناعي صادر عن المرسل لتطويع الذات، أو صادر عن عامل آخر لإفحام من يخالفه الرأي ، وحفزه على مشاركته اعتقاداته و تمثلاته. وفي هذه الحال، يتطلب الإنجاز كفاية لغوية عالية جدا. وتماشيا مع هذه النقطة، ينبغي الإشارة إلى تمييز كريماص بين الإنجاز بوصفه قرارا (المستوى المعرفي) وبين الإنجاز باعتباره تنفيذا (المستوى التداولي). وإذا كان الإنجاز الثاني عبارة عن فعل بشري (الزواج، المبارزة، قطع الفيافي والبيد ..)، فالأول بمثابة فعل لغوي يقتضي من المتلفظ إلماما بحيثيات القرار وملابساته، وتحكما في التعابير والصيغ اللغوية اللازمة. ولا تصبح للقرار قيمة تداولية إلا بتنفيذه على أرض الواقع. ويمكن أن تكون الغاية من الإنجاز اكتساب القيم الموجهة (اكتساب القدرة على معرفة الفعل، وذلك على نحو تعلم اللغة الأجنبية) أو اكتساب القيم الوصفية أو إنتاجها (مواضيع قابلة للاكتساب، حالات نفسية) [18]. فمن خلال هذين التمييزين الدقيقين يتبين أن كريماص لم يقصر الإنجاز على الفعل البشري، وإنما عممه حتى على الفعل اللغوي (اتخاذ القرار، واكتساب القيم الموجهة بما فيها جهات التحدث). ويظل الجزاء محافظا على منزلته الأخيرة داخل الخطاطة الحكائية المقننة، لأنه بمثابة إصدار أحكام على الأفعال المنجزة، والتأكد من مدى مطابقتها لكون القيم. ولا يمكن للمرسل أن يسترجع المعرفة المكثفة في المرحلة الأولية إلا بإصدار أحكام على الحالات والتحولات التي تتشخص في شكل أحداث ووقائع ملموسة.

3.2- الكلام النمطي للفواعل :

تؤدي الذات في الآن نفسه دورا (أو أدوارا) فاعليا (فاعلية) يحدد (تحدد) موقعا في برنامج حكائي ودورا (أدوارا) موضوعاتيا (موضوعاتية)، يحدد (تحدد) انتماءه (ها) لمسار صوري (لمسارات صورية). ويمكن أن نشخصه (ها) في الترسيمة التالية :



تتشكل الشخصية تدريجيا من الإشارات الصورية المتراكمة، ولا تتوضح معالمها وصورتها الكاملة إلا في الصفحة الأخيرة، وذلك بواسطة عملية التذكر التي يقوم بها القارئ. ويمكن أن يحل محلَّ هذه العملية ذات الطابع النفسي الوصفُ التحليلي للشخوص (قراءتها بمعنى الفعل السيميائي) الذي يجب أن يسعف على استخلاص التمظهرات الخطابية التي يتشكل منها، واختزالها في الأدوار الموضوعاتية التي يضطلع بها[20]. ويكمن المحتوى الدلالي للفاعل في مقوم التفريد الذي يظهره كصورة مستقلة للعالم السيميائي[21]، ويتخذ أشكالا متعددة، نذكر منها كونه موسوماً باسم علم، وقادراً على إنجاز دور موضوعاتي، ومتميزاً بمحتوى دلالي.

ويتحدد الدور الموضوعاتي للفاعل باختزال مضاعف : أحدهما هو اختزال التمظهر الخطابي في مسار صوري محقق أو قابل للتحقق في الخطاب، وثانيهما هو اختزال هذا المسار في منفذ (agent) مؤهل لأن يقوم به افتراضا[22]. وعليه، فموضوعة الصيد تستقطب صورا متعاقبة (الصنارة، الخيط، القصبة، مُجَمَّع مائي ..)، يمكن أن تُختزل في دور موضوعاتي؛ وهو الصياد. وحينما يُستخدم هذا الدور الموضوعاتي في الخطاب، فهو يرتبط بمسارات صورية. فإضافة إلى كونه موضوعة، هو أيضا دور، ويمكن ـ على المستوى اللساني ـ أن نجد له معادلا بنيويا في اسم المنفذ الذي يمكن أن يكون في الوقت نفسه اسما (صورة اسمية) وعاملا (دور عبر ـ تركيبي) [23]. ويمثل كريماص بالصياد الذي ورد في قصة **الصديقين** لكي دي موباصان Maupassant (G.D). فمن البديهي أن يحمل هذا الدور في ذاته كل إمكانات فعله، وكل ما يمكن أن ننتظره منه كممارسة. إن إدراجه في تشكل خطابي يجعل منه دورا موضوعاتيا قابلا للاستعمال من طرف الحكي[24]. وإلى جانب اضطلاع الفاعل بدور موضوعاتي، فهو يشغل مواقع عاملية متعددة، ويدعم طابعه الدلالي باستقطاب مقاطع استهوائية و**تحدثية** مناسبة.

تهتم سيميائية الكلام بهذه المقاطع التحدثية التي تتجلى في شكل كلام نمطي، أو لغات فردية واجتماعية ، أو تعابير مُشخَّصة أدبيا. وتعمل هذه المقاطع على تمييز الفاعل وتفريده، وإبراز موقفه من الوجود. وفي هذا المضمار، بين فليب هامون أن «الكلام ليس فقط أداة لتوثيق عالم التخييل، وإنما هو وثيقة عن الشخصية، وبمثابة صبغة، وعبارة، وعامية، ونظرية، واعتراف يقدم معلومات ـ بموضوعها وشكلها على حد سواء ـ عن الشخصية التي تضطلع به، ويسهم ـ إذن ـ في موضعتها وتصنيفها اجتماعيا ومهنيا ونفسيا وإحيائيا : فاللاتينية تحيل إلى القـس، والعامية إلى العامل، والمصطلح إلى العالم ، و«الكلمة» إلى النفاج، والثغثغة إلى الأطفال، فهو يتضمن ـ إذن ـ أثرا واقعيا هاما وكبيرا »[25]. فإلى جانب أن الشخصية تتمتع بالقدرة على الرؤية والعمل، فهي تتوفر على قدرة الشرح والإسهاب. وفي هذه الحالة الأخيرة، تكون موسومة بالثرثار الشارح والذلق اللسان (volubile)، وموجهة بالرغبة في الكلام، ومعرفته، والقدرة عليه، والتلفظ به[26].

نخصص هذه النقطة كما هو محدد أعلاه للكلام النمطي، ونرجئ التطرق لباقي المقاطع إلى مرحلة قادمة. «يحيل الكلام النمطي إلى خارج النص، ويعطي للمتكلم الخيالي مصداقيته (الداخل والخارج ـ نصية)، وحقه في امتلاك خطاب محدد، وكذلك أبهته الضرورية في فرض أحقية كلامه واحتمال تصديقه من طرف المستمع (أو القارئ)»[27]. وبما أن الفاعل يؤدي أدوارا موضوعاتية متعددة، فهو يتنقل من كلام نمطي إلى آخر دون أن يحصل ترابط حواري بينهما داخل وعيه اللساني. و«على هذه الشاكلة كان الفلاح الأمي البعيد بمسافات طويلة عن كل مركز، والغارق بسذاجة وسط وجود يومي يظنه جامدا وثابتا، يعيش وسط عدة أنساق لسانية : كان يصلي لله في لغة (سلافية الكنيسة) وكان يغني في لغة أخرى، ويتكلم داخل الأسرة لغة ثالثة ؛ وعندما كان يشرع في إملاء طلب على كاتب عمومي، موجه لسلطات المقاطعة القروية، كان يجرب لغة رابعة (رسمية، سليمة، منبعثة من «ركام الورق القديم»). وقد كانت تلك **لغات مختلفة،** حتى من وجهة نظر العلامات المجردة الاجتماعية واللهجوية. لكنها لم تكن مترابطة حواريا داخل الوعي اللساني للفلاح. لقد كان ينتقل من واحدة إلى أخرى بدون أن يفكر في ذلك وبكيفية آلية : كل واحدة منها كانت بالتأكيد في موضعها، وموضع كل واحدة لم يكن ليناقش . إن ذلك الفلاح لم يكن يعرف بعد كيف ينظر إلى اللغة (ولا إلى العالم اللفظي الذي يوازيها «بعيون» لغة أخرى؛ مثلا أن ينظر إلى اللغة والعالم اليوميين انطلاقا من لغة الصلاة ومن لغة الأغنية، أو العكس»[28]. ويصدق هذا الكلام على أي دور موضوعاتي يقوم به الفاعل دون أن يعي خلفيته اللغوية، ويدرك أن انتقاله من دور إلى آخر تصاحبه فروق لغوية دقيقة. لكنه لما يعي أنه

يعيش وسط تعدد لغوي، فإن اللغات داخل وعيه تتبادل التأثير والنقد، وتنبني على قاعدة حوارية، وتسهم في بلورة موقف من الوجود والمعيش. وهذا ما يحاول كتاب الرواية الالتزام به حتى يكون انتقال الفاعل من دور إلى أخر مشيدا على أساس التشخيص الأدبي للغة، وتوسيع وتعميق الأفق اللساني.

ولأخذ صورة عن استثمار الكلام النمطي في الرواية، سنعمد إلى تقسيم الأدوار الموضوعاتية حسب تشاكلاتها الدلالية :

أ ـ الدور الموضوعاتي / العائلي/ :

توجد في رواية **ذات** أربع أسر أساسية تستقطب كبريات الأحداث. وفي مقدمتها من حيث الحضور المكثف نجد أسرة عبد المجيد وذات، ثم تليها أسرة الشنقيطي وسميحة، ثم تليها أسرة عزيز عبد الله وصفية عباس ، ثم تأتي في المرتبة الأخيرة أسرة عادل ومنال. وما يجمع بين هذه الأسر هو حرص الأب على الاحتفاظ بسلطته الذكورية، ونهوض الأم ـ رغم خروجها إلى العمل ـ بتدبير الشؤون المنزلية الداخلية (التأثيث، والطبخ، والتربية). لما نأخذ الأسرة الأولى كعينة، نعاين في كلام عبد المجيد تشبثا بالنزعة الذكورية، واستخفافا بدور المرأة وقدراتها، وتشكيكا في استقامتها، ودورها في مواكبة الشؤون العامة التي تستأثر باهتمام الرأي العام. إنَّ معجمياته ـ وإن كان ملحا بالضرويات الذهبية : علبة السجائر والولاعة (رونسون)، الخاتم ، عطر أولد سبايس، الحذاء الضيق المدبب، معرفة بأنواع الطعام ومراسمها ـ ممتوحة من المعجم التقليدي الذي ينظر بريبة وحذر إلى القيم التي نجمت عن التبعية للغرب. أما ذات ـ رغم وفائها للناصرية ـ فهي تنهل معجمياتها من الكلام النمطي للمرأة المتحررة المشبعة بقيم مسيرة الهدم والبناء (الافتتان بالكماليات والأثاث الفاخر وقيم التبادل). ونظرا لكثرة المتطلبات وقلة المال، فإن حديثهما غالبا ما كان ينقلب إلى مواجهة كلامية عنيفة.

ب ـ الدور الموضوعاتي / المهني/ :

بما أن رواية **ذات** تسعى إلى تقديم نظرة شمولية عن المجتمع المصري خلال ثلاثة عقود من الزمن، فهي تستقطب مهنا متعددة تمثل مختلف الفئات والطبقات الاجتماعية. وقد أسهم التنضيد المهني للغة في إثراء الرواية بالتعدد اللغوي، وإثارة معضلة صورة اللغة. فكل مهنة تستتبع كلاما نمطيا متميزا بمعجمياته، وأفعاله الكلامية، وجهاته التحدثية، ووظائفه التداولية، وأدائه الصوتي. فالشرطي ـ مثلا ـ يستخدم إستراتيجيات لغوية مخالفة لمثيلاتها عند الممرض، كما يوظف كلاما نمطيا يتسم

بمعجميات خاصة، وتتحكم فيه أفعال كلامية محددة (على نحو الاستفهام، التهديد، والأمر، والوعيد)، وتتخلله «عوارض» لغوية متماشية مع غايات استراتيجية (التوقف، ودحض كلام الآخر، رفض جاف). إن الأمر يتعلق بمنطق خطابي يظل على حاله حتى في حالة «القلب الإسنادي». فالخادم الذي يكون أكثر ذكاء من سيده يجد نفسه يضطلع بالدور التحدثي كما لو كان «مجبرا على إصدار الأوامر»(29).

يشغل الرئيس المصري (أنوار السادات، ثم خلفه حسني مبارك) ووزراؤه الخطاب الرسمي الطنان الذي يشيد بالمنجزات العظيمة، وبما حصدته مصر من فوائد جمة بتوطيد علاقتها مع الولايات المتحدة الأمريكية، ويتغافل عن ذكر مكامن الضعف والقصور، ويرهص بالمستقبل الزاهر. ويستقطب الكلام النمطي لهؤلاء المسؤولين الكبار معجميات فرضتها سياسة الانفتاح السياسي والاقتصادي، ونذكر منها: الديمقراطية، والأرباح، والديون، والمعونة الأمريكية، ومواجهة العدو الروسي. وينوه المستثمرون ورؤساء الشركات الضخمة بتخلي مصر عن سياسة التأميم والمصادرة وتبنيها سياسة جديدة قوامها المنافسة والملكية الفردية، وهذا ما حفزهم إلى العودة إليها لاستثمار رؤوس أموالهم وإعداد المشروعات الاقتصادية والتجارية المربحة. وفي هذا الصدد، نورد قولة سمو الأمير الفاسي التي تجمل الكلام النمطي للمستثمرين وأرباب رؤوس الأموال: «ننويُّ استثمار أموالنا في مصر. والمال متوفر والحمد لله. وهذا بخلاف ما كان يحدث في الماضي حين كنا نخشى استثمار رؤوس أموالنا في مصر خشية التأميم والمصادرة. لذلك كنا نعمل في تلك الفترة بالولايات المتحدة وأوروبا فقط» ص137. فمن خلال هذه القولة يتضح أن الألفاظ ترتبط بمحور دلالي ونفسي وزمني وإيديولوجي:

الماضي	≈	الحاضر
- التأميم والمصادرة.		- المال متوفر.
- الخوف من الاستثمار.		- عدم الخوف من الاستثمار.
- الإيدولوجية الاشتراكية		- الإيديولوجية الليبرالية.

وبما أن عبد المجيد موظف في البنك فإن كلامه النمطي يدور حول فضائح الأبناك، وتهريب الأموال، وعقد العمل بالخليج ، والتمليك، وافتتاح فرع جديد للبنك. وعلى المنوال نفسه يوظف فاعل الطبيب والمهندس والحارس والبائع الكلام النمطي الملائم للدور الموضوعاتي المهني المنوط به. وهذا ما يسهم في الاتصال والترابط الحواريين

للغات، وتشخيص الفئات الاجتماعية ـ المهنية وأوعائها بطريقة لفظية وفنية. وما نعاين في تلفظات هذه الفواعل هو توظيف معجميات محدودة من الكلام النمطي المتواضع عليه اجتماعيا. وما يظل ناقصا يتداركه القارئ بتشغيل خلفياته المعرفية وكفايته الموسوعية . وبما أن الكاتب يدرك أن الكلام النمطي لفاعل ما مخزن في ذهن المتلقي، فهو يسعى إلى مباغتته بمعطيات جديدة ضمانا للمتعة والتشويق الفنيين. وهذا ما يمكن أن نعاينه ـ على سبيل المثال ـ في الدور الموضوعاتي المهني المسند إلى ذات. فهي ـ في عملها ـ لا توظف إلا معجميات قليلة جدا من الكلام الصحفي النمطي، في حين يستغرقها الكلام الموجَّه والمعتاد (قضايا البث البالغة الخصوصية).

ج ـ الدور الموضوعاتي / الديني/ :

تتميز بعض الفواعل باللقب الديني «الشيخ» لمكانتها العلمية، ووظيفتها الدينية (الدعوة والجهاد). ونذكر منها على وجه الخصوص : الشيخ محمد الغزالي، والشيخ متولي الشعراوي، والشيخ كشك، وشيخ الأزهر. ويمكن أن نضيف إلى هذه الفئة أعلاما لها وزنها العلمي في مجال الدراسات الإسلامية، وذلك على نحو الدكتور يوسف القرضاوي والدكتور عبد الصبور شاهين. وتتمايز وتتفاوت باقي الفواعل في أداء فرائضها الدينية بشكل منتظم. وما يجمع بين جميع الفواعل المضطلعة بالدور الموضوعاتي الديني، هو استخدام معجميات وتعابير ممتوحة من الدليل الشرعي والمتخيل العربي الإسلامي. وإن تتقاطع هذه المعجميات والتعابير في تلفظات الفواعل، فإن كل فاعل يستخدمها تبعا للدور الموضوعاتي المسند له. وهذا ما يحتم على تأدية أي دور أن يكون مقرونا بالكلام النمطي المناسب. وإن متح المُكتِّب والفقيه والشيخ والمريد معجمياتهم من المصدر نفسه، فكل واحد يدرجها في نمط كلامي متميز بطبيعته ووظيفته.

ولم يصبح عبد المجيد مشبعا بالقيم الدينية الأصيلة، وممتثلا للتعاليم الدينية إلا بعد أن انهدت أحلامه، وانتابته إحباطات نفسية ؛ فانقطع عن شرب الخمر، وانتظم في الصلاة، واشترى مؤلفات متولي الشعراوي، وبدأ يلح على زوجته أن تلبس الحجاب.

د ـ الدور الموضاعاتي / السياسي والاقتصادي/ :

أي فاعل يمارس السياسة أو الاقتصاد إلا ويتوسم هو الأخر بلقب يدل على دوره الموضوعاتي (الرئيس، الوزير، مدير شركة ...). وكل دور يحتم استعمال كلام نمطي مناسب بمعجمياته وأفعاله اللغوية ووظائفه التداولية. وما يجمع بين الأنماط الكلامية المختلفة هو توظيف المعجميات التي فرضتها سياسة الانفتاح السياسي (الصحوة

الكبرى، رؤوس الأموال، الشركات، الاستثمار، الإنجازات، مسيرة الهدم والبناء، التمليك..).

يقتضي الدور الموضوعاتي للفاعل استخدام ما يلائمه من كلام نمطي لإضفاء المصداقية عليه وتفريده. وبما أنه يضطلع بأدوار موضوعاتية متعددة في اليوم نفسه (أب، ومعلم، و نقابي، ومتضرع..)، فهو مجبر على تكييف الأنماط الكلامية مع مقتضيات الأحوال والظروف «ويكون الانتقال من لغة إلى أخرى متوقعا وآليا بمثل ما يكون عليه الانتقال من غرفة إلى أخرى. ولاتتصادم تلك اللغات داخل وعيه؛ وهو لا يحاول أن يربط بينها، ولا ينظر إلى واحدة منها «بعيون» الأخرى»[30]. وفي الإطار نفسه تتدخل آليتي الانفصال والاتصال الفضائيين لبيان أن الفاعل محاط بتعدد لغوي، وله القدرة على التنقل بطريقة آلية وعفوية من كلام نمطي إلى آخر، فهو في المنزل يستعمل كلاما نمطيا معينا، ولما يلتقي بأصدقائه بالمقهى يستخدم نمطا كلاميا آخر. وبمجرد أن يعي بتفاعل الأنماط الكلامية وتوازنها الدينامي، يكتشف تعديدتها اللسانية، ويميط اللثام عن أبعادها الإيديولوجية. وبناء عليه فإن الفاعل «يحيل على معنى ممتلئ وثابت، ومحدد في ثقافة ما. كما يحيل إلى أدوار وبرامج واستعمالات مقولبة. إن مقروئيتها مرتبطة مباشرة بدرجة مشاركة القارئ في هذه الثقافة (يجب أن نتعلمها ونتعرف عليها). وباندماج هذه الفواعل داخل ملفوظ معين، فإنها ستشتغل أساسا «كإرساء» مرجعي يحيل على النص الكبير للإيديولوجيا أو للرواسم وللثقافة. إنها تتضمن ـ إذن ـ ما يسميه رولاند بارث، في إحدى كتاباته، «بأثر الواقع» [31].

1.3- متغيرات اللغة الفردية :

يتميز كل متكلم بطريقته الخاصة في استخدام الشفرات اللسانية، وإضفاء بعض التلوينات والمميزات الفردية عليها. وينفرد عن بني جنسه بلغته الفردية التي تكشف عن أدائه اللغوي وكفايته اللغوية تركيبا ومعجما ونطقا، وتبين انتماءه الجغرافي والاجتماعي والقطري. ويحرص الروائي على تشخيص اللغة أدبيا حتى يضفي على النص الواقعية اللغوية . «فالروائي الذي لا يستطيع أن يميز التعابير والنطق والجملة لا يميز كل شخص بأسلوبه»[32]. ومع ذلك فإن الكتابة لا تسعف كثيرا على إبراز المميزات الصوتية للفواعل وتفريد تلفظاتهم على النحو الذي تكون عليه في الواقع. ويعزو عبدالله العروي ذلك ـ بصفته روائيا واعيا بنقل الشفهي كتابة ـ إلى الطباعة العربية. «وأنا ما أزال أحاول، ولم أحقق إلا عشرة في المائة مما أريد. لكن الطباعة العربية للأسف، لا تساعد على ذلك، بحيث عندما تريد أن تعطي النطق الحقيقي لما تكتب تجد صعوبات بالعربية. لذلك قدمت في الصفحة الأولى من **الغربة** قولة الجاحظ «وإن وجدتم في هذا

الكتاب لحنا أو كلاما غير معرب أو لفظا معدولا عن جهته، فاعلموا إنما تركنا ذلك، لأن الإغراب يغض هذا الباب ويخرجه عن حده»»[33]. وهذا ما يحتم على الطباعة بصفة عامة تعزيز التوافقات بين الشفرة الشفهية والشفرة الكتابية لتدارك نقائصها الخاصة[34].

وقبل أن نستخرج بعض الشواهد الدالة على مميزات اللغة الفردية لبعض الفواعل في ذات، نعطي أمثلة من بعض الروايات. ففي رواية **الريح الشتوية** لمبارك ربيع، نجد أرنو يلثغ في كلامه (كابوغ بدلا من كابور)، ويتكلم لغة عربية ركيكية تمكنه فقط من التواصل مع العمال المغاربة. «شف بولحية، اخدم معايا مزيان، وأنا نخدم معاك مزيان» (ص 167). ويحرف العمال المغاربة المعجميات الفرنسية (على نحو السنتيكا أي النقابة)، ويكتفون بالرد السريع على استفسارات المكلف (وي مسيو)، ويمتحون معجمياتهم من اللغة الاجتماعية لأهل الشاوية. وبما أن هذه اللغة قد تطورت بنياتها بفعل الصيرورة التاريخية والتفاعل اللغوي، فإن الرواية ـ في هذا الصدد ـ تمثل وثيقة تاريخية تعطينا نظرة عن الكيفية التي كان يستخدم بها أهل الشاوية لغتهم الاجتماعية للتواصل فيما بينهم والتعبير عن مشاعرهم وأهوائهم. يستخدم جوليان في **الأحمر والأسود** لستندال Stendhal (H.B) نبرة شعبية في تلفظاته. ولهذا تقصد الكاتب تمييزها بخط مائل حتى يشدد على خروجها عن الضوابط المعيارية :

«ceci devient sérieux, mon garçon, ajouta-t-il avec une gaieté et un accent gascons. Il y a de *l'honur*» p.339.

وهكذا قد حلت محل الكلمة الصحيحة (l'honneur) لفظة محرفة (l'honur) تكشف عن المستوى الثقافي والجذور الاجتماعية لجوليان.ونعاين في رواية **زازي في الميترو** لريمون كونو تحريفاً في نطق بعض الكلمات . فعوض homosexuel يُتَلَفَّظُ ب homosessuel، وبدلا من expliquer يُتَلَفَّظُ ب espliquer. وتندرج مثل هذه الهفوات النطقية في إطار تمييز لغة أهل باريس الهزلية.

فمن خلال هذه الأمثلة يتبين وجود هفوات نطقية مقصودة تنزاح عن الشكل اللغوي المتعارف عليه، وتمثل ظاهرة الصمم اللغوي الفردي (surdité idiolectale) التي تعني حسب جيرار جنيت «ليس فقط بروز الأخطاء، وإنما قدرتها على مقاومة أي تصحيح : إنها استمرارية في الخطأ ورفض الأذن القطعي لإدراك الشكل الصحيح»[35].

2.3- تجليات اللغة الفردية :

نجد في رواية **ذات** انزياحات نطقية أصبحت ـ مع مر الأيام ـ متأصلة في العامية المصرية؛ وذلك على نحو إحلال محل لفظة «زوجي» لفظة أخرى مختلفة عنها في ترتيب الحروف، وهي «جوزي». «الله؟ جوزي» (ص 25). وتنطبق الملاحظة نفسها على استبدال حرف الظاء بالضاد أثناء التلفظ بلفظة «الظهر». «لقيت الراجل رجع من الشغل واحنا لسه قبل الضهر» ص 336. ولما زارت ذات الطبيب لمعالجة ابنها أمجد، أول شيء أثارها هو أنه يتعثر في كلامه ويخرج ملفوظاته بصعوبة كبيرة. «اســمك إيه ييبيا ششششاطر؟» فقر أ هذا من البطاقة : « أأأأأ مجد ععععع عبد الــمممجيد ح ح ح ح سن» ص (184 / 185).

وفي السياق نفسه ينبغي ألا نغفل دور علامات الترقيم (وخاصة التعجب والاستفهام) في تحديد الفعل اللغوي المتوخى، وإبراز وظيفته التداولية، وبيان مواصفات الأداء الكلامي (مخارج الأصوات وصفاتها ونبراتها). إن طريقة أداء الاستفهام ـ على سبيل المثال ـ تسهم إلى جانب مؤشرات داخلية (التركيب) وخارجية (المقام) في تحويل المقام الإنجازي/ السؤال إلى مقامات أخرى : التحقير، والاستبعاد، والتسوية. فعندما نعلم أن المتلفظ تلفظ بهذا السؤال: «أ مكرر هذا؟»؛ فإن طبيعة المقام أخرجته من حيز الاستفهام إلى حيز الإنكار. وكل مقام يحتم على المستفهم أن يلون كلامه بنبرات خاصة ومتواضع عليها حتى يؤدي الوظيفة التداولية المنوط بها ويوصل مقاصده إلى المتلقي. وإن كانت اللغة لا تسعف الروائي على تشخيص الأداء الصوتي وما يصاحبه من انفعالات وتلوينات فردية، فالسياق يقتضي من القارئ استحضارها وتحيينها بتشغيل خلفاياته المعرفية وذاكرته، والقيام بعمليات المماثلة والمقايسة استنادا إلى المواضعات الاجتماعية. إن تلفظ ذات بعبارتي «اعمل إيه ؟ مال إيه؟» ؛ يعطي الانطباع أنهما مقرونتين بنبرات الحزن والحدة والشوق بغية حفز مخاطبتها (الخادم) على إرواء غُلَّتِها بالمعلومات الإضافية.

وبما أن الروائي يعي أن اللغة لا تستطيع أن تنقل بأمانة وعلى وجه التمام ما يصطحبها من نبرات وانفعالات، فإنه يستعين بتقنيات معينة لعلها تساعده على استحضار بعض منها. ومن بين هذه التقنيات، نجد في مقدمتها الإرشادات المسرحية التي تجلي ـ من بين أشياء أخرى ـ الأداء الكلامي للمتحاورين.

«عاد عبد الحميد من البنك منتعشا، وخاطبه **في سخرية** : تعرفي دكتور فريش بتاعك بيشتغل إيه الوقت» (ص 236).

«فقالت [ذات] **بلهجة رقيقة** : مخدش باله. بسيطة» (ص 241).

فانقض الموظف على يدها **صائحا** :« .إيه يا مدام» (ص 241).

وجه الأرنب (**متثائبة**) : «سعد مين» (ص 25).

قائلة [زينب] ببراءة مصطنعة : «معقول يا ذات ..أنت لسه عندك حاجه زي كده؟» (ص 56) .

فألقى بالورقة جانبا وهو ينادي في حدة، **ضاغطا على مخارج الحروف**، فيما خيل لذات أنه النطق الإسلامي : «يَا فَاطِمةْ» (ص 178).

نكتفي بهذه الأمثلة المتناثرة التي تبين لنا أن الناظم الخارجي يتوخى من توظيف الإرشادات المسرحية تقريب المتلقي من الأداء التلفظي للمتحاورين (النطق، النبرات، صفات الأصوات). وإذا استغنينا عن العبارات والألفاظ المُبرَّزة، فإن الحوار سيفقد وظيفته التداولية، وتنتفي منه الواقعية الصوتية والتركيبية ـ الصرفية التي تسهم في تفريد الفاعل، وإبراز طرائقه وعاداته في التحدث.

تبين لنا هذه العينة من الأمثلة أن الفواعل تتحدث أحياناً بالعامية المصرية. لكن كل فاعل يَنْفَرد بطريقته في الكلام، ومميزاته الصوتية، وقدرته على استخدام الشفرات اللغوية. ونظرا لصعوبة نسخ الشفهي في الكتابي، فإن الروائي يحرص على إقامة توافق بينهما؛ وذلك باستخدام تقنيات معينة (على نحو الإرشادات المسرحية، والهفوات النطقية، وتقطيع الحروف، والأخطاء الإملائية والنطقية..إلخ)، وإسناد إلى كل فاعل على حدة ما يلائمه من نبرات صوتية وعادات لغوية وبنى تركيبية. «فإذا كانت الواقعية الصواتية (phonologique) والصرفية ـ التركيبية للشخوص تستند بدون شك إلى حقائق لغوية جزئية، فهي لا تعد محتملة الوقوع إلا في نطاق أنها معللة، وعلائقية، وغير محددة من خلال نظام من الانسجام المعقد الذي هو بمثابة انعكاس لعوامل «نفسية»، وكفايات مختلفة تُرْسي المتكلم في فعله التلفظي الخاص. ويُرْسَى هذا الفعل بدوره ويولد من طرف بنية نصية محايثة، وهيكل يوزع على الفواعل قدراتهم الخطابية والتفاعلية»(36).

1.4- اللغة الفردية ومعضلة صورة اللغة :

الفاعل هو أحد أشكال المتكلم وتجلياته. وفي هذه الحال، يكون هو وكلامه محققين ومجسدين على مستوى التجلي النصي. «وبما أنه فرد اجتماعي ملموس ومحدد تاريخيا، فإن كلامه ينزع دوما نحو دلالة وانتشار اجتماعيين : إنه لغات

افتراضية. من ثم يمكن لخطاب شخصية روائية أن يصبح أحد عوامل تصنيف اللغة، ومدخلا للتعدد اللساني»[37]. قد لا يعي الفاعل بأن كلامه يتألف من أقوال الآخرين، يستعين بها لتحقيق أغراضه ومطامحه «فإحدى التيمات الكبرى والأكثر انتشارا التي يوحي بها الكلام البشري، هي تيمة نقل كلام الآخر ومناقشته. ففي جميع مجالات الحياة ومجال الإبداع الإيديولوجي، يشمل كلامنا بوفرة على كلمات الآخرين منقولة بدرجة من الدقة والتحيز جد متباينة. وكلما كانت حياة الجماعة التي تتكلم ثرة، متنوعة ومرتفعة، كلما اتخذ كلام الآخر وملفوظه، بوصفه موضوع نقل مهتم وموضوع شرح ومناقشة وتثمين ودحض ومساندة وتطوير، حيزا كبيرا داخل موضوعات الخطاب كلها»[38].

إن الاهتمام بالمتكلم وبما يقوله يقتضي معالجتهما من زاوية معضلة صورة اللغة. فلا يستطيع أي متكلم أن يصدع بمقصديته دون أن يستند إلى كلام الآخرين، ويستعين به لإدراك مبتغاه. وما وضعه أحيانا بين مزدوجتين أو بحروف مُبرَّزة إلا علامة على تقديره والحرص على صفائه، ووعيا بالحدود الفاصلة بين ما يدخل في حوزة ملكيته وما يخرج عنها. ولما يتلفظ الفاعل في الرواية، فهو لا يجتر خطابا أو يعيد إنتاجه جزافا، وإنما يشخصه بطريقة فنية. وهذا ما « يستلزم الخطاب طرائق شكلية جد خاصة في الملفوظ وفي التشخيص اللفظي»[39]. ويشترط ميخائيل باختين في اللغة المشخصة أدبيا أن تكون صادرة عن مقصدية ووعي، ومفكرا فيها من البداية إلى النهاية، ومبنية على معرفة دقيقة بالفروق الاجتماعية واللغوية. وفي حالة العكس، فإن الرواية تغدو مجرد «لعبة لفظية مجردة» ونزعة جمالية. «عندما يشرع استيتيقي في كتابة رواية، لا تظهر استيتقيته أبدا داخل البنية الشكلية، بل في كون تلك الرواية تشخص متكلما هو منتج إيديولوجيا للإستيتيقا، يكشف عن عقيدته موضوعة على المحك داخل الرواية. هذا ما نجده في رواية صورة دوريان جراي لأوسكار وايلد، وفي الأعمال الأولى لتوماس مان ، وهنري دورينييه، وهويسمانس، وباريس، وأندريه جيد»[40].

لقد سبق لنا أن بينا أن الفاعل الذي يتكلم ليس مشخصا وحده، وإنما يكون مقرونا بالفعل والهوى. وما يهم سيميائية الكلام أساسا هو إبراز المقطع التحدثي الذي يسهم في تفريد الفاعل وتمييزه عن بني جنسه. وإن كنا في النقطة السالفة قد أشرنا إلى بعض المتغيرات التي تسم اللغة الفردية، فما يهمنا الآن هو تبيان ما تحتويه من طرائق شكلية لتشخيص كلام الآخر، واستثماره لخدمة أغراض جديدة.

2.4- تشخيص اللغة الفردية أدبيا :

1- فبمجرد انخراط ذات في مسيرة الهدم والبناء، أصبح كلامها خِلْوا من المفاهيم الاشتراكية (التأميم، والمصادرة، وبدعة التمليك..)، ومستقطبا مفاهيم جديدة منسجمة مع سياسة الانفتاح الاقتصادي والسياسي (الملكية، والمنافسة، والمواد الاستهلاكية، والمعلبات المستوردة ..). وإن كانت موظفة في أرشيف صحيفة، فهي لا تتخلص من برامج البث التي تدور عادة حول الأمور الشخصية والتدابير المنزلية. وتحاول فيها أن توظف عبارات الفخفخة والأبهة لبيان مدى تحسن وضعها الاجتماعي والثقافي، وإبراز قدرتها على مواكبة السياسة الجديدة. ولما تعود إلى بيتها تدخل في نزاع محتدم مع زوجها بسبب عدم استجابته لطلباتها الملحة، وتنغمر في حديث مع الخادمات يتعلق غالبا بالاغتياب والمكاشفة والمسارة. وبعد أن أصيبت بإحباط نفسي (دخول زوجها إلى السجن نتيجة تشاجره مع جاره الشنقيطي، وكثرة المصاريف، وارتفاع الأسعار)، عمدت إلى استخدام الخطاب الديني لطرد العفاريت التي أصبحت تقلق راحتها وتقض مضجعها.

يتحدث عبد المجيد على غرار باقي الفواعل بالعامية المصرية متقصدا التلفظ بعبارات من اللغة الإنجليزية لإبراز مدى انتمائه إلى الطبقة المتوسطة والفئة المتعلمة. ويسهم وجوده في تنويع الرواية بمفردات ممتوحة من حقل البنك، وإغناء الفضاء الروائي بالأجناس المتخللة (النكتة، والحكاية، واستدعاء من رئيس النيابة العامة). ومن الفينة إلى أخرى يُؤَسْلِبُ بعض الآيات القرآنية لحث زوجته على ارتداء الحجاب.

وما يميز كلام الشنقيطي هو تمحوره حول تشاكل / الاقتصاد والمال/ انسجاما مع طبيعة العمل الذي يمارسه (مهندس)، ثم تشاكل / العنف/ بحكم حدة مزاجه مع زوجته سميحة. وفي أحد أدواره التحدثية يسترجع باعتزاز تجربته العسكرية في فنادق القناة، ويفخر بخطط المهندسين المصريين التي أفضت إلى تحطيم خط بارليف، ويشيد ببطولات الجندي المصري الذي كاد أن يهزم العدو الإسرائيلي لولا تدخل الأمريكان. ويوظف الشنقيطي، في ملفوظاته، تعابير من اللغة الإنجليزية مازال يتذكرها رغم السنوات السبع التي قضاها في التجنيد. وقد خلفت حرب الاستنزاف آثارها في نفسيته، إذ أصبح مهووسا بمظاهر الاستعرائية وصور الخلاعة. وهذا ما زاد من توتر وقلق سميحة. ويشترك الشنقيطي وعبد المجيد في توجيه اللعنات إلى الاشتراكية وعبد الناصر والعروبة وفلسطين، والشكوى من الأسعار والمدارس والمواصلات، واستعراض سلبيات مشاريع الدواجين وسيارات الأجرة، وتقديم الحلول الناجعة لمسابقات الفوازير.

يستثمر العم محروس خطابات كبار الملاكين معتزا بأيام السادات التي جنى منها ثروات طائلة ، ومتملصا من الضرائب، ومنشغلا بأحوال عمارته، وداعيا المكترين بإصلاح شققهم والعناية بها. ولما ارتفعت سومة الكراء، بدأ يحفزهم على تسليمها مقابل مبالغ مالية . ولم يستجب لندائه إلا الشنقيطي الذي تسلم منه آلافا من الجنيهات قبل أن يرحل إلى شقته بمدينة نصر. وعندما فشلت خطة المالك في إقناع المكترين بمقاصده ومساعيه، بدأ يوظف مناورات بإشعال النيران أمام الأبواب، وتخويف السكان بأصوات عويل ، وقطع التيار الكهربائي.

يمتح شيخ العرب خطابه من الذاكرة للاعتداد ببطولاته وأمجاده. لكن هذا الخطاب المرتد إلى الماضي أصبح عاجزا أمام الخطاب الجديد الذي يبثه جهاز التلفاز. ويسهم تلفظ شيخ العرب في إدخال جنس متخلل إلى الرواية ، وهو عبارة عن حكاية ينقل من خلالها ما اضطلع به من بطولات وأدوار لمواجهة المعمر الإنجليزي. «سنة 46 كنت أعمل في مصنع نسيج في شبرا، وخرجنا في مظاهرة كبيرة حتى باب الحديد، وحملني العمال على أكتافهم. واستمرت المظاهرة حتى ميدان الإسماعلية، التحرير الوقت. وكان عندي صورة وأنا أهتف والرصاص يتطاير حولي لكن المباحث خدتها. وكان صوتي قويا يرن في الميدان بدون ميكروفون...» (ص / ص 121 - 122).

يشغل الدكتور عادل (زوج منال) خطاب المثقف الواعي بالمفارقة الموجودة بين مصر والغرب (الرعاية الاجتماعية في البلاد الاسكندنافية، نفوذ الشركات الدولية العابرة للقارات والمحيطات)، وبالأخطار المحدقة بالإنسان (مضار التصوير التلفزي للأجنة، أخطار المبيدات الكيماوية المستخدمة في مكافحة الآفات الحشرية، الخطر الإسرائيلي، المعلومات الصحيحة عن السيدا). ويدعو إلى فلسفة « الاعتماد على النفس »، ولا يقصد منها شعارا سياسيا ، وإنما يشير إلى طهي الخضراوات في المنزل، وتناول عصائر فريش، وضرورة الاستغناء عن المعلبات والأغذية المحفوظة وحلويات الأطفال.

يدور كلام صفية عباس، جريا على عادة النساء، حول برامج البث المعتادة والرتيبة وتأويلية اليومي (ما يردده الرأي العام، والشائعات، والثرثرة العمومية، والاغتياب)، وتوظف خطابات «أجنبية» معللة تعليلا موضوعيا مزعوما كما لو كانت صادرة عن الرأي العام (على نحو : «إنه شخص طيب والله فيه البركة»)، وتحاكي كلام أمين الاتحاد الاشتراكي ساخرة من موقفه الرافض لتعليق لافتة مكافحة الأمية «يا بنتي .. لو علمناهم القراءة والكتابة فمن يعمل في الحقول والنظافة؟» (ص / ص 119 - 120).

2- يترصع فضاء الرواية بالخطاب الرسمي الطنان. يتناوب على تبليغه الرؤساء والموظفون السامون. وتتحكم فيه مقولتي الظهور والكينونة. فهو يظهر المحاسن والإيجابيات (المنجزات المتحققة، والإرهاص بالمشروعات المستقبلية)، وبالمقابل يخفي النواقص والسلبيات (ما صاحب سياسة الانفتاح من آفات اجتماعية ومصاعب اقتصادية). وعندما نفحص هذا الخطاب نجده يتكون من ملفوظات «أجنبية» مستضمرة لخدمة أغراض محددة. وفي هذا الصدد نمثل بقولتين للرئيس حسني مبارك :

أ ـ «ما تحقق من إنجازات على مستوى السنوات الماضية هو خير مبشر للإنجاز المقبل. وهذه هي الصحوة الكبرى في أبهى صورها وملامحها» (ص 142).

يتضمن كلام الرئيس بناء هجينا. فهو «ينتمي حسب مؤشراته النحوية (التركيبية) والتوليفية إلى متكلم واحد، لكن يمتزج فيه، عمليا، ملفوظان وطريقتان في الكلام، وأسلوبان، و«لغتان»، ومنظوران دلاليان واجتماعيان»[41]. إن الملفوظ الأول (ما..المقبل) هو عبارة عن نتيجة مستخلصة مما جنته مصر من سياسة الانفتاح السياسي والاقتصادي (التوجه الليبرالي). ولا يمكن للرئيس ـ بحكم المسؤولية الملقاة على عاتقه ـ أن يطلق الكلام على عواهنه، وإنما يكون مبنيا على معطيات ملموسة قدمتها له لجان مختصة. وإن لاحظ بعض الهفوات والثغرات، فسيغض الطرف عنها حتى لا يحبط الهمم، وبالتالي يعطي الفرص للمعارضة لتستغلها في المعارك السياسية. أما الملفوظ الثاني (وهذه..وملامحها)، فهو خطاب مستتر يؤشر على تضامن الرئيس مع الرأي العام الذي يطري السياسة المتبعة والمشروعات المتحققة أو المزمع إنجازها. ومن خلاله، نستشف نبرة «ملحمية» مزعومة، هي بمثابة رجع الصدى للتلاحم الذي تحقق بين مكونات الشعب المصري لضمان التقدم والازدهار. ولا تعكس هذه النبرة الواقع بالتمام ، وإنما القصد منها هو تضخيم المنجزات والإعلاء من شأنها وقيمتها لتحميس المناصرين وإفحام المعارضين، وتقديم صورة إيجابية عن مصر على المستوى الدولي.

ب ـ «القنوات الشرعية ميسرة أمام كل مواطن للتعبير عن رأيه، والقانون يحمي كل ممارسة شرعية» (ص 148).

لابد أولا من الإشارة إلى أن خطاب الرئيس يؤطره مقام محدد ، وهو افتتاح مؤتمر الحزب الوطني. ولهذا، فهو عبارة عن «رسالة» موجهة إلى الخصوم لدحض مواقفهم، وإبراز لهم أن القنوات الرسمية ميسرة لأي مواطن للتعبير عن رأيه شريطة احترام القوانين والضوابط المعمول بها. وهذا الملفوظ هو بمثابة رَوْسَمٍ يردده رؤساء دول

العالم الثالث لبيان أن الشعب يعبر عن آرائه بحرية وطلاقة، وتفنيد مواقف المعارضة بدعوى تجاوز الخط الأحمر المرسوم لها. ويدعم الرئيس ملفوظه المسكوك والمقولب بما يصدر عن الحقوقيين ؛ ومفاده أن المواطنين جميعهم ـ أيا كان موقعهم الاجتماعي ـ يمتثلون للقانون لأنه هو الفيصل بين ما هو شرعي وما هو غير شرعي. لكن ما يعاب على المسؤولين في العالم الثالث أنهم يستخدمون القانون لخدمة أغراضهم الخاصة، ويوظفون معجمية «الشرعية» لإطراء ممارسات معينة واستبشاع أخرى. وهكذا يتبين أن كلام السيد الرئيس، وإن كان يبدو متجانسا ومتسقا، هو مكون من ملفوظين متباينين : أحدهما عبارة عن روسم صادر عن الجهات المسؤولة العليا لإبراز مدى حرصهم على دعم حريات التعبير، وثانيهما بمثابة عبارة مسكوكة عن الحقوقيين لإبراز سلطة القانون في حماية من يمتثل له ومعاقبة من يخرقه.

3- وإذا كان بعض المتكلمين يتفقون على المتح من المرجعية الدينية، فهم يختلفون، حسب تكوينهم وخلفياتهم، في توظيف ملفوظاتها داخل المجتمع. ويمكن أن نستدل بالعينات التالية :

أ ـ الشيخ محمد الغزالي في عموده الأسبوعي بعنوان «هذا ديننا» : «الضرب ما يقبل إلا إذا نشزت المرأة واستكبرت على زوجها، واحتقرت رغبته وتركته وكأنه بلا صاحبة» (ص 271).

ب ـ الشيخ متولي الشعراوي : «المرأة اضطرت للخروج إلى العمل لأن الرجولة للأسف أصبحت خائرة » (ص 299).

ج ـ فضيلة شيخ الأزهر: «لا يجوز أن يرى في المرأة إلا وجهها وكفيها» (ص 107).

د ـ الشيخ كشك : «الحملة التي يتعرض لها الرئيس النميري الآن بسبب تطبيق الشريعة الإسلامية تعرض لها من قبل سيد الأنبياء والمرسلين، وتعرض لها جميع دعاة الإصلاح» (ص 33).

هـ ـ الشيخ الشعراوي : «الذين ينامون على صوت موسيقى بيتهوفن لايعرفون الله» (ص 106).

و ـ من التيار الإسلامي إلى شعب مصر : «لايمكن إصلاح أجهزة الإعلام على حالها ومصانع الخمر الحكومية تواصل إنتاجها لأم الخبائث» (ص 312).

مما تقدم نعاين أن ملفوظين يتناصان مع القرآن (أ وج)، ويعيدان إنتاج دلالته بنوع من المماثلة. فالشيخ محمد الغزالي يستند إلى الآية 34 من سورة النساء * ليبرر الضرب

غير المبرح على المرأة العاصية زوجها والمترفعة عليه بالخلاف، وذلك بعد تذكيرهن بما أمرهن الله به، ثم عدم مضاجعتها. ويتخذ فضيلة شيخ الأزهر الآية 59 من سورة الأحزاب دليلا لحض المرآة على ستر زينتها على غير بعلها.**

ونعاين في الملفوظ (ب) أن متولي الشعراوي يتخذ موقفا غير مشيد على أرضية شرعية. فهو من الدعاة الذين يرون في خروج المرأة إلى العمل إهانة للرجل واستخفافا بقيمة الرجولة، ويتغافلون عن الأدوار البطولية التي أبلت فيها المرأة المسلمة بلاء حسنا لدعم الجهاد والدود عن مبادئ الإسلام.

ونجد في الملفوظ (د) إعادة تنشيط بعض رموز المتخيل العربي لتفسير سلوكات سياسية جديدة. فما يتعرض له النميري يقاس بما تعرض له النبي(ص) والمرسلين. فرغم وجود المتغيرات، هناك ثابت يتعالى عن الزمكان، ويتمثل في وجود مصلح يتعرض للمضايقة والإهانة بسبب الذّبِّ عن الدين الإسلامي وتطبيقه.

ويتضمن ملفوظ الشيخ الشعراوي (هـ) مواجهة بين المقدس (المرجعية الدينية) وبين المدنس (ماهو خارج عن الدين)، ويستضمر سخرية من الذين يستمتعون بالموسيقى الغربية. وإن كان الشعراوي معروفا بمكانته الدينية، فهو لا يبني ملفوظه على أي سند شرعي يحرم الاستماع إلى الطراز الموسيقي الذي نهجه بيتهوفن.

ويشمل الملفوظ الأخير(و) هجنة لغوية مازجة بين لغتين مفصولتين زمنيا: لغة صادرة عن التيار الإسلامي الذي يسعى إلى إصلاح بعض مظاهر الخلل في المجتمع ولغة مقتبسة من الحديث النبوي تحض على اجتناب الخمر بوصفها أم الخبائث***.

4- لم يترك الخطاب الرسمي إلا حيزا ضئيلا لخطاب المعارضة. ولا يشكل هذا الخطاب وحدة متجانسة في توجهاته وإيديولوجيته، بحكم تباين المرجعيات والخلفيات المتحكمة فيه. ونورد فيما يلي عينات منه :

- جريدة الأهالي : «عبدالهادي قنديل وزير البترول يملك جزيرة في اليونان وثروته تجاوزت 200 مليون دولار» (ص 200).

---

* ﴿ واللاتي تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن في المضاجع واضربوهن فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا. إن الله كان عليا كبيرا﴾

** ﴿ يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين وكان الله غفوراً رحيماً﴾

*** وقال النبي (ﷺ) : «اجتنبوا الخمر فإنها أم الخبائث».

ـ نقابة المحامين : « عمليات الاختطاف واحتجاز الرهائن التي تقوم بها وزارة الداخلية شملت 400 شخصا بينهم شيوخ وسيدات» (ص 311).

ـ إبراهيم نافع رئيس الأهرام : «لسنا نطالب من الولايات المتحدة الأمريكية أكثر من أن تسمح لنا بالاقتراض من جديد بسعر فائدة منخفض لنسدد الدين ذي الفائدة العالية ونستثمر بعد ذلك في سداد الدين الجديد» (ص 304).

ـ جريدة معارضة : «اللحوم المجمدة الفاسدة بمعرفة جهاز سيادى ورفضت أجهزة الإشراف الصحي التصريح بدخولها ، لكن مسؤولا كبيرا ضغط على وزير التموين حتى ألغى المنع بحجة تلافي الخسائر الناجمة عن إعدامها») (ص 222).

ما يجمع بين هذه الملفوظات المتناثرة هو بيان الهوة الموجودة بين الخطاب الرسمي وبين الواقع (الشطط في استعمال السلطة)، وإبراز ما صاحب سياسة الانفتاح من آفات وفوارق اجتماعية (تهريب الأموال إلى خارج مصر، كاهل الديون بالفائدة العالية، كسب ثروات على حساب الشعب)، ولفت انتباه المسؤولين إلى بعض الظواهر المستفحلة التي تتطلب حلولا عاجلة. واللافت للنظر في خطاب المعارضة أنه غالبا ما يقدم نفسه كلغة اجتماعية معبرة عن مصلحة ورؤية فئة سيميا ـ اجتماعية محددة (الحزب ، النقابة..). وحتى في الحالة التي يتشخص فيها كلغة فردية، فهو يتقدم كما لو كان موقفا جماعيا أو مستمدا شرعيته من جماعة لها امتداد جماهيري أو معبرة عن مصالح فئات من المجتمع. وهذا هو حال رئيس الأهرام بالذات، فهو ـ بحكم المسؤولية الملقاة على كاهله ـ لا يتحدث فقط كناطق رسمي بلسان جهة معينة فوضت له أمر التحدث باسمها ، وإنما يتقمص صوتا جماعيا باستخدام نون الجماعة (الشعب المصري) لمطالبة الولايات المتحدة الأمريكية بتخفيض سعر فائدة الدين. وبما أنه مطلب جماعي مشروع، فكل مواطن سيدعمه ويؤيده، ويجد فيه وجوده وكينونته.

بالإضافة إلى ما سبق، تحفل الرواية بالآيات القرآنية، والإعلانات، والشعارات، واللغات الموجهة المعتادة (الثرثرة، أساليب المجاملة، تعابير الخدم). وما يميز هذا الكلام (الأسلوب السطري) عن سابقه (الأسلوب التشكيلي)، هو أنه يتأطر داخل مزدوجات حرصا على نقله بأمانة. ولما يحذف المتكلم المزدوجات ، فهو ـ وإن كان يوهمنا بأن كل ما يتلفظ به يدخل في نطاق حوزته وملكيته ـ يوظف كلام الآخرين بوفرة، ويذوبه في تلافيف خطابه. «ويحاول السياق السردي جاهدا حل بنية الخطاب المروي الصلبة والمغلقة؛ والقضاء على هذا الخطاب ومحو حدوده»[42]. وهكذا لما نفحص مثل هذا الكلام نجده عبارة عن طبقات لغوية مورَّقة مستقدمة من مصادر مختلفة ومتباينة. لكن الفضل يرجع إلى ما يتحلى به المتكلم من كفاية لغوية وتواصلية

لتذويبها، والتصرف فيها، وإخضاعها للاتساق التركيبي والانسجام الدلالي لخدمة أغراضه ومآربه الشخصية.

وبعد أن قدمنا صورة عن كيفية انتظام اللغات الفردية في الرواية، وعن طرائقها الشكلية في تشخيص كلام الآخر، نخلص إلى الملاحظات التالية :

1- إن توظيف الفواعل للعامية المصرية وأقوال الرأي العام وصيغ من اللغة الإنجليزية ترتبت عليه الهجنة اللغوية. ولا يخلو كلام الناظم الخارجي منها، إذ تتخلله من الفينة إلى الأخرى مفردات وتعابير باللغة الإنجليزية. «إن التهجين القصدي الموجه نحو الفن الأدبي هو إحدى الطرائق الأساسية لبناء صورة اللغة ويجب أن ندقق بأنه في حالة تهجين فإن اللغة التي تضيء (عادة تكون نسقا من اللغة الأدبية المعاصرة) تتخذ طابعا موضوعيا إلى حد ما، لتصبح صورة. وكلما طبقت طريقة التهجين في الرواية بطريقة واسعة وعميقة (من خلال عدة لغات وليس لغة واحدة) كلما اتخذت اللغة المشخصة والمضيئة طابعا موضوعيا، لتتحول في النهاية إلى إحدى صور لغة الرواية»[43]. وفي هذا الصدد ينبغي الإشارة إلى الحقيقتين التاليتين :

أ ـ إن التهجين القصدي (بخلاف الهجنة التاريخية التي تلازم صيرورة اللغات وتطورها) يستلزم الوعي بلغة من جانب لغة أخرى، ومزج ملفوظين (صوتين أو نبرتين) مفصولين بحقبة زمنية وبفارق اجتماعي في ملفوظ واحد.

ب ـ إن الإضاءة المتبادلة بين الملفوظين (المُشخِّص والمُشخَّص) لا تعني وجود لغة واحدة محينة ومتراصة (على نحو الأسلبة)، بل هي لغة مقدمة في ضوء لغة أخرى، وتشخيص وعيين لسانيين مفردين. وتظل اللغة المُشخَّصة خارج الملفوظ محافظة على أصالتها وكينونتها.

2- إن المواقع الدلالية والتركيبية التي يشغلها الفاعل تحتم عليه أن ينقل كلام الآخر بطريقة معينة. وأي طريقة تشخيصية يتبناها إلا وتلعب دورا تداوليا يحدد مقصديته، ويبين التأثير المراد تركه في ذهن المتلقي. إن تكرير صفية عباس لكلام أمين الاتحاد الاشتراكي بنبرة ومقصدية مختلفتين وبطريقة ساخرة، توخت منه بناء موقف سياسي (مدى تصرف المسؤولين في بعض القضايا الحيوية)، ودعوة شخصية ذات إلى مشاركتها اعتقادها. كما أن أسلبة الرئيس حسني مبارك لأقوال الرأي العام يستهدف منه مخاطبة الناس على قدر أفهامهم، واستثمار ما يتداولونه لبناء مواقف سياسية على أنقاضه؛ وذلك على نحو تكون فيه متماشية مع السياسة العامة للدولة. وفي هذه الأسلبة يتحدث المُؤسلِب بصوت جماعي وبنبرة ملحمية لتجسيد التلاحم الموجود بينه وبين

الشعب. ويسعى التيار الإسلامي، من اقتباس الحديث النبوي في خطابه، إلى إعطاء الشرعية له وبيان مدى استناده إلى قاعدة إسلامية، وإثارة مخيلة المتلقي وتغيير معتقداته.

فمن خلال هذه الأمثلة يتبين أن مقتضيات الأحوال تحتم على الفاعل المتكلم استخدام طريقة تشخيصية معينة لبناء صورة اللغة (الأسلبة، والتنويع، والمحاكاة الساخرة، والحوارات الخالصة)، والاضطلاع بدور تداولي محدد، والتأثير في المتلقي. كما «تبرز أن الممارسة التلفظية تحتوي فعلا مجموع العمليات التي تكون فيها النصوص والأشكال والحوافز ـ بالجملة الكينونات السيميائية ـ مستحضرة، منتقاة، محولة، مبتكرة، معادا ابتكارها من طرف أي تلفظ خاص» [44]. وهذا ما يستدعي من الروائي دراية عميقة بالفروق اللغوية الدقيقة ومعرفة بقضايا التعدد اللغوي. « إن الرواية لا تعفي مطلقا من ضرورة الحصول على معرفة عميقة ودقيقة باللغة الأدبية. بل إنها تستلزم فضلا عن ذلك، معرفة لغات التعدد اللساني. إن الرواية توسيع وتعميق للأفق اللساني، إنها تنقي وتشحذ إدراكنا للفروقات الاجتماعية ـ اللسانية»[45].

3- إن استحضار المتكلم لكلام الآخر في خطابه يحيل إلى ظاهرة التناص (الحوارية)، ويسهم في إثراء الرواية بالتعدد اللغوي وما يستتبعه من تعدد الأصوات واللغات الاجتماعية. وبما أن التحليل اللساني الاجتماعي في العالم العربي لم يستخلص بعد الوضعية الاجتماعية ـ اللغوية السائدة في فترة تاريخية محددة، والتي يمكن للنقاد أن يعتمدوا عليها لبيان كيف تعاملت الرواية مع المجتمع على الصعيد اللغوي (ما يسميه زيما بالتناص الخارجي)؛ فإنه بإمكان الرواية أن تسد هذه الثغرة مؤقتا بما يمتاز به معمارها من قدرة على تشخيص اللغات وامتصاصها رغم ما تعترضه من مصاعب في تمييز الفروق الصوتية والصِّواتية وتدقيقها.

1.5- اللغة الاجتماعية (الخطاب) :

1.1.5- التعريف باللغة الاجتماعية :

ينهل الفاعل لغته الفردية من دليل جماعي (اللغة الاجتماعية) متميز بسماته الصوتية وخصوصياته الثقافية والإيديولوجية، ويتضمن كلامه العينات الإيديولوجية (idéologèmes) للفئة السيميا ـ اجتماعية التي ينتمي إليها، وتحدد موقفه من الوجود. «فكل فئة لها معجمياتها ومتاعها اللغوي المشترك، باستثناء المفردات القاعدية المشتركة بين الفئات والمجموعات اللغوية كلها. ويمكن لفرد واحد أن ينتمي إلى عدة فئات سيميائية، ويضطلع بعدة أدوار سيميا ـ اجتماعية بحسب الفئات التي ينتسب إليها» [46].

استمد بيير زيما P.Zima مفهوم اللغة الاجتماعية من الحقل السيميائي[47] مضفيا عليه الطابع الاجتماعي، ومستبدلا به مفاهيم ما قبل ـ سيمائية (على نحو الرؤية للعالم، والإيديولوجيا..) لدعم المحايثة النصية والدفاع عن أطروحة مفادها أن البنيات الاجتماعية ملازمة للنص الأدبي، وأن العلاقة بين الاجتماعي والأدبي تتشخص على المستوى اللغوي (التناص). ويعتبر بيير زيما الإيديولوجية بنية خطابية (لغة اجتماعية) يتحكم فيها مفهوم الملاءمة (بربيتو L.J.Prieto) في اختيار الألفاظ والمعجميات الدالة وتنظيمها وترتيبها وفق فعل تصنيفي موزع على تشاكلات دلالية. وعليه تتحدد اللغة الاجتماعية بوصفها «دليلا معجميا مُشفرًا، أو بعبارة أخرى مبنيا حسب قوانين ملاءمة اجتماعية خاصة» [48]. وفي هذا الصدد يتفهم زيما جيدا الخلفية التي تحكمت في «اعتبار ميخائيل باختين M.Bakhtine وفولوشينوف Volochinov المجتمع مشهدا للمنافسات والنزاعات البلاغية على المستوى اللغوي. فكل شفرة أو لغة اجتماعية لا سيما في المجتمع الحديث وفي المجتمع المتعدد الأصوات إلا وتحيل ضمنيا أو ظاهريا إلى الشفرات واللغات الاجتماعية المتنافسة ، إن لم نقل المتعادية فيما بينها»[49]. ولا يمكن أن تتحدد معالم اللغات الاجتماعية (الليبرالية، والإنسانية، والاشتراكية..) في منأى عن التخطيات التي تتخذ أشكالا متباينة. ولهذا يرى زيما أن «إمكان تشييد خطابات مختلفة جدا، انطلاقا من شفرات ودلائل معجمية منسجمة نسبيا، يحتمل أن تتعارض في نقاط معينة» [50]. فما زالت النقاشات «الداخلية» بين الكاثوليك والاشتركيين والليبراليين والماركسيين مثار جدال، وتبين أن الانسجام النسبي للغة الاجتماعية (مفرداتها وشفراتها) لا تلغي الخلافات الخطابية» [51].

مما سلف يمكن أن نثبت الملاحظات التالية :

أ ـ تتحدد اللغة الاجتماعية بواسطة العناصر التالية : الدليل المعجمي، والشفرة (الملاءمة والتصنيف)، والتخطيب (التجلي التجريبي للغة الاجتماعية).

ب ـ إن تشخيص اللغات الاجتماعية للمصالح والتناقضات الاجتماعية يستتبع تعريف الإيديولوجية بوصفها بنية خطابية.

ج ـ تتحدد اللغة الفردية بوصفها أداء شخصيا، أما اللغة الاجتماعية فتتجسد بكونها جماعا من الخصائص التي يشترك فيها أفراد فئة سيميا ـ اجتماعية محددة وموقفا جماعيا من الوجود. وأحيانا لا يلعب الانتماء الاجتماعي والطبقي أي دور في إكساب الفرد سمات وبنيات لغة اجتماعية ما. فبلزاك ـ على سبيل المثال ـ كان ينتمي إلى الطبقة الأرستقراطية، في حين كان ـ في رواياته ـ متضامنا مع اللغة الاجتماعية للطبقة

العمالية. وتنطبق الملاحظة نفسها على الكونت تولستوي الذي يوجهه الفلاح الخفي حين يتخيل عالما روائيا. وهذا ما حذا بجورج لوكاش أن يعتبره «أديبا فلاحا»[52].

2.1.5- أصناف اللغات الاجتماعية (الخطابات) :

أ- الخطاب الليبرالي :

بمجرد أن تبنت مصر، إبان حكم السادات، سياسة الانفتاح الاقتصادي والسياسي، نهضت بإحداث قطيعة مع الاشتراكية الناصرية، وتعزيز العلاقة مع الولايات المتحدة الأمريكية، وحفز الجماهير بوسائل متنوعة على الانخراط في مسيرة الهدم والبناء. وقد استتبعت هذه المرحلة من تاريخ مصر لغة اجتماعية جديدة مراهنة على إحلال الاقتصاد الحر محل الاقتصاد الموجه، وتشجيع المستثمرين لتنشيط الدورة الاقتصادية بتوظيف رؤوس أموالهم وإقامة المشروعات المنتجة والمربحة. وتوطدت هذه اللغة بواسطة وسائل الإعلام التي لعبت دورا أساسيا في التعريف بمنجزات وإيجابيات المرحلة الجديدة، وإبراز مواقف المستثمرين والنشطاء والفاعلين الاقتصاديين. ويستقطب الخطاب الليبرالي المعجميات التالية: السوق، والسوق السوداء، ورؤوس الأموال، والاستثمار، والربح، والقطاع الخاص، القروض الأمريكية، والشركات، والأبناك.

ب- خطاب الجماعات الدينية :

بما أن الرواية تشخص فئات وشرائح المجتمع المصري، فلا مناص من استخدام مختلف الفواعل معجميات وتعابير مستمدة من الدين والثقافية الإسلاميين. لكن توجد فواعل جمعية (جماعة الجهاد، جماعة الإخوان المسلمين..) تستثمر الدين لأهداف سياسية؛ فهي، إلى جانب أنها تدعو إلى الجهاد والاقتداء بالسلف الصالح، تحث على تكوين شركات لتوظيف رؤوس الأموال، وإنشاء المصاريف الإسلامية بدون الربا، وبناء بنك التقوى بجزر البهاما، وتسيير دواليب الحكم. ويعتمد هذا الخطاب على الوسائل الحديثة (البنك، ورؤوس الأموال، والجمعيات) للدفاع عن محتويات تقليدية، وبيان مدى فعالية النموذج الإسلامي في مواجهة تحديات العصر، ويراهن على فرز نخب جديدة قادرة على تدبير شؤون الرعية، وحريصة على الذب عن الدين الإسلامي وصيانته من الشوائب والبدع، واقتفاء أثر الرموز التقليدية التي لعبت دورا رياديا في إرساء دعائم الدعوة الإسلامية. وبما أن الجماعات الإسلامية ـ على النحو الذي شخصته الرواية ـ لا تؤمن «بالصيغ السياسية» التوافقية لترسيخ ثقافة السلم الاجتماعي، فهي تحض على الجهاد لتقويض دعائم النظام القائم. ويتكون خطابها عموما من المعجميات التالية : الحجاب، والتقوى، دولة الإسلام، رؤوس الأموال، المصاريف

الإسلامية، المشاركة في الأرباح، الخلافة، أموال المودعين، والكفاية «أن يكفل الحاكم لرعاياه العمل والسكن والزوجة والخادم والركوبة» ص 140. وهكذا يتضح من خلال هذا المعجم أن الجماعات الإسلامية لا تكتفي فقط بالجانب الأخلاقي (الوعظ والإرشاد)، وإنما تسعى إلى تدبير شؤون الدولة والمجتمع بالمنظور الإسلامي، وتحمل المذاهب الوضعية تأزم الوضع الاقتصادي واستفحال المشاكل الاجتماعية، وتطرح نفسها بديلا لإصلاح المجتمع وبعث القيم التقليدية من مرقدها.

ج ـ خطاب الفئات المتوسطة :

أجبرت سياسة الانفتاح بعض الفئات الاجتماعية على التخلي عن المذهب الناصري، وبذل قصارى جهودها للحاق بمسيرة الهدم والبناء. وبالمقابل، استجابت فئات أخرى طواعية للتوجه الذي تلقته من الدولة بواسطة جهاز البث المركزي. وبناء على هذا التحول الاجتماعي، أصبح هم الفئات المتوسطة هو ضمان مقعد مريح في المسيرة للتغلب على المشاكل الاجتماعية ذات الأولوية (السكن، والمواصلات، وتربية الأبناء وتعليمهم)، ثم الاستمتاع بالكماليات وضروب الرفاهية التي لم تكن متوفرة ومتاحة في المرحلة الناصرية (سيارة فارهة، وامتلاك شقة، ثم تأثيثها بالأثاث الفاخر). كما أصبح خطابها متمحورا حول المال باعتباره قيمة للتبادل ووسيطا لتحقيق البرامج الحكائية الخاصة (ما تقتضيه المسيرة) والترقي الاجتماعي، ومصدرا لتعميق التناقضات الاجتماعية وتوتر العلاقات العائلية. ونظرا للموقع الذي تشغله الفئات المتوسطة داخل المجتمع المصري، فهي تبدو متذمرة من الوضع السياسي والاجتماعي وغاضة الطرف عن التنظيمات الاجتماعية، ومنشغلة فقط بالبحث عن السبل المفضية إلى المال والانغماس في برامج البث المعتادة (الشائعات، الطرائق، الفوازير، الاغتياب) أو ما يسميه الناظم الخارجي «بأمراض البث التي استفحلت بشكل ملموس في السنوات الأخيرة (وفي مقدمتها اعوجاج اللسان)». ومن بين المعجميات التي تتردد في خطاب هذه الفئات نجد في مقدمتها : المال ومستتبعاته (العلاوات، المكافآت، الإدخار، التهريب)، والسرمكة ، والكمشة (مرحاض حديث)، والكندشة (جهاز تكييف)، والشركاء. وهكذا يتبين من خلال هذا المعجم أن الفئات المتوسطة منشغلة بالمظاهر الخارجية الباعثة على الفخفخة والأبهة ، والتي بإمكانها أن تعكس موقعها الاجتماعي المفترض، وتظهر قدرتها على مواكبة مسيرة الهدم والبناء.

د ـ خطاب المعارضة :

يظهر هذا الخطاب كجزر متناثرة حافة بالخطاب الرسمي الطنان والمدجج بوسائل مختلفة (خطب، وصحف، وتقارير، وندوات صحفية). في حين لا توظف المعارضة

إلا الصحافة لانتقاد بعض سلبيات المرحلة الجديدة. وهي لا تقدم أي بديل عن التوجه الليبرالي المعمول به، وإنما تكتفي بالكشف عما رافقه من مظاهر وعيوب؛ وذلك على نحو تهريب الأموال إلى الخارج، وتفاقم الفوارق الاجتماعية، وتبذير المال العام، واستفحال الأمراض الاجتماعية (الدعارة، فساد المواد الغذائية المستوردة، تفشي برامج البث في مقرات العمل والأماكن العمومية)، وانحراف بعض المسؤولين عن أداء واجبهم المهني بأمانة وإخلاص. ويستقطب خطاب المعارضة المعجميات التالية : التهريب، اللحوم الجامدة الفاسدة، جراثيم في مياه الشرب، الالتهاب الكبدي الوبائي، دواجن غير صالحة للاستهلاك، سموم فطرية. ومن خلال هذا المعجم يتضح أن خطاب المعارضة يترصد الآفات التي صاحبت سياسة الانفتاح، ويدعو إلى معالجتها حتى تَسْتَنْدَ الأمور التي تهم المواطن المصري عن كثب.

1.6- ماهية الدور التحدثي :

سبق لنا أن قدمنا دراسة نسقية للوحدات الكلامية، ثم أبرزنا ما تتميز به بعضها من تمظهرات معجمية وتجليات خطابية، ثم بينا مدى امتثالها خطابيا (روائيا) لخطاطات تلفظية مقننة. وخلال ذلك، ألمعنا إلى الأدوار التحدثية التي تتحكم في كل وحدة كلامية على حدة. ويؤدي الفاعل أدوارا تحدثية منسجمة مع منزلته الاجتماعية (العمر،الجنس، الموقع العائلي والاجتماعي والسياسي)، ومتماشية مع ما يضطلع به من أدوار موضوعاتية. وتحتم عليه كل وضعية اجتماعية أن يوجه ملفوظاته اجتماعيا حتى يتفوق في إيصال مقاصده ومراميه إلى المتلقي. وتظهر الأدوار التحدثية صراحة أثناء المقاطع الحوارية. ويتحدد الدور بفضل «مجموع المواقف والسلوكات والتجليات اللغوية» [53]. ويمكن أن «يوصف ويحدد بمجموع تَنَظُّرات (attentes) الفئة الاجتماعية التي تهم سلوك الفاعل، وينبغي لهذه التنظرات أن تكون مشبعة بالسلوكات الشعائرية المطابقة للمواضعات الاجتماعية السائدة»[54]. إن الوضعية الاجتماعية التي يوجد فيها الفاعل تحتم عليه دورا تحدثيا محددا ليؤدي مهمته على وجه المطلوب. فلما يكون في قفص الاتهام، فإن الأمر يقتضي منه أن يكون مقنعا بحججه وبراهينه لاستبعاد التهمة الموجهة إليه. ويمكن أن يكون آمرا لتنفيذ تعليماته وتوجيهاته، إذا كانت له سلطة على مرؤوسيه. وتجبره وضعية موت أحد الجيران أو الأقارب على أداء دور المعزي للتعبير عن مشاعره إزاء الرزية. ويستوجب كل دور تحدثي تشغيل ما يلائمه من تعابير وسلوكات لغوية، والامتثال للمواضعات الاجتماعية المعمول بها. وكل فاعل يتصرف ويتحكم فيها بحسب ما يتمتع به من «فن المخاطبة». ويحدد إميل دوركهايم E.Durkheim هذا الفن بوصفه طرائق مطابقة لغايات خاصة. «وهي تكون

إما نتاج تجربة تقليدية ملقنة بالتربية وإما نتاج التجربة الشخصية للفرد»[55].

ولقد سبق أن أشرنا إلى أن كريماص حدد منزلة الصياد تبعا لإمكانات الفعل التي تقترن بها بوصفها دورا موضوعاتيا متميزا بمساره الصوري. وأضفنا إلى هذا التحديد الإمكانات اللغوية المفترضة (الكلام النمطي) التي تميز هذا الدور الموضوعاتي عن آخر. وفي السياق نفسه ، يمكن للصياد أن يؤدي أدوارا تحدثية تمليها عليه مقتضيات الأحوال والظروف (معتذر، متعاقد، ثرثار، ناصح، مرشد، طالب، مستفهم..).

2.6- عينات من الأدوار التحدثية :

لما نعود إلى الحوار الذي دار بين ذات وزوجها حول توفير المال الضروري للحاق بمسيرة الهدم والبناء (ص 102)، نجدهما يتناوبان على أداء دور المتكلم للتعبير عن مواقفهما وانفعالاتهما. وما يهمنا منه، هو أن ذات تضطلع بدور تحدثي لإقناع زوجها بتغيير معتقداته، وحفزه على مشاركتها اعتقادها. وهو البحث عن أي مخرج لتلبية حاجاتها وطلباتها، وجمع المال ولو باللجوء إلى الطرق غير المشروعة (السرقة). وهكذا تتقمص ذات دور المقنع لتطويع عبد المجيد واستحثاثه على الانشغال بالبحث عن المال. في حين نجد الزوج يتأرجح بين دورين متناقضين : فهو، في قرارة نفسه، مقتنع بتوفير المال في الحياة وبأهميته للترقي الاجتماعي، وهذا ما حفزه على البحث عن عقدة عمل بالخليج، لكن باءت كل محاولاته بالفشل. فأظهر لزوجته أنه غير مقتنع بالحجج التي قدمتها له. وما يجمع بين الزوجين في حوارهما المقتضب هو موضوع : **الإقناع والاقتناع**.

ونعيد كتابة هذه الأدوار في الصيغ التالية :

الموضوع : الإقناع والاقتناع.

دور تحدثي 1 : المقنعة

دور تحدثي 2 : المقتنع (الطرق المشروعة).

دور تحدثي 3 : غير المقتنع (الطرق غير المشروعة).

ونعاين في الحوار الذي دار بين صفية وذات (ص 120) دورين تحدثيين متشابكين : أحدهما تنهض به ذات للشكوى من تصرفات وسلوك عبد المجيد، وثانيهما تقوم به صفية لإقناع محاورتها بالعدول عن مواقفها إزاء زوجها لما له من إيجابيات ومزايا. وما يبين أنها أدركت هدفها، هو وقوع ذات في تناقض : «إما أسيبه أو أحبل منه تاني» (ص 120). ويتأطر هذا الحوار في شقين : في الشق الأول، نجد

الأدوار التحدثية التالية : الموضوع (الشكوى)، الدور التحدثي 1 / المشتكية (ذات)، الدور التحدثي 2 / المشتكى منه (عبدالمجيد)، الدور التحدثي3 / المشتكى له (صفية). ويتكون الشق الثاني من الأدوار التحدثية التالية : الموضوع (الإقناع)، الدور التحدثي1 / المقنعة (صفية)، الدور التحدثي2 / المقتنعة (ذات).

وفي الحوار الثلاثي الذي دار بين الحاج قرشي والشنقيطي وعبد المجيد حول تسلم سلف من البنك، يؤدي الفاعلان الأولان دور المقنع لإجبار عبد المجيد على قبول تقديم قرض للحاج قرشي مقابل أجر يتقاسمه مع معاون أو يتسلمه كله. وما حتم على عبد المجيد إبداء اقتناعه بالفكرة، هو وجوده بمنزل الحاج قرشي. لكن لما ذهب إلى عمله، وفكر في الأمر مليا، انتابه الخوف، فاستغفر الله وقرَّر أن يصلي تكفيرا عما كان يخطط له من تدليس. وهكذا نجد أن هذا الحوار تتجاذبه حالتان : ففي غضون الحوار (الحالة الأولى)، تشخصت الأدوار التحدثية كما يلي : الموضوع (الإقناع)، الدور التحدثي 1 / المقنع (الحاج قرشي والشنقيطي)، الدور التحدثي2 / المقتنع (عبد المجيد). لكن عبد المجيد أصبح ـ بعد الحوار (الحالة الثانية) ـ يؤدي دورا تحدثيا آخر (غير مقتنع) يؤشر على فشل الخطة المدبرة من طرف الحاج قرشي والشنقيطي.

وفي الحوار الذي دار بين ذات والخادم أم وحيد نعاين أن الأولى تحفز الثانية على مكاشفتها ببرامج البث الخاصة المتعلقة بحياتها وأحوال أقربائها (ص ـ ص 334 / 335). ويتكون هذا الحوار من الأدوار التحدثية التالية : الموضوع (البث)، الدور التحدثي1 الباث (أم وحيد)، الدور التحدثي 2 / المبثوث لها (ذات).

خاتمة :

توقفت سيميائية العمل عند دورين جوهريين، وهما الدور العاملي والدور الموضوعاتي، ثم أضافت سيميائية الأهواء إليهما الدور الانفعالي. وتقوم سيميائية الكلام على دور رابع، وهو الدور التحدثي. ولا يظهر هذا الدور، على غرار الدور الانفعالي، إلا من خلال توحيد عناصر المكونات الدلالية والتركيبية على المستوى الخطابي. وإثر ذلك يتشخص باعتباره مقاطع تحدثية تميز فواعل الخطاب، وتبين موقفها من الوجود، وتكشف عن قدراتها اللغوية. إن الدور الذي يضطلع به الفاعل في وضعية اجتماعية ما، هو الذي يستلزم مقطعا تحدثيا مناسبا ومتميزا بخصائصه النطقية، وملاءمته الجماعية، ونزوعه الإيديولوجي، وطرائقه التشخيصية، ووظيفته التداولية.

ويتطلب المقطع التحدثي من مستخدمه التجربة والدربة ليُؤدى في حينه بنجاعة، ويحافظ على الوظيفة المتوخاة منه. ف «متى أتى الإنسان بالكلام في وقته أنجحت

طلبته، وعظمت في الصواب منزلته»[56]. وإن أخرنا تبيان بعض تجليات الدور التحدثي في رواية **ذات**، فهو يشكل عصب الفصل كله. فاضطلاع الفاعل بدور ما، يفرض عليه تشغيل ما يلائمه من النمط الكلامي، والكلام الفردي، واللغة الجماعية، والثنائية الصوتية، والعينات الدلالية والإيديولوجية. كما يتطلب منه مراعاة المواضعات الاجتماعية، ومداراة الناس على طبقاتهم، وإعطاء لكل صنف من القول ما يرضيه. ولا تتحدد صورة الفاعل بمنزلته الاجتماعية وهندامه فقط، وإنما أيضا بسلوكه اللغوي (الدور التحدثي). ويلعب هذا السلوك دورا أساسيا في تعزيز العلاقات البشرية أو تكدير صفوتها، ويحدد صورة صاحبه ومكانته في المجتمع، ويكشف عن أغراضه وقدراته اللغوية والتواصلية.

وقد يلتبس الدور التحدثي بالدور الموضوعاتي في حالات محددة. وهذا ما يقتضي رفع اللبس بوضع حد بينهما. فالواعظ ـ مثلا ـ هو جماع من الموضوعات المتفرقة في الخطاب التي تحيل إلى صورته ودوره داخل المجتمع (الدور الموضوعاتي). وهو ـ في الوقت نفسه ـ مجموع المقاطع التحدثية التي تميزه عن واعظ آخر أو خلال فترات متفاوتة (الدور التحدثي). وأحيانا يكون الدور الموضوعاتي متماهيا مع الدور التحدثي (حالة الخطيب، والشاعر، والكاتب..) أو جزءا منه (استخدام المدرس حجج وأدلة لإقناع تلامذته على العدول عن سلوك ما). لكن ما يميز الدور التحدثي عموما هو أنه مقصور على الحالة التي يكون عليها الكلام في وضعية اجتماعية معينة. وهكذا لا تهتم سيميائية الكلام بالمسار الموضوعاتي للفاعل (ما يُختزل ويُكثف في دوره)، بل بمقاطعه التحدثية (مناوراته التلفظية في إيصال مقصديته).

****

الهوامش :

1- فلاديمير بروب، مورفولوجية الخرافة، ترجمة إبراهيم الخطيب، الشركة المغربية للناشرين المتحدين، ط1، 6891، ص 43.

2- المرجع نفسه ص/ص83/86.

3- Greimas (A.J), Sémantique structurale, Larousse, 1966, p176.

4- ibid..

5- ibid, p180.

6- Greimas(A.J), «Les actants, les acteurs et les figures» in Du sensII Essais sémiotiques, Seuil, 1983, p 49.

7- ibid.

8- Ibid p 51.

9- Greimas (A.J), «Les acquis et les projets» in Courtés (J) Sémiotique narrative et discursive, Hachette, 1976, p/p15/20.

10- Greimas (A.J), «Les actants, les acteurs et les figures», op.cit, p54.

11- Greimas (A.J) et Fontanille (J), Sémiotique des passions, Seuil , 1991, p176.

12- Ibid p65.

13- Ibid p 66.

14- ميخائيل باختين، الخطاب الروائي، ترجمة محمد برادة، دار الآمان،ط2، 1987،ص/ص 90/91.

15- Gillian Lane-Mercier, La parole romanesque, Klincksieck,1989, p278.

16- Zima(P),Manuel de sociocritique, Picard, 1985,p134.

17- Greimas(A.J), «Les acquis et les projets», op. cit, p24.

18- Greimas(A.J), Courtés(J), Sémiotique Dictionnaire raisonné de la théorie du langage, Hachette. 1979, p/p 271/272.

19- Groupe d'entrevenes, Analyse sémiotique des textes, Toubkal, 1987, p/p 34/36.

20- Greimas (A.J), Du sens II,1983, seuil,p64.

21- Greimas(A.J), Courtés(J), Sémiotique Dictionnaire raisonné de la théorie du langage, op.cit, p7.

22- Greimas (A.J), Du sens II, op.cit, p64.

23- Ibid p 64.

24- Ibid p 64.

25- Hamon (PH), Le personnage du roman . Le système des personnages dans les Rougon-Macquart d'Emile Zola, Libraire Droz S.A, Genève, 1983, p92.

26- Zima (P), Manuel de sociocritique, op.cit ,p90.

27- Gillian Lane-Mercier, La parole romanesque, op.cit p279.

28- ميخائيل باختين، الخطاب الروائي، ترجمة محمد برادة ، م.سا ،ص75.

29- Gillian Lane-Mercier , La parole romanesque, op.cit p 250.

30- ميخائيل باختين ، الخطاب الروائي ، ترجمة محمد برادة ، م.سا، ص75.

31- Hamon (PH), «Pour un statut sémiotique du personnage», in Poétique du récit, Seuil ,1977, p122.

32- عبدالله العروي، «الأفق الروائي»، الكرمل، ع 11، 1984، ص177.

33- المرجع نفسه ص 177.

34- Gillian Lane-Mercier , La parole romanesque, op.cit p163.

35- Ibid p166.

36- Ibid p169.

37- ميخائيل باختين، الخطاب الروائي، م.سا ، ص 90.

38- المرجع نفسه ص 93.

39- المرجع نفسه ص 90.

40- الصفحة نفسها من المرجع نفسه.

41- المرجع نفسه ص 66.

42- ميخائيل باختين، الماركسية وفلسفة اللغة، ترجمة محمد البكري، دار توبقال،ط1، 1986،ص 162.

43- ميخائيل باخنين،الخطاب الروائي، م.سا، ص 110.

44- Fontanille(J) ,Sémiotique et littérature Essai de méthode ,PUF,1999,131.

45- ميخائيل باختين، الخطاب الروائي، م.سا، ص 113.

46- Greimas(A.J), Sémiotique et science sociale ,Seuil ,1976,p154.

47- أعطى كريماص(1976، ص 55/53) دورا وظيفيا للغة الاجتماعية، إذ جعله مطابقا للغات المختصة التي تستخدمها فئات في شبكة من تواصلاتها المحدودة. وبعد ذلك جعها في مقابل اللغة الفردية . فهي بمثابة لغات تحتية معروفة بتغيراتها السيميائية التي تجعلها تتعارض مع أخرى (صعيدها التعبيري) وبإيحائيتها الاجتماعية التي تصاحبها (صعيد المحتوى)؛ فهي تتكون في شكل صنافات اجتماعية مضمرة في الخطابات الاجتماعية. (1979،ص 354).

48- Zima (P), Manuel de sociocritique, op. cit p134.

49- Ibid p 134.

50- Ibid p135.

51- Ibidem.

52- لوسيان كولدمان، المادية الديالكتيكية وتاريخ الأدب، ترجمة نادر ذكرى، دار الحداثة للطباعة والنشر، سلسلة قضايا أدبية، ص 23.

53- André -Larochebuovy, Introduction à l'analyse sémio-linguistique de la conversation, CREDIF, Paris, 1984, p35.

54- Ibidem.

55- Ibid p. 64.

56- أبو الحسين إسحاق بن إبراهيم سليمان بن وهب الكاتب،البرهان في وجوه البيان، تحقيق أحمد مطلوب وخديجة الحديثي، مطبعة العاني،بغداد 1967، ص 256.

الفصل السَّابع :

المقاطع التحدثية في الروايات الحافة

تمهيد :

بعد تحليل المتن الرئيس، ننكب على تبيان المقاطع التحدثية المقترنة بالفواعل في الروايات الثلاث الآتية: **الضوء الهاب، وبرج السعود، وشطح المدينة.**

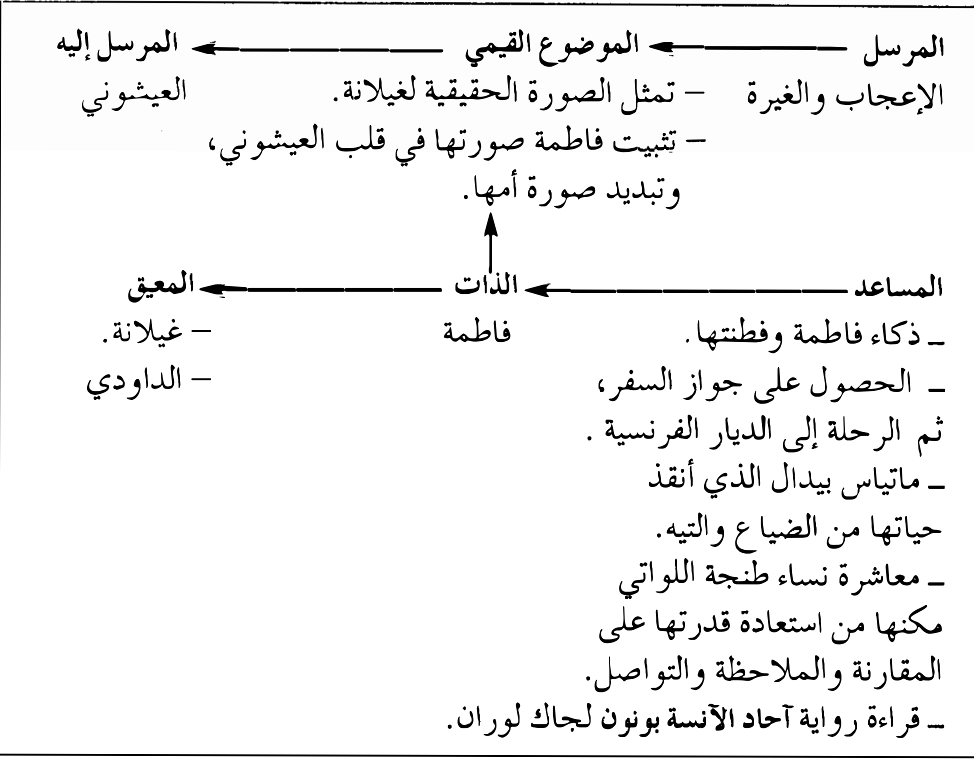
1- رواية الضوء الهارب :

1.1- البنية العاملية المؤطّرة :

رغم تنوع محكيات رواية **الضوء الهارب،** فهي تنتظم في بنية عاملية واحدة وشاملة. فما حفز فاطمة على زيارة بيت العيشوني، هو رغبتها في انتزاعه من شرك أمها (باعث الغيرة)، والبحث عن ملء بياضات وفرجات تتخلل ماضيها الشخصي. وكانٍ لهذا الحدث البسيط دور في إثارة لدى الفواعل الرغبة في الحكي، والكشف عما تستضمره بواطنها وسرائرها. وقد استطاعت فاطمة ـ بحكم دهائها وجمالها وخفة روحها ـ أن تزيح أمها من عرش الحكي لتنفرد بالتربع عليه. وإن كانت غيلانة قد راهنت على الزواج بالعيشوني، فإن فاطمة لم يكن لها من هدف غير إماطة اللثام عن التجارب التي تقاسمها مع أمها، وتحقيق بعض نزواتها و استيهاماتها. ومع تقدم الأحداث، تتوضح معالم العلاقة المعقدة بين فاطمة و أمها. فبقدر ما كانت غيلانة تحرص على أن تنحت من ابنتها شخصية قوية ومتعلمة ، بقدر ما تحولت في عينيها إلى خصم لدود وسلطة ينبغي مقاومتها والتصدي لها. وهكذا اختطت فاطمة لنفسها مسارا سارت في إثره تبعا لمقاصدها ورغائبها ونزواتها. أما العيشوني، فقد شكل بالنسبة للطرفين المتصارعين وجهة تُقصد لبعث ذكريات وأحلام غافية من مرقدها، ومعاودة النظر فيها لفك ألغازها وفهم غوامضها.

وينسج العيشوني على غرار باقي الفواعل خيوط مسار حكائي متميز بميسمه الخاص، ومتشابك، في بعضٍ تمفصلاته، مع البنية العاملية الشاملة. ويشغل العيشوني في هذه البنية العاملية المؤطّرة ذاتا باحثة عن موضوع جديد لا علاقة له بالمتذل والمألوف، وعن شكل ملائم لإحساساته وعلاقته بالعالم الخارجي. ويستعين بقدراته التعبيرية وبالخطوط والألوان لملاحقة الضوء الهارب والبحث عن أنجع الطرق لإسكانه في قماش اللوحة. وقد وجد في معاشرة غيلانة وابنتها فاطمة ما يستقدح زناد مشاعره ويدعوه إلى تأمل تجربته التشكيلية ومعاودة النظر في طبيعتها ووظيفتها. وقد أفضى به الوعي بضرورة تغيير تجربته إلى مقاومة إغراءات الدحماني الذي كان يشتري منه مسبقا عشر لوحات بأسلوبه القديم (رسم موديلات نساء عاريات، وطبيعة صامتة، ومناظر لأحياء طنجة). كما انقطع عن كتابة مذكراته بعد ما تأكد بأنها مجرد ثرثرة وموعظة لا تسعفان على نقل إحساساته ومشاعره. فوجد ضالته من جديد في حمل الفرشاة لتشخيص ما يدمدم في أعماقه على قماش اللوحة، والجري وراء الضوء الهارب منه باستمرار.

وتتشخص البنية العاملية الشاملة على النحو التالي :



(خطاطة رقم 19 البنية العاملية الشاملة).

2.1- الأدوار التحدثية المستتبعة من الإقناع والمسارة :

نعاين في مختلف المحكيات تواتر وحدتين كلاميتين : الإقناع والمسارة. تستقطب وحدة الإقناع ثلاثة أدوار تحدثية، وهي المقنع والمقتنع وموضوع الإقناع. وتتناوب الفواعل في أدائها انسجاما مع مقاصدها ووظائفها. ففاطمة تتوخى إقناع العيشوني بحضورها ووجودها، وبتلبية رغباتها ومطالبها. وتراهن غيلانه على إقناع ابنتها بمتابعة دراستها وعدم احتراف العهارة، وتقديم التبريرات والحجج الدامغة للعيشوني حتى يقتنع بالمسار الذي سلكته لجمع المال. ويتغيا العيشوني إقناع غيلانة وأمها بعالمه الخاص القائم على المتعة والجمال والوحدانية والتخلص من الإكراهات العائلية والاجتماعية.

ومع تناسل المحكيات تتسار الشخصيات وتتكاشف، وتتناوب فيما بينها أحيانا على شغل الدور التحدثي نفسه. وهكذا حفزت فاطمة العيشوني على مسارتها ببعض

التجارب التي جمعته بغيلانة. ومن خلال استرجاعاته يستحضر الخطابات المباشرة لغيلانة التي تكشف عن صورتها الحقيقية، وتبين الأسباب والبواعث التي حضتها على المتاجرة بجسدها. وبعد مرور عام ونصف عن رحيل فاطمة، يتلقى العيشوني رسالة منها تضيء ملامح حياتها، وتخبره بأسرارها، وتُجَلي صورتها. وهكذا يتضح أن الحكاية تلعب دورا أساسيا في تبادل الأسرار، وإضاءة الجوانب الداجية في حيوات الفواعل، وتدقيق النظر في خبر معين من زوايا متعددة. وتستتبع وحدة المسارة الأدوار التحدثية التالية:

- المُسَارٌّ: من يبث سرا إلى غيره.
- موضوع المُسارَّة : ما يدور حول السر.
- المُسارٌّ له : من يتلقى سرا.

3.1- الإحالة على أنماط كلامية:

يؤدي كل فاعل على حدة كلاما نمطيا بطريقته الخاصة (لغة فردية). والحالة هكذا، يمكن لطبيين يشتغلان في المستشفى نفسه أن يحيلا إلى الكلام النمطي نفسه (كلام الأطباء) بأداءين متمايزين تركيبا ونطقا. كما يمكن لإنجازهما أن يتباين بحكم تفاوت كفايتهما اللغوية.

إن الأدوار الموضوعاتية التي تضطلع بها الفواعل تستتبع ضروبا من الكلام النمطي. فعلى طول الرواية نعاين أن العيشوني يتلفظ بكلام الرسام النمطي. ومن فينة إلى أخرى، يضمنه إحساساته ومشاعره إزاء العالم والمرأة. وإلى جانب هذا الدور، ينهض بأدوار موضوعاتية صغرى تحتمها مقامات معينة : مقدم الحفلة، والشبيه بالأب، وكاتب مذكرات. وتشغل غيلانة الكلام النمطي الخاص بالمومسات أوبالأمهات تبعا لطبيعة المقامات المتواجدة بها والمقاصد المتحكمة فيها. ويوظف الحمداني الكلام النمطي لرجال الأعمال الذين لا يهمهم من الحياة إلى متعها وجمع الثروة. وقبل أن يدخل الداودي إلى السجن كان يتلفظ بكلام الطلاب الناقمين على الوضع السائد والراغبين في تغييره. لكنه بعد أن خرج منه، أصبح يستخدم كلام رجل أعمال صغير يدير مشروع تفريخ الدجاج الرومي. وتحيل فاطمة إلى أنماط كلامية متعددة بحكم تحملها لأدوار موضوعاتية متعددة، وتحايلها من أجل الاستمرار والمثابرة : فتاة متمردة، وطالبة، وأم، ومهاجرة، ومومس.

وإلى جانب أن هذه الأنماط الكلامية تسم الرواية بأثر الواقع، بحكم أنها بمثابة

استعمالات ثقافية واجتماعية مقولبة مفروضة على المتكلمين في مقامات معينة، فهي تضمن احتمال تصديق القارئ لأقوالهم ومنحها الشرعية المتوخاة، و«تحتوي على شحنات إيديولوجية دنيا»[1] (هي تشخيص لخطاب مرفوض مِن طرف خطاب آخر يحظى بالشرعية لكونه مطابقاً للايديولوجية المهيمنة)، وتصدع بتراتبية اجتماعية (كلام الوزير أكثر إثارة للنقاش من كلام الطبيب، وكلام الوزير الأول أكثر أهمية من كلام وزير الصحة العمومية).

4.1- حوارية اللغات الفردية :

يكتب العيشوني ويتحدث بلغة مُفصَّحة تشف عن مستوى ثقافي عال. وأحيانا يتحاور بالعامية التي تكشف عن انتمائه الجغرافي (طنجة) والاجتماعي (الطبقة المتوسطة). وتتميز لغته الفردية بالميل إلى موضوعات الجنس والفن، وبأَسْلبة أساليب المجاملة، وبالقدرة على محاكاة كلام محاوريه بسخرية، وبناء مواقف ودلالات جديدة على أنقاضه. ويقترن اسم العيشوني بإدخال جنس متخلل إلى فضاء الرواية (المذكرات). فهو ـ إلى جانب أنه يكشف عن مؤهلاته التعبيرية ـ يتيح له فرصة مواكبة تفاصيل حياته ومعاودة النظر فيها لفهم مغازيها وأبعادها.

وبما أن فاطمة حصلت على مستوى تعليمي متوسط، فهي أصبحت مؤهلة للتحدث بالفصحى، وتشخيص الخطابات الإيديولوجية اليسارية المتضاربة في الجامعة المغربية، واستحضار العبارات المرهفة الرقيقة ذات النزوع الرومانسي، واستغلال ما تقرأه (رواية ، أقوال مأثورة) وما تشاهده (أفلام) في بناء شخصيتها وشحذ مواقفها إزاء الإنسان والعالم. وإلى جانب توظيفها لجنس متخلل (الرسالة)، فهي تقحم في ملفوظاتها عبارات من اللغة الفرنسية، ومن العامية المغربية أو المصرية.

ويتحدث الدحماني بعامية أهل الرباط. وبما أنه رجل أعمال فإن كلامه يتسم بالنفعية والذلاقة. وما يتوخى منه أساساً هو إصابة الأهداف المحددة بإمعان وتؤدة، وإقناع محاوره بمقاصده وأغراضه.

وإن كانت غيلانة ذات ثقافة محدودة، فهي تتحدث بكلام غزير ومؤثر يستمد نضارته وقوته مما عاشته من تجارب وما يجيش به قلبها من عواطف. ويتسم كلامها عموما بالعفوية، واصطناع البراءة ، والاستعرائية، وممارسة لعبة الاستغواء.

وإن كان الروائي قد تقصد التنويع الاجتماعي للغات الفردية والجماعية، وتنضيد اللغات الخاصة بالمهن والأجناس لتمييز الفواعل، وشحذ إدراك القراء للفروق الاجتماعية ـ اللغوية ؛ فإن وقع رنين ملفوظاته يتصادى في كلام الفواعل المتخيلة.

ويمكن أن نبرزها أو نضعها بين مزدوجات بوصفها «أقوالا أجنبية» صادرة عنه. فهو ـ وإن كان غير مشخص على المستوى التلفظي ـ يخترق بمقاصده وتعبيراته وعيناته الإيديولوجية ملفوظات الفواعل التي يتضامن ويتعاطف معها، ويكلفها بنقل إحساساته وأهوائه ومقتطفات من حياته ومعيشه(2). ولا يكتفي فقط بتسريب صوته وصداه (الثنائية الصوتية) في كلامها، وإنما يخلق له أيضا خلفية حوارية حتى لا يظل معزولا عن السياق الذي يحتويه، ورنة بكماء لا تصدع بأي رد فعل. «فخطاب الكاتب يشخص ويضمن خطاب الآخر، ويخلق له منظورا، ويوزع ظلاله وأضواءه، ويوجد وضعيته وجميع الشروط اللازمة لإسماع رنينه. وأخيرا فإنه بنفاذه إليه من الداخل يدخل فيه نبراته وتعبيراته، ويخلق له خلفية حوارية» (3).

5.1- الخطابات المتنابذة:

أ ـ الخطاب الرسمي:

يطمئن الرأي العام بقدرته على تجاوز الأزمة مستقبلا، ويطلب من المعارضة تفهم انعكاسات ظروف الأزمة المالية على الاقتصاد الوطني، وتجنب استعمال بعض المفاهيم التي يمكن أن تخلق البلبلة في صفوف المواطنين (على نحو انزلاق الدرهم). ويمثل الخطاب الرسمي كلاما آمرا «يقتضي منا أن نعترف به بدون شروط، لا أن نستوعبه ونتمثله بحرية مستعملين كلماتنا الخاصة. كذلك فإنه لا يسمح بأي تصرف في السياق الذي يتضمنه أو في حدوده، فليس هناك استبدالات تدريجية، متحركة، ولا مغايرات حرة إبداعية وأسلوبية. إن الكلام الآمر يلج إلى وعينا اللفظي مثل كتلة متماسكة غير قابلة للقسمة ؛ ويتحتم أن نقبله كلية أو نرفضه بتمامه. لقد التحم التحاما وثيقا بالسلطة (السلطة السياسية، المؤسسة الشخصية) : معها يستمر، ومعها يسقط ... لايتشخص، إنه فقط منقول. فجموده واكتماله الدلالي، وانغلاقه، وتمييزه الظاهر والمتعجرف، واستحالة وصول أسلبة حرة إليه، كل ذلك يقصي إمكانية التشخيص الأدبي للكلام الآمر»(4).

ب ـ خطاب المعارضة:

يكشف هذا الخطاب عن زيف الخطاب الرسمي الآمر، ويجلي نواقص وعيوب بعض البنيات التحتية ، ويبين ما ترتب على تدني القوة الشرائية وارتفاع الأسعار، ويبرز مشكلات العمال المهاجرين ومسألة تفويت بعض الأراضي للخواص. ويتخذ صبغة حادة داخل أسوار الجامعة بحكم نزوع الشباب إلى التغيير الجذري، واشتداد حدة المزايدات بين مختلف التيارات السياسية المتصارعة. فهو لا يدعو إلى إصلاح

الأوضاع، وإنما يحث على تغييرها مستنداً إلى مرجعيات إيديولوجية متبَاينة.

ج ـ خطاب الفئة المثقفة :

يتبنى العيشوني خطاب المثقفين الحداثيين. يعي ضرورة إحداث قطيعة مع التجربة الانطباعية السابقة، ويدخل في تأملات فكرية عميقة لابتكار أسلوب جديد مستجيب لمطامحه ومشاعره. فما يحلم به هو بمثابة ضوء هارب. يجري وراءه دون أن يتوفق في الإمساك به. وهذا هو سر المفارقة بين الطوية والمغامرة أو بين أفعال الروح ومطالبها (جورج لوكاش)، وما يعطي للوجود معنى ويضفي عليه سمات التجدد والمثابرة.

د ـ خطاب الفئات المتبرجزة :

ينتسب الدحماني وغيلانة وفاطمة إلى الفئات المتبرجزة التي تشغل مواقع متواضعة في التراتبية الاجتماعية، لكنها تتطلع إلى الترقي السريع ؛ ولهذا تستخدم الطرق غير المشروعة لجمع الثروة والظفر بالكماليات التي تسم المجتمع الاستهلاكي (سيارة فارهة، مغنى فخم، ملابس التقليعة..). فما يهم أفراد هذه الفئات أساسا هي المظاهر الخارجية التي بإمكانها أن تعطي الانطباع على تحسن مستواهم المعيشي، وقدرتهم على مسايرة وتيرة اقتصاد السوق.

2- رواية برج السعود:

تتضام أحداث الرواية في بنية عاملية شاملة تتكون من العناصر التالية:

1- الذات الجماعية (أهل البطنية).
2- الموضوع : استغلال الثروات الممكنة وتصالح السكان فيما بينهم.
3- المساعد : الرماي (مكاشفة السكان بالمشروعات الممكنة، وتعبئتهم، وإصلاح ذات البين بينهم).
4- المعيق : المصالح والحسابات الذاتية الضيقة.
5- المرسل : الوضع الاجتماعي والجغرافي الزري.
6- المرسل إليه : الأرض.

1.2- البرامج الحكائية الخاصة :

تتفرع عن البنية العاملية العامة برامج حكائية خاصة متفردة بحركيتها وعلائقها. ومن بينها ندرج البرامج التالية:

1- يكد حميميد من أجل إصلاح التحفة الأثرية (فيكتوريا 83)، ولهذا السبب يقضي أوقاته جلها بجانبها. ومن الفينة إلى الأخرى يتردد على المدينة للعمل، وابتياع ما ينقص

السيارة المعطلة من قطاع الغيار. ويستقطب البرنامج الحكائي مناصرين يشنفون مسامع حميد بالمسكوكات اللغوية الدالة على التشجيع والحفز، ومعيقين يستخفون بمجهوداته ويعدونها مجرد مضيعة للوقت.

2- حل عمار بالبطنية لإجراء التحليلات على أهلها، وتعميق فهمهم للوراثة الفيروسية. ولكنهم يتعاملون معه كما لو كان طبيبا ، يقصدونه كلما ألم بهم مرض أو وباء. وإن كان قد توصل إلى تفسير بعض الأمراض الاجتماعية (على نحو نفور النساء من مضاجعة أزواجهن) والأوبئة الاجتماعية، فقد استعصى عليه فهم سر انجذاب الشاب الفيكتوري إلى السيارة الأثيرة، وإقناع بن سيدي رحيل بتسليمه عينة من دمه.

3- يراهن الرماي على مد المساعدة والمشورة لأهل البطنية لتلميع صورته، والبحث عن منافذ الجاه والمال. وتساعده في ذلك صفوة من السكان، ويأتي في مقدمتهم الشيخ بلحاج وبناصر وزمورة والعياشي. ويبدو الشيخ بلحاج داخل هذه الدائرة لغزا محيرا بحكم أن خدماته ـ من جهة ـ مشتبه فيها، ولم يحن الوقت لتصفية الحساب معه، كما أنه ـ مِن جهة أخرى ـ يعتبر مشروع الجبيل كارثة حقيقية تستدعي التهيؤ لها لإحباط مناورات الرماي الذي يخطط للاستفادة وحده منه. ويسخر الرماي عبيدة وزمورة والعياشي لإقناع بنت الرشام بالزواج به. ولم ينكشف رفضها إلا بعد أن همت بالهجرة إلى المدينة. «في البداية تناهى الخبر رقيقا كالحلم، لا يزيد في صورته الخالصة عن عزم امرأة، ولية نفسها، بما لها من جاه، ومال، وبنين، تريد أن تغادر القرية إلى المدينة، لتتابع تعليم أبنائها. هكذا بكل بساطة ووضوح، لتحيا في المدينة، وبذلك تهيأ الكل ومنذ بداية الصيف، لتقبل رحيل بنت الرشام» (ص 881).

4- حتم مقتل غريب بالقرية تدخل رجال الدرك للبحث عن الجاني. ولهذا السبب استدعوا كل من اشتبه في أمره (بناصر، المعلومة، سي موح، حميد..)، واعتقلوا رداد لأنه أول من صادف الجثة وهو في طريقه إلى الطاحونة مبكرا. وظلت موضوعة القتل محيرة إلى أن اعترف الريطي أمام الملأ بأنه القاتل، فأخرج من جوف الأرض رزمة تحتوي على ثياب ملطخة بالدماء وهراوة صغيرة معقوفة الرأس. «أنا.. أنا اللي.. خذو.. وبدأ الريطي ينتف ثيابه، أو يكشطها من حيثما اتفق، وينثر منها في كل اتجاه» ص 222. ويؤدي هذا الحدث الذي تنتهي به الرواية وظيفة الإطار[5]، ويوسع نطاق دائرة العمل لتستوعب عناصر مفترضة و متخيلة من طرف القراء.

5- اضطر بناصر إلى إثبات اللوحة التي كتبها وزينها الفقيه جلولي على جدران الطاحونة رغبة منه في استجلاب الزبائن وطرد لعنة الشياطين. وقد شعر بناصر بالمفعول السعيد والمبروك الذي خلفته اللوحة في نفوس أهل البطنية. ومما يدل على

ذلك أن النساء توجهن زرافات إلى بيته لتهنئته بالحدث السعيد. ولم تخل دائرة العمل من وجود معيقين يعاكسون طموحاته ورغباته. ويأتي في مقدمتهم الشيخ بلحاج الذي احتج بشدة على مضمون اللوحة كما لو كان هو المعني بالأمر. وحاول بناصر عبثا أن يفهمه أنه لا يعنيه، وأنه يوجه كلامه إلى أعدائهما على حد سواء. ولم يتصالحا إلا بعد أن تدخل الرماي.

2.2- التنوع الاجتماعي للغات الفردية :

يتقمص الرماي دور مسؤول كبير يباغت سكان القرية بالمشروعات السارة المزمع القيام بها ؛ وذلك كلما حل بَيْن ظهرانيهم. وحتى يضفي على كلامه المشروعية، يضطلع بأسلبة الخطابات الرسمية الطنانة (المصلحة العامة، مصلحة أبناء بلدته، المصالحة، المصادر الحقيقية، مشروع جبيل..). وغالبا ما تتسم ملفوظاته بالقيمة المزدوجة ؛ فهي ـ في ظاهرها ـ تسخر من المخاطبين، لكنها ـ في باطنها ـ تحثهم على المصالحة وتصحيح نقائصهم (الأنانية، البخل، النفاق، مختلف الرذائل والشرور). ومن بين الملفوظات التي كان يرددها باستمرار، نجد في مقدمتها الملفوظ التالي : «ما عندكم دكا..ماعندكم دكا». ويضمنه كل ما يشاء مما يعتبره كمالا وفضلا في الشخص. «وكان متأكدا من أن استعمال هذا التعبير الغامض الشامل (من وجهة نظره طبعا) يزيد في مكانته، في عين مخاطبه» ص 170.

ويستند كلام الفقيه جلولي على القرآن أسلبةً واقتباساً. وهذا ما يعلي من شأنه ويعضد من قيمته في عيون جلسائه. يقصده أهل البطنية للمشورة وكتابة الطلاسم. ولما عاين بناصر انحسار زبنائه، طلب من الفقيه أن يكتب له لوحة لعلها تكون خير بلسم لجراحاته المتقعرة. ويتناص ملفوظ اللوحة مع القرآن[6] والذاكرة الشعبية وطقوسها مما كان له أثر محمود وطيب في نفوس القرويين. ولما احتج الشيخ بلحاج على مضمون اللوحة، اضطر بناصر إلى استبدال العبارة الأخيرة (ولعنة الله على المجرمين والخائنين !) بعبارة ملطفة تفيد الصلح والوئام (والله مع المؤمنين والصابرين).

ويكاد يدور كلام حميميد حول الفيكتوريا 83 (المعجم الميكانيكي). ومن خلال بعض حواراته الخالصة أو الداخلية يصدع بتبرمه من أهل البطنية، ويستخف بهم، ويرى أنهم لا يستحقون المعاشرة ولا حتى تسمية البشر. ويستحضر في كلامه «ما أنا منهم وما هم مني» (ص741) نصا غائبا «لكم دينكم ولي دين» [7] ؛ وذلك ليبين بأن نهجه في الحياة مخالف تماما لنهجهم. وحتى يتميز عنهم اضطر إلى تجريدهم من أية ملة «لا ملة لهم» (ص173). فهم منغمسون في الغيبة وتوافه الأمور. أما هو فمهموم بقضايا تتجاوز أفهامهم وإدراكاتهم (المكننة). وهم ـ بدورهم ـ يرون في عمله مجرد مضيعة

للوقت، وإجهاد النفس في أمور «لا تنفع الناس». وما يبين أن حميميد يشكل نقطة نشاز داخل الرواية، أنه لا يجاري أهل البطنية حتى في الرد على التحايا التي يتلقاها من مخاطبيه. وهذا ما يجعلهم يتدخلون نيابة عنه لحفزه بلباقة ومجاملة على ترديد هذه العبارة التي لا تكلف أي جهد يذكر: « يا سيدي، قل..إنك طيب والسلام» (ص176).

وبحكم مهنة الشيخ بلحاج أصبح مجبرا على استعمال كلام سلطوي، وهذا ما جعل ملفوظاته تحظى ظاهريا بالاعتراف والشرعية. ونظرا للمكانة التي يحظى بها أعوان السلطة، أصبح الشيخ بلحاج يعد نفسه من علية القوم مستنكرا على أمثال الريطي أن يطلبوا ابنة أخيه. فهو لا يمتنع فقط عن تزويجها لهم، بل لو استطاع لقطع ذكورتهم جزاء لهم على هذا التطلع لبيت الشيخ بلحاج وأهله. ويتشخص كلام بلحاج كما لو كان تعليلا موضوعيا مزعوما مبثوثا في شكل خطابات «أجنبية» مستترة. «لا تنزل ببني آدم عاهة، إلا جزاء وفاقا على سوء أصله، ولا تظهر عليه العاهة إلا لتكبيل قدرته على المنكر والسوء» (ص11). «كارثة.. كارثة حقيقية..لا..لا..الرماي له نظرة أخرى. لن ينتفع أحد على الإطلاق» (ص271).

لا ينبغي إغفال ما لعبه كلام النسوة وبن سيدي رحيل وعمار والريطي من دور في إغناء الرواية بالتنوع الاجتماعي للغات. إن الأصالة الأسلوبية للجنس الروائي تكمن في تجميع الوحدات الأسلوبية (الخطاب الصوفي الشعبي، أجناس متخللة، استطرادات عالمة، الملفوظات المهجنة، الرواسم والتداعيات اللغوية، الأنماط الكلامية) داخل وحدة عليا (الكل). ورغم اعتناء الرواية باللغة المشخصة أدبيا، فقد أغفلت تجسيد ظاهرة الصمم اللغوي (حالة واحدة فقط «والمهيرة؟» (ص183)، وفي نقل الطابع الشفهي إلى المكتوب (حالات محدودة ، وذلك على نحو: «الن...ا..س ، مممم» (ص/ص177-178)).

3.2- اللغات الاجتماعية :

تتفاعل اللغات الفردية والأساليب المشخصة في ثلاث لغات اجتماعية (خطابات):

أ ـ لخطاب الشعبي:

يستمد هذا الخطاب مواده وعيناته الدلالية من المتخيل الشعبي، ويستنجد بالقوى الغيبية (كرامات بن سيدي رحيل) لاستجلاب البركة، ومواجهة الشرور، وحل المشاكل الاجتماعية والعائلية. ويدخل هذا الخطاب (زرع ميكروب الضحك في قلوب الناس) في تعارض وتصادم مع الخطاب العلمي (تفسير الظواهر الوراثية). ولما يحل بن سيدي رحيل بالبطنية تتهلل أسارير الساكنة. يقصدونه لعرض مشاكلهم النفسية

والاجتماعية عليه (تفاقم ظاهرة العِنّاس)، ومطالبته بعلاج أمراضهم البدنية (مسح اليد على المريض والعقيم، وصف أعشاب التداوي). ولا يتعاملون بالطريقة نفسها مع عمار. وهذا ما حفزه للبحث عن سر انجذابهم إلى بن سيدي رحيل وانشراحهم أمامه ومصارحته بمشاكلهم الخاصة. في حين لما يأتون إلى مكتبه يشكون العلل المتوهمة لمجرد التسلية. ولما يقدم لهم الوصفات الطبية والنصائح يتسمون إشفاقا على أخذه الأمور بمظهر الجدية. ويحظى بن سيدي رحيل باحترام وتقدير أهل البطنية بسبب ذيوع صيته وتقواه ورأسماله الرمزي. ويتعضد الخطاب الشعبي بالمسكوكات اللغوية التي تدل على الرضى والإعانة والستر، وتزرع البهجة والأمل في قلوب المتلقين، ويمتح من الذاكرة الشعبية (الخوارق والكرامات والأهازيج والنوادر) في مواساتهم والدعوة لهم بالخير والفلاح.

ب ـ الخطاب العلمي:

يشكل هذا الخطاب نقطة ضوء في دياجي الغيب والجهل. ويقترن بأعمال سمورند الذي توصل إلى نظرية الكمون الفيروسي (ال، في، تي). وقد كرس ما تبقى من حياته في تحديد البنيات النسيجية، والظروف الطبيعية المثيرة لتفاعلاته من جديد. وحل عمار بالبطنية لإجراء التحليلات التي تمت بصلة إلى الوراثة الفيروسية، والتعمق في فهم نظرية أستاذه (سمورند). لكن الناس لم يفهموا وظيفته الحقيقية، وتعاملوا معه كما لو كان طبيبا جديرا بإرشادهم إلى الأدوية المناسبة. ويمكن أن ندرج ملفوظات حميميد داخل هذا الخطاب ما دام منهمكا في إصلاح سيارته الأثرية (المكننة)، ومتبرما من انشغالات الرأي المحلي، ومحترسا من تمثلاتهم الذهنية. وإذا كان الخطاب الشعبي يستجيب لتطلعات السكان ويلبي رغباتهم، فقد صعب على الخطاب العلمي الانغراس في تربة البطنية. ومن بين العوائق التي اعترضته، نذكر على وجه الخصوص اثنين منها: ارتكازه على مرجعية غير مألوفة لدى السكان (أوربا الأنوار) (ص212)، ثم اعتماده على معجميات ومفاهيم وأدوات لم يستأنسوا بها بعد (على نحو: قياس الضغط، جس النبض، أخذ عينات من قطرات الدم، البنزين، المحرك، الدواسة، المكربن..).

ج ـ خطاب الانتهازيين:

ما يجمع بين الرماي والشيخ بلحاج والعياشي وزمورة ـ رغم اختلاف مهنهم وتباين مواقعهم الاجتماعية وحساباتهم الشخصية ـ هو تشكيلهم لفئة اجتماعية سيميائية تهتم فقط بمصالحها الضيقة. فهي تتظاهر بخدمة الصالح العام ومؤازرة السكان في محنهم، لكنها ـ في العمق ـ تنتهز الفرص لكسب المال والجاه. ويراهن الرماي ـ بعد كسب مودة السكان وثقتهم ـ على تعبئتهم وحفزهم على التحرك للفت انتباه المسؤولين

الكبار، والتعجيل بتحيين المشروعات الكبرى التي ستعود بالنفع العميم على بلدتهم، وتجعل سعر أراضيهم يرتفع بعشرات الأضعاف، لكونها ـ كما يعتقد الجميع ـ غنية بالمعادن النفيسة.«المنطقة بكاملها غنية بالنفيس من المعادن..وهل يعقل أن تبقى هذه البلدة وحدها مستثناة من الخيرات ؟! هل يعقل أو يتصور مجرد تصور، أن حدود المعدن تقف عند حدود البطنية، كأن الله استثناها وحدها من بقية الأراضي القريبة والمحيطة ؟ غير معقول» (ص24). ومن بين المعجميات التي تتردد في خطاب تلك الفئة الانتهازية، نجد ما يلي: مصلحة أولاد البلد، المشاريع، المساومة، الاستثمار، استغلال الجبيل، المصادر الحقيقية، الحفارة...

4.2- الأدوار التحدثية الدائرة في فلك الإقناع :

تهيمن على الحوارات الخالصة وحدة الإقناع التي تستقطب الأدوار التحدثية المشار إليها سلفا (المقنع، المقتنع، موضوع الإقناع). وتتناوب الفواعل فيما بينها على أدائها. وإن حافظت على وظائفها، فهي تتباين في الاضطلاع بها تبعا لحتمية الظروف وطبيعة الأهداف المتوخاة. ويمكن أن نجمل هذه الأدوار في الجدول المثبت أسفله :

المقنع	موضوع الإقناع	المقتنع
1- الرماي ومن يساعده	المصالحة، المشاريع، التحرك والتعبئة، جمع المال.	أهل البطنية
2- الرماي	الرغبة في الزواج ببنت الرشام	امتنعت بلطف دون أن تسبب له إحراجا
3- بناصر ومساعده (الفقيه جلولي)	تردد الزبائن على الطاحونة	أهل البطنية
4- عمار	أخذ عينات من قطرات دم بن سيدي رحيل.	تملص بن سيدي رحيل من الطلب بدهاء وجرأة
5- بن سيدي رحيل	الكرامات، جلب الخيرات والاطمئنان	أهل البطنية
6- الريطي	القتل	يدخل الاقتناع في نطاق وظيفة الإطار المفترضة، لأن الرواية تنتهي بإفصاح الريطي عن اقترافه الجريمة.

(جدول رقم 13: الأدوار التي تستتبعها وحدة الإقناع)

3- رواية شطح المدينة :

1.3- البنية العاملية :

تنهض البنية العاملية الشاملة على عاملين جمعيين، وهما: الجامعة والبلدية. وكل واحد منهما يسعى إلى حفز المتلفظ له على استساغة برنامجه الحكائي وتداوله. ويرجع الفضل إلى الجامعة في انطلاق الأحداث وتشعبها. فهي التي استدعت الضيوف من خارج الدولة الاتحادية للاحتفال بمناسبة مرور تسعة قرون على تأسيسها. ولما حل الضيوف بالمدينة تأجج زند المنافسة بين الطرفين سعيا إلى كسب ثقتهم ومودتهم وإقناعهم بجدوى وملاءمة برنامجيهما الحكائيين. ولهذا الغرض أعد كل طرف ملفا معززا بالوثائق والمستندات والحجج الكافية لبيان مكانته الحضارية وإشعاعه الثقافي. ويعتمد كل واحد على أطره وموظفيه ومسانديه لمحاجَّة الطرف الآخر وتفنيد مزاعمه وأكاذيبه.

وتتفاعل داخل هذه البنية العاملية برامج حكائية خاصة فرضتها مناقشة الصياغة النهائية للبيان الختامي. فالرحال التركي يحض على حماية البيئة، والإفريقي يدافع عن مصالح الجنوب، وممثل البيت الأبيض يشجب منظمة التحرير الفلسطينية والمنظمات الإرهابية بالشرق الأوسط.

2.3- هالة اللغة والإيديولوجية الواحدة :

يقترن عمل الرواية باستجابة المدعوين للبرنامج الحكائي الاحتفالي الذي أعدته الجامعة بعد مرور تسعة قرون على تأسيسها. وإن تباينت مستوياتهم الثقافية وأصولهم الاجتماعية والجغرافية (رحالة تركي، ممثل البيت الأبيض، المغربي، موظفون مصريون..)، فهم يشتركون في أَسْلَبة الخطابات السياسية المنشغلة بقضايا كونية . وبما أن لغاتهم منقولة في خطابات محوَّلة، فهي لم تحافظ على أصالتها الأسلوبية وطابعها الشفهي. ولهذا السبب لم يتشخص الصراع المحتدم بين الجامعة والبلدية على المستوى اللغوي، ولم يتشيد على قاعدة حوارية (تعدد اللغات والأصوات).

وإن تباينت اللغة الاجتماعية للبلدية واللغة الاجتماعية للجامعة تركيباً ومعجما، فهما تشتركان في الاعتداد بالنفس والقيم النبيلة، وذكر المحاسن والإيجابيات، والتنويه بالمنجزات المحققة وبالمآثر العمرانية والتاريخية الموجودة. وتحرص الدولة الاتحادية ـ من جهتها ـ على ترسيخ الوحدة الوطنية، وفصل الدين عن الدولة، ومواجهة المنظمات الإرهابية. وهكذا يتضح أن منطق اللغة الواحدة ـ المهيمنة والمفروضة من طرف السارد ـ فرض رؤية جماعية للعالم. وتتمثل أساسا في تنافس

الطرفين المعنيين في صيانة بنياتهما التحتية، والمحافظة على إرثهما الحضاري والثقافي. وهذا ما يعضد صرح الدولة الموحدة، ويسهم في رقيها وازدهارها.

وقد استتبع الصراع المحتدم بين الجامعة والبلدية وحدة كلامية (الإقناع) بلوازمها التحدثية (المقنع، الموضوع، والمقتنع). وأفضى تجابه البرنامجين الحكائيين (البرنامج الحكائي والبرنامج الحكائي المضاد) إلى تضعيف الوحدة الكلامية وبنياتها الحجاجية (الحجج والحجج المضادة). وقد لعبت تلك الوحدة الكلامية دورا حضاريا في تنافس وتباري الطرفين دون اللجوء إلى العنف أوالحرب الأهلية. وبما أن المتلفظ له يتمتع بثقافة وخلفية معرفية واسعة، فهو لا ينصاع بسهولة لهذا الطرف أوذاك. وإنما يصغي إلى الخطاب الموجه إليه، ويفككه، ويستقصي معطياته لعله يدرك الحقيقة. ويمكن أن تتشخص الوحدة الكلامية للإقناع على النحو التالي:

الجامعة	البلدية
الإقناع (الحمل على الاعتقاد) البرنامج الحكائي الحجج التطويع	الإقناع (الحمل على الاعتقاد) البرنامج الحكائي المضاد الحجج المضادة التطويع المضاد

(جدول رقم 14 منزلة الإقناع داخل البرنامج الحكائي)

خاتمة:

بعد الفراغ من تحليل الروايات الثلاث، يمكن أن نخلص إلى ما يلي :

1- يسهم التشخيص الأدبي للغة (اللغات الفردية والاجتماعية، الأنماط الكلامية، الأجناس المتخللة) في توسيع البعد الحواري، وإغناء الرواية بتعدد الأصوات والعينات الإيديولوجية. ولما تجثم اللغة الواحدة بظلالها على الرواية، فهي تفرض على الشخوص الرؤية الجماعية للعالم، وتفرغ اللغات الاجتماعية المتنازعة من شحنتها الإيديولوجية وأصالتها الأسلوبية.

2- تتواتر وحدة الإقناع في الروايات المحللة، وهو ما يؤشر على النزوع الديمقراطي. فقد أصبحت الفواعل ـ بدلا من تحريض المتلفظ له وشحنه بالعواطف الجياشة وحضه على العنف ـ تراهن على جدلية الإقناع والاقتناع. وهذا لا يستبعد استخدام الأساليب التطويعية والاستهوائية للنفاذ أكثر إلى قلب المتلفظ له، وتغيير معتقداته.

3- لا يقل الدور التحدثي أهمية عن الدور الفاعلي والعاملي. فهو يلعب دورا هاما في تحريك البرامج الحكائية ونقلها من مستوى التجريد إلى مستوى التجلي، وفي تعبئة الفواعل لإدراك الموضوع القيمي. وقد يسعف على تحقيق المبتغى (عامل مساعد) أو يعيقه (عامل معيق). وقد يصبح موضوعا مطلوبا في حد ذاته (عامل موضوع) لانتقاء الحجج الدامغة وإبراز المقدرة على المحاجَّة والإقناع.

الهوامش:

1 - Lane Mercier (Lane), La parole romanesque, Klincksiek, PUF, 1989, p 279.

2- كتب محمد برادة هذا النص في فترة خاصة وسياق اقترن لديه بأسئلة حادة وأزمة نفسية معينة. وتتجلى بعض ملامح هذه الأزمة «في انعدام التشخيص (وهو هنا بالمعنى الذي يقدمه بعض علماء الاجتماع ومنهم بيير بورديو) الذي يحيل على الإنسان وعلى بيئته وتفكيره الإيديولوجي انطلاقا من الملبس وكل الأشياء التي تشخص وجوده داخل بيئته ومجتمعه. بهذا المعنى هناك غياب وتغييب للتشخيص في مجتمعنا أي الخطابات السياسية والإيديولوجية التي وجدت ووظفت واضطلعت بوظيفة معنية قبل الاستقلال ثم بعده، استنفدت إمكاناتها وتحولت إلى لغة متخشبة، كما يقال مع أنها لغة متدفقة تتحدث عن كل شيء وتشخص الأزمة وتقترح لها حلولا شبه جاهزة..» محمد برادة، الكتابة، التشخيص.. والأزمة، في: رهانات الكتابة عند محمد برادة، ط1، مطبعة فضالة، المحمدية، 1995، ص 52.

3- ميخائيل باختين، الخطاب الروائي، ترجمة محمد برادة، ط2، دار الأمان، 1987، ص 107.

4- المرجع نفسه ص/ص 98/97.

5- إن إضافة تتمة إلى الحكاية يعتبر بمثابة تأطير اللوحة. فيما يخص الوظيفية التأطيرية للخاتمة اُنظر إلى : بوريس أزمنكي، شعرية التأليف، في : نظرية السرد من وجهة النظر إلى التبئير، ترجمة ناجي مصطفى، منشورات الحوار الأكاديمي والجامعي، ط1، 1989، ص/ص 89-94.

6- يقول الله تعالى ﴿وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين؛﴾ سورة الأنفال 47.

7- يقول الله تعالى: ﴿ لكم دينكم ولي دين﴾ سورة الكافرون 6

الفصل الثامن

تجليات الصورية في رواية ذات

تمهيد :

لَمَّا نفحص المصادر السيميائية الصادرة في السنوات الأخيرة، نلاحظ أن الصورية (Figurativité) ـ إلى جانب التلفظ والأهواء ـ تحظى بأهمية كبيرة وبمنزلة خاصة. وفي هذا الصدد نورد القولة التالية لجاك جنيناصكا ((Geninasca(J)) : «فبعد سنوات كرستها السيميائية ـ التي تطورت حول كريماص ومن صلب أعماله ـ لتعميق نظرية مستوى البنيات السيميا ـ حكائية، انكبت مؤخرا على معضلة البنيات الخطابية، وخاصة على معضلة الصورية» (1).

ويقدم المعجم تعريفين للصورة: أحدهما مستمد من الحقل اللساني(لويس يالمسلف Louis Hjelmslev)، ويعنى به وحدة غير دالة قابلة للتجزيء. ولا تتكون هذه الوحدة من الماهية بل من الشكل. وثانيهما متعلق بالمجال الأدبي والسردي : فمعجميات القسيس والسيارة والطاولة تعتبر صورا بالمعنى الذي تتسم فيه باستعمالات خاصة مانحة للخطاب المجرد فعاليته، وجاعلة إياه محيلا إلى موضوعات العالم. ويسهم الصوغ الصوري (Figurativisation) في جعل الخطاب يؤدي وظيفتين اجتماعيتين ، وهما : الإقناع الفعال، والتشخيص «الأمين». ويرى جون ماري فلوش (Jean-Marie Floch) أن تعايش المعنيين في **المعجم المعقلن** قد يُشْكل الأمر على القارىء، ولذا حاول رفع اللبس عنهما مبينا أن الصورة بوصفها اللادال (non-signe) تتعلق بالشكل، وأن صور القسيس والسيارة والطاولة تمت بصلة إلى الماهية (2).

وتتخذ المعضلة الصورية الأبعاد التالية :

1- تهتم الدلالة الخطابية بصور مستوى تعبير السيميائية الطبيعية (أو صور المحتوى). وهكذا لا تحوي الصورة النووية إلا الجزء الصوري للمفهم (sémème)، وتبعد من نطاق دائرتها المقومات السياقية المترددة (المصانف Classémes). فهذا التعريف للصورة يقترب من تعريف الجشتالية ونظرية الشكل والصورة البشلارية. ومع ذلك يوجد فارق بسيط يتمثل في أن الصورة السيميائية هي بمثابة وحدة قابلة للتجزيء إلى مقولات صورية (وحدات شكلية ومضمونية)(3).

2- يتموضع التعارض الموضوعاتي/الصوري في لحظة أساسية من المسار التوليدي. وتتمثل هذه اللحظة في تحويل المستوى الحكائي إلى المستوى الخطابي، وفي تحويل المجرد إلى الملموس(4).

3- يعمل الصوغ الصوري على إقامة التشاكلات الصورية وتنظيمها، وذلك بإدراج أسماء الأعلام والزمن والمكان، وإعطاء للنص الدرجة المتوخاة من إعادة إنتاج الواقع (5).

4- يقترن الصوري بالموضوعاتي. ورغم تكاملهما فهما يتباينان فيما بينهما. ويمكن أن نشخص الاختلاف بينهما في الجدول الآتي :

الصوري	الموضوعاتي
كل نسق تمثلي (بصري على سبيل المثال) له ما يطابقه على صعيد دال العالم الطبيعي(أو تعبيره). كل ما يمت بصلة إلى الحواس الخمس التقليدية (البصر، السمع، الشم، اللمس، الذوق) فهو يتعلق بإدراك العالم الخارجي.	ليس له أي ارتباط بالعالم الطبيعي. إن الأمر يتعلق بمحتويات ومدلولات ليس لها ما يطابقها على مستوى الواقع.
يتحدد بالإدراك	يتحدد بمظهره الصوري المحض (إنه عبارة عن مفاهيم مجردة، على نحو الحب والكراهية، والسعادة..)
يتعلق بالعالم الخارجي، ويدرك بالحواس	يتعلق بالعالم الداخلي
إذا دار على نفسه، فسيظل مجردا من المعنى.	ليس للصوري معنى إلا إذا ارتبط بموضوعات أو قيم.

(جدول رقم 15 العلاقة بين الصوري والموضوعاتي)(6)

1- العلاقة الجدلية بين الصوري والموضوعاتي :

تنتظم حول بعض الموضوعات المركزية كوكبة من الصور ؛ وذلك على نحو موضوعة **الهدم والبناء** التي تتشخص بالصور التالية : المال، والأثاث، والشقة، والشركاء، والسيارة. ثم موضوعة **البث** التي تستقطب دائرتها الصور التالية : البرامج المتلفزة، الأنتركوم، وشيخ العرب، وأثاث المطبخ. ثم موضوعة **الصحوة الإسلامية** التي تستتبع صورا خاصة لتحيينها والدلالة عليها : الله، والنبي، والحجاب، والبنك الإسلامي، وأشرطة الدعوة، والخلافة، والضرائب التنازلية، والشيخ. ثم موضوعة **الضرر** التي تشيدها الصور المدرجة في تشاكل /الأغذية/، ومن ضمنها اللحوم الجامدة، والحمى القلاعية، والشاي الهندي، والمياه المعدنية، والألبان الملوثة بالإشعاع، والسجائر، والمكرونة اليونانية، والدجاج الفاسد.

وبالمقابل، توجد صور تتجسد من خلال موضوعات مختلفة. فصورة **مصر** تقترن بجملة من الموضوعات المتشابكة فيما بينها، ومن بينها نذكر أساسا: الانفتاح،

والأزمة، وصحوة الضمير، والتضحية، والاستثمار، وتعمق الفوارق الاجتماعية. ثم صورة **البنك** التي تحيل إليها الموضوعات التالية: الفضيحة، والصحوة الإسلامية، والاستثمار، والإنتاج، والانخراط في مسيرة الهدم والبناء.

2.1- قطبا الصوري :

يمكن أن يُعالج الصوري في منأى عن الموضوعاتي. فهو ـ بحسب اقترابه من الواقع أو انزياحه عنه ـ يتأرجح بين قطبين، وهما : الصوري الأيقوني والصوري المجرد.

1.2.1- الصوري الأيقوني :

هو الذي ينتج أفضل وهم مرجعي، ويبدو بأنه أكثر اقترابا من الواقع (يجعلنا نعتقد ذلك!). وهكذا فإن الوصف الذي أضفاه إميل زولا على بطن باريس، قد خلف الانطباع الشديد بالتشابه أوبالأيقونية iconicité (حسب المصطلحية السيميائية)(7). وتعتضد هذه الأيقونية بتقنيات التشخيص اللغوي الذي يعيد تقطيع الواقع وتشكيله في حلة جديدة، ويرمي إلى تقيلص الهوة بين اعتباطية الدليل وبين المحال إليه. وفي هذا الإطار، لم يعد الأمر يتعلق بالإجابة عن سؤال من نوع : كيف ينسخ الأدب الواقع ؟ ... وإنما يتعلق بالإجابة عن سؤال من نوع آخر، وهو : كيف يجعلنا الأدب نعتقد بأنه ينسخ الواقع؟ ما هي الوسائل الأسلوبية التي يستعملها ـ بوعي أو دونه ـ لخلق هذا الوضع الخاص بالقارئ ؟ (8).

وتدمج رواية **ذات** الصور الأيقونية في بنيتها على النحو التالي :

أ ـ الصور المتسمة بأثر الواقع :

تكثر المحكيات المؤطَّرة (قصاصات الأخبار) من الصور المتسمة بأثر الواقع (الإحالة إلى التاريخ والواقع المصريين)، وذلك بهدف خلق التواصل مع القراء، وحفزهم على فهم ما يعرض عليهم دون عناء وجهد، وحملهم على تصديقه والاقتناع به. ولنأخد على سبيل المثال الملفوظ الموالي:

«السفن النووية الأمريكية بقناة السويس منذ عام 1984 بقرار سياسي من الحكومة المصرية رغم معارضة الخبراء» (ص 71).

لما نفحص الصور المستخدمة في هذا الملفوظ، نلاحظ أنها صور أيقونية، تحيل إلى حقائق وقعت فعلا في زمكان محدد. وهي ـ في مجملها ـ تشكل خبرا يحتمل الصدق بدعوى مطابقة النسبة الكلامية للنسبة الخارجية. وكل صورة تشكل حقيقة قابلة للتجزيء إلى عناصر، والتأكد من مدى مطابقتها للواقع. فعلى سبيل المثال، يمكن

الرجوع إلى الوثائق العسكرية الأمريكية لمعرفة أرقام السفن وأسمائها وأطقمها والأيام التي قضتها رابضة بقناة السويس، والإرساليات التي كانت تتوصل بها أو تبعثها. كما يمكن الرجوع إلى التاريخ لمعرفة أسماء الوزراء المصريين الذين حضروا الاجتماع الحكومي، والكشف عن الملابسات التي حفزتهم على اتخاذ قرار سياسي على ذلك النحو. وعلى النهج نفسه يمكن التأكد من أسماء الخبراء المعارضين، وتبين الخلفيات التي جعلتهم يعارضون الوجود الأمريكي بالتراب المصري.

ب ـ مراعاة الصور للنسق الثقافي :

من بين ما يوطد العلاقة بين النص والواقع نذكر أساسا صور أسماء الأعلام والأمكنة والأزمنة (أنور السادات، حسني مبارك، القاهرة، الإسكندرية، مصر، الخليج، حرب أكتوبر، العهد الناصري..). فهي «تحيل على معنى ممتلئ وثابت، حددت به ثقافة ما أدوارا وبرامج واستعمالات مقولبة»[9]. إن صورا من هذا الطراز تتطلب من القارئ تشغيل خلفياته المعرفية لملء بياضاتها وفرجاتها، وتأطيرها داخل لإطار الذي يلائمها حتى يتسنى له فهم النص، وضمان مقروئيته، وإدراك مراميه البعيدة. فمجرد أن يصادف صورة أنوار السادات يستخرج من ذاكرته ما يتعلق بالرجل من معلومات سبق له أن خزنها بمشاهدة التلفاز وقراءة الصحف. وتيسر عليه هذه المعلومات القيام بعمليات استدلالية لفهم النص، وتعليل وتأويل ما يتعلق بأنوار السادات. ولهذا السبب يلح المعرفيون (les cognitivistes) على واضعي البرامج التعليمية إدراج نصوص مكتظة بالصور المتداولة والمستجية لاعتقادات المتعلمين والقريبة من مدركاتهم (خطاطة المحتوى) ضمانا لتفاعلهم معها، وملء بياضاتها، واستيعاب محتوياتها.

إن الكاتب حر في منح للصورة الأيقونية المنزلة التي يرتضيها. ومع ذلك فهو ملزم باحترام مقوماتها الأصلية ووظائفها المتعارف عليها. وفي هذا الصدد يمكن للقارئ أن يتفهم قلب وظيفة صورة ما لأغراض جمالية (السخرية)، لكنه لا يستسيغ ذلك قطعا في حالة ما إذا كان المتلفظ جادا في كلامه. فعليه أن يحترس من الغلط، ويجاري «النسق الثقافي»، و«يراعي ما يتوقعه منه متلقيه فيماشيه ويكيف خطابه إرضاء له»[10].

وتنطبق هذه الملاحظة في المقام الأول على أسماء الأعلام والفضاء والزمن، وتنسحب كذلك على الصور الأيقونية جميعها. فالقائم بالسرد يعرف جيدا اعتقادات القارئ ويوجه السرد حسب متطلباتها. «إذا حكى مثلا أن ذئبا التقى بحمل، فإنه ـ لا محالة ـ سيجعل الذئب يفترس الحمل. حريته هنا مقيدة باحتمال يستحيل تخطيه»[11].

ج- دور الصور الأيقونية في تشييد الواقعية اللغوية :

يرتكز التشخيص الأدبي للغة على استثمار الصور الأيقونية وإعطائها منازل جديدة. وإن كانت الكتابة تجردها من كثير من متغيراتها التعبيرية، فهي تعتمد على تقنيات التشخيص لتكون قادرة على التكيف مع السياقات الجديدة التي تؤطرها، والحفاظ على رناتها ووظائفها الأصلية. وفي حالة ثنائية الصوت (البعد الحواري) فإن هذه الصور تفرض نفسها بصفتها طرفا يتمتع بجميع حقوقه وواجباته، ويدخل في صراع وتفاعل مع أطراف أخرى. وفي إطار هذا التفاعل (التناص الخارجي حسب بيير زيما) بين النص والواقع تنتعش بعض المظاهر التشخيصية للغة التي سبق لنا أن عرفنا بها وبينا تجلياتها في النصوص الروائية المعتمد عليها. وفي هذا المضمار نركز على معطيين لم يسبق الإشارة إليهما آنفا، وهما: الصور ذات الأصباغ المحلية، ثم الصور المهيمنة في الوضعية الاجتماعية واللغوية.

1- الصور ذات الأصباغ المحلية :

توجد في الرواية كثير من الصور والتراكيب التي تكشف عن هوية النص، وتسهم في تعزيز طابعه الأيقوني، وربطه بواقع محدد (مصر). ومن بين الصور نذكر على سبيل المثال: أفندم، الهنش، العفش، الكوباري، الطورطة. ومن بين التراكيب نسوق ما يلي: «الباشا مهندس كان هنا النهارده» (ص 63)، «إما أسيبه أو أحبل منه ثاني» (ص120)، «سألت عليك والنبي يا منيرة» (ص 248). مش كفاية إني سكت. مطلوب مني كمان شهود» (ص 164).

2- صور الوضعية الاجتماعية اللغوية :

تحاول الرواية أن تتفتح على الوضعية الاجتماعية اللغوية لإعادة توظيف خطاباتها داخل نسق جمالي وإيديولوجي. وفي إطار هذا التفاعل تركز على ما تتسم به هذه الخطابات من أساليب لغوية وصور ذات شحنة دلالية وإيديولوجية قوية. ولقد سبق لنا أن بينا دور بعضها في تنسيب الخطاب وتمييزه، وإبراز وظيفته داخل المجتمع. وتنفرد الصور الأيقونية بقدرتها على وسم النص بأثر الواقع، وتنسيب مرحلة تاريخية، وإبراز ما كان يستأثر باهتمام الرأي العام فيها. ويكفي هنا الإشارة إلى نحت المجتمع المصري لبعض الصور وإضفاء الأصباغ المحلية عليها حتى تعبر عن نفسية المصري، وهو يخوض غمار مسيرة الهدم والبناء. ونستشف من هذه الصور ما يتمتع به المصريون من روح الدعابة والسخرية. فهم يفرغونها من محتوياتها لبناء معان جديدة على أنقاضها؛ قوامها الاستهزاء بالمسيرة التي سببت لهم متاعب ومشاق من جراء تعمق

الفوارق الاجتماعية. ومن بين هذه الصور نذكر أساسا ما يلي: السرمكة، أو الكمبشة (نسبة إلى المرحاض الحديث)، أو الكندشة (نسبة إلى جهاز التكييف).

2.2.1- الصوري المجرد :

هو الذي لا يحتفظ من «الواقع» إلا بحد أدنى من السمات(12). وينبغي للخطاب المجرد أن يكنف عن أية أيقونية للصور.. وذلك حتى يدعم مستوى التشاكل الذي يتموضع فيه (13). فإذا كان المحكي المؤطِّر (قصاصات الأخبار) يسعى إلى ترسيخ الطابع الأيقوني للصور، فإن المحكي المؤطَّر (قصة ذات) يروم إلى خلخلته وتقويضه بمعاودة النظر في قيمته ومطابقته للواقع. وبموازاة محافظة بعض الصور على سماتها «الواقعية» الراسخة في الأذهان، فهي تحظى بمنزلة وقيمة جديدتين داخل السياقات والفضاءات التخييلية التي تحضنها. وفي هذا الصدد، يمكن أن نمثل باسم شخصية(anthroponyme)، ثم باسم مكان(toponyme)، ثم باسم زمن (chrononyme). ويترتب على هذه العناصر إرساء تاريخي «يسعى إلى تكوين شبيه بمرجع خارجي، وإنتاج أثر المعنى «الواقع» » (14).

أ ـ اسم علم شخص (جمال عبدالناصر) :

حافظ النص على بعض سماته ومقوماته المعروفة عنه، ومن ضمنها: [+رئيس سابق] و[+ اشتراكي المنزع] و[+ علاقته متوترة مع الولايات المتحدة الأمريكية] ؛ ثم أضاف إليها مصانف جديدة تبين المكانة التي يشغلها في نفوس فواعل خيالية. وهكذا، تتأرجح صورته بين السلب والرفض، وبين الإيجاب والقبول. فإذا كانت فواعل تمتعض من المرحلة التي كان يتحمل فيها المسؤولية الرئاسية، هناك فواعل أخرى تشيد وتفخر به. ينتمي البيرقراطيون والشنقيطي وعبد المجيد إلى الفريق الأول. فالبيراقراطيون سحبوا صور جمال عبدالناصر من المكاتب والمؤسسات، ثم وزعوا عليها صور الرئيس الجديد المؤطرة. وقد اشترك الشنقيطي وعبد المجيد في توجيه اللعنات إلى الاشتراكية وجمال عبد الناصر والاتحاد السوفياتي. وتوجد ذات ضمن الفريق الثاني. وهذا بالضبط ما سبب لها مشكلين أساسيين في مقر عملها: نقلت إلى الأرشيف، ثم أجمع زملاؤها على مقاطعتها. ورغم انخراطها في مسيرة الهدم والبناء ، فقد ظلت وفية للمبادئ الاشتراكية. مما سبق يتضح أن النص نهل من الواقع بعض السمات، وألحقها بسمات مفترضة ومحتملة الوجود .

ب ـ اسم مكان (الاسكندرية) :

يُعنى بالدينامية الفضائية، في آخر المطاف، بناء الفضاء بوصفه قيمة(15). وتتشيد

هذه القيمة من خلال العلاقة التي ينسجها الفاعل مع الفضاء. وهكذا، لا تهم التمفصلات الطبوغرافية إلا بالقدر الذي تكشف عن نفسية الفواعل وانتماءاتها الاجتماعية وموقفها من الوجود. لم يكن غرض الناظم الخارجي من استحضار صورة الإسكندرية إبراز سمات أحيائها وشوراعها ومنازلها، وإنما استجلاء بعض الظواهر الاجتماعية، والغوص في نفسية الشخوص. وهذا ما نجم عنه استقطاب الصورة للمصانف التالية:

*ـ [+ الغنى غير المشروع] : تحول عبد المنعم جابر في ظرف عشر سنوات من عامل نسيج إلى مالك لخمسة أبراج وشركة مقاولات وأخرى للسياحة.

*ـ [+ التهريب] : تهريب الأموال وأشرطة الفيديو والأجهزة الالكترونية الصغيرة.

*ـ [+ الامتعاض] : أدرك شيخ العرب أن التلفاز ينافسه ويجذب إليه الحضور، فانسحب في وقار.

*ـ [+ تقادم بيت عزيز عبد الله وأثاثه]: قروح الجدران، ومفرش المشمع المتآكل فوق المائدة الخشبية المائلة، ثلاجة إيديال تقشرت زواياها..إلخ.

*ـ [+ التذكر] : حفزت الزيارة التي قامت بها ذات إلى منزل عزيز عبد الله وصفية عباس إلى بعث ذكريات من مرقدها.

*ـ [+ المكاشفة] : انفردت ذات بصفية عباس لتبوح لها بأسرارها، وتكشف لها عن معاناتها مع زوجها.

فإلى جانب أن هذه المصانف تجلي طبيعة العلاقة الموجودة بين الفواعل والفضاء الذي تعيش به، فهي ـ من الناحية الأكسيولوجية ـ تسعف على إبراز نظام القيم (أكان أخلاقيا أم منطقيا أم جماليا) . فرغم تواضع منزل صفية وعزيز، فهما يعيشان في وئام وسعادة. وبمجرد أن ظهر الحريري على الشاشة، أبدى الحضور امتعاضه من مغامرات شيخ العرب. وما يهم ذات من زيارة الإسكندرية هو تفقد أحوال صديقين عزيزين، واستحضار الذكريات التي جمعتها بهما بالكلية.

ج ـ اسم الزمن (ماقبل 1952 وما بعدها) :

يمكن أن تنشطر الأزمنة ـ تبعا لعلاقتها بالمرجع ـ إلى قسمين :

1- أزمنة موسومة بالطابع الأيقوني :

وهي الأزمنة التي تهم الأحداث التاريخية والأزمات الكبرى. وفي هذا السياق نشير إلى أن المصريين ألفوا تأريخ أيامهم بالتقويم الثوري (ما قبل 1952 وما بعدها) قبل أن

ينتقلوا إلى التقويم الرئاسي للثالوث الذي تعاقب على الحكم بعد الثورة (جمال عبد الناصر، أنوار السادات، حسني مبارك).

2- أزمنة موسومة بالطابع الشخصي :

وهي التي ترتبط بحياة الفواعل، وتظهر نفسيتها وموقفها من الوجود. فإذا كانت ذات ـ على غرار المواطنين المصريين ـ تتفاعل مع وقائع التاريخ العام، فهي تعتمد على تقويم خاص يهم تعاقب أفراد الثالوث الأموي على خدمتها : أم أفكار، أم عاطف، أم وحيد. صادف مجيء أم أفكار خروج ذات إلى العمل وتدحرجها إلى الأرشيف. واقترن اسم أم عاطف بتذكير ذات بالواجبات الدينية ومستتبعاتها. وأتاحت لها أم وحيد الإطلال على عالمين : عالم غريب يتمتع بالإباحية الجنسية وارتكاب الجرائم، ثم عالم العمارة نفسها.

من خلال هذه الأمثلة الثلاثة يتضح أن الصورة المجردة تنزاح عن الواقع، ولا ترتبط به إلا بحد أدنى من المقومات. وتستمد نسغها ووجودها من السياقات الجديدة التي تؤطرها، وتضفي عليها قيما جديدة . وبذلك ، تستند المفارقة التي تفصل بين الأيقوني والمجرد إلى خلفية بلاغية تهم ما يتعارف عليه بالحقيقة والمجاز.

2- البعد الأكسيولوجي :

1.2- القيم الأكسيولوجية :

نظرا لأهمية ومنزلة صورة مسيرة الهدم والبناء في رواية **ذات**، فإننا سنتوقف عندها من جديد لبيان طبيعة القيم التي تضبطها وتؤطرها في مختلف السياقات. وتستند القيم سيميائيا إلى المقولة الانفعالية التي تستتبع إما بهجة المتلفظ أو حزنه.

أ ـ المبهج والمحزن :

يمكن أن نرسم الجدول التالي لتبيان القيم السلبية أو الإيجابية التي تتوسم بها صورة المسيرة :

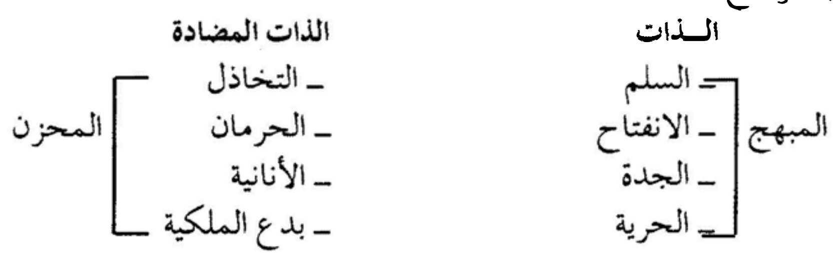
المبهج	المحزن
ـ الحفاظ على الجدول الزمني للمسيرة بنجاح. ـ تطبيق الفواعل سياسة اقتصادية لإصلاح شققهم وتأثيثها. ـ تجميل حي مصر الجديدة، وتعزيز البنية التحتية.	ـ تعمق الهوة بين الفئات والطبقات الاجتماعية. ـ استفحال الظواهر الاجتماعية (الغش، التهريب، الفساد، ارتفاع الأسعار..). ـ توتر العلاقات الاجتماعية. ـ معاناة الموظفين الصغار من اللحاق بالمسيرة.

(جدول رقم 16 القيم المبهجة والمحزنة).

وهكذا يتضح من خلال هذا الجدول أن المسيرة حملت معها قيما إيجابية وسلبية. فبقدر ما خلقت دينامية اجتماعية واقتصادية وسياسية لإحداث قطيعة مع الاشتراكية الناصرية، ومد الجسور مع المعسكر الرأسمالي، بقدر ما أسهمت في حرمان الفئات المتوسطة والمستضعفة، وتغليب القيم التبادلية على القيم الاستعمالية.

ب ـ ازدواجية القيمة :

قد تبهج صورة ما طرفا وقد تحزنه. فصورة المسيرة تفصل بين موقفين متناقضين. أحدهما ذو منزع ليبرالي، يعدها إيجابية بدعوى أنها تحمل معها قيما مستحبة (على نحو الحرية، والسلم، والانفتاح، والجدة). وثانيهما ذو منزع اشتراكي، يفند مزاعمها، ويرى بأنها لا تحمل معها إلا القيم المستبشعة (على نحو التخاذل، والحرمان، والأنانية، وبدع الملكية).



ج ـ المحزن مبعث الاعتزاز :

إن انخراط مصر في مسيرة الهدم والبناء حتم على الفواعل الكد من أجل تحسين ظروفها الاجتماعية. فإذا كانت بعض الفئات لم تجد صعوبات كبيرة في التكيف مع المسيرة ومواكبتها لتحقيق مآربها، فإن فئات أخرى عانت الأمرين من اللحاق بها. ومن ضمنها فئة البورجوازية الصغرى التي تنتمي إليها ذات. ونظرا لارتفاع الأسعار وهزال الرواتب، فقد تأزمت هذه الفئة، وأصبحت تعاني من المشاكل نفسها تقريبا التي تتخبط فيها الفئات المستضعفة والمحتاجة. وهذا ما جعل تلك الفئة تستصعب الانخراط في المسيرة ومواكبتها. ومع ذلك استطاعت ذات بصفتها عينة من الفئة المعنية أن تسطر برنامجا منتظما لإثبات ذاتها في المسيرة ومفاخرة جيرانها وزملائها بالمنجزات المحققة. فمجرد أن تزوجت وجدت نفسها أمام بعض الأولويات (الشقة، العمل، التأثيث). وبعد أن أوجد لها زوجها عملا في صحيفة يومية، أصبحت منشغلة ببرامج البث المتعلقة بالمسيرة ومستجعاتها. وبقدر ما تتسم كل مرحلة من برنامج المسيرة بالجدية والشقاوة والمحن (كثرة الحاجات وقلة المال، تأزم العلاقة الزوجية، مقاطعة الزملاء لذات)، بقدر ما تقترن إبان استحضارها بمشاعر الاعتزاز والافتخار. ولما تنتهي مرحلة، تبدأ مرحلة جديدة تحتمها متطلبات الحياة الملحة. وبما أن إكسير

الحياة يتجلى في تجدد المطالب والرغائب، فإن ذات تجد نفسها دوما أمام تحديات جديدة تستدعي منها بذل قصارى جهودها للتغلب عليها. وهذا ما أجمله الشاعر إيليا أبو ماضي في هذا البيت المقتطف من قصيدة **تأملات*** :

إن النفوس تغرها آمالها *** وتظل عاكفة على آمالها

أيمكن للمرء أن يتدارك أخطاءه و يبذل مجهوداته حتى لا يضيع الفرص المعروضة عليه ، لو أتيحت له فرصة العيش من جديد (أسطورة الرجوع الأبدي). وبما أنه محتوم عليه بأن يعيش حياة واحدة بإيجابيتها وسلبياتها، فإن إمكان معاودة تجاربها ووقائعها ستكون تكرارا للمآسي نفسها والاختيارات ذاتها. وهذا ما سينجم عنه الملالة والرتابة.

وعليه، يرتبط طرفا المقولة الانفعالية بصورة المسيرة على النحو التالي :

المحزن [الحاضر / للجدية، المحن] = [الماضي / الاعتزاز، المفاخرة] المبهج

وفي حالة ما إذا لم تتمكن الذات من تحقيق ما كانت تصبو إليه، فإن المعادلة تقوم على طرف واحد (الطرف السلبي)، وتتشخص كما يلي:

المحزن [الحاضر / الجدية، المحن] = [الماضي / الندامة، تأنيب الذات] المحزن

2.2- التجلي الأكسيولوجي :

تشكل الصور الموظفة «ممارسات» (تكنولوجية، سوسيوثقافية) مميزة للمجتمع الذي يُطوِّعها، وينقل عبرها كل أشكال الأحكام التأويلية (الذاتية) الكامنة في اللاشعور اللغوي الجمعي، كما أنها تعتبر بمثابة عينات ذاتية (subjectivèmes) تتضمن معاني وتقويمات ذاتية(16).

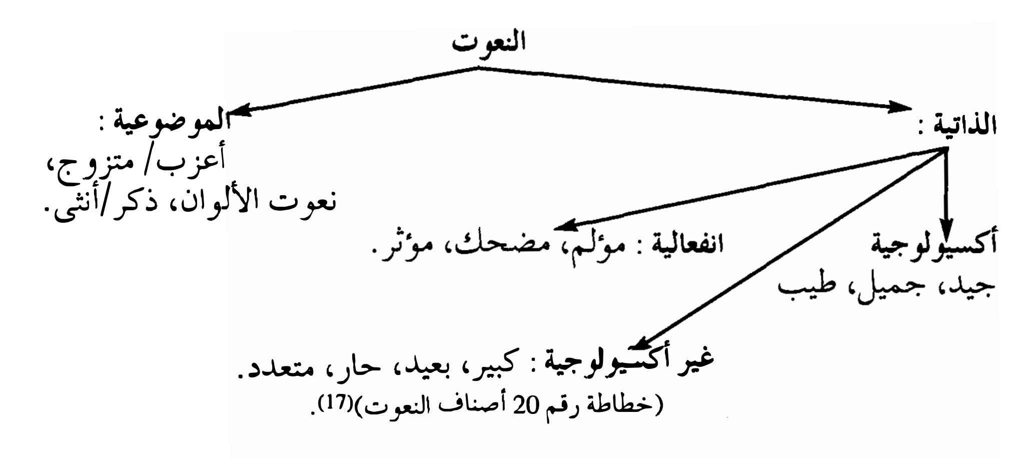
1.2.2- الأحكام القيمية :

هي عبارة عن أحكام إما تثمن الموضوع المتحدث عنه أو تستخف به. وتتشخص بواسطة النعوت، والأفعال الذاتية، وأشباه الجمل ذات الصبغة التقويمية.

* ديوان أبي ماضي، دار العودة، بيروت، 2002 ص 584.

أ ـ النعوت :

تتفرع النعوت (أكانت حقيقية أم سببية) على النحو التالي :



(خطاطة رقم 20 أصناف النعوت)(17).

تندرج النعوت الذاتية في نطاق إشكالية التلفظ، وتتعلق بما يسميه لويس يالمسلف «بالمستوى التأويلي للغة» (18). ويمكن أن نمثل بنوع واحد منها، وهو المتعلق بالنعوت غير الأكسيولوجية.

1- «حصلت على رقم التليفون من إحدى الماكينات **المحجبة**..» (ص203).

2- «وهو الأمر الذي لم تغفله الماكينات **اليقظة**..» (ص99).

- «ورفعت صوتها ليصله عبر الماكينات **المنهمكة** في البث» (ص 165).

3- «فقبل ذلك بفترة، انضم إلى الأرشيف ساعي جديد لخدمة الماكينات **المثقلات** بالعمل وتلبية احتياجاتها» (ص 154).

نستنتج من هذه الأمثلة ما يلي:

أـ يُشَيِّءُ الناظم الخارجي الموظفين العاملين بالأرشيف (الماكينات)، ولا يسترجعون إنسانيتهم إلا بفضل بعض المصانف المسندة لهم. ومن ضمنها النعوت الحقيقية التي تميزهم وتبين مواصفاتهم. ومن خلالها يتبين مدى تنوعهم وتوزعهم إلى فئتين : فئة محتجبة، وفئة يقظة. وتحيل كل فئة من هاتين الفئتين ضمنيا إلى نقيضها: فئة سافرة، وفئة غير يقظة.

ب ـ تستأثر موضوعات البث باهتمام الموظفين، وتشغلهم عن الأمور الأساسية في حياتهم العملية.

ج ـ يوظف الناظم الخارجي صفة «المثقلات» ليبين مدى تراكم الأشغال على الموظفين، وتثاقلهم في أداء المهمات المنوطة بهم، وعدم اقتسام الوظائف فيما بينهم لإنجاز أعمالهم في الوقت المحدد وبفعالية.

ب ـ أشباه الجمل :

تكون بعض الصور موصولة بأشباه جمل تبين طبيعتها، وتحظى بمنزلة دلالية تقويمية. وفي هذا الصدد يمكن أن نسوق الأمثلة التالية :

4- «حافظ سكان العمارة على الجدول الزمني للمسيرة **بنجاح**» (ص 15).

5- «فالعزلة التي عاش فيها الشنقيطي وزوجته لم تمنعهما من تأمل المسيرة إياها **في عمق**» (ص 61).

6- «..بمصادقة زوجته التي وجدت في القادم الملكي (أمجد) فرصة لا تعوض لتحقيق هدف أكثر آنية هو تسجيل نقطة في مسيرة الهدم والبناء تتجاوز **بكثير** ما يمكن أن تحققه السرمكة أو الكمبشة أو الكندشة.

منح شبه الجملة للملفوظ (4) قيمة إيجابية تتمثل في قدرة سكان العمارة على احترام الجدول الزمني للمسيرة. وفي حالة الاستغناء عنها، فإن الملفوظ سيفقد قيمته الحجاجية والتقويمية. ويفترض وجودها تكميما ضمنيا (quantification implicite) ، أي أنها تبرز درجة المرجع (أهمية المسيرة وقيمتها). كما أنها تكشف عن الكفاية الإيديولوجية لسكان العمارة : الانخراط بجدية في المسيرة لإحداث قطيعة مع النظام المتقادم (الاشتراكية)، وتحقيق ذواتهم في النظام الجديد (الليبرالية). ولا يمكن لسكان العمارة أن يحققوا النجاح المتوخى، إذا لم يعطوا للمسيرة ما تستحقه من أهمية، ويخططوا برنامجا منتظما لإدراك الغايات المتوخاة مِنه.

يتبين من خلال الملفوظ (5) أنه رغم عدم انخراط الشنقيطي وزوجته في المسيرة، فهما يترصدان خطواتها، ويتابعان تفاصيلها وجزئياتها لاستخلاص النتائج الضرورية. وهكذا فشبه الجملة يوسع من دائرة الذاتية اللغوية (تثمين المسيرة)، ويكشف عن الكفاية الإيديولوجية للفاعلين (الشنقيطي وزوجته) : الرغبة في الانخراط في المسيرة، ودراستها، وتحين الفرص المناسبة لولوج عوالمها. ويعزى السبب الأساسي في تأخر انخراط الفاعلين إلى العوز المالي. ولم يتمكنا من اللحاق بالمسيرة إلا بعد أن تحسنت وضعيتهما الاجتماعية.

يتضح من الملفوظ (6) أن شخصية ذات مهمومة بحصد نقط إيجابية في برامج البث.

لقد وجدت في المولود الجديد فرصة للتباهي ، والاعتداد بالذات، ومقاومة المقاطعة التي تعاني منها بالأرشيف. ولهذا أدرج الناظم الخارجي شبه الجملة (بكثير) لتبيان القيمة التفاضلية للمولود في مسيرة الهدم والبناء: فقيمته تضاهي قيمة الإصلاحات المنجزة بالمنزل. وإلى جانب هذه القيمة، نجد القيمة العاطفية (la valeur affective) التي تتمثل في تقدير الأم لابنها، وتفضيله على كل ما يحفل به الوجود. ولهذا فذات ستؤثر ما يتعلق بابنها (التربية، التمدرس، اللباس، التغذية..) على الشؤون المنزلية الأخرى (الترميم، الإصلاح، التأثيث).

ج ـ الأفعال الذاتية :

تسعف الأفعال الذاتية المتكلم على إصدار أحكام تقويمية. ويمكن مِن خلال هذه الأسئلة والأجوبة أن نأخذ فكرة مجملة عنها.

بمن (وبما) يتعلق التقويم ؟

ـ بالعملية نفسها: **يصرخ** الطفل. تكون الأفعال من هذاالطر از ذاتية داخليا.

ـ بموضوع العملية: أكان المنفذ جمادا أم كائنا حيا. **يكره** فلان زميله.

ماهي طبيعة الحكم التقويمي؟

ـ ما يندرج في الإطار الأكسيولوجي بواسطة مفهومي الجودة/ القبح.

ـ ما يدخل في إطار التوجيه بواسطة المفاهيم التالية: صحيح/ خاطئ/ مشكوك فيه(19).

تحفل الرواية بكثرة الأفعال الذاتية نأخذ مِنها، على سبيل المثال، ما يلي :

7- «لم **تغفر** ذات لزوجها مسؤوليته عن أمثال هذا الموقف، فبطريقته القاطعة رفض عبد المجيد الالتحاق بالمسيرة دون إبداء الأسباب» (ص 56).

8- «**واضطرت** إلى استكمال المساحة الباقية بدهان الزيت المألوف» (ص 69).

9- «ما **تزال تفكر** في اللحاق بمسيرة الهدم والبناء» (ص 342).

يتعلق الفعل المبرّز في الملفوظ (7) بموضوع العملية، وهو الفاعل عبد المجيد. ويتضمن ذلك الفعل قيمة سلبية (النفي) وانفعالية (الامتعاض والسخط)، وإيحاءً دينيا (استغفار الله من الذنب المقترف). ووظف الناظم الخارجي الفعل بالذات ليبين أن عبد المجيد ارتكب في نظر زوجته ذنبا لا يحتاج إلى العفو عنه. ويتمثل هذا الذنب في تفويت الفرص عليها لإصلاح منزلها وتأثيثه، وتسجيل نقط إيجابية في برامج البث التي تجمعها يوميا مع جاراتها وزملائها.

إن موضوع العملية في فعل «اضطرت» (الملفوظ8) هو ذات. فما حتم عليها استخدام دهان الزيت المألوف هو نفاذ ما جمعته من المال المخصص لإصلاح شقتها. ويفيد الفعل أيضا إخفاقها في صباغة ما تبقى مِن الجدران بالطراز نفسه على إثر الخصاص المالي.

يعد فعل مازالت (الملفوظ9) من الأفعال الرابطية التي تدل على الزمن دون الدلالة على الحدث. ويتضمن الفعل جهة الاستمرارية. فمازالت ذات ـ منذ سنوات طويلة ـ تكد من أجل اللحاق بالمسيرة. ومن بين ما عطل عليها ذلك هو ارتفاع تكلفة تربية الأبناء، وسجن زوجها بسبب الخلاف الذي نشب بينه والشنقيطي.

2.2.2- الإيحاءت الأكسيولوجية :

تحتوي الصور على إيحاءات أكسيولوجية منسجمة مع الذهنية أو الثقافة التي أنتجتها. و في هذا الصدد استخدم المتكلمون صورا ممتوحة من الحقول التالية:

أ ـ الحقل الاقتصادي :

يوظف المتكلمون صورا اقتصادية للتعبير عن مآربهم وأغراضهم. ونذكر منها على وجه الخصوص ما يلي:

ـ البضاعة : يَسِمُ عبد المجيد زوجته بالبضاعة التي أنفق عليها مذخراته، ورهن مستقبله بها. ومن بين ما عكر صفو حياته وكدر عيشه أن البضاعة لم تكن سليمة، لأن الآخرين «سبقوه للعبث بها، بمحتوياتها أو على الأقل بغلافها» (ص 16). فهو يجردها من طابعها الإنساني، ولا يصدر عنه ما يدل على وجودها ككائن حي يستحق العيش والحياة. فهي مجرد متاع أو قُنية يتاجر بها.

ـ الأمن الغذائي : نظرا لارتفاع الأسعار، وزيادة الطلب على السلع الغذائية، أصبحت العائلات أغلبها تعاني من مشكلة نقص الغذاء. ولهذا تحاول-بتدبيرها الخاص ـ أن تؤمن الاكتفاء الغذائي حتى تحصل على الأغذية الضرورية.

ـ الماكينات : حولت سياسة الانفتاح المواطن المصري إلى آلة مجردة من الأحاسيس، ولا شغل لها إلا اجترار برامج البث (الاغتياب، الإشاعات، أخبار الصحف، اللهث وراء المال).

ـ المادة المصنوعة : يعنى بها قدرة الفرد على ابتداع برامج البث وترويجها حتى يشهد له بالكفاية والذكاء. ويفاضل الناس بين مختلف المواد لانتقاء أكثرها إثارة وإشباعا لفضولهم.

ب ـ الحقل السياسي :

يمتح المتكلمون صورا ذات شحنات سياسية لوصف العلائق القائمة بينهم، وإسقاطها على بعض الظواهر الاجتماعية لإضفاء مسحات من السخرية عليها. ونذكر منها على سبيل المثال ما يلي:

ـ المقاطعة : قاطع الموظفون ذات بسبب إخلاصها لثورة جمال عبد الناصر، وترديدها لاسمه في أحاديثها. ولم تنحسر حدة المقاطعة إلا في فترة حمل ذات، والتحاق موظفة جديدة (تدعى نادية) بالأرشيف بعد طردها من قسم آخر. وإذا كانت المقاطعة بالأرشيف تقترن بالمنافسة والضغينة والسخرية والفتور، فهي تقترن في المنزل بالعفونة. «والنزاع المحتدم : انفصلت جلسة الحوار باتجاه كل منهما إلى قاعدته : هو إلى الفراش وهي إلى المرحاض» (ص 102).

ـ الانفتاح : أصبحت هذه الصورة متداولة في كلام الفواعل، ويعنى بها اقتناء المنتوجات الأجنبية بعد التدقيق في تاريخ إنتاجها ومدة صلاحيتها. «وشيئا فشيئا بدأت عزيمتها تفتر (خاصة وقد بدأت الماكينات تسخر من حماسها ثم انقلبت من السخرية إلى المقاطعة)، فطبقت سياسة الانفتاح بدرجة محسوبة: سمحت بدخول بعض المعلبات المستوردة من بلاد محترمة، مبتعدة عن العلب الورقية وغير الملحومة (نصائح الدكتور فريش)، مدققة في تاريخ الإنتاج وتاريخ الصلاحية. هكذا وجدت علبة الزيتون اليوناني طريقها إلى مطبخها» (ص237).

ـ السياسة الرشيدة : توظف الفواعل هذه الصورة المستهلكة في الخطاب الرسمي. ويعنى بها تدبير الشؤون المنزلية بطريقة معقلنة (ضبط الحاجات، صرف الميزانية، تنظيم العلاقات الخارجية مع السوق..)، وذلك حتى تتمكن من اللحاق بمسيرة الهدم والبناء، ومواكبة إيقاعها السريع.

ج ـ الحقل الديني :

إن تأزم الوضع الاجتماعي للفواعل وفقدان ثقتها بالأنظمة السياسية، حفزها أكثر على التشبث بالدين الإسلامي، والإسهام في صحوته، واستخدامه ذريعة لانتقاد الأوضاع الاجتماعية والتمرد عليها. وهكذا نجد كلامها يستقطب الصور التالية : الحجاب، الدعوة، الجهاد، تحريم الفواحش..الخ.

د ـ الحقل الاجتماعي :

يبتدع كل شعب صورا دالة للتعبير عن بعض التطورات الحاصلة في مجتمعه، والتعبير عن موقفه من الوجود، واستجلاء بعض الظواهر الاجتماعية الكبرى [20]. ومن بين الصور التي وظفها المصريون للسخرية من سياسة الانفتاح ، نذكر أساسا : السرمكة الكمبشة، الكندشة، التليباتي (تبادل الأخبار والنكت).

3- خصوصية القيم في ضوء جدلية الجنس الروائي :

تنتظم الصور في إطار القيم التالية:

أ ـ التضعيف الحكائي :

تتكون رواية **ذات** من مستويين حكائيين كبيرين، وهما المحكي المؤطِّر (قصة ذات) والمحكي المؤطَّر (قصاصات الأخبار). ويتفرع كل مستوى إلى مستويات حكائية صغرى. وهو ما ترتب عليه تعدد الرواة والمستويات والمنظورات السردية.

ب ـ الإرصاد المرآتي :

تشكل اللوحة الإشهارية (امرأة تصلح مطبخ منزلها) مرآة بنيوية مصغرة تلخص أحداث الرواية وتفاصيلها (ما يتعلق بمسيرة الهدم والبناء)، وتنهض بوظيفة استمالة الجماهير العريضة وتطويعها.

ج ـ الواقعية اللغوية :

انفتحت الرواية على البنيات اللغوية (اللغات الفردية، واللغات الاجتماعية، والوحدات الأسلوبية) التي سادت في فترة من تاريخ مصر الحديث، وشخصتها بطريقة أدبية لتكييفها داخل السياقات التي أصبحت مدرجة فيها، وشحنها بعينات دلالية وإيديولوجية جديدة.

د ـ الوحدة الكلامية الكبرى (البث) :

تتمحور الرواية حول وحدة **البث** التي تشكل موضوعة مركزية. وقد أسهمت مختلف تجلياتها في إغناء التمظهر المعجمي والدلالي، وتناسل المحيكات والبرامج والمشروعات التي تتعلق بمسيرة الهدم والبناء.

خاتمة :

مما تقدم يتضح أننا استفدنا من التصورات السيميائية للصورية، ثم حاولنا أن نعطيها منزلة داخل مشروع سيمائية الكلام ، وذلك انطلاقا من الزوايا التالية:

أ ـ إبراز طبيعة العلاقة التي تجمع بين ما هو ملموس (الصور) وما هو مجرد (الموضوعات) ، وتمييز الصور الأيقونية من الصور المجردة.

ب ـ تبيان آثار التلفظ التي تسم الصور سواء من خلال مجاراتها للنسق الثقافي، وارتباطها بالوضعية الاجتماعية اللغوية، وتضمنها لقيم وإيحاءات أكسيولوجية، وارتهانها بالطابع الشخصي والمحلي.

ج ـ إظهار القيمة التي تستمدها الصور من طبيعة الطقوس الاجتماعية أو الإبدالات السياسية ، ومن مكانة المتلفظين وانتماءاتهم الاجتماعية والجغرافية والقطرية.

الهوامش:

1- Geninasca (G), La parole littéraire,PUF,1997, p19.
2- Jean-Marie Floch « Figures, iconicité et plasticité» in La figurativité, II, Actes sémiotiques, VI, 26, Juin 1983.
3- A.J. Greimas et J. Courtes, Sémiotique Dictionnaire raisonné de la théorie du langage, Hachette, 1979, p151.
4- François Rastier, «Le problème du figuratif et l'impression référentielle», in La figurativité,II, op.cit p/p 12-15.
5- A. J. Greimas et J. Courtes, Sémiotique Dictionnaire raisonné de la théorie du langage, op. cit, p151.
6- J. Courtés, Analyse sémiotique du discours de l'énoncé à l'énonciation, hachette, 1989, pp. 166/167
7- J. Courtès, Analyse sémiotique du discours, op. cit, p 169.
8- فليب هامون، «خطاب مقيد» في الأدب والواقع، ترجمة محمد معتصم وعبد الجليل الأزدي، ط1، 1992، تنمل ، مراكش، ص 79.
9- Philippe (H), «Statut sémiotique du personnage», in poétique du récit, 1977, p 122.
10- محمد مفتاح، دينامية النص [تنظير وإنجاز]، المركز الثقافي العربي، ط1، 1987، ص 28.
11- عبد الفتاح كليطو، الأدب والغرابة دراسات بنيوية في الأدب العربي، دار الطليعة، بيروت، ط2، 1983، ص 36.
12- J. Courtés, Analyse sémiotique du discours de lénoncé à l'énonciation, op.cit p169.
13- Denis Bertand, L'espace et le sens Germinal d'Emile Zola, Hodés-Benjamins, 1985, p 33.
14- A.J.Greimas et J.Courtes, Sémiotique Dictionnaire raisonné de la théorie du langage, op.cit, p16.
15- Denis Bertand, L'espace et le sens Germinal d'Emile Zola, op.cit p66.
16- Catherine Kerbrat-orechioni, L'énonciation de la subjectivité dans le langage, Armand colin, 1980, p70.
17- ibid p84.
18- Ibid p84.
19- ibid p101.
20- أنظر في هذا الصدد إلى صور الساحة العمومية التي وظفها فرنسوا رابلي في مؤلفاته.

Mikhaï Bakhtine, «Le vocabulaire de la place publique dans l'oeuvre de Rablais», in «L'oeuvre de François Rablais et la culture populaire au moyen âge et sous la renaissance», Gallimard,1 1970, pp 148-197.

الفصل التاسع :

تجليات الصورية في الروايات الحافة

تمهيد :

على غرار الفصل السابق، ننطلق من مستويات التحليل نفسها لبيان تجليات الصورية في الروايات الحافة (**الضوء الهارب، ثم برج السعود، ثم شطح المدينة**)، واستنتاج ما يربطها بالواقع، وما تتسم به من آثار تلفظية وقيم فنية.

1- رواية الضوء الهارب.

1.1- علاقة الصوري بالموضوعاتي :

شُخصت موضوعة **الغيرة** خطابيا بواسطة سلسلة من الصور، نذكر من ضمنها: الجسد، والسهرة، والمغامرات المكرورة، والشرفة، ومهرجان الشهوة، ولعبة الحب، وغزل مكشوف. وتتضافر هذه الصور فيما بينها لتبيان المكانة التي يحظى بها العيشوني في قلب غيلانة وابنتها فاطمة، والكشف عما تتمتع به هذه الأخيرة من ذكاء لانتزاع أمها من شرك العيشوني ،وتسليط مزيد من الأضواء على جوانب داجية من حياتها.

وتتشكل موضوعة **الرسم** من الصور التالية : الموديل، العاريات، اللون ، القماش، الدفعة، الاندفاعة الداخلية، نورانية، الخطوط. فبعد أن أمضى العيشوني سنوات عديدة في رسم موديلات نساء عاريات وطبيعة صامتة ومناظر لأحياء طنجة، أراد أن يجرب أسلوبا يلائم قناعاته وإحساساته ورؤيته للكون. وهذا ما جعله يقضي شهورا طويلة في التأمل وملاحقة الأضواء المنفلتة لعله يفلح في تجسيدها داخل قماش اللوحة. ولما شعر أن كتابة المذكرات لا تسعفه على نقل إحساساته، والتقاط ما تختزنه ذاكرته، عاد ثانية إلى اللوحة يتأمل فضاءها الرحب القادر على اختزال تفاصيل الكون بين ثناياه، ويستمتع بمطاردة أطياف الضوء الهارب منه باستمرار.

تتناسل من موضوعة **المكاشفة** الصور التي تتعلق بنشوة الجسد ومتع الحياة والجمال وأسرار الذات. وتتشخص هذه الموضوعة في الرواية كلعبة المرايا المتقابلة. تكشف مرآة عن جانب معين من حيوات الفواعل، ثم توصل بمرآة أخرى لإضاءة جوانب أخرى. ولا يمكن أن تتوضح معالم حياة الفاعل إلا بمقابلة المرايا المختلفة، ومقارنة ما تتضمنه من عينات سيرية. وهكذا تحاول الرواية استثمار أسلوب التنويعات على موضوعة. وهو الأسلوب الذي نجده في الموسيقى والتشكيل. ويقوم أساسا على تكوين نغم أو فضاء جديد من العلائق التجريدية بين مختلف العناصر، ونفي الحقيقة الواحدة. «فبينما توجد حقيقة واحدة في الخارج في صيغة الأصوات المتعددة يستكشفها القارئ من الأصوات المختلفة التي يروي كل منها نظرية للواقع ؛ فإن فكرة الاحتمالات المختلفة تنفي الحقيقة الواحدة وتقدم تنويعات محتملة ومختلفة لما يكون أن يكون. إن فكرة تعدد الاحتمالات الممكنة قد تكون صورة من صور

التنويعات على تيمة Variations sur un thème التي نجدها في الموسيقى، وهي تعبير عن خصوبة خيال الفنان وتعدد رؤاه»(1).

وبالمقابل، نجد صورة واحدة تحيل إلى موضوعات متباينة. تولدت صورة **القماش** من الموضوعات التالية : إعداد موديلات نسوة عاريات، واللهث وراء الضوء الهارب، والانخراط في لعبة الحب المتجدد، ومكاشفة الذات والآخرين.

وتتفرع صورة **الجسد** عن الموضوعات التالية: إدخال غيلانة العيشوني إلى لعبة الحب، وإبراز فاطمة لمفاتنها في سهرة فخمة بأحد الفنادق، واقتحامها لعالم العيشوني وتوريطه في حبها، واقتداؤها بالآنسة بونون في اجتذاب الرجال وإرضاء فضولها الجنسي.

وتضرب صورة **طنجة** بجذورها في الموضوعات التالية : تساكن الأجناس، زيارة الملك محمد الخامس مدينة طنجة سنة 1947، العودة إلى حظيرة المملكة سنة 1958، تنظيم كرنفال قبل سنة 1936، بناء اللورد الأيقوسي فندف «المنزه» على الطراز الأندلسي.

إن إعادة تنظيم الصور على النحو نفسه (علاقة الاحتواء بين الصوري والموضوعاتي) تسعف على «فهم سيرورة الترميز التدريجي انطلاقا من العناصر المتفرقة في النص»(2). وهكذا، يمكن أن نوزع الصور على مستويين أساسيين : أحدهما بصري يتعلق بمظاهر الجمال ومفاتنه سواء أكانت من سمات الإنسان أم مما يحيط به من أشياء (السرير، البحر، الفندق، اللوحة..) ؛ وثانيهما شعوري يتغلغل في طوية الفواعل لاستجلاء إحساساتها وانفعالاتها . فبقدر ما تتقارب أو تتباعد، بقدر ما تبعث مشاعر من مرقدها وتؤجج زندها. ويلعب هوى الغيرة دورا كبيرا في تنظيم العلاقات البين ـ ذاتية (بين الأطراف الثلاثة)، وتوزيع الأدوار فيما بينها (بما فيها الأدوار التحدثية المتعلقة بالحديث والمكاشفة والبوح).

2.1- أيقونية الصورة :

أ ـ مقتضيات الواقع :

وإن كانت **الضوء الهارب** تشخص الواقع بطريقة مضادة (التضعيف الحكائي، التشخيص الأدبي للغة، التنويعات على موضوعة، تعدد الرواة..)، فهي تمد الجسور معه من خلال إعادة استثمار مواده. وبذلك ترسخت في بنياتها الداخلية جزر من الصور الأيقونية التي تتسم بأثر الواقع، ونذكر من ضمنها ما يلي :

ـ ثورة الطلاب سنة 1968.

ـ جلسة الأسئلة الشفهية بمجلس النواب.

ـ استرجاع طنجة وضعيتها الدولية سنة 1945.

ـ زيارة محمد الخامس مدينة طنجة سنة 1947.

ـ تشييد الأيقوسي فندق «المنزه» سنة 1930.

ـ بلدة صغيرة تسمى بوتيجان Petit-jean.

ظلت هذه الجزر اللغوية (وما يندرج في إثرها) وفية للمسارات التي قطعتها، على الرغم من إدراجها في سياقات تخييلية ومنحها وظائف ومنازل جديدة. فهي ـ في الوقت نفسه ـ منضبطة للقيود الجمالية والمقتضيات الواقعية. وفي حالة عدم احترام الكاتب لهذه المقتضيات، فإن القراء سينعتونه بعدم دقة معلوماته. وهكذا، سيكون من باب الخلط أن ندعي أن ثورة الطلاب التي تزعمها كوهن بنديت كانت سنة 1973، وأن الأسود تعيش في القطب الشمالي. فمهما كانت درجة التخييل في العمل الفني ودرجة انزياحه عن الواقع، ينبغي له أن يحترم قيود المعقول مراعاةً للنسق الثقافي (الواقع الملموس) وضمانا لحد أدنى من التواصل مع المتلقين. «إن مقاومة» «الواقع» (في شكله المكتوب طبعا) للبنية محصور جدا في المحكي التخييلي، القائم أساسا على نموذج ليست له، في خطوطه الكبرى، إلا قيود المعقول؛ لكن هذا «الواقع» نفسه يصير مرجعا أساسيا في المحكي التاريخي، المجبر على سرد «ما حدث فعلا» (3).

ب ـ الملفوظات المشخصة :

يشخص محمد برادة الملفوظات اللغوية بطريقة أدبية، محافظا على مرونتها وأصالتها الأسلوبية، ومضفيا مسحات دلالية وإيديولوجية عليها. ورغم صعوبة نقل الخصائص الشفهية إلى المكتوب، فقد حاول المؤلف أن يتدارك العوز اللغوي (insuffisance du langage) ؛ وذلك بتوظيف الصور ذات الإيحاءات الجغرافية (على نحو لهجة شمال المغرب ذات الإيحاءات اللغوية الخاصة والمنفتحة على تعابير ومفردات إسبانية (ما أناشي مع البراني، وسيبت راسها، التشورو، الباسيو..)، وتنضيد اللغة مهنيا (لغة الرسام، ولغة المومس، ولغة رجل الأعمال..) واجتماعيا (محاكاة أساليب الاستجداء والوصلات الإشهارية والخطب الرسمية بطريقة ساخرة، والمزج بين لغات مختلفة (العربية الفصحى، العامية المغربية، الإسبانية، الفرنسية) في الملفوظ نفسه، وتشييد الوحدات اللغوية والأسلوبية على قاعدة التجابه الحواري لتبادل الإضاءة والنقد فيما بينها، واستحضار الصمت بوصفه فعلا تلفظيا (4) (علامات الترقيم).

ج ـ الاستجابة للتوقعات ومباغتتها :

مهما كانت درجة التجريد في الرواية، فهي تراهن على تجاوب القارئ مع أحداثها؛ ولذلك تقدم له المعطيات ليفهمها ويؤولها «بعمليات المقايسة والتصنيف والتماس الخصائص النوعية» (5)، كما تسمح له بالتعميم اعتمادا على مبدأ النظير، وبإعادة الرأي في قياسه وتصحيح بعض أجزائه (6). وهذا ما يضمن تفاعله مع النص، ويسهل عليه قراءته وتمثله. وفي هذا الصدد، ينبغي له استخدام خلفياته المعرفية وبذل مجهودات ذهنية لملء بياضاته، وربط علائقه وتعليلها، وافتراض ما سيقع فيه. وما يزيد الأعمال الفنية إثارة وتشويقا هو قدرة أصحابها على تبني اختيار مبرر غير مألوف لدى القراء. وإن كانت التوقعات مفهومية، فهي تعتمد على الصور المعتادة في «الواقع الملموس»، وعلى ما تراكم لدى القارئ من معارف وتجارب. لنفترض أن سيارة الإسعاف نقلت مريضا إلى (س). يمكن أن تحل محل حرف السين جملة من الصور، نذكر من ضمنها: مستشفى، مركز صحي، عيادة..(7). لكن حرف السين لا يحتمل صورا أخرى لأن السياق لا يستدعيها، وذلك على نحو : المدرسة، والسجن، والإذاعة. «يحول ظاهر النص وزمانه ومكانه دون إسقاط الذات لأوهامها ومكبوتاتها عليه ظلما وجورا؛ فإذا كان دور استجابة الذات المتلقية للنص أمرا مرغوبا فيه وملحا في دراسات متعددة، فإن ذلك الدور يجب أن توضع له قيود لئلا يتغلب الهذيان على الوقائع ويسود التسيب على الكلام المسؤول» (8).

تستتبع صورة **زيارة فاطمة للعيشوني** «متوالية ثابتة من الأحداث النموذجية تصف وضعا» (9). وهي عبارة عن توقعات مفهومية وصور مفترضة تمليها طبيعة التفاعل الحاصل بين مقتضيات الواقع وبين السياقات النصية. ويمكن أن نشخص مدونة الزيارة على النحو التالي :

الزيارة :

- ابتياع فاطمة لوحة من لوحات العيشوني.
- إجراء حوار صحفي معه.
- التماس إعداد موديل لها.
- إنجاز شريط على تجربته في مجال الرسم.
- تذكيره بالعلاقة التي تجمعهما.
- اضطلاعها بمهمة رسول.

حين يطالع القارئ مطلع الرواية يطرح مثل هذه التوقعات لعله يفلح في فهم ما تتوخاه فاطمة من زيارتها للعيشوني. لكن الروائي يفاجئه باحتمال قد لا يخطر على

باله، وهو يتعلق بتفقد فاطمة بيت العيشوني لحفزه على مكاشفتها بالتجارب التي جمعته بأمها. إن مباغتة القارئ بهذا الاحتمال تسعف على الارتقاء بصورة الزيارة من المستوى الأيقوني إلى المستوى التجريدي. في حين نجد، في مواضع أخرى، أن الروائي جارى القارئ في اعتقاداته وتوقعاته ضمانا للتواصل معه وإخضاع النص لمقتضيات الواقع. و في هذا الصدد تدخل صورة ابتياع الدحماني للموديلات. فهو احتمال وارد بحكم أن العيشوني يرضي زبونه بأسلوبه الاستعرائي الذي يدر عليه الأموال. ويظل الطابع الأيقوني راسخا حتى عندما يقاوم العيشوني إغراءات الدحماني. فالفنان يحتاج، في بعض المحطات، إلى معاودة النظر في تجربته حتى يقوم الاعوجاجات والاختلالات ويحسن أداءه الفني. فلما اقتنع العيشوني بعدم الاستمرار في الطريقة نفسها، بدأ يفكر مليا في أسلوب أصيل يعبر بصدق عن إحساساته، ويجسد فلسفته من الوجود. وهذا ما يتطلب منه بذل جهود مضاعفة وقضاء أوقات كثيرة لإسكان الاندفاعة الداخلية القوية في قماش اللوحة.

3.1- تجريدية الصورة :

أ ـ مرتكزات الواقع :

استعملت الشخوص في أحاديثها صورا أيقونية و«معطيات الواقع لبناء الممكن والمراد والمبتغي» (10). وإن أضفى الروائي على هذه الصور طابعا تخييليا، فقد حافظ على مرتكزات الواقع لضمان التواصل مع المتلقي، وإيهامه بالواقع، وإبراز مدى تحريه في دقة بعض المعلومات المعروضة. ومهما كانت درجة التخييل في العمل وتجريديته، فإن الأمر ـ مراعاة مع ما سبق ذكره ـ يقتضي منه «ملاءمة العالم الواقعي بصنع موازيات واقعية له»(11).

ومن بين ما يقوم عليه التوازي، الحفاظ على ما تتسم به الصور من مقومات جوهرية. فرغم اقتران صورة **طنجة** بمصانف جديدة، واستقطابها لعلاقات وهمية (علاقة العيشوني بغيلانة وابنتها، تردد الدحماني على منزل العيشوني لابتياع لوحاته، شلح فاطمة ثيابها في بهو الفندق..)، فقد تعززت بمعطيات واقعية مجاراة لحس القراء المشترك، وانسجاما مع خلفياتهم المعرفية، ومخاطبة توقعاتهم وتنظراتهم. ونذكر من ضمنها ما يلي: مدينة بشمال المغرب، مدينة شاطئية، يوجد بها فندق المنزه وسور المعكازين ورأس سبارتيل وحي الدرادب، استرجعت وضعيتها الدولية سنة 1945 ...الخ. ويتعذر على الكاتب تحيين كل ما يتعلق بمقتضيات واقع صورة ما، فهو لا يشير إلا ما هو دال منها، ويترك للقارئ مجالا رحبا لتدارك ما ظل مغفلا بتشغيل خلفياته المعرفية. لكن إذا لم يسبق لهذا القارئ أن تعرف صورة طنجة من قبل، فيجد نفسه

محتاجا إلى معلومات كثيرة عنها لتمثلها وإدراك مغازيها وأبعادها.

ويمكن للروائي أن يرتقي بالعلائق الواقعية إلى عوالم تجريدية، وذلك بالجمع بين عناصر متباعدة أو متنافرة (كأن جسد العيشوني ما زال مكسوا بطحالب البحر، وجعلت الهجرة عندي أفقا طبيعيا يذوب ما قبله، شعرت لأول مرة أحمل حريتي على كتفي..الخ)، والإتيان بتوفيقات غير مبرمجة في الذاكرة الجماعية ؛ نذكر منها على وجه الخصوص التوفيق الذي نجم عن تعلق رواية **الضوء الهارب** **بآحاد الآنسة بونون** لجاك لورون : افتتنت فاطمة بشخصية بونون واقتفت أثرها في اجتذاب واستغواء الرجال إلى أن أوقعت ماتياس بيدال في شركها، وأقامت في الغرفة نفسها التي ضاجعت بها بونون جيرار. وكان بالإمكان أن تفضي علاقة هذين الأخيرين إلى الزواج لولا تمزيق بونون عنوان جيرار، وتعذر على هذا الأخير الاهتداء إلى رقم هاتفها المثبت بالدليل. ولا يخرج عن هذا النطاق إضفاء مقومات المجتمع الإباحي والمتحرر على مجتمع ما زال متشبثا بتقاليده. وفي هذا الصدد نكتفي بمثالين : أحدهما يهم امتثال فاطمة لطلب العيشوني، فخلعت ثيابها أمام مدعوي كاتب الدولة في مغناه، وهذا ما أثار في الوقت نفسه حفيظة النساء وحبور الرجال. وثانيهما يخص جسارة فاطمة على ربط علاقة غرامية مع العيشوني رغم أنها تعرف طبيعة العلاقة التي كانت تربطها بأمها. وتتميز رواية **الضوء الهارب** (أسوة بروايات من جنسها ونوعها) باستثمار معطيات الواقع (من ذكر أسماء المدن والدول، وأسماء الزمن، والأحداث التاريخية والاجتماعية) «لبناء عالم الأذهان على عالم الأعيان لأنه يستحيل بناؤه بدونها، فهي مرتكزاته، ولكنها ليست إلا ذرائع للإيهام بالواقع والحقيقة» (12).

ب ـ الاستعارة النصية :

تقوم الرواية على صورة «**الضوء الهارب**». وهي صورة مجازية تجمع بين ما هو محسوس (مقومات الضوء) وما هو مجرد (الهروب)، وبين ما هو آني (الحيرة، التردد، الارتجاج، الانفلات) وبين ما هو مستقبلي (إنجاز اللوحة المرغوب فيها). ولم تصبح هذه الصورة حاضرة بقوة إلا بعد أن عدل العيشوني عن رسم موديلات نسوة عاريات، وأراد الانخراط في تجربة فنية جديدة تمكنه من تشخيص آماله وآلامه. ورغم تكرير المحاولات لم يتمكن من إسكان الضوء الهارب في قماش اللوحة. «علي إذن أن أعود إلى الخطوط والألوان لألاحق الضوء الهارب مني باستمرار.. ضوء لا يحتاج إلى كلمات، يفاجئني عندما أفتح عيني في بعض الأصباح لأجده منهمرا من سماء طنجة شفيفا، مترقرقا، مبرزا كل الفروق والتفاصيل، فتبدو الأشياء على غير ما كانت عليه» (ص 177). ورغم ما أحدثه له ذلك من عذاب، فهو يستمتع بإغراءات السراب

وبالملامح الزئبقية المتوثبة. وتحتمل الصورة معنيين يسعفان على إعطاء النص معناه الشامل :

1- أحدهما معنى سطحي، يكمن في بذل العيشوني مجهودات جُلَّى ومضاعفة لرسم اللوحة التي بإمكانها أن تعبر عن مشاعره وإحساساته بدلا من افتعالها لأغراض تجارية. إن انخراطه في التجربة الفنية الجديدة يتطلب منه وقتا كافيا للإمساك بخيوط الموضوع الملائم، وإبداع لوحة معبرة وصادقة. يقضي العيشوني فترات طويلة، وهو يفكر في موضوع اللوحة لعله يجد ما يحفزه على وضع اللمسات الأولى عليها. ألا يمكن أن يكون موضوعه بالضبط هو ضياع الموضوع ؟ (13).

2- وثانيهما معنى عميق، يتمثل في لهث أي إنسان وراء ضوئه الهارب. وهذا ما يعطي للحياة نكهة، ويجعلها تتسم بالعذاب والمتعة في الوقت نفسه. ويُرمَز بالضوء الهارب إلى الأماني التي ينشدها الإنسان، ويجهد نفسه لإدراكها، ويقضي حياته كلها لاهثا وراءها. وإن حقق بعضها، فهو يشعر أمام الحياة بضعف وصغار، لأنه لو كان قويا لَطوَّعها وحقق «التناسب الكامل بين أفعال الروح ومطالبها ؛ مطلب العظمة ومطلب الاكتمال ومطلب الامتلاء» (14). وفي هذا الصدد يصطنع العيشوني صوت أحد الروائيين، فيقول له ما يلي : «كتبت هذه السطور بسبب ضعفي، لو كنت قويا لما كتبت شيئا. لو كنت قويا لروضت الحياة وغدوت سيد رغباتي ورغبات الآخرين» (ص177).

ج ـ التشخيص المضاد :

يشخص الروائي محمد برادة الصور الأيقونية بطريقة جديدة مانحا لها منزلة خاصة داخل السياقات التي تؤطرها. ومن بين ما يعمق المسافة بينها وبين الواقع هو استخدام الروائي تقنيات التشخيص : على نحو البنية الحلزونية، والاستعارة النصية، والتعلق النصي (تعلق رسالة فاطمة برواية **آحاد الآنسة بونون**)، وتعدد الوسائط (المحكيات، الرسالة، التمثيلية، المذكرات، الرسم، الحلم، الاستيهام، لعبة المرايا المتقابلة، والتحقيق..)، والتناقضات الداخلية، والتشكيك في الحقائق المعروضة، والترميز (قماش اللوحة، هروب الضوء، الصدى، الظل). تدخل هذه الإجراءات في إطار الكتابة الجديدة التي تَنِدُّ عن استخدام الكتاب كوساطة بين القارئ و«الحياة الواقعية»، وتفضي إلى سيرورة التشخيص الذاتي (رجوع الكتاب إلى ذاته بدلا من الإحالة إلى خارجه) (15).

4- أكسيولوجية الصور:

1.4- القيم الأكسيولوجية :

يستقطب مسار كل شخصية من الشخصيات الثلاث قيما سلبية وإيجابية بحسب

تقلبات الظروف وصروف الدهر. ويمكن أن تُرصَد على النحو التالي :

	المبهج	المحزن
العيشوني	ـ الاحتفاء باللحظة، اللامبالاة. ـ الحنين إلى المرآة العزيزة ـ المكروهة (غيلانة). ـ الافتتان بالمرأة وبجسدها.	ـ مصدر تعاسة العيشوني هو افتقاد تلك اللحظات الجميلة التي جمعته بغيلانة، وعدم تمكنه من رسم اللوحة التي تحرك المخيلة وتثير المتعة.
غيلانة	ـ ممارسة العهارة مع سبق إصرار لجمع المال وتحقيق رغباتها. ـ استخدام الزبناء للتسلية والمتعة.	ـ توتر علاقتها مع فاطمة بسبب مشاكلها الرعناء، ولأنها لم تحقق ما كانت تنتظره منها.
فاطمة	ـ الاستئناس بالمحكيات والنكت. ـ الاستمتاع بمهرجان الشهوة. ـ استحضار مشاعر البهجة والدهشة والانفعال التي ولدها لديها الحب الأول ـ إعجابها بالحرية التي يوفرها فضاء باريس.	ـ توتر علاقتها مع والدتها لأنها رفضت أن تكون أداة طيعة لها. ـ اعتقال الداودي بسبب نشاطه السياسي. ـ شعور فاطمة بالصدمة وبالرجة العنيفة إثر توصلها برسالة الداودي المفرج عنه.

(جدول رقم 17 القيم المبهجة والمحزنة).

يمكن أن نستنتج من هذا الجدول الملاحظتين التاليتين:

1- تصبح القيم السلبية ـ مع مر الأيام ـ مثار افتخار الذات واعتزازها بما كابدته وتحملته لتحقيق مبتغاها. و ينطبق هذا على شخصية فاطمة.

2- تثير هذه القيم إحساس الذات بالندامة على ما لم يتحقق. وهو الإحساس الذي تشعر به غيلانة كلما استحضرت ما قاسته في تربية فاطمة لتسلك الطريق المرسوم لها.

3- تظل القيم نفسها مرتبطة بحياة الفرد. وتكون ـ في هذه الحال ـ عنوانا للعجز والانهيار والحيرة. وهذا ما تجسده حياة العيشوني الذي لم تسعفه الألوان بعد على رسم ما يتوخاه ويرتضيه.

2.4- الأحكام القيمية :

توظف الروايات في ملفوظاتها نعوتا لتقويم الشخوص (الإشادة أو الاستخفاف)، وتبيان أهوائها وطبائعها. ويمكن أن نقسم النعوت المتواترة قسمين:

أ ـ النعوت الأكسيولوجية :

وهي، غالبا، ما تتعلق بالجانب الجسماني للمرأة. وفي هذا الصدد ينوه العيشوني

بجمال جسدي غيلانة وابنتها. فمن بين المواصفات المضفاة على فاطمة نذكر أساسا ما يلي: جميلة، وخفيفة، ورشيقة، وناعمة، وفاتنة. ولم يشعر العيشوني أمام أي جسد أنثوي بما شعر لما تعرت غيلانة ليرسم لها موديلا. وذلك راجع إلى جمالها الفائق، وبراعة تكوينها، وتناسق جسمها. «لم أكن أدرك جيدا فحوى هذه الوصايا، غير أنني عبر جسد غيلانة أحسست بذلك العنصر الخفي الذي لا تستوعبه النظرة المحايدة» (ص49). وبالمقابل ما شد العيشوني إلى كنزة ليس جمالها، وإنما جرأتها وطريقتها في التعبير وثقتها بنفسها.

ب ـ النعوت الانفعالية :

تلعب هذه النعوت دورا في إبراز طبائع الشخوص وأهوائها. فالصورة الراسخة في ذهن غيلانة وابنتها أن شخصية العيشوني مرحة، وغير مبالية، ومتحدية، ومتشبثة بالآني، ومحتفية باللحظة. وإذا كانت غيلانة تتقزز من سلوك ابنتها وتحط من قيمتها، فإن العيشوني ينوه بتحررها وجسارتها ومناوراتها. ولما يتحدث العيشوني عن غيلانة يستحضر ما كانت تتسم به من جرأة وطموح ونضج ومعرفة بأسرار الحياة. لكن أصبحت ـ بعد عودتها من إسبانيا ـ مجروحة ومفجوعة لأن ابنتها صدمتها بمشاكلها الرعناء. وتشغل غيلانة مكانة خاصة في قلب العيشوني. ولذا فهو يشبه نفسه و يشبهها بمرآة يتقاطع فيها الكره والعزة. «فأضحيت بالنسبة إليها كما أضحت بالنسبة لي المرآة العزيزة ـ المكروهة، المرآة التي لا تخفي شيئا نطمح إلى تكسيرها لكننا دائما نحن إليها» (ص42). ويستخدم العيشوني في ملفوظاته نعتا دالا مازال يلازم تجربته الفنية الجديدة «تماما مثلما أقف أحيانا متجمدا أمام القماش ماسكا بالفرشاة وأنا أراود الضوء الهارب الذي استشعرته من قبل مرئيا حاضرا داخل ما أرسم» (ص42). فهو يعيش حالة جمود لعدم قدرته على إسكان الضوء في القماش، واستجماع أشعته لتشكيل اللوحة المعبرة عن آماله وآلامه.

3.4- الإيحاءات الأكسيولوجية :

توظف الشخوص في مروياتها صورا مشحونة بإيحاءات أكسيولوجية. ويمكن أن نوزعها على الحقول التالية:

أ ـ حقل الانتماءات الجغرافية: تستعمل الشخوص صورا تكشف عن هويتها، وتبين انتماءها إلى المناطق الشمالية التي كانت مستعمرة من طرف الإسبان . ومن ضمنها نذكر : التشورو، الروبيو، باسيو، بوليفار. وهكذا تنضاف اللغة الإسبانية إلى اللغات التي انفتحت عليها الرواية، وشكلت منها بناء هجينا نمطيا (العربية، العامية المغربية، الفرنسية).

ب ـ **الحقل الديني** : وإن وظفت الرواية الصور الدينية في سياقات دلالية جديدة، فقد حافظت على إيحاءاتها الدينية وأصولها التلفظية. «وكان المرقص صورة من يوم الحشر» (ص73). «تتسع ابتسامته وهو يقول : مع ملائكتي ومع طيف بنتي الغزالة» (ص108). فمن خلال هذين الملفوظين يتبين أن صورتي «يوم الحشر» و«الملائكة» ظلتا محافظتين على المقومات الدينية ؛ وذلك رغم توظيفهما في أجواء دلالية جديدة. فيوم الحشر هو يوم البعث والميعاد مأخوذ من حشر القوم إذا جمعهم ، وذلك انسجاما مع قول الله تعالى: ﴿وإذا حُشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين﴾ (16) أما الملائكة فيعنى بها الأرواح السماوية مصداقا لقوله تعالى:﴿تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة﴾(17).

ج ـ **الحقل السياسي** : تستخدم الشخوص صورا ذات إيحاءات سياسية في أحاديثها ومحكياتها وذلك لإضفاء شحنة دلالية إضافية عليها (على نحو تصعيد المعركة، الوصاية والرقابة، راهنية الموقف، المشكلات العامة..). وفي هذا الصدد نكتفي بمثال واحد لتوضيح مسعانا. «وعلى هذه النغمات، مضينا في «تصعيد المعركة» : كلماته ولمسات يديه الحاذقتين، وجسدي الملتهب الفوار المشدود إلى الانعتاق من محرمات وهمية» (ص/ ص 104-105). يستخدم الساسة والنقابيون صورة «تصعيد المعركة» لممارسة الضغط على الخصم، وإرغامه على تقديم تنازلات. وإن ظلت الصورة محافظة على رناتها الأصلية، فقد وظفت توظيفا جديدا لبيان أن علاقة فاطمة بالداودي ستتخذ منحى آخر مسربلا بالتحدي ومشرعا على آفاق التحرر، وذلك حتى لا تظل مقصورة على الغزل واللمس والقبلات المختلسة في الأزقة الخالية من المارة.

5.1- القيم الضابطة للرواية :

تتميز رواية **الضوء الهارب** بالمميزات الفنية التالية :

أ ـ **التراكب الحكائي** : يتناوب الرواة في تنظيم المادة الحكائية، وعرض محتوياتها للمسرود له أكان كينونة ملموسة (المتحاور معه) أم كينونة مفترضة (القارئ). ويرتكز التراكب الحكائي على حس تجريبي يُتوخّى منه تضعيف المحكيات، وخلخلة التسلسل الكرنولوجي للأحداث، وإعادة تشكيلها بطريقة حلزونية. وهكذا تتشابك الخيوط الحكائية وتتكامل فيما بينها لإضاءة الحقيقة من زوايا متعددة، وإثرائها بوجهات نظر متباينة. لقد تكلف الناظم الخارجي بسرد ما استتبعته زيارة فاطمة لمنزل العيشوني من وقائع ومفاجآت، ثم نهض العيشوني نفسه بإطلاع فاطمة عن العلاقة الغرامية التي جمعته بأمها، ثم تضطر فاطمة إلى مكاتبة العيشوني لتبديد ما اكتنف حياتها من غموض ولبس وإضاءة ملامح من وجهها الهروب، ثم يكشف العيشوني عن

المذكرات التي حبَّرها لمواجهة حالة الغصة والقلق الناجمة عن غياب غيلانة.

ب ـ الواقعية اللغوية : يشخص برادة الملفوظات اللغوية بطريقة أدبية. وإن صهرها في بوتقة فنية متماسكة فقد حافظت على أصالتها الأسلوبية ورناتها الأولية. ومن ضمنها نذكر أساسا : اللغات الاجتماعية، الأجناس المتخللة (الرسالة، المذكرة، التقرير)، التنضيد المهني للغات، الأبنية الهجينة، التعليل الموضوعي المزعوم..الخ.

ج ـ التعلق النصي : توجد روايات تبني عوالمها التخيلية تعلقا بنصوص أخرى (18). أما فيما يخص **الضوء الهارب**، فهي لم تتعلق برواية **آحاد الآنسة بونون** إلا بواسطة تمفصل حكائي. وهو المتعلق برغبة فاطمة اقتفاء أسلوب الآنسة بونون في اجتذاب الرجال.

د ـ وحدة الحديث الكبرى : تتمحور الرواية حول وحدة **الحديث** بوصفها طريقة من طرائق التواصل والمكاشفة. فإلى جانب أنها تسهم في تواصل السارد والمسرود له وتبادل الأخبار فيما بينهما، فهي توطد العلاقة بينهما، وتحفزهما على الدخول في دائرة الحميمية، وإثبات ذاتيهما. وإذا كان الحديث في **ألف ليلة وليلة** يقترن بتأجيل الموت، فهو يرتبط في رواية **الضوء الهارب** بمعاودة النظر في اللحظات الهاربة لفهم ما تستضمره من ألغاز وما تثيره من غصص. يتحدث العيشوني ليتحرر من الكرب الذي نجم عن غياب غيلانة. وتتحدث غيلانة لاجترار ما عانته من مشاكل، وإيجاد الأعذار للمسار الذي سارت فيه من أجل ضمان حياة كريمة لابنتها. وتتحدث فاطمة لبيان كيف تحررت من رقابة الأم ووصايتها، وإثبات مؤهلاتها في تحقيق أمانيها والتغلب على صروف الحياة ومكائدها.

2- رواية برج السعود.

1.2- الموضوعاتي والصوري.

يتشيد صرح الرواية على أربع موضوعات مركزية، وهي: حفر الأرض، وإصلاح الفيكتوريا 38 والبحث الوراثي، والقتل.

أسهمت موضوعة **حفر الأرض** في توحيد مشارب ومصالح أهل البطنية ظاهريا، وجعلتهم منشغلين بالمشروعات المحتملة التي ستحسن من مستواهم المعيشي والاجتماعي، وتوفر لهم ما يحلمون به. وتتجلى هذه الموضوعة على مستوى السطح بواسطة الصور الدائرة في فلك المصلحة: الرزق، وارتفاع ثمن الأرض، وتجاوز العداوات، وتحريك الناس، والخيرات. يتظاهر علية القوم (وفي مقدمتهم الرماي والشيخ بلحاج) ومن يدور في فلكهم بالتحرك والتعبئة لخدمة الصالح العام (التعجيل بانطلاق المشروعات حتى يستفيد منها السكان قاطبة). في حين يستضمر كل فاعل

مخططه لتحقيق مآربه الشخصية.

يتخلل المحكيَّ الإطار محكيٌّ مؤطر يتعلق بالمحاولات التي يضطلع بها حمميد لإصلاح تحفته الأثيرة «فيكتوريا 38». وتستقطب موضوعة **الإصلاح** الصور المتشاكلة في إطار /الميكانيكا/: النوابض، والمكربن، والعجلات، والمكابس، والخردة، والبنزين، والصفيحة. ويبدو حمميد متبرما عن الناس، وغير مكترث بما تهجس به البطنية من برامج ومشروعات ووقائع. فما يهمه من الوجود، هو تحريك محرك سيارته، وإثبات للرأي المحلي أن مجهوداته لم تذهب هباء منثورا.

ويتفرع عن المحكي الإطار محكي يتعلق بالتحليلات والأبحاث التي ينجزها عمار على عينات من سكان البطنية لعله يتوصل إلى نتائج جديدة بصدد سلوكاتهم وطرائق تفكيرهم و تصرفاتهم. ويسترشد عمار بنظرية سمورند حول الكمون الفيروسي. يتوهم السكان أن عمارا طبيبا، ولذلك يقصدونه لعرض أمراضهم وشكاواهم عليه. في حين يتضح من خلال المسار التصويري المتعلق **بموضوعة البحث الوراثي** أنه باحث مهتم بالوراثة الفيروسية: الآفات الوبائية، نظرية الكمون الفيروسي، البيئات النسيجية، علوم الحياة، الهندسة الوراثية، الوراثة الراجعة. ويتدخل الناظم الخارجي في المقطع السردي الموالي لتبديد ذلك اللبس الذي يتخبط فيه السكان .«صحح عمار للرجل فكرته، فهو ليس طبيبا بالضبط. إنه قريب من الطب في الظاهر، ولكنه في الواقع شيء مختلف من حيث عمله وبحثه..قاطعه الرجل: «وكيف تداوي الناس يا أخي ؟ شرح له عمار أنه يساعد فقط : يحقن ويصف بعض الأدوية في الحالات العادية..عمله الحقيقي وبحثه هو إجراء التحليلات..مهتم بالوراثة الفيروسة..» (ص78).

ووردت موضوعة **القتل** لإثارة عنصر التشويق في الرواية. فبينما كان الرأي المحلي منشغلا بحفارة الأرض، ظهر حدث الجريمة المفاجئ مثيراً حوله موجة من التأويلات والشكوك. وقد استتبع هذا الحدث الصور المتشاكلة في إطار/ القانون/: الاستنطاق، والاستدعاء، والتحقيق، والسجن، والمحقق، والشهادات، والجلسة..الخ. ولم تتوضح معالم الجريمة إلا بعد أن استخرج أحمد الريطي من الأرض القرائن التي تثبت أنه القاتل.

2.2- علاقة الصور بالواقع :

تنسج رواية برج **السعود** علاقتها مع الواقع اعتمادا على الآليات التالية :

أ ـ الإيهام بالواقع :

على عكس روايتي **ذات** و **الضوء الهارب** تجري وقائع رواية **برج السعود** في فضاء

تخييلي (البطنية). وإذا كانت الروايتان الأوليان تموهان الفضاءات الواقعية وتضفيان عليها أصباغا خيالية، فإن رواية **برج السعود** تسعى إلى إضفاء الواقعية على الفضاء المتخيل، وترسيخه في أذهان القراء كما لو كان واقعا ملموسا وله وجود واقعي في الزمكان. «مهما يكن، فالبطنية كانت وجودا وواقعا، في بداية العقد الثاني من هذا القرن، وقد وردت في مذكرات أحد الأطباء الأجانب، وكان في الوقت نفسه ضابطا في طليعة جيش استعماري..» (ص5). ويدرج الناظم الخارجي هذا المقطع الافتتاحي لعقد ميثاق مع القارئ المفترض حول نوعية الأحداث المراد سردها (رواية تاريخية واقعية). لكن بقدر ما يتقدم في قراءتها، بقدر ما يتيقن بأن الفضاء المعني هو من صلب الخيال، وأنه خلو من القرائن التاريخية والجغرافية والبشرية التي بإمكانها أن تدعم «واقعيته». وهكذا يصبح الميثاق ـ مع جريان الأحداث ـ لاغيا بدعوى أن أحد الطرفين (الناظم الخارجي) أخل بأحد البنود الجوهرية التي تعاقد بشأنها مع قارئ مفترض.

ب ـ المسكوكات اللغوية :

تعيد الرواية تشغيل المسكوكات اللغوية (من أمثال، وأساليب التعزية والشكر والمواساة والسخرية..)، وتصهرها في بنية لغوية متماسكة. ورغم ما اعتراها من صعوبات في تجسيد الخصائص الشفهية، فقد استطاعت أن تعطي الانطباع بأن سكان البطنية ينتسبون إلى منطقة الشاوية. وإن لم تصرح بذلك قطعا، يمكن أن يُستشف من ملفوظات المتكلمين وطرائق تعبيرهم.

ج ـ موضوعات مبتذلة :

رغم انبناء عالم الرواية على معطيات خيالية، لم يخل من مقتضيات الواقع الملموس. ونذكر من ضمنها المواضيع المعروفة لدى القراء بالتجربة أو القراءة أو المشاهدة. وذلك على نحو المواضيع التالية: الجريمة، وحفر الأرض، و إصلاح السيارة، وزيارة بن سيدي رحيل..الخ. فبمجرد أن يُفاجأ القارئ باصطدام رجل رداد بالجثة الهامدة، حتى يتوقع الاحتمالات الممكنة. وهكذا «تكون العلاقة مباشرة بين الحدث المتوقع وبين النتائج المحصل عليها»[19]. وفي حالة عدم تقاطع ذاكرة القارئ مع المدونة المقترحة، فسيتعذر عليه بناء سلسلة الأحداث انطلاقا من عناصر محددة [20]. وما يسهم في تفاعله مع رواية **برج السعود** هو مجاراتها لمعتقداته، إذ لم تخرج النتائج المحصل عليها عن الاحتمالات التي يتداولها الحس المشترك. ومن بين هذه النتائج نذكر أساسا تعرف الرأي المحلي على مقترف الجريمة بعد أن كان ضمن المشتبه في أمرهم.

3.2- خلق المسافة مع الواقع :

لا تشغل المقتضيات الواقعية إلا حيزا ضئيلا داخل البنية الشاملة التي يكتسحها

التخييل. ومن بين الآليات المعتمد عليها للحد من اتساع الدائرة الأيقونية نذكر ما يلي:

أ ـ التشخيص التخييلي:

إن كانت روايتا **ذات** و**الضوء الهارب** تعتمدان على شخوص مرجعية محيلة على النص الكبير للثقافة والإيديولوجية، فإن رواية **برج السعود** تستند إلى شخوص خيالية تتحدد علاقتها بالواقع بواسطة سمات معينة. فشخصية بناصر ـ على سبيل المثال ـ هي ضرب من الخيال، وصورة ذهنية ليس لها نظام مرجعي في الواقع الاختباري. لكنها تتقاطع معه في بعض المقتضيات التي يتقاسمها مع بني جلدته (ما يجعله شبيها بكائن بشري) أو التي يتميز بها عنهم (ما يدخل في نطاق مزاجه، وتكوينه الجسماني، وانتسابه العائلي والقبلي).

وحتى في حالة إضفاء الطابع التخييلي على نابليون فـظل فرق جوهري بين منزلته ومنزلة بناصر. ويكمن في أن الاسم الأول له معنى ممتلئ وثابت ويحظى باستعمال مقولب ومبرمج، في حين أن الاسم الثاني دليل فارغ وغير ثابت يمكن أن تشغله أية ذات حمّالة للمواصفات نفسها تقريبا.

ب ـ الإتيان بالخوارق:

تسخر الرواية بعض الخوارق التي تبين ما تحظى بها بعض الفواعل من رساميل رمزية. حبر الجلولي لوحة لبناصر بغية تعليقها على باب الطاحونة، فكان لها المفعول السحري الإيجابي في نفوس السكان، وتزايد عدد الوافدين عليها، وبدأت تتراءى لهم «عيشة قنديشة» معترضة طريقهم، ويتخيلون أن «ميرة الجنية» تزورهم ليلا : أحد ثدييها على كتفيها يتدلى إلى الخلف، والآخر يتدلى إلى الأمام كقربتين كبيرتين منفوختين. وبعد سجن رداد تبارى الناس في الحديث عن كراماته ومعجزاته (يتصورونه راكباً فرساً تتداخل فيه الألوان مشكلة ما لا يعبر عنه)، وانبهرت زوجتاه من ازدياد وزنه رغم قلة الأكل، ومن الرزق الوفير الذي يتلقاه. ويترقب سكان البطنية زيارة بن سيدي رحيل للاستفادة من بركاته وأدعيته (استجلاب الخيرات، تزويج العوانس، خلق حركية اقتصادية واجتماعية).

ج ـ البعد الاستعاري :

تشكل التحفة الأثرية المتآكلة نقطة مضيئة في عالم البطنية. وتدخل العلاقة الحميمية التي تجمع ما بينها وبين حميد في إطار مقاومة موجات الغيبيات والخوارق والانشغالات الذاتية، وإحلال محلها قضايا صارمة مرتبطة بالمكننة والعقلنة. وما يبين أن حميد أصبح لا يطيق العيش بالبطنية (ما اقتنع به عمار كذلك لما تيقن أن الناس يعتبرون مهمته مجرد ضياع للوقت)، هو أنه قرر الرحيل منها أثناء إصلاح سيارته. وإن

توصل عمار بمعلومات عن «الشاب الفيكتوري» من خالته فاطنة ومن المعلومة، فقد استعصى عليه الإمساك بالفيروس الذي يثوي بين حناياه وأمشجته. وذلك لأنه لا يشبه بني جلدته بالبطنية، فهو يقضي أوقاته جلها منهمكا في إصلاح سيارته، والتردد على المدينة لا بتياع ما يلائمها من قطاع الغيار.

وهكذا تتكون بنية الرواية من ثلاثة عوالم متباينة : أولها يخص ذهنية السكان ومحدودية وعيهم، وثانيها (عالم حميد) يتعلق بإمكانات التجاوز والتغيير، وثالثها (عالم عمار) يخص التأكد من صحة فرضيات الكمون الفيروسي. وينزاح عالما حميد وعمار عن عالم السكان المبتذل مُرهصين بِالتحديث الذي يَجد مصاعب كثيرة في الانغراس بالبطنية وآستنبات قيم جديدة بها.

4.2- المستوى الأكسيولوجي :

أ ـ البعد الانفعالي : الأمل/ خيبة الأمل.

ما يجمع بين العوالم الثلاثة هو أنها تعيش على أمل تجاوز المرحلة الانتقالية بغية إدراك الموضوع المبحوث عنه. يأمل السكان في انطلاق مشروعات الحفر حتى يستفيدوا من انعكاساتها الايجابية على حياتهم اليومية. ويأمل حميد في إصلاح سيارته لمغادرة مَنْبتِ نَبْعَتِهِ، ويأمل عمار في التأكد من نجاعة منهجيته الأسكتلندية بتحليل عينات من الدم. لكن أمله يخيب بسبب عنت السكان وتوجسهم وتطيرهم من أبحاثه. وبالمقابل اتسعت دائرة أمل البطنية لما تسرب خبر موثوق يبشر بقرب انطلاق مشروع الجبيل. وإن لم يتمكن حميد بعد محاولات كثيرة من تشغيل محرك سيارته، فهو مازال مصرا على إدراك مبتغاه مهما كلفه ذلك من ثمن.

ويتشخص طباق الأمل/خيبة الأمل سيميائيا على النحو التالي(21):

الهوى	الجهة	الحالة النفسية	الاتجاهية	الزمنية	خاصية م.ق
الأمل	+ رغبة	الميل	ذ ←م (توقع أقصى)	المستقبل	مفقود
خيبة الأمل	ـ رغبة	انفلات	ذ ←م (توقع أدنى)	الحاضر+ الماضي	عصي ومنفلت.

(جدول رقم 18 التشخيص السيميائي لهوبي الأمل وخيبة الأمل).

ب ـ إيحائية الصور:

تتوسم الفيكتوريا 38 بصور متباينة من الزاوية الدلالية: السيارة، والخرشاشة،

والقطعة الصدئة، والتحفة الأثرية، والمبروكة. ولاتتضمن صورة السيارة أي حكم قيمي، ويعنى بها وسيلة نقل حديثة من العيار غير الثقيل تسعف على التنقل من مكان إلى آخر. أما صورتا خرشاشة وقطعة صدئة، فتثيران حكما قيميا ينتقص من قيمة السيارة بدعوى اتسامها بالمقومات التالية : [+ قديمة] و [+ متآكلة] و [+ منظرها بشع] و [+ خطيرة]. أما صورة التحفة الأثرية فتتميز بمقومات إيجابية رقم تقادمها : [+ العتاقة] و [+ جمال المنظر] و [+ وكثرة الطلب] و [+ الأبهة]. أما صورة المبروكة فتفيد ما يدخل السعادة على الفرد ويجعله يفوز بالبركة.

وتقترن كل صورة من هذه الصور باتخاذ موقف معين من الفيكتوريا 38. ثارة يجردها حميد من الأحكام القيمية مكتفيا بوسمها بالسيارة، وثارة يشيد بعراقتها ومكانتها الكبيرة في قلبه. وما يتمناه من إصلاحها هو أن تصبح قابلة للاستعمال للفرار بجلده من البطنية. أما السكان فيستخفون بها، ويوظفون صورتي «التحفة الأثرية» و«المبروكة» للسخرية من حميد، والاستصغار من مجهوداته.

تحتمل صورة « البراكة » المعنيين التاليين(22) :

أ- مجموع المقومات التي تحدد محتوى منزل متواضع جدا.

ب- مجموع المقومات التي تحدد محتوى منزل كيفما كان نوعه. «وأخيرا رحل فلان إلى براكته». وقد يعنى بها هنا المغنى.

أما في الرواية، فالصورة تفيد حينا المنزل المتواضع لحميد، وحينا آخر «المرأب» الذي يشتغل به.

توحي صورة «الدكا» في الثقافة الشعبية بجلسة شاي متميزة بطقوس معينة (ارتشاف الشاي، التدخين، الحديث). ولا تعني عند الرماي شيئا محددا على كثرة ترددها في حديثه. فهو مرة يضمنها كل ما يشاء مما يعتبره كمالا وفضلا في الشخص، ومرة أخرى يوظفها لتبيان ما يعتبر نقصا وعيبا في الناس من أنانية وبخل ونفاق ومختلف الرذائل والشرور. «وكان متأكدا من أن استعمال هذا التعبير الغامض الشامل (من وجهة نظره طبعا) يزيد من مكانته في عين مخاطبه» (ص170).

ج- النزوع التثميني :

إن تضمن بعض الصور قيم دلالية سلبية جعلها تؤدي وظائف تداولية خاصة :

1- السباب :

توظف بعض الفواعل صور السب لإيصال رسالة مفادها أنه من نوع ش. ويضطر

هذا الأخير إلى الرد بهذه العبارة : ش هو أنت. وما يسترعي الانتباه في رواية **برج السعود** أن السب لا يحفز المتلقي على الرد وإن ترك آثاراً سلبية في نفسيته.

يشنف الرماي أسماع السكان بعبارات السب للسخرية من تراجع الكرم عندهم، ولحفزهم على استقباله على النحو الذي يليق به. ويسب الجلولي في اللوحة المجرمين والخائنين المفترضين الذين كانوا وراء انحسار عدد زبائن الطاحونة. وتصب المعلومة جام غضبها على كل من يعكر صَفْوَ سكينتها، ويستخف بمكانتها. ويشتم بن سيدي رحيل «الطبيب» مبينا عجزه في شفاء المرضى وطمأنة المشتكين.

2- تشويه الصورة :

يستخف أهل البطنية بصورة «الطبيب» عمار والميكانيكي حميد، لأنهما منشغلان بأشياء تافهة لافائدة ترجى منها. وإذا كان حميد مقتنعا بأن بحث عمار ينفع الناس، فهذا الأخير يجاري السكان في أن حميد مهموم بما لا ينفعهم، وبما لا ينفعه. وترتد صورة حميد إلى الدرك الأسفل إثر تشكيك الناس في قدراته العقلية.

وتشاء الصدف بأن يلتقي عمار بنقيضه بن سيدي رحيل. وكل واحد منهما يمثل رمزا محددا في فضاء البطنية. الأول يشكل رمز الحداثة المعطلة والثاني يشخص رمز التقليدية الجوهرية. حاول عمار أن يقنع بن سيدي رحيل بمنحه عينات من دمه لفحصها. لكنه امتنع وقلب الموقف كله إلى تهكم «آه الدم يا أخي، فوحق طبك، وطب..طب أمك..ماعندي دم! ويستأنف مستعملا صوت وحركات امرأة متحجبة، ومتغنجة تجيب عن طلب الطبيب؟! أبدا...أبدا..دم وجهها تتركه كل يوم في البيت قبل أن تخرج، حتى لاتخجل أمام الناس!» (ص79). ولم يفلح عمار في تصحيح الصورة التي يحملها بن سيدي رحيل عليه. ومفادها أنه مفروض عليه بوصفه «طبيبا» أن يضحك الناس، ويوزع عليهم ميكروب الضحك. كما أنه لم يستطع أن يزحزح قناعات السكان من بن سيدي رحيل، فهم ينتظرون قدومه على أحر من الجمر لعرض شكاواهم عليه بصراحة، وقضاء أيام معه قوامها الطرب والرقص والحكم والمستملحات. ويتباشرون بإقامته بين ظهرانيهم لأنه سيخلصهم من الهلوسات والمشاكل التي تقض مضاجعهم. وبالمقابل، لا يقدرون الخدمات المنتظمة التي يقدمها لهم عمار. يقصدونه لعرض شكاواهم الوهمية عليه أو يكشفون عن العلل التي يعانون منها لمجرد التسلية. ولما يوجه لهم النصائح لا يأخذونها بمظهر الجدية، وإنما بمظهر الهزل والاستخفاف. كما يجدون في بعض طلباته إخلالا بالحياء وانتهاكا لحرماتهم، وذلك على نحو مطالبتهم بتسليمه عينات من البراز.«وعندما تقدمت إليه خالتي فاطنة، يوما ليفحصها،

وأخذ لها عينة من الدم، ثم وصل إلى نقطة أشار عليها أن تتبع المعلومة إلى الحمام. نظرت إليه المرأة نظرة عتاب ومؤاخذة، كأنها تقول:

ـ حتى أنا يا وليدي ! ؟

وقامت تلملم إزارها، وتنصرف، ناظرة شزرا إلى المعلومة تاركة بنظرتها في نفس عمار أثرا بالغا، كما لو فاجأته» (ص75).

ويسعى بن سيدي رحيل إلى تشويه صورة «الطبيب» في مخيلة الناس، وترسيخ صورته كما لو كان هو الأقدر وحده على الاستجابة لشكاواهم، ومعالجة المرضى منهم. وعندما رأى في وجوههم علامة تأكيد الخبر، طلب منهم في فكاهة أن ينصحوا طبيبهم بأن يعتني بنفسه بدل العناية بالناس. «لو كان الخوخ يداوي ـ يا وليدي ـ كان دوى راسه» ص/ص70-71.

5.2- القيم المهيمنة:

أ ـ التناوب الحكائي :

تتناوب داخل الرواية ثلاثة محكيات على قدم المساواة. أحدها محكي/ إطار يتعلق بعالم البطنية. وثانيها محكي مؤطر يهم ما يضطلع به حميد من مجهودات لإصلاح سيارته. وثالثها محكي مؤطر يخص أبحاث الهندسة الوراثية التي يقوم بها عمار. أسهم هذا التداخل الحكائي في تنويع الموضوعات، وتشغيل الرموز والاستعارات النصية، وانفتاح الفضاء الريفي على الفضاءات المدينية.

ب ـ وحدة الشكوى الكبرى :

تؤطر وحدة الشكوى الرواية برمتها. وهي تتمثل أساسا في تشكي الناس من العلل والمشاكل الاجتماعية ولهذا يعلقون آمالا عريضة على مشروعات الحفر المزمع القيام بها. ويشكو كل فاعل من مسألة تؤرقه. يشكو حميد من عدم تلاؤم ميوله وتطلعاته مع الوسط الذي يعيش به. ويشتكي زمورة والعياشي معا من حيل الشيخ بلحاج في جمع المال بحجة أنه سيستولي على النصيب الأكبر منه. وتشكو رقية المعلومة من سوء تعامل الناس معها. ويشكو الرماي من تقاعس الناس وعدم تحركهم للتعجيل بانطلاق مشروعات الحفر المرتقبة.

ج ـ الفضاء الريفي بسمات مدينية :

تتميز هذه الرواية عن الروايتين السابقتين بكون أحداثها تجري في فضاء ريفي. أتتناقض هذه الحقيقة مع نشأة الرواية في «الحاضرة الفسيحة المستبحرة. فيها تتجسد

اللغة والذهنية والنفسانية التي تمثل قياس الإنسان السوي»[23]. قد نتوهم ذلك ظاهريا، لكن لما نستجلي فضاء الرواية، يتضح أنه يستقطب صورا مدينية (المرأب، العيادة، الحمام، الميكانيكا..). وتنطبق الملاحظة نفسها على رواية الميلودي شغموم (**الأناقة** 2001) التي حاول أن يجرب فيها فضاء ريفيا. يفتتحها بوجود السارد إبراهيم في الخلاء يحكي عن سلالة الصالحية أو آل الشكور. ولكن كلما توغلنا في قراءتها إلا وتبين لنا أنه يضفي الصور المدينية على الفضاء الريفي المفترض (العمارات، الشوارع، الانتخابات، حكومة التناوب، المقهى، الشقة، المغنى ..إلخ).

د ـ المسكوكات اللغوية :

بالإضافة إلى اتسام المسكوكات اللغوية بقيم دلالية (المواساة، التعزية، الشكر، الشكوى..)، فهي تؤدي وظائف تداولية للتأثير في المتلقي وحمله على تغيير معتقداته. وتسهم هذه المسكوكات سواء أكانت بالفصحى أم بالعامية في إغناء الرواية بالتعدد اللغوي إلى جانب الجنسين المتخللين (الأغاني الزجلية والأمثال) والاستطرادات العالمة (خاصة المتعلقة بالهندسة الوراثية) والحوارات الخالصة.

3- رواية شطح المدينة

1.3- ترابط الموضوعاتي والصوري:

تتمحور رواية **شطح المدينة** حول الموضوعات الأساسية التالية: الصراع، ومراسيم الاحتفال، وسرقة جواز السفر.

عاين الزوار مدى حدة الصراع المحتدم بين الجامعة والبلدية. أعد لهم كل طرف ملفا أنيقا بغية التعريف بمآثره الحضارية والعمرانية، والبرهنة على أسبقيته في الوجود، وفضله على تقدم المدينة ورقيها، وجودة خدماته وتخطيطاته. وتستقطب موضوعة **الصراع** صورا متعلقة بقوائم الأكل، والتاريخ، والجغرافية، وشؤون المواطنين. وتعكس كل صورة من الصور الموظفة طبيعة المنافسة الحادة بين الطرفين لجلب المناصرين وانتزاع الاعتراف بالمنجزات المضطلع بها. إن صورة **الحفاظ على الطابع التاريخي** ـ على سبيل المثال ـ يتضارب حولها رأيان متناقضان : أحدهما رأي البلدية التي تؤكد أن الخطط والمشروعات هي مجرد حبر على ورق دون حزمها وصرامتها، وتمتع رجالها بحس تاريخي وثقافي وحبهم للمدينة التي يعيشون بها ؛ وثانيهما رأي الجامعة التي تثبت وثائقها أن الحفاظ على الطابع التاريخي للمدينة يرجع الفضل فيه إلى مهندسيها. كاد الصراع المحتدم بين الطرفين أن يفضي إلى حرب أهلية لولا انتمائهما إلى دولة اتحادية قوية وحازمة.

تقوم أحداث الرواية أساسا على موضوعة **احتفال الجامعة** بمرور تسعة قرون على تأسيسها. فهذه الموضوعة كانت سببا في انطلاق الأحداث وتشعبها، وفي تأجج زند الصراع بين الجامعة والبلدية. واتسم هذا الاحتفال بعدم دعوة رئيس البلدية إلى المنصة الشرفية، وعدم إعطاء صحف المدينة أهمية للحدث الدولي. وهذا ما زاد من حدة الصراع المتأجج بين الطرفين، وحفزهما على تبادل التهم والنعوت بهدف كسب مودة وثقة الضيوف القادمين من دول مختلفة. وقد استتبعت موضوعة الاحتفال الصور التالية: توجيه الدعوات إلى المشاركين، وإعداد ملف يعرف بالمآثر والمنجزات، والتداول في القضايا الدولية، وإصدار بيان ختامي.

لما وطئت قدما السارد أرض المدينة نبهه المغربي من ظاهرة **سرقة جوازات السفر**. ورغم احتياطاته لم يسلم منها، فاضطرت سلطة المدينة إلى استنطاقه لمعرفة الملابسات التي اكتنفت فقدان جواز سفره. واستغلت البلدية الحدث لتأنيب السارد على تلبية دعوة الجامعة. ويمكن أن نشخص الصور الدائرة في فلك سرقة جواز السفر في الخطاطة التالية :

سرقة جواز السفر

الأمن :
رغم حزم
وصرامة جهاز
الأمن الاتحادي فقد
تفاقمت ظاهرة سرقة
جوازات السفر.

الإجراءات:
فتحت سلطات
المدينة تحقيقا لمعرفة
الملابسات التي ضاع فيها
جواز السفر.

السفر:
فوت ضياع جواز السفر
على السارد السفر في الوقت
المحدد. واضطرت الجامعة
إلى تمديد إقامته بهدف تسهيل
مأمورية تسوية وضعيته من الناحية الإدارية.

وبالمقابل، تستقطب صورة واحدة موضوعات متعددة. فصورة **البيان الختامي** أثارت سلسلة من الموضوعات ، تهم ـ في مجملها ـ علاقة الشمال بالجنوب، وموقف أمريكا من منظمة التحرير الفلسطينية، وبقاء الطيور، وبقايا الاستعمار والاستغلال والقهر، وثقب الأوزون الذي نجم عنه تسرب الأشعة فوق البنفسجية، وارتفاع حرارة الكوكب. وما استدعى هذه الموضوعات هو مراهنة المشاركين جميعهم على أن يكون البيان الختامي وثيقة شاملة، ومرآة ملخصة لقضايا العصر.

وتستجلب صورة **البرج** الموضوعات التالية: اختصاص الجامعة في ترميمه، اضطلاع البلدية بضمه إلى المنشآت التي ترعاها، تفاقم ظاهرة الانتحار بداخله، تضارب الآراء والمعتقدات حول ما يجري به، استجلابه للسائحين . وتعمل هذه

الموضوعات وغيرها على دعم المكانة التي أصبح يحظى بها البرج داخل الدولة الاتحادية، إذ تحول، مع مر الزمن، إلى معلمة حضارية يقصدها الزوار من مختلف بقاع العالم.

وتدور الموضوعات التالية في فلك **صورة المدينة** : الصراع بين البلدية والجامعة، الحفول بالمآثر التاريخية والعمرانية، ضعف النفوذ الديني، تداول المدعوين في الشؤون الدولية، تفاقم ظاهرة سرقة جوازات السفر، اتسام المؤتمر بالطابع الاحتفالي. وتسهم هذه الموضوعات في إضفاء الطابع الحركي على المدينة، وتبيان مدى حفاظها على التوازنات والتسويات رغم كثرة الخلافات وشدة التناقضات.

2.3- الإحالة على الواقع :

أ ـ مجاراة معتقدات القراء:

لم يخل الطابع التخيلي للرواية من إعادة إنتاج بعض الحقائق المتعارف عليها؛ وذلك على نحو النفوذ الأمريكي، وموقف أمريكا من منظمة التحرير الفلسطينية، ورشوة القضاة وكبار المسؤولين، وسرقة جوازات السفر. وتعمل مثل هذه الحقائق المبثوثة في النص على خلق الانطباع بالواقع، وإثقال القيود الجمالية بالقيود المرجعية، وتحفز القارئ على عرضها على الواقع للتأكد من مدى مطابقتها له. وفي الإطار نفسه يشغل السارد وقائع محايثة لبنيته الذهنية ومتضمنة في العلبة السوداء للمتلقي. ولا يمكن أن يحصل التفاعل الإيجابي بينهما إلا إذا استندا إلى معرفة خلفية مشتركة. وهذا ما يحتم على منتج الخطاب أن يجاري معتقدات المتلقين بما هم على علم سابق به ويخاطبهم بما تواضعوا عليه، ويشغل بنياته الثابتة المعطاة التي يتقاسمها معهم (على نحو المدونة، والإطار، والفرض الاستكشافي، والخطاطات..). وتكمن أصالة المبدع في الإتيان بمشاهد وتوفيقات غير مألوفة، ثم الانفراد ببرمجتها في نصه وعرضها على القراء المفترضين. وفي هذا الصدد يشير برتراند جرفي(B.Gervais) إلى وجود مدونات فريدة في بعض النصوص ، يمكن أن تنتقل ـ مع مر الأيام ـ من عالم النص إلى عالم القارئ. ويستدل على ذلك ببرمجة جول فيرن (J.Verne) لمدونة «الذهاب إلى النادي» في روايته **عشرون ألف موقع تحت البحار**. وتستمد هذه المدونة فرادتها من قدرة صاحبها على مباغتة القراء بما جرى لفوك بالنادي (المدونة الشخصية). ولا تعني البرمجة أن هؤلاء يجهلون تماما الأحداث المحتمل وقوعها بالنادي، لكنها تحول دون فرض تأويلهم عليها (24). وفي السياق نفسه برمج جمال الغيطاني مدونة الصراع بين الجامعة والبلدية. وإن كان المتلقي ملما بكل صورة على حدة من حيث ما تستتبعه من وظائف وأحداث وأهداف، فقد لا يخطر على باله أن

جامعة وبلدية في مدينة ما يتصارعان حول أيهما أجدر بالاعتراف وأحق بالتقدير وأسبق في الوجود. فهذه المدونة من صنع خيال المؤلف الذي جمع بين عناصرها المتباعدة لتشويق القارئ ومفاجأته باحتمالات غير متوقعة. ورغم غرابتها فهي مدعمة بمقتضيات الواقع، ومنضبطة لإرغامات النسق الثقافي، ومستجيبة لتوقعات القراء.

ب ـ أسماء الأعلام المرجعية :

استعانت الرواية بأسماء أعلام (محمد عبده، سعد زغلول، بونبارت، ماو تسيتونغ..) تحيل على شخصيات واقعية حمالة لأدوار وبرامج محددة سلفا، وعلى «محتويات شائعة مثل: ابتذال، بساطة، حياة يومية، شخصية متوسطة، ابتذال الحالة المدنية (السيد/السيدة)» [25]. وإن أدرجت هذه الأسماء في سياقات تخييلية، فقد ظلت محافظة على سماتها الواقعية ومحيلة إلى النص الكبير للإيديولوجية والثقافة.

ج ـ الأمانة العلمية:

ينتدب الروائي شخوصا لنقل الأخبار بأمانة وصدق، ويعد قراءه بأنه سيقدم لهم معلومات قابلة للتأكد من صحتها. وهو «يمتلك معرفة معينة («جذاذات» ـه، معرفته لـ «موضوع»)، لـ «وسط»)، لـ «ديكور» لجزء ما من المرجع)، يعتبرها شمولية، وسيوزعها مثلا في شكل أوصاف» [26]. فقبل توظيف عبد الله العروي لموضوعة تكوين الفريق الصديقي قي رواية **الفريق** (1986)، تحرى في مجال كرة القدم حتى يكون الكلام على لسان اللاعبين والمدربين مقنعا ومتسقا. وفي السياق نفسه لا يمكن لشخصية أن تتحدث عن مرض السيدا إذا لم يكن الروائي ملما بالموضوع. وفي حالة عدم إلمامه به، قد يعرض معلومات خاطئة، يمكن أن تؤثر على مقروئية المؤلف ككل.

وفي لجة الأحداث التخييلية التي يعرضها السارد، نجد معلومات مسرودة بدقة متناهية حتى تخلق الانطباع بالواقع لدى القارئ المفترض. ومن ضمنها المشكاة المصنوعة في هيرات، وعلاقة الشمال بالجنوب، والشكوك التي أثارها بناء مقر البعثة التعليمية الأمريكية بالقرب من الجامعة، ومراعاة الطابع المعماري العام للمدينة.

3.3- الابتعاد عن الواقع :

1- مدونة مبتكرة :

تنبني الرواية على متوالية من الأحداث غير معتادة لدى القراء. ولهذا فهم يعتمدون على تجاربهم لإقامة النظائر الممكنة لفهم طبيعة الصراع الدائر بين الجامعة والبلدية. ومن بين ما يسعفهم على ذلك هو حفول العالم بكثير من الصراعات الداخلية التي تفضي ـ في الحالة التي تكون فيها الدولة ضعيفة ـ إلى حرب أهلية ثم إلى انشقاق. وما

يضفي الفرادة على مدونة الرواية هو احتدام الصراع بين الجامعة والبلدية لانتزاع التقدير والاعتراف والثقة. قد لا يتوقع القارئ مثل هذا الصراع بحكم تباين اختصاصات الطرفين، ووجود تشريعات تحدد علاقتهما وتضبط طبيعة تعاملهما.

2- فضاءات وهمية :

تدور أحداث الرواية في فضاءات عارية من الأسماء (البلدية، الجامعة، الدولة الاتحادية، البرج..)، يمكن أن تحيل إلى ما يماثلها في الواقع إذا كان يتسم بالمواصفات نفسها ويؤدي الأدوار عينها. وباستثناء تمفصل حكائي يوحي بأنها مصرية، فإن الأحداث جلها تبدو كما لو كانت تجري في فضاءات غير محددة المعالم ومجهولة الهوية. ورغم الطابع التخييلي المضفى عليها، فهي تتسم بكثير من مقتضيات الواقع (التنظيم الإداري، مجاراة الحس المشترك، المراسيم والأعراف، العتاقة العمرانية) التي تراهن على الاستجابة لتوقعات القراء، وخلق الانطباع بالواقع لديهم إلى درجة التصديق والاعتقاد بأن ما يقرأونه حدث فعلا في زمكان محدد على وجه الكرة الأرضية.

3- الترميز:

الرمز كما يعرفه ويبستر Webster «هو ما يشير إلى شيء مجرد كما في اعتبار طير الحمام رمزا للسلام، واللون الأحمر رمزا للخطر. وتعد الرموز من المبتكرات التي أوجدها الإنسان لتحقيق أهداف تتصل به، وتجسد ما يحس به داخليا وبالمجتمع والضرورات الاجتماعية المطلوبة لإدامة بقائه. وعلينا أن نتذكر أن الرمز ليس الشيء بل هو الإشارة إلى الشيء أو تجسيد أو تمثيل يعبر عنه [27]».

استثمرت الرواية صورا رمزية ذات إيحاءات دينية (سبع فتحات، سبع فقرات، سبعة أيام، أربعون مبنى، أربعون شعاعا، أربعون فيلسوفا، أربعون عضوا في المجلس الأعلى، أربعون مدعوا من الأساتذة لحضور العشاء الأسبوعي..). فكثير من المعدودات في القرآن الكريم ـ على سبيل المثال ـ مقترنة بعدد سبعة أو أربعين[28]، وهذا ما أضفى عليهما طابعا قدسيا. ويشغل رقم سبعة ـ إلى جانب رقمي ثلاثة وستة ـ منزلة خاصة في الثقافة الشعبية، إذ يضطلع بوظيفة تصنيفية وانتقائية (سبعة رجال، سبعة أقوال ، سبع سنوات) أو يلعب دور العتبة للإفضاء بالمرء إلى ما يبتغيه (سبعة أمواج، سبعة أبواب، سبعة مفاتيح).

وفي السياق نفسه أبرز الناظم الخارجي ما تحفل به المدينة من أساطير (على نحو علاقة الطائرين بنضارة الشجرة أو ذبولها، تعذر رؤية الأشجار الإثنتي عشرة، السر الكامن وراء إنجاب العاقر بمجرد تخطيها عتبة البرج..) تكشف عن جوانبها الخفية

واللاشعورية، كما تبين مدى حرصها على كونها علامات متبقية من عهد الفلاسفة الأربعين.

4- الحقيقة الملونة:

يفترض تواصل الطرفين المتنافسين إبرام عقد أخلاقي من النوع الاستيثاقي. يدعي فيه كل واحد منهما أنه يتصف بـ «الاستقامة» ويصدع بـ «الحقيقة». ولما نفحص المعطيات التي يعرضانها نجدها متباينة ومتناقضة، في حين أنها تتعلق بواقع واحد. فأيهما يجانب الحقيقة، وأيهما يموهها ؟ وما هذه إلا حالة واحدة من بين حالات متعددة، تضع الحقيقية موضع شك ومماحكة. فإلى جانب أن اللغة لا تنسخ الواقع، تتدخل الوسائط التشخيصية للمباعدة بينهما، وتقديم الحقيقة «الواحدة» بألوان مختلفة (29).

4.3- المستوى الأكسيولوجي:

أ- الانفعالية : الخوف من الهزيمة.

تتنافس البلدية والجامعة حول الأسبقية في الوجود وانتزاع الدرجة الأولى. و«بالمقارنة مع الصراع الذي يهدف إلى تدمير الخصم أو إزاحته من الميدان، تعتبر المنافسة أداة غايتها المركزية الفوز على الطرف المنافس في إنجاز هدف مشترك مرغوب. وعليه فالمنافسة هي شكل محور الصراع. فهي تتضمن قواعد للنشاطات التي تتخللها المنافسة لابد للمتنافسين من مراعاتها مع بعض المعايير التي تحفظ تلك القواعد، كما ينتفي فيها عنصر القسر والإكراه. يضاف إلى ذلك أن هذا الصنف من التفاعل لا يسمح باللجوء إلى الاحتيال والتزوير لبلوغ الأهداف المتنافس عليها. وتتسم المنافسة بدرجات عالية من الدينامية باعتبارها تحفز الميل إلى الإنجاز عن طريق رفع مستوى الطموح والتهديد بالفشل في الوقت الذي تحمل فيه إمكانيات النجاح، ولهذا فهي تزداد قوة وتأثيرا مع زيادة تعقيد المجتمعات وسرعة تبدلها» (30). فبدلا من تعاون الطرفين أوتواؤمهما أو اندماجهما لتحقيق درجة من التكامل والتماسك الاجتماعي والثقافي، فهما قد دخلا في نزاع بحثا عن الاعتراف والشرعية. وما يبين حدة هذا النزاع أنه يفرق بين أفراد العائلة نفسها، ويعرض من يحاول تهدئته إلى الاغتيال، ويعتمد على أساليب الإقصاء والتهميش. وبما أن كل واحد منهما يتخوف من الهزيمة، فقد دعم ملفه بالوثائق والمستندات الضرورية لكسب مودة الزوار وإقناعهم بجدوى طروحه ومزاعمه. «إن المجتمع الإنساني ليس حالة متسمة بالرتابة والتماسك أو التلاحم المطلق بل إنه يتسم بتماسك ناقص. ولا يعتمد هذا التماسك على أساس بيولوجي (Biological Level) أو حيوي وإنما يكون أساسه عقليا أو فكريا. ويعمل المجتمع على إبقاء تماسكه وتكامله في حالة من التجدد بوسائل نفسية متعددة أبرزها التلقين أو التوجيه المذهبي

والإيحاء والتكرار. ولا يتهيأ للمجتمع دعم تماسكه إلا إذا اشترك سكانه بأهداف عامة تتجاوز مصالحهم الشخصية إلى النفع العام»(31).

ب ـ النعوت:

يضطلع كل طرف باستخدام النعوت المناسبة لإضفاء القيمة الدلالية والأكسيولوجية على ملفوظاته. ونجد في مقدمة النعوت التي يتنافسان على توظيفها تلك التي تتعلق بالعتاقة. فكل طرف يحاول أن يبين أن كل ما يتعلق به (المباني، الأزياء، وجبات الأطعمة، التقاليد..) عريق وعتيق، وأن الفضل في استمراره وصيانته يعود إلى أطره المؤهلة. ورغم الطابع العقلاني للنزاع، فهما يحرصان على استمرار الأساطير باعتبارها مكونا ثقافيا وجزءا من إرثهما الحضاري. «وتعتبر النعوت التثمينية كلها ذاتية، وذلك في نطاق أنها تعكس بعض مميزات الكفاية الثقافية والإيديولوجية للمتكلم» (32). ويراهن كل طرف، من استخدام هذه النعوت، على تبيان مدى عراقة ممتلكاته لإقناع الزوار بأسبقيته في الوجود، وبأن تاريخه حافل بالأمجاد والمنجزات والخوارق. وهذا ما جعل النزاع يتخذ طابعا تنافسيا (المنافسة الثقافية) ولا يصل إلى حد الصراع (المراهنة على التنحية والإبادة).

ج ـ الإيحاءات الأكسيولوجية لصورتي الداخل والخارج :

إثر صياغة البيان الختامي احتد الخلاف بين المشاركين حول إضافة بعض العبارات أوالاستغناء عنها. وفي مقدمة الأمور التي أثارت جدلا قويا بينهم هو علاقة الشمال بالجنوب. في البداية اتفقوا على صياغة فقرة محددة تتضمن إشارة واضحة إلى أمور جوهرية تمس الطرفين معا، ثم جرى تفاهم ضمني بينهم على التلميح إلى مضمونها أو الإشارة إليها، ثم استقر الرأي على إدراج هذه العبارة :«أما عن العلاقة بين الداخل والخارج» بدلا من الصيغة الأصلية: «وبالنسبة للعلاقات بين الخارج والداخل» ؛ وذلك حرصا على التوافق وتجنبا للبلبلة. لكن وقعت المفاجأة إثر تلاوة البيان الختامي إذ لم ترد العبارة المتفق عليها لا من قريب أو من بعيد.

ما يهمنا من النقاش المحتد حول الصيغة هو ما يستضمره من شحنات إيديولوجية (مراهنة دول الشمال على الخروج بموقف موحد من الحركات الأصولية في الشرق، وهيمنتها على دول الجنوب التي تتخوف من تدخل قوى أجنبية في شؤونها الداخلية) وأكسيولوجية (الإيحاءات التي تتضمنها صورتا الداخل والخارج). فإلى جانب أن الصورتين تحيلان على دول الشمال والجنوب، فهما يقترنان كذلك بالبلدية والجامعة. فصورة الداخل تعني البلدية أما الخارج فتشير إلى الجامعة. فالداخل يعنى به أن البلدية مهتمة بالشؤون المحلية وإن كانت مرتبطة باتفاقيات تآخ مع مدن شتى، وعمدتها دائم

السفر لتلبية الدعوات التي يتلقاها من بلديات أجنبية. أما الخارج فيفيد أن شهرة الجامعة عالمية، وأن طلابها وضيوفها من جنسيات مختلفة.

د ـ القيم المشخصة:

تنتظم الصور في إطار القيم التالية:

أ ـ التسلسل الكرنولوجي : على عكس الروايات السابقة التي تتفرع إلى مستويات حكائية، فإن رواية **شطح المدينة** عبارة قصة واحدة تتوالى أحداثها على نحو كرنولوجي (من زيارة الضيوف للمدينة للمشاركة في البرنامج الاحتفالي إلى مغادرتهم لها).

ب ـ اللغة الواحدة : لم يشيد النزاع المحتد بين الجامعة والبلدية على خلفية حوارية محتفية بالتعدد اللغوي. وهذا ما جعله خلوا من الإضاءة والنقد المتبادل، ومجرداً من الوعي الكاليلي للغة الذي «برفضه لمطلقية لغة واحدة ووحيدة، وتخليه عن اعتبارها بمثابة المركز الوحيد اللفظي والدلالي للعالم الإيديولوجي، يقر بتعدد اللغات القومية وبالأخص الاجتماعية، القابلة لأن تصير «لغات للحقيقة» مثلما تصير لغات نسبية، غيرية، محدودة : أي لغات للفئات الاجتماعية، وللمهن، وللاستعمالات الجارية. إن الرواية تفترض لا مركزية العالم الإيديولوجي لفظيا ودلاليا، ووعيا أدبيا لم يعد له مكان ثابت»(33).

ج ـ الوحدة الكلامية الطلب:

تنهض الرواية على وحدة **الطلب** التي تتدرج من أشياء بسيطة (مطالب الشخوص وحاجاتهم) إلى القضايا الكبرى (كسب رهان المنافسة).

د ـ وهمية الفضاء :

تلتقي روايتا **برج السعود** و **شطح المدينة** في كون أحداثهما تجري في فضاء يصعب موقعته على وجه البسيطة. وإن كان مشحونا بمقتضيات الواقع، وله علاقات مع فضاءات يعرفها القراء مسبقا، فهو يعد ضربا من الخيال، ونمطا من الصور المجردة.

خاتمة:

مما تقدم نخلص إلى ما يلي:

1- يتمتع المتلفظ بحرية كبيرة فيما يخص إعطاء الصور والموضوعات منازل خاصة داخل النص، وإقامة علائق بينها لتجسيد المجردات وإخراجها من القوة (البنية العميقة) إلى الفعل (البنية السطحية). ويتميز متلفظ عن آخر في ما يتوفر عليه من كفايات (موسوعية، ولغوية، وتواصلية) لتشكيل عوالم تخييلية أو ممكنة من الصور المشاعة في المجتمع. وتكمن أصالة المبدع في الإتيان بمدونات تفاجئ القراء باختياراتها وسيناريوهاتها غير المتوقعة. فإذا كانت رواية **برج السعود** تماشي معتقدات القراء

وتوقعاتهم (علاقة القروي بأرضه، ارتكاب جريمة قتل..)، فإن روايتي **الضوء الهارب** و**شطح المدينة** تباغتانهم باحتمالات وتجارب قد لا تخطر على بالهم. لكن لما يفرغون من قراءتهما تترسخ المدونتان المستحدثتان في ذاكراتهم، وتصبح جزءا من خلفياتهم المعرفية.

2- تقيم الروايات الثلاث علائق بالواقع من خلال توظيف المسكوكات اللغوية، وأسماء أعلام الشخصيات المرجعية، والمعلومات العلمية، والمواضيع المبتذلة. لكنها تعيد النظر فيه بتشخيصه على نحو مضاد (التوزاي، التداخل الحكائي، تشبيك الأزمنة، الإرصاد المرآتي، الاستعارة، الترميز..). وهكذا استبدلت مفهوم الأدب المساوي للواقع بمفهوم التشخيص الأدبي المضاد له (الواقع). وهو ما نجم عنه إعادة النظر في الواقعية بصفتها مدرسة فنية محددة تاريخيا (ثلة من الروائيين الفرنسيين والروس في القرن 19) ثم إحلال محلها «مسألة التبرير ودرجات أيقونية أنساق الدلائل التي توزع عادة على أنساق مبررة (متماثلة)، تشتغل بكثير أو قليل (من التشابه مع الموضوع المقرر)، وأخرى اعتباطية (ثنائية) تشتغل بحضور أو غياب، أي بالاختلاف» (32). فمهما كانت طبيعة التجريد ودرجة الانزياح في النص الأدبي، فلا بد أن نجد فيه ما يحاكي بعض عناصر الواقع (ضجيج، حركات، خطوط) أو يعيد إنتاجها (الاستشهاد، المحاكاة الساخرة، المعارضة، المسكوكات اللغوية..) (33).

3- وإن اتخذ الكاتب مسافة إزاء ما يكتبه، فهو لايخلو من وجود الآثار الذاتية والبصمات التلفظية التي تدل عليه. وتتجلى أساسا في انتقاء الصور وترتيبها، وشحنها بالانفعالات والستيهامات والأحكام القيمية، وجعلها مشحونة بإيحاءات أكميولوجية متجذرة في اللاشعور الجمعي (خرافية اليومي) (La mythologie du quotidien).

4- يمكن أن نستنتج من الروايات الثلاث (بالإضافة إلى رواية **ذات**) القيم التي استأثرت باهتمام الروائيين العرب خلال فترة محددة (مطلع التسعينات). وما يسترعي الانتباه - قبل كل شيء - هو أنهم كانوا يراهنون على تجديد الشكل الروائي وتوظيف العناصر الشكلية المخصبة سواء بالإفادة من المنجزات الغربية أو المتح من معين التراث العربي الإسلامي. وهكذا ركزوا على ما له علاقة بالحكي (تجريب تقنية التناوب الحكائي)، وباللغة (تشخيص المستويات والأساليب اللغوية والأجناس المتخللة بطريقة أدبية)، وبالتفاعل النصي (علاقة النص بقصاصات الأخبار، وبإحدى روايات جاك لوران، وبالمحكي الشعبي)، وبالتشخيص المضاد (تقويض مفهوم «الواقعية» الذي كان سائدا في القرن التاسع عشر).

لقد بدأت الرواية العربية تنزاح شيئا فشيئا عن استنساخ مشاهد الحياة المكرورة، وتوسع من دائرة التخييل، وتصبح أفقا للاستكشاف والاستيحاء والمساءلة، وتستوعب بعض ملامح وتجليات المتخيل الجماعي، وتجلي معضلة صورة اللغة في ضوء الكل الموحد والمتماسك.

الهوامش :

1- سيزا قاسم ،«الضوء الهارب: مفهوم آخر للغربة والاغتراب»، روايات عربية قراءة مقارنة، منشورات الرابطة، ط1، 1997، ص 182.

2- Tereza Keane, "Figurativité et perception", in Nouveaux actes sémiotiques, n° 17, 1991, PULIM, Université de limoge, p. 5.

3- رولان بارث، «أثر الواقع» في الأدب والواقع، ترجمة محمد معتصم وعبد الجليل الأزدي، ط1، تنسفت، 1992، ص 42.

4- Den Hevel (P.V), Parole Mot Silence pour une poétique de l'énonciation, Librairie José Corti, 1985, p. 67.

5- محمد مفتاح، دينامية النص [تنظير وإنجاز]، المركز الثقافي العربي، ط1، 1987، ص 42.

6- الصفحة نفسها.

7- محمد خطابي، لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب، المركز الثقافي العربي، ط1، 1991، ص56.

8- محمد مفتاح، دينامية النص، م.سا ص24.

9- المرجع نفسه ص26 القولة مأخوذة من كتاب جري ساميت وروجر شانك ، التماسك والترابط اللسانيات والفلسفة (1984) ص82.

10- محمد مفتاح، مجهول البيان، دار توبقال، ط1، 1990، ص118.

11- المرجع نفسه، ص118.

12- محمد مفتاح، مشكاة المفاهيم، النقد المعرفي والمثاقفة، المركز الثقافي العربي، ط1، 2000، ص139.

13- يقيم عبدالله العروي تمييزا دقيقا بين الموضوع والموصوف. فالموصوف هو ما تلتقطه العين من الواقع المعيش (المادة الوصفية) ، أما الموضوع فهو ما يجسد عقد شعب ما ويميزه عن غيره. «ولكي يصبح الموصوف موضوعا لابد من تحوير وتطويع الأشكال السردية حتى تصبح قادرة على عكس أغراضنا في البنى نفسها. وهذا الأمر لا يتحقق إلا بتمثل الظروف المؤدية إلى الإبداع في حدود تاريخية ونفسانية مفروضة علينا جميعا». الإيديولوجية العربية المعاصرة، المركز الثقافي، ط1، 1995، ص21.
لمزيد من التفصيل أنظر: عبدالله العروي، أوراق، المركز الثقافي العربي 1989، ص240.
محمد الداهي، عبدالله العروي : من التاريخ إلى الحب، ط1، الفنك، 1996،ص/ص 80-85.

14- جورج لوكاش، نظرية الرواية، ترجمة الحسين سحبان، منشورات التل، ط1، 1988، ص25.

15- J.P Goldenstein, Pour lire le roman, Deboeck, Duculot, Bruxelle/Paris, 1989, p. 18.

16- الآية6 ، سورة الأحقاف.

17- الآية 4 سورة المعارج.

18- «يتميز هذا النوع عن غيره من أنواع التفاعل النصي بسبب العلاقة التي تقوم بين نصين متكاملين، أولهما سابق hypotexte والثاني لاحق hypertexte. إن النص اللاحق يكتب النص السابق بطريقة جديدة» ، سعيد يقطين، الرواية والتراث من أجل وعي جديد بالتراث، المركز الثقافي العربي، ط1، 1992، ص6.

19- Gervais (B), Récits et actions pour une théorie de la lecture, le Préambule, 1990, p166.

20- ibid p 166.

21- Parret (H), Les passions essai sur la mise en discours de la subjectivité, Mardaga, 1986, p25.

22- Orechini (C.K), L'énonciation de la subjectivité dans le langage, Armand Colin, 1980, p75.

23- عبدالله العروي، الإيديولوجية العربية المعاصرة، م.سا، ص240.

24- Gervais, Récits et actions... op. cit, pp 174-175.

25- فليب هامون، «خطاب مقيد»، في : الأدب والواقع، م.سا ص84.

26- المرجع نفسه ص85.

27- قيس النوري، «التفاعل الرمزي»، عالم الفكر (الخاص بالظاهرة الإبداعية)، العدد 4، 1985، ص/ص 151-149.

28- يقول الله تعالى: ﴿ لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم ﴾ الآية 44 سورة الحجر.
﴿ سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم ﴾، 27، سورة لقمان.
﴿ وإذْ وَاعَدْنا موسى أربعين ليلة ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون ﴾، 51، البقرة.
﴿ قال فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض فلا تَأسَ على القوم الفاسقين ﴾، 28، المائدة.

29- Courtés (J), Analyse sémiotique du discours De l'énoncé à lénonciation, Hachette, 1991, pp 38-45.

30- قيس النوري، «التفاعل الرمزي»، عالم الفكر، م.سا ص144.

31- المرجع نفسه ص 143.

32- فليب هامون، «خطاب مقيد»، في الأدب والواقع، م.سا. ص73.

33- الصفحة نفسها.

الخاتمة

بعد الفراغ من التحليل يمكن أن نجيب، في الوقت نفسه، عن الإشكاليات التي سبق لنا أن أثرناها في مقدمة الكتاب، ونتأكد من صدقية الفرضيتين المثبتتين في نهاية الفصل الأول.

1- إن تشييد مشروع سيميائية الكلام (الروائي) يستتبع التدليل على استقلالية الكلام داخل النظرية السيميائية. وما يسَّر ذلك نسبيا هو انتقال السيميائية من التصور الما قبل خطابي إلى التصور الخطابي، وإقرار السيمائيين بوجود محفل وسيط (التلفظ) يربط بين المحفل الابستمولوجي وبين المحفل الخطابي. ومع مر السنين أصبح هذا المحفل يلعب دورا هاما ليس فقط في إبراز آليات الانفصال/الاتصال، واستحضار الكليات السيميائية المستخدمة في الخطاب ؛ وإنما حتى في تشخيص الآثار التلفظية الناجمة عن التحولات البلاغية والخطابية، وإخراج الأدلة من القوة (النسق اللساني المفترض) إلى الوجود (النسق الكلامي المحقق). إن المنزلة التي أصبحت تحظى بها الممارسة التلفظية (الشروط الضرورية للتدلال) في المصادر السيميائية، حفزتنا على التعامل مع الدلالة بوصفها فعلا منتجا مقرونا بذوات ولغات مشخصة بطريقة أدبية، ثم تبئير البحث على المتلفظ سواء أكان حاضرا (بوصفه فعلا سيميائيا) أم مستضمرا (بكونه مشخصا في آثار تلفظية)، والاكتراث بما تتسم به ملفوظاته من متغيرات وإيحاءات فردية وجماعية وأبعاد حوارية و أكسيولوجية.

تطلب التدليل على استقلالية البعد الكلامي معالجة النقاط التالية:

أ ـ مجاراة كريماص وفونتاني في تدارك نقائص التحليل المعجمي بإنجاز دراسة «ممتدة» للمعجميات في خطابات أخرى[1] (القرآن الكريم، الشعر، الصحف) ثم بيان تجلياتها وتخطيبها في المتن الروائي. وهذا ما أسعف على إغناء النماذج التركيبية، وفهم تنظيم تمظهر معجمي ـ دلالي في كليته.

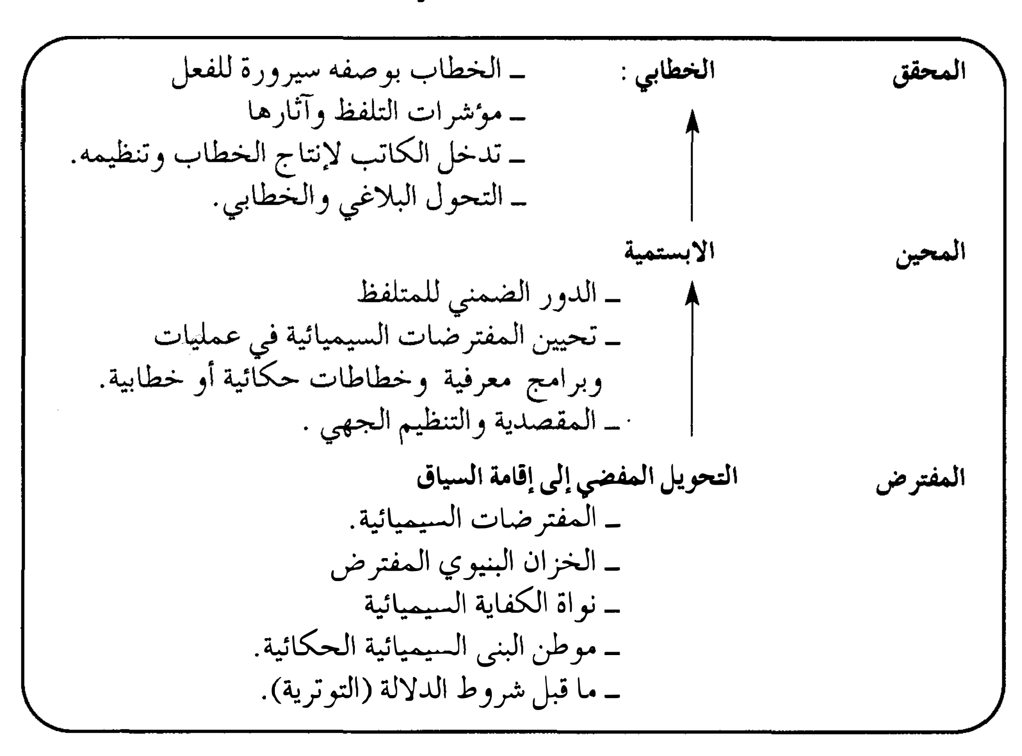
ب ـ إن الإقرار بوجود الحالة الكلامية (قبل العمل والهوى أو بعدهما) حتم تصنيف الوحدات الكلامية في مقولات منطقية عامة (موضوعاتية الكلام)، وإبراز التوجهات المتحكمة فيها، واستنتاج نماذج توقعية قابلة أن تعمم وتشغل على خطابات مختلفة للتأكد من تماسكها وصرامتها.

ج ـ تم تحديد طبيعة العلاقة التي تجمع بين المتلفظ والمتلفظ له (آليات التطويع والتطويع المضاد، البعد الاستيثاقي، المشروع الكلامي، الحمل على الاعتقاد، الأدوار التحدثية، انتقائية الصور)، وتبيان الآثار التلفظية التي تكشف عن هوية المتلفظ، وتصنفه داخل فئات سيميائية اجتماعية محددة (القيم والإيحاءات الأكسيولوجية، اللغة

الفردية، اللغة الاجتماعية، الملفوظات المشخصة بطريقة أدبية، الأنماط الكلامية..).

2- رغم إقرارنا بالبعد الافتراضي والبيداغوجي للمسار التوليدي، فهذا لم يمنعنا من الاستئناس بمراحله ومستوياته ؛ وذلك ليس فقط لتبيان الموقع الذي يشغله التلفظ داخله، وإنما أيضا لإبراز الطابع الدينامي الذي يضفيه على سيميائية الكلام. يمتح المتكلم (المتلفظ) مفرداته من الخزان البنيوي المفترض (البنى المحايثة)، ويضطلع بتحيينها في عمليات وبرامج معرفية وخطاطات حكائية أو خطابية (التحويل)، ثم استحضارها انسجاما مع ثوابت انتربولوجية ومعرفية (إقامة السياق)، ثم تخطيبها وصوغها في شكل صور وموضوعات (التخطيب). وفي آخر المطاف، يتدخل لإنتاج الخطاب، وتنظيم فقراته ووحداته، وإبراز ذاتيته (التذويت) بالمؤشرات والآثار التلفظية.

تزاوج هذه المراحل المتدرجة من المجرد إلى الملموس بين تصورنا للسيرورة التلفظية وبين الخطاطة التي أدمج فيها هرمان باريت الذاتية في المسار التوليدي للمعنى(2). وفي هذا الصدد نضطر إلى رسم خطاطة توضيحية لبيان كيف تتدرج السيرورة التلفظية من المحايثة إلى التخطيب النهائي.



(خطاطة رقم 21 : سيرورة التلفظ من المحايثة إلى التخطيب).

3- لقد حاولنا أن نضع عُدَّةً مفاهيمية خاصة بسيميائية الكلام، وذلك على نحو يجعلها متميزة عن سيميائيتي العمل والهوى، وقادرة على إثبات استقلالية الكلام داخل النظرية السيميائية العامة. ورغم تباين السيميائيات الثلاث، فهي تتلاءم فيما بينها داخل **البعد السيميائي للوجود المتجانس** [3]. ونحدد في الجدول أسفله منزلة مشروع سيميائية الكلام مقارنة مع سيميائيتي العمل والهوى.

النوع	الموضوع	الجهة	البعد المعتمد	الأدوار	الخطاطة المقننة
سيميائية العمل	الإنجاز (إدراك الموضوع المبحوث عنه).	الفعل	البعد المعرفي والتداولي.	الأدوار الموضوعاتية.	الخطاطة الحكائية المقننة: التطويع، الكفاية، الإنجاز، الجزاء.
سيميائية الهوى	ـ إعادة بناء الأهواء سيميائيا. ـ الحالة النفسية	الكينونة	البعد الانفعالي	الأدوار الاستهوائية.	الخطاطة الاستهوائية المقننة: التكوين، التهيؤ، الصوغ الانفعالي، العاطفة، التقويم الأخلاقي.
مشروع سيميائية الكلام	إعادة بناء الكلام سيميائيا. الحالة الكلامية وقوتها.	الحمل على الاعتقاد (الإقناع).	البعد الاستيثاقي والتحققي	الأدوار التحدثية	الخطاطة التحدثية المقننة: المقصدية، الحفظ أو العطاء، التلفظ، التقويم الأخلاقي.

(جدول رقم 19 : العدة المفاهيمية الخاصة بسيميائية الكلام).

من باب الإجحاف الادعاء أن هذا الجدول يعرف بالمفاهيم كلها التي تنتسب إلى مشروع سيميائية الكلام. فهو لا يستوعب إلا القاعدي منها الذي يتميز عما يماثله في الوظيفة داخل سميائيتي العمل والهوى. وخلال سيرورة البحث، اعتمدنا على كثير من المفاهيم الإجرائية التي تدل على استقلالية الكلام داخل النظرية السيميائية. ومن ضمنها نذكر أساسا : الوحدات الكلامية، التطويع التلفظي، والفعل اللغوي، والإخراج المقاصدي، والمقاطع التحدثية، والكلام النمطي، والعينات الذاتية، واللغة الفردية، واللغة الاجتماعية، والصورية..إلخ.

إن البرهنة على استقلالية البعد الكلامي داخل النظرية السيميائية (المعيار)، استدعت معالجته بلغة واصفة ملائمة، وإبراز منزلته مقارنة مع منزلتي العمل والهوى. وبعد التأكد من صحة الفرضيتين، نلاحظ أن مشروع سيميائية الكلام أعاد الاعتبار للقضايا التالية:

أ- إدماج مفهوم المقام - وهو يشكل القاعدة التي انبنى عليها تصور إريك لاندوفسكي في تشييد السيميائية الاجتماعية - في التصور السيميائي.

ب- المزاوجة بين **الفهم** (تحليل المعنى) **والتفسير** (خلق المعنى) (4). ويكمن ذلك أساسا في إبراز الدور الإيجابي للمتلفظ له في تأويل ما يتلقاه، وتشغيل خلفياته المعرفية، وممارسة التطويع المضاد.

ج- توسيع مفهوم **الذاتية** ليشمل الآثار التي يخلفها المتلفظ في الخطاب وإن كان غير حاضر فيه (5).

د- دعم التصور السيميائي للخطاب، وذلك بمعالجة المجموعات الدالة (بتعبير جاك فونتاني) أو الوحدات الكبرى (بتعبير كلود كوكي)، والتعامل مع التلفظ بوصفه تجليا خطابياً ملموساً (مستوى التحقيق الذي يخرج المؤشرات التلفظية وآثارها من القوة إلى الفعل).

4- شيدنا مشروع سيميائية الكلام على المجموعات الدالة التالية : الوحدات الكلامية، ثم التطويع التلفظي، ثم المقاطع التحدثية، ثم الصورية. نقدم فيما يلي نظرة عن كل مجموعة على حدة، مبرزين بعض الاستنتاجات التي عنت لنا.

1.4- استنتجنا الوحدات الكلامية الكبرى التي تتواتر بكثرة في الرواية، وينبني صرحها عليها، ثم صنفناها ضمن المقولات التي تناسبها. وقبل مباشرة التحليل حددنا معانيها المثبتة في المعجم بوصفه استعمالا ثقافيا، وعاينا تجلياتها في خطابات موازية لبيان ما طرأ عليها من تغيرات دلالية، والتأكد من مدى امتثالها للإيديولوجية الجماعية (مجموع الشروط التي ينبغي للمتكلم احترامها)، واستحضارها للمحفل الثقافي والخصوصية الحضارية (الممارسة التلفظية). وقد استنتجنا من دراسة التمظهرات المعجمية والدلالية للوحدات الكلامية ما يلي :

أ- يعد المعجم استعمالا ثقافيا يتطور بالاستعمالات الفردية (الكُتّاب خاصة) والجماعية (المجتمع).

ب- تبرز أهمية التخطيب الروائي في إضفاء دلالات مغايرة للوحدات الكلامية، ومنحها منازل وأدوارا جديدة.

ج ـ تتجلى المنزلة السيميائية للوحدات الكلامية في ما تتميز به من خصوصيات جهية وتحدثية وحكائية وتركيبية.

2.4- بينا ملاءمة التطويع التلفظي في تحريك البرامج الحكائية، وشغل مواضع ملائمة داخل الخطاطات الحكائية. وينبني التطويع على الدعامات التالية : الأفعال اللغوية، والجهات التحدثية (خاصة جهة الحمل على الاعتقاد)، والتماسك النصي، والمشروع الكلامي. ولما درسنا التطويع التلفظي، توقفنا عند النقاط التالية:

أ ـ يلعب دورا هاما في تحريك البرامج الحكائية، وحفز المتلفظ له على تنفيذ فعل معين. وهذا يتطلب من المتلفظ أن يتوفر على كفاية لغوية وتواصلية حتى يسهل عليه إقناع المتلفظ له، وحمله على تغيير معتقداته وتنفيذ ما طلب منه.

ب ـ يتحتم على المتلفظ أن يكون متحكما في الوسائل اللغوية (الدعامات والمناورات التلفظية) لإدراك مبتغاه. وهكذا يعد الكلام عاملا مساعداً يسعف على الوصول إلى الموضوع المبحوث عنه.

ج ـ وإن التزم المتلفظ بثوابت التطويع، فهو يجد نفسه أمام إستراتيجيات ومشروعات متعددة لتحقيق مقاصده. وهنا تكمن أصالة المبدع في ابتداع سيناريوهات ومدونات جديدة قد لا تخطر على بال المتلفظ له، وبالتالي تجبره على تصديق واعتقاد ما يُبَثُّ له. وفي حالة ما إذا كانت حجج المتلفظ غير كافية، فهو يدعمها بالانفعالات (التطويع الاستهوائي) حتى يكون لها وقع حسن في نفسية المتلفظ له.

3.4- من بين العناصر التي تسهم في تفريد الفاعل نذكر الكلام. وهو يتشخص بوصفه مقاطع تحدثية تميزه عن الفواعل الأخرى (طريقة النطق، انتقاء المعجميات، تركيب الملفوظات...)، وتبرز موقفه من الوجود، وتكشف عن قدراته اللغوية. وحللنا المقاطع التحدثية للفواعل لبيان متغيرات لغاتها الفردية، وكلامها النمطي، وطبيعة خطاباتها (لغاتها الاجتماعية) وأدوارها التحدثية. ويمكن أن نستنتج من دراسة هذه المقاطع ما يلي:

أ ـ ينضاف الدور التحدثي إلى الأدوار السيميائية المتعارف عليها: الدور العاملي، الدور الفاعلي، الدور الانفعالي. ويلعب الدور التحدثي دورا هاما في تحريك البرامج الحكائية، وتفريد الفواعل وتعبئتها لإدراك الموضوع المبحوث عنه. ويتطلب من المتلفظ مراعاة المواضعات الاجتماعية، ومداراة الناس على طبقاتهم، وإعطاء لكل صنف ما يرضيه، والاتسام بالفطنة وسرعة البديهة.

ب ـ يستحيل أن يتكلم المتلفظ دون أن يوظف في مقاطعه التحدثية نتفا من كلام الآخرين . فهو يعيش في وسط عدة أنساق لسانية، تجبره على استخدام بعضها في الآن

نفسه أو الانتقال من نسق إلى آخر دون أن يفكر في الأمر أو يتعمده. فهي «لغات مختلفة، حتى من وجهة نظر العلامات المجردة الاجتماعية واللهجوية. لكنها لم تكن مترابطة حواريا» (6). ولما تشخص أدبيا تكون مُؤَسلَبة وموظفة بإمعان ؛ وذلك على نحو يمكن من تفريد الفواعل وتمييز صورها اللغوية، وإبراز طرائقها في استثمار كلام الآخرين (التهجين، الأسلبة، التنويع، الحوارات الخالصة، الكلام النمطي).

ج ـ ينهل الفاعل لغته الفردية من دليل جماعي (اللغة الاجتماعية) متميز بسماته الصوتية وخصوصياته الثقافية والإيديولوجية. ويتضمن كلامه العينات الإيديولوجية لخطاب الفئة السيمائية ـ الاجتماعية التي ينتمي إليها وتحدد موقفه من الوجود.

4.4- بعد إبراز العلاقة الموجودة بين الموضوعاتي والصوري، وتعليل المسافة الموجودة بين النص والواقع، واستنتاج الإيحاءات والقيم الأكسيولويجة والعينات الذاتية التي تحفل بها الصور؛ استنتجنا النقاط التالية:

أ ـ تندرج الصورية في إطار توسيع المقاربة التلفظية (المزاوجة بين **الفعل والأثر**)، وإظهار القيمة التي تستمدها الصور من طبيعة الطقوس والانتماءات الاجتماعية والإبدالات السياسية.

ب ـ يتمتع المبدع بحرية كبيرة في توظيف الصور، وإعطائها منزلة خاصة، وتشكيل عوالم تخييلية أو ممكنة، وابتداع مدونات قد لاتخطر على بال القراء المفترضين. وفي هذا الصدد، إذا كانت روايتا **ذات وبرج السعود** تدغدغ توقعات القراء بمدونات معروفة لديهم (العلاقة المتوترة بين الزوج وزوجته بسبب كثرة المتطلبات وقلة المال، وعلاقة القروي بأرضه، وارتكاب جريمة قتل)، فإن الروايتين الأخريين (**الضوء الهارب، وشطح المدينة**) تباغتانهم باحتمالات حكائية غير متوقعة (منافسة البنت أمها في حب الشخص نفسه، اشتداد المنافسة بين الجامعة والبلدية في انتزاع الاعتراف بأيهما أسبق في الوجود وأكثرهما إشعاعا وفضلا).

ج ـ أسعفتنا المنظومة القيمية على إبراز جدلية الجنس الروائي خلال مطلع عقد التسعينات من القرن العشرين، ثم استخلاص بعض الضوابط الفنية التي تحكمت في سيرورتها. وما يسترعي الانتباه أن كتابها كانوا يراهنون على تجديد الشكل الروائي وتوظيف العناصر المخصبة سواء بالإفادة من المنجزات الغربية أو المتح من التراث العربي الإسلامي. ومن الأمور التي استأثرت باهتمامهم نذكر أساسا : تجريب تقنية التناوب أو التداخل الحكائي، وتشخيص المستويات التعبيرية أدبيا، وبناء التخييل على أنقاض نصوص سابقة، وإعادة النظر في مفهوم «الواقعية» بإعادة استثمار وتشخيص عناصر الواقع، ومساءلة الأشكال والايديولوجيات السائدة.

الهوامش:

1- عالجا الغيرة والبخل بطريقة ممتدة للتوقف عند ما لحق معنياهما المعجمايين، وخطاطهما الاستهوائيايين المقننايين من إضافات في الأعمال الأخلاقية والروائية والمسرحية. أُنظر إلى كريماص وفونتاني، سيميائية الأهواء، سوي، 1991.

2- يقترن التلفظ بكل مستويات المسار التوليدي ومكوناته. فهو يشكل ظاهرة معقدة تضطلع بتحويل البنى السيميائية المجردة إلى بنى خطابية. يتجلى النموذج الذي اقترحه هرمان باريت من خلال مرحلتين إحداهما تهم التحويل الذي يضمن إقامة السياق (تَحَيُّنُ الكفاية الجهية بثوابت انتربولوجية ومعرفية)، وثانيتهما تخص التحولات البلاغية ـ الخطابية.

انظر في هذا الصدد إلى :

Parret (H), Les passions essai sur la mise en discours de la subjectivité. Mardaga, 1996, p. 54.

3- كريماص وفونتاني، سيميائية الأهواء، م. سا، ص 14.

4- تحيل ثنائية الفهم/ التفسير إلى نقاش محتدم دام زهاء عشرين سنة بين كريماص وبول ريكور. يدافع الأول عن القدرة التحليلية والعلمية للمشروع السيميائي (الفهم)، في حين يؤاخذ عليه الثاني عدم الاكتراث بالجانب التأويلي (التفسير)، ويرى بأنه ينبغي للسيميائية البنيوية أن تقوم، في الآن نفسه، على الفهم والتفسير. ويشترط في هذا الصدد قلبا منهجيا يقدم التأويل على التحليل. أُنظر إلى الدراسات المثبتة في نهاية **قراءات 2**، سوي، 1992. ومن ضمنها : النحو الحكائي لكريماص (387-419)، التصوير والتمظهر؛ بصدد كتاب موباصان لكريماص (420-430)، ما بين السيمائية والتأويلية (431-447).

5- نلاحظ أن التصورات السيميائية للتلفظ (الخطاب بوصفه سيرورة للفعل) مستلهمة من أعمال بنفنست (الفعل الفردي لممارسة اللغة وتشغيلها). وحتى نعالج التلفظ في شموليته (بوصفه فعلا وأثرا) استفدنا من كتاب كربرات أوركيوني (تلفظ الذاتية في اللغة، 1980).

6- ميخائيل باختين، الخطاب الروائي، ترجمة محمد برادة، دار الآمان، ط2، 1987، ص 75.

الملاحق

ثبت الرموز

الرمز		الدلالة
ب ح	:	البرنامج الحكائي
م ح	:	ملفوظ حكائي
ح	:	الحاضر
ما	:	الماضي
مس	:	المستقبل
ذ	:	الذات
ذ 1	:	المرسل ، ذات الحالة
ذ 2	:	المرسل إليه، ذات الفعل
م	:	الموضوع
ظ	:	الظهور
ك	:	الكينونة
$\overline{\text{ظ}}$	:	لا ظهور
$\overline{\text{ك}}$	:	لا كينونه
ع	:	العامل
ف	:	الفاعل
ق.ت	:	قوة تحدثية
م.ق	:	الموضوع القيمي
م.ق	:	معنى قضوي
نقض	:	نقيض
مقوم	:	[+...]
و	:	الوظيفة
∪	:	الفصل
∩	:	الوصل

ثبت المصطلحات

Actant	العامل
Actantielle(structure)	العاملية (البنية)
Acte (de langage, illocutoire, de parole)	الفعل اللغوي، التحدثي، فعل الكلام
Actorielle (structure)	الفاعلية (البنية)
Actorisation	الصوغ الفاعلي
Anthroponyme	اسم علم
Anti-énonciateur	المتلفظ المضاد
Anti-manipulation	التطويع المضاد
Anti-programme narratif	البرنامج الحكائي المضاد
Archi-actant	العامل الأعلى
Aspect	الوِجْهَة
Assertif	التوكيدي
Attente(s)	التّنظُّر، التوقع(ات)
Catégorie classématique	مقولات مصنفية
Chiasmiques(passions)	متقاطعة (أهواء)
Chrononyme	إسم الزمان
Classe argumentative	الطبقة الحجاجية
Classéme(s)	المصنف (ج. مصانف)
Cliché	الروسم
Cognitif (faire)	المعرفي (الفعل)
Commissif	تكليفي
Compétence	الكفاية
Configuration	التمظهر
Conjonction(illocutoire)	الوصل (التحدثي)
Constatif	تقريري
Contexte	السياق
Contexte de situation	المقام
Contrat	عقد، ميثاق
Crise fiduciare	أزمة الثقة (أزمة استيثاقية)
Débrayage	انفصال
Déclaratif	معلن
Déontique(modalités)	الفعل (جهات)
Dialogique	حواري
Didascalies	إرشادات مسرحية
Dimention (cognitif, pragmatique, thymique)	بعد (معرفي، تداولي، انفعالي)
Directivité	توجيهية
Discursivisation	التخطيب
Dispositif	جهاز، منظومة

Dysphorique	محزن
Echelle argumentative	السلم الحجاجي
Effet illocutoire	أثر التحدث
Embrayage	الاتصال
Enoncé	الملفوظ
Enonciateur	المتلفظ
Enonciatif	تلفظي
Enoncif	ملفوظي
Enthousiasmiques (passions)	حماسية (أهواء)
Epistémiques (modalités)	معرفية (جهات)
Euphorique	مبهج
Extéroceptivité	الإحساس الخارجي
Factitif	فعلي
Faire interpretatif	فعل تأويلي
Faire persuasif	فعل إقناعي
Figuratif	صوري
Figurativité	الصورية
Figure	صورة
Force (tensif, juridique)	قوة (التوتر، قانونية)
Genre intercalaire	الجنس المتخلل
Groupe socio-sémiotique	فئة سيميائية ـ اجتماعية
Hybride	هجين
Iconicité	الأيقونية
Idéologème	عينة إيديولوجية
Idiolecte	لغة فردية
Image-but	الصورة المستهدفة
Implicite	المُروّى
Inclusion	التضمين
Indoctrination	التلقين المذهبي
Inference	الاستدلال
Inter-modal	البين ـ جهي
Intéroceptivité	الإحساس الداخلي
Interprétant	المؤول
Interprétatif (faire)	التأويلي (الفعل)
Isotopie	التشاكل
Langage collectif	لغة جماعية
Lexème	معجمية
Linguisticisme	النزوع اللغوي
Lisibilité	المقروئية

Macro-acte	فعل لغوي مكبر
Macro-séquence	مقطع مكبر
Manifestation textuelle	التجلي النصي
Manipulation	التطويع
Micro-séquence	مقطع مصغر
Micro-système	نسق مصغر
Mise en abyme	الإرصاد المرآتي
Mise en scéne intentionnelle	الإخراج المقاصدي
Modal (sujet, verbe)	جهي (ة) (ذات، فعل)
Modalisation	الإيجاه
Modalité	الجهة
Modalités de dire	جهات القول
Modalités langagières	جهات لغوية
Mode d'existence	نمط الوجود
Modélisation	نمذجة
Moralisation	التقويم الأخلاقي
Narrativité	الحكائية
Obsession	الحصرة
Orgasmiques (passions)	انتعاظية (أهواء)
Orientation argumentatif	التوجه الحجاجي
panoplie	عدة ، ترسانة
Parcours (narratif, figuratif, géneratif)	مسار (حكائي، صوري، توليدي)
Parole type	كلام نمطي
Passion (s)	هوى (أهواء)
Pathème	عينة استهوائية
Pathèmisation	الصوغ الاستهوائي
Pathos	مثير الانفعال
Patient	جامد
Performance	الإنجاز
Performatif	إنجازي
Persuasif (faire)	الإقناعي (الفعل)
Phonétique	صوتي
Phonologique	صواتي
Polymorphe	متعدد الأشكال
Polyphonie	تعدد الأصوات
Posé	المطروح
Potentialisation	الكمون
Potentialisé	كامنة
Pragmatique (faire)	التداولي (الفعل)

Praxis énonciative	ممارسة تلفظية
Précomprehension	ما قبل الفهم
Précondition de la signification	ما قبل شروط الدلالة
Presupposé	الضمني
Processus argumentative	السيرورة الحجاجية
Programmation	البرمجة
Programme (narratif, énonciative)	برنامج (حكائي، تلفظي)
Projet de parole	مشروع كلامي
Promissif	وعدي
Psychologisme	النزعة النفسية
Rapporté	منقول
Réflexif	انعكاسي
Rôle (thématique, illocutoire, thymique)	دور (موضوعاتي، تحدثي، انفعالي)
Sanction	الجزاء
Schéma	خطاطة
Sémantisme	النزوع الدلالي
Séme	مقوم
Sémème	مَفْهَم
Sémiosis	التدلال
Signifiance	الاندلالية
Simulacre (s)	الشبيه (الأشباه)
Spatialisation	التفضية
Spatialité	الفضائية
Stylisation	الأسلبة
Subjéctivème	العينة الذاتية
Taxinomie	صنافة
Taxinomies connotatives	الصنافات الإيحائية
Temporalisation	التزمين
Tensivité	التوترية
Textualisation	الصوغ النصي
Thématique de la parole	موضوعاتية الكلام
Tponyme	اسم مكان
Transitif	متعد
Transliquistique	عبر لغوية
Trantextuel	عبر نصية
Vérdictif	حكمية
Véridiction	التحقق

أ ـ المصادر والمراجع باللغة العربية

ـ القرآن الكريم.

ـ ابن حزم (أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد)، طوق الحمامة في الألفة والألاف، حققه وصوبه وفهرس له حسن كامل الصيرفي، مطبعة الاستقامة بالقاهرة، [د.ت].

ـ باختين (ميخائيل)، أ ـ الماركسية وفلسفة اللغة، ترجمة محمد البكري ويمنى العيد، دار توبقال، ط 1، 1986.
ب ـ الخطاب الروائي، ترجمة محمد برادة، دار الأمان، ط2، 1987.

ـ بارث (رولاند) وآخرون، الأدب والوقع، ترجمة عبد الجليل الأزدي ومحمد معتصم، ط1، تنسفت، 1992.

ـ بروب (فلاديمير)، مورفولوجية الخرافة، ترجمة إبراهيم الخطيب، الشركة المغربية للناشرين المتحدين، ط1، 1986.

ـ بورديو (بيير)، الرمز والسلطة، ترجمة عبدالسلام بنعبد العالي، توبقال، ط1، 1986.

ـ ابن فارس (أبو الحسن أحمد) مقاييس اللغة، خفقه عبد السلام بن هارون، دار الجيل، بيروت، ج 2، 1991.

ـ التوحيدي (أبو حيان)، الإمتاع والمؤانسة، تحقيق خليل منصور، دار الكتب العلمية، ط1، 1998.

ـ الثعالبي (أبو منصور)، كتاب فقه اللغة، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، [د.ت].

ـ الخفاجي (عبد الله بن سنان)، سر الفصاحة، دار الكتب العلمية، بيروت، 1982.

ـ خطابي (محمد)، لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب، المركز الثقافي العربي، ط1، 1991.

ـ الداهي (محمد)، عبدالله العروي : من التاريخ إلى الحب، الفنك، ط1، 1996.

ـ طه (عبد الرحمان)، أ ـ في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، المؤسسة الحديثة للنشر التوزيع، بابل، ط1، 1987.
ب ـ اللسان والميزان والتكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي، ط1، 1998.

ـ عتيق (عبد العزيز)، علم المعاني، دار النهضة العربية، 1989.

ـ الكاتب (بن وهب أبو الحسين)، البرهان في وجوه البيان، تحقيق أحمد مطلوب خديجة الحديثي، مطبعة العاني، بغداد، 1967.

ـ كليطو (عبد الفتاح)، الأدب والغرابة دراسات بنيوية في الأدب العربي، دار الطليعة، بيروت، ط2، 1983.

ـ كولدمان (لوسيان)، المادية الديالكتيكية وتاريخ الأدب، ترجمة نادر ذكرى، دارالحداثة للطباعة والنشر، سلسلة قضايا أدبية ، ط1، 1981.

ـ العروي (عبد الله)، مفهوم العقل، المركز الثقافي العربي، ط1، 1997.

ـ المسدي (عبد السلام)، التفكير اللساني في الحضارة العربية، الدار العربية للكتاب، ليبيا/تونس، 1981.

ـ المنذري (الحافظ أبو محمد زكي الدين)، الترغيب والترهيب في الحديث الشريف، حققه وفصله وعلق على حواشيه محمد محي الدين عبد الحميد، ج 5 ، مطبعة السعادة، مصر، 1960.

ـ لوكاش (جورج)، نظرية الرواية، ترجمة الحسين سحبان، منشورات التل، ط1، 1988.

ـ مفتاح (محمد)، أ ـ تحليل الخطاب الشعري استراتجية التناص، المركز الثقافي العربي، ط2، 1986.
ب ـ دينامية النص [تنظير وإنجاز]، المركز الثقافي العربي،ط1، 1987.
ج ـ مجهول البيان، توبقال، ط1، 1990.

د ـ التشابه والاختلاف نحو منهاجية شمولية، المركز الثقافي العربي، ط1، 1992.
هـ ـ مشكاة المفاهيم النقد المعرفي والمثاقفة، المركز الثقافي العربي، ط1، 2000.
ـ ناجي (مصطفى)، نظريات السرد من وجهة النظر إلى التبئير، دار الخطابي للطباعة والنشر، ط1، 1989.
ـ هربرت أشيللر، المتلاعبون بالعقول، ترجمة عبد السلام رضوان، عالم المعرفة، الإصدار الثاني، ع 243، 1999.
ـ يقطين (سعيد)، أ ـ الكلام والخبر مقدمة في السرد العربي، المركز الثقافي العربي، ط1، 1997.
ب ـ الرواية والتراث من أجل وعي جديد بالتراث، إلمركز الثقافي العربي،ط1، 1992.

ب ـ المقالات والدراسات باللغة العربية

ج ـ بارث (رونالد)، تحليل نصي لحكاية القول الفصل في حالة السيد فالديمار لإدكار آلان بو، ترجمة محمد البكري، فضاءات مستقبلية، العدد 32، 1992.
ـ برادة (محمد)، «الكتابة التشخيص الأزمة» في رهانات الكتابة، ط1، فضالة، 1995.
ـ حضور (أديب)، «سوسيولوجية الترفيه في التلفزيون»، عالم الفكر، م 28، ع2، 1999.
ـ شغموم (الميلودي)، «المتخيل والهوية» (الكرامات نموذجا)، بصمات، العدد 4، 1990.
ـ العروي (عبدالله) : «الأفق الروائي»، الكرمل، ع 11، 1984.
ـ عروي (محمد إقبال)، «السيميائيات وتحليلها لظاهرة الترادف في اللغة والتفسير»، عالم الفكر، م 24، ع 3، 1996.
ـ قاسم (سيزا)، «الضوء الهارب: مفهوم آخر للغربة والاغتراب» في روايات عربية قراءة مقارنة، منشورات الرابطة، ط1، 1997.
ـ كريماص (أ. ج)، لندوفسكي (إ)، التداولية والسميائية، أعمال سيميائية العدد 50، 1983، ترجمة محمد الداهي، علامات في النقد، ع 33 ، 1999.
ـ المتوكل (أحمد)، «اقتراحات من الفكر العربي القديم لوصف ظاهرة الاستلزام التخاطبي»، البحث اللساني السميائي، العدد 987، ماي، 1984.
ـ النوري (قيس)، «التفاعل الرمزي»، عالم الفكر، العدد 4، 1985.

ج ـ المعاجم العربية

ـ ابن منظور، لسان العرب المحيط، أعاد بناءه على الحرف الأول من الكلمة يوسف خياط، دار الجيل/ لسان العرب، 1988.
ـ جيهامي (جيرار)، موسوعة مصطلحات الفلسفة عند العرب، مكتبة لبنان، ط1، 1998.
ـ الأصفهاني (أبو القاسم الحسين بن محمد المفضل)، معجم مفردات القرآن العامة، طبعه وحققه وخرج آياته وشواهده إبراهيم شمس الدين، منشورات دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1998.
ـ التهانوي (محمد علي)، كشاف اصطلاحات الفنون، تقديم وإشراف ومراجعة رفيق العجم، مكتبة لبنان، بيروت، ط1،ج1، 1992.
ـ الجوهري (أبو نصر إسماعيل بن حماد)، الصحاح المسمى تاج اللغة وصحاح العربية، حققه وضبطه

شهاب الدين أبو عمرو، دار الفكر، ط1، 1998.
ـ الفيروز بادي (الإمام محمد الدين بن يعقوب بن محمد بن إبراهيم)، القاموس، طبعة جديدة لونان، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1995.
ـ العجم (رفيق)، موسوعة مصطلحات أصول الفقه عند المسلمين، مكتبة لبنان ناشرون، ط1، 1998.
ـ الكفوي (أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني)، الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، قابله على نسخة خطية وأعده للطبع ووضع فهارسه عدنان درويش ومحمد المصري، الرسالة ،ط1، 1992.
ـ محمد فؤاد (عبد الباقي)، المعجم المفهرس للألفاظ القرآن الكريم، دار الحديث، القاهرة، 1994.
ـ وهبة (مجدي)، معجم مصطلحات الأدب، مكتبة لبنان، ط1، 1974.

د ـ رويات المتن

ـ ربيع (مبارك)، برج السعود، مطبعة النجاح،ط1، 1990.
ـ صنع الله (إبراهيم)، ذات، دار المستقبل العربي،ط1، 1992.
ـ الغيطاني (جمال)، شطح المدينة، دار الشروق، ط1، 1992.
ـ برادة (محمد)، الضوء الهارب، الفنك، ط1، 1993

هـ ـ المصادر والمراجع باللغة الأجنبية

- Bakhtine (M), «Le vocabulaire de la place publique dans l'oeuvre de Rablais» in L'oeuvre de françois Rablais et la culture populaire en moyen-âge et sous la renaissance, Gallimard, 1970.
- André-Larochebouvy (D), Introduction à l'analyse sémio-linguistique de la conversation, Didier Crédif, 1988.
- Benveniste (E), Problèmes de linguistique générale, tome I, Gallimard, 1966.
- Bertrand(D), L'espace et le sens Germinal d'Emile Zola, Hadés Benjamins, Paris, Amesterdam, 1985.
- Boissinot (H), Les Textes argumentatifs, Coll, Bertand-Lacoste, CRDP de Toulouse, 1992.
- Bourdieu, Ce que parler veut dire l'économie des échanges linguistiques, Fayard, 1982.
- Breton (Ph), L'argumentation dans la communication, coll Approches Casbah édition Alger, 1981.
- Brown (G) et Yule (G), Discours analysis, CUP, 1986.
- Caron (J), Les régulations du discours psychologique et pragmatique du langage, PUF, Psychologie d'aujourd'hui, 1983.
- Cervoni (J), L'énonciation, PUF, 1987.
- Chadli (M), Sémiotique vers une nouvelle sémantique du texte problèmes, enjeux et perspectives, publications de la faculté des lettres de Rabat, série: Essais et Etudes, n°10,1985.
- Charaudeau (P), Langage et discours Eléments de sémiolinguistique (Théorie et pratique), Hachette, 1983..
- Coquet (J.C),

a- «L'école de Paris» in Sémiotique l'école de Paris, Hachette, 1982.

b- Le discours et son sujet 2. Pratique de la grammaire modale, Klincksieck, 1985.

- Courtés (J),

a- Le conte Populaire: Poétique et Mythologie, PUF, 1986.

b- Sémantique de l'énoncé Applications pratiques, Hachette, 1989.

c- Analyse sémiotique du discours de l'énoncé à l'énonciation, Hachette, 1991.

d- Du lisible au visible introduction à la sémiotique du texte et de l'image, Deboeck, 1995.

- Dällenbach (L), Le récit spéculaire Essai sur la mise en abîme, Seuil, 1977.

- Dubois (Jean et Claude), Introduction à la lexicologie, Larousse, 1971.

- Ducrot (O), a- Dire et ne pas dire principes de sémantique linguistique, Coll Savoir, Hermann, 1972.

b- Les échelles argumentatives, Minuit, 1980.

c- (en collaboration avec Anscombe), L'argumentation dans la langue, Pierre Mardaga, 1983.

d- Le dire et le dit, Minuit, 1984.

-Felman (Sh), Le scandale du corps parlant, Don Juan avec Austin ou la séduction en deux langues, Seuil, 1981.

-Fontanille (J), Sémiotique et littérature Essai de méthode, PUF, 1999.

- Genette (G), - «Discours du récit essai de méthode» in Figure III, Seuil, 1976.

- Geninasca (G), La parole littéraire, PUF, 1997.

- Gervais (B), Récits et actions Pour une théorie de la lecture, Le préambule, Longueuil, 1990.

- Goldenstein (J.P), Pour lire le roman, Deboeck Duclot, Bruxelle, 1989.

- Greimas (A.J),

a- Sémantique structurale, Larousse, 1966.

b- Du sens Essais sémiotiques, Seuil, 1970.

c- Maupassant: La sémiotique du texte exercices et pratiques, Seuil, 1976.

d- Sémiotique et sciences sociales, Seuil, 1976.

e- Du sens II Essais sémiotiques, Seuil, 1983.

- Greimas (A.J) et Courtés (J), Sémiotique Dictionnaire raisonné de la théorie du langage, Hachette, 1979.

- Greimas (A.J) et Fontanille(J), Sémiotique des passions. Des états de choses aux états d'âme, Seuil, 1991.

- Groupe d'entrevenes, Analyse sémiotique des textes, PUL, Lyon, 1979.

- Hamon (Ph)

a- Introduction à l'analyse du descriptif, Hachette, 1981.

b- Le personnage du roman, Le système des personnages dans les Rougon-Macquart d'Emile Zola, Libraire Droz S.Acaneve, 1983.

- Hénault (A), Pouvoir comme passion, PUF, 1994.

- Heuvel (P.V.P), Parole Mot Silence Pour une poétique de l'énonciation, José Corti, 1985.

- Kerbrat-Orechioni (C), L'énonciation de la subjectivité dans le langage, Armand Colin, 1980.
- Krysinski (W), Carrefours de signes Essai sur le roman moderne, Mouton, 1981.
- Lane Mecier (G), La parole romanesque, Klincksieck, 1989.
- Maingueneau (D),.
    a- Pragmatique pour le discours littéraire, Bordas/Dunod, 1990.
    b- Analyse du discours Introduction aux lecture de l'archive, Hachette, 1991.
- Moeschler (J), Argumentation et conversation éléments pour une analyse pragmatique du discours, Hatier, 1985.
- Parret(H), les passions essai sur la mise en discours de la subjectivité, Mardaga, 1986.
- Picœur (Paul), lectures II, la contrée des philosophies, seuil, 1992.
- Rastier (F), Sémantique interprétative, PUF, 1987.
- Récanati (F), Les énoncés performatifs contribution à la pragmatique, Minuit, 1981.
- Searle (J.R), Sens et expression études de la théorie des actes du langage, trad et préface par Joëlle Proust, Minuit, 1982.
- Ubersfeld (A), Lire le théâtre, éditions sociales, 1981.
- Zima (P),
    a- L'ambivalence romanesque Proust, Kafka, Musil, Le sycomore, 1980.
    b- Manuel de sociocritique, Picard, 1985.

و ـ المقالات والدراسات باللغة الأجنبية

- Alexandrescu (S), «Sur les modalités croire et devoir», *Langage*, 1976.
- Barthe (R), «La réthorique de l'image» in *Communication* n°4, 1964.
- Calame (C), Enonciation : Véracité ou convention littéraire, *Actes sémiotiques*, Documents, Volumes 5, 1982.
- Coutrés (J), «L'enonciation comme acte sémiotique» *Nouveaux actes sémiotiques*, n° 59, PULIM, 1998.
- Flores (R) et Brandt (P.A), Niveaux et stratégie de la veridiction, *Actes sémiotiques* n° 39/40/1995.
- Hamon (ph), «pour un statut sémiotique du personnage» in *Poétique du récit*, seuil, 1977.
- Geninasca (G), «Et maintenant ? » *in Lire Greimas* sous la direction de d'Eric Landowski, PULIM, 1997.
- Greimas (A.J) «Les acquis et les projets» in Courtés (J), *Introduction à la sémiotique narrative et discursive*, Hachette, 1976.
- Greimas (A.J), «Observations épistémologiques» in *Pragmatique et sémiotique,* Actes sémiotiques n° 50, V5, 1983.
- Keanc (T), Figurativité et perception, *Nouveaux actes sémiotiques* n°17, 1991.
- Landouvski (F) de quelques conditions sémiotiques de l'interaction, *Actes sémiotiques*, n° 50, V5, 1983.

- Lievt (P) «Limitations cognitives et communication collective» in *Introduction aux sciences cognitives,* sous la direction de Daniel Andler, coll, Folio/essais, Gallimard, 1992.
- Marie (G), «Des figures aux structures un passage frayé», *Poétique,* n°51, 1982
- Parret (H) Sémiotique des passions, Actes sémiotiques, *Bulletin* II n° 9, 1979/1980.
- Peler Hege Brandt et Roberto Flores «Niveaux et stratégies de la vérdiction», *Actes sémiotiques,* n° 39/40, 1999.
- Rastier (F), «Le problème du figuratif et l impression référentielle», Actes *sémiotiques,* VI ,1983.
- Ziberbeg (c) Modalités et pensées modales, *Nouveaux actes sémiotiques,* n° 3, 1989.

فهرس

الفصل السادس :


مطبعة النجاح الجديدة
الدار البيضاء

سعى د. محمد الداهي، بجرأة علمية وعُدة مفاهيمية منسجمة، إلى مساءلة المنهاجية السيميائية، اعتمادا على مقاربات منهجية، تسعف على تطوير البحث السيميائي، وتحسين أدائه، وتدارك ثغراته. وحاول أن يرسي دعامات مشروع سيميائي يتعلق بالكلام، بوصفه عاملا يساعد على تحريك البرامج الحكائية، وتطويع الذات وتضليلها، وتغيير معتقداتها، وتمييز الفواعل والكشف عن مقاصدها وأغراضها. وقد حرص، في تشييد صرح هذا المشروع، على مراعاة خصوصية اللغة العربية، وإيحاءاتها الثقافية والاجتماعية.

يتقاطع هذا المشروع (سيميائية الكلام الروائي) مع سيميائية العمل وسيميائية الأهواء، ويتكامل معهما في إطار البعد السيميائي للوجود المتجانس؛ وذلك رغم مراهنة كل سيميائية على حدة، على إثبات استقلاليتها، ومشروعية بحثها، وفرادة ترسانتها المفاهيمية، داخل النظرية السيميائية العامة.

الدكتور المصطفى شادلي
أستاذ السيميائيات
جامعة محمد الخامس ـ أكدال.



شركة النشر و التوزيع المدارس
الدار البيضاء

ثمن البيع للعموم
46,00 درهم